مصطفى بهجت بدوى

كلمات سبتمبر؟

على هامش عهود فاروق وعبد الناصر والسادات

الأهرام
مركز الأهرام للترجمة والنشر

مصطفى بهجت بدوى

حكايات سبتمبرية

على هامش عهود

فاروق وعبدالناصر والسادات

الطبعة الأولى
١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م

الناشر : مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام - شارع الجلاء القاهرة
تليفون : ٧٤٨٢٤٨ ـ تلكس ٩٢٠٠٢ يوان

المحتويات

صفحة

■ تقديم ٥

■ الفصل الأول : أيام الكلية الحربية ١١

■ الفصل الثانى : من كوبرى القبة إلى طريق المطار ٦٥

■ الفصل الثالث : كيف عثرت على حجر رشيد ٧٥

■ الفصل الرابع : نظرة عامة بين أبناء الدفعة ٨٩

■ الفصل الخامس : ممن يشدون الانتباه والذكريات ١٠٥

■ الفصل السادس : طريق ماقبل ومابعد الثورة ٢٤٣

تقـــــديم

عندما خطرت لى الفكرة ذات صباح من فبراير سنة ١٩٨٧ راقت لى وأرّقتنى وشغلتنى إلى درجة أن السؤال تحول عندى من « لمـاذا أكتب هذه الخواطر والذكريات ؟ » إلى « كيف لم أكتبها من سنوات مضت ؟ » .. ولو أن « تمديدها » - أو تأخرها - أتاح لها سنوات أطول فإحاطة أوفر وأشمل .

على أن من حق القارىء أن أجيب على السؤال الأول الأهم .

إنما تدفعنى إلى هذا الكتاب عدة عوامل :

أولا ـ أن فى ضميرى دائما كلمة نيّرة أسرّ لى بها فى منتصف الخمسينيات أخى المرحوم الدكتور حلمى بهجت بدوى قائلا : إن الكتاب الذى هو من حق أى إنسان أن يصدره هو عن تجربته الذاتية ، وخاصة إذا كان له فى الكتابة باع أو ناقة أو جمل ! وربما فى السير الذاتية مذاق خاص لعله منشود لدى جماهير من القراء سواء أكانت سير مشاهير أم نصف مشاهير أم حتى مغمورين !

ولقد أكون استجبت لهذا الهاتف مرتين . أولاهما فى الجزء الثانى من كتابى « وجاء العيد بعد العاشر من رمضان » الصادر فى أغسطس ١٩٧٤ وكان يحمل عنوان « تجربة ساخنة فى الصحافة المصرية » . وثانيتهما فى كتابى « من مذكرات رئيس تحرير » الصادر فى مارس ١٩٧٦ ، ولكن كلا منهما كان يتناول بعض أطراف من الحقبة الصحفية .. وهى الأطول من حياتى وتجربتى ومعاناتى وما واكبها . فى حين أن ما سبقها لم أعرض له .

ثانيا ـ عملت بالمحاماة . اشتغلت بالسياسة والمسائل العامة . مارست الصحافة هاويا ومحترفا ، إداريا ومحررا ، رئيس مجلس إدارة مؤسسة صحفية ورئيس تحرير

جريدة يومية ، وكاتبا متفرغا . قرضت الشعر على السجية ثم التهمت معظم دواوين شعراء العرب . ومن هنا « تجاسرت » أو انبعثت نفسى للسير فى الدرب . وهكذا أصدرت سبعة من دواوين الشعر حتى الآن .. والله أعلم ماذا بقى لى من عمر ومن شعر .

ورغم ذلك كله ففى « معاركى الصحفية » ما برح عدد ممن يعادوننى « يعيروننى » قائلين : هذا الضابط !

ولست أخجل على الاطلاق من هذا الوصف أو تلك الحقبة ، بل أعتز بها كل الاعتزاز . فهى فضلا عن كونها من أشرف المهن ، فإنها بنية أساسية أو أساس بناء مع مطلع الصبا جديرة بالتناول .

ثالثا ـ أن تلك المرحلة الناشئة الهامة حافلة – فيما أظن وأرجو – بالتجارب والمواقف والطرائف والحكايات والتأملات والعظات ، فما الضر فى أن تسلط عليها الأضواء ويمزج فيها بين الماضى والحاضر ؟!

رابعا ـ أن المساحة الزمنية من سنة ١٩٤٠ حتى سنة ١٩٥٤ والتى أطوف بها أساسا – ومن منظورى – فى هذا الكتاب – وإن كنت لا أتعمقها تماما أو أحللها بطريق مباشر وإنما أمضى على هامشها – هى ذات أحداث جسام أحسبها من أهم « تضاريس » القرن العشرين على مستوى العالم والشرق العربى ومصر . ثم إن هناك أجيالا لم تعاصر تلك الأحداث ، وقد تفيد الاشارة إليها من لدن من شهد وهجها وتابعها حيث كان موقعه المتواضع آنذاك .

والقياس مع الفارق ، رحم الله امرءا عرف قدر نفسه . فهل لى أن أقول انها – ومن زاوية ما – أشبه « بيوميات نائب فى الأرياف » لكاتبنا الكبير توفيق الحكيم ؟

خامسا ـ المرء ينتمى لنفسه ، لدينه ، لأسرته ، لمدرسته ، لوطنه وأمته ، لحزبه ، لمهنته ، للإنسانية جمعاء . ولكن من قال إنه لا ينتمى أيضا « لدفعته » ؟ بل إن الرابطة العاطفية والمعنوية و « التسجيلية » لدفعة الإنسان – مدنيا أو عسكريا – قد تعد من أقوى الروابط . وربما تفرقنا الأيام وتذهب بنا مذاهب شتى . ولكن فى كل واحد منا جزء من الآخر ووشيجة .. أردنا أم لم نرد ، التقينا

بالأعناق كما نفعل كثيرا أم باعدتنا المشاغل . فلا مفر من هذه الصلة الكامنة فى أعماق النفس والذكريات . وحتى لو كنا لم نتعارف تماما .. يكفى أن القدر جمعنا دخولا وإقامة وتخرجا وعملا ، وانتسبنا – بلغة العرب – إلى قبيلة سبتمبر ١٩٤٢ !

فهل من العجيب أو من غير المألوف أن يحاول أحد « تخليد » اسم « عشيرته » وخاصة أنها سارت فى موكب تاريخ مصر ؟ ولست أزعم أنها الدفعة الفريدة أو المجيدة .. وإن تكن لها بطبيعة الحال فرائدها وأمجادها ، ولكننى أخصها لكونها دفعتى وحياتى ، ولأن لدىّ حصيلة وذخيرة وكلمات حولها يمكن أن تُسجَّل .

وعنوان الكتاب – « **حكايات سبتمبر ٤٢** » – فرض نفسه . فلا أنا أجهدت فكرى فى البحث عنه ، ولا فضلته بين جملة اقتراحات ، وإنما هو واقع الحال لتمييز ما أتحدث عنه ، وليمثل ما قبله وما بعده .

إذن فكتابى « **حكايات سبتمبر ٤٢** » أقرب إلى السير الذاتية من خلال تداعيات واسترسالات أفكارى وخواطرى وذكرياتى عن الكلية الحربية والجيش المصرى ، ومن خلال انطباعاتى ومتابعاتى لأنباء وأبناء دفعة سبتمبر ١٩٤٢ . وكأنما ذابت ذاتى فى ذاتهم وانعكست ذاتهم على ذاتى . كأنما الواحد للكل والكل للواحد ، أو كأنما فى كثير من الحكايات كان هؤلاء الزملاء الأعزاء سبيلى إلى أبداء آرائى وملاحظاتى وتعليقاتى وإلى اجترار ذكرياتى .

وقد تداخلت السنوات فى كتابى بغير تعاقب زمنى عاما بعد آخر . ولم تقف عند نهاية خدمتى بالقوات المسلحة فى ختام سنة ١٩٥٤ . وإنما تعدتها – حسب مقتضيات الحال وتواثب الاستشهادات الحاضرة والمخزونة بين العقود الزمنية التى عاصرتها – إلى السبعينيات والثمانينيات . وتجدنى خلال حكايات تفجرت فى الأربعينيات أقفز فجأة إلى الثمانينيات ثم أعود إلى الستينيات فالخمسينيات وهكذا دون ترتيب إلا ما تمليه السوانح والاكتمال العفوى للصور المختلفة على النحو الذى سوف يكتشفه القارىء الكريم على طول وعرض صفحات هذا الكتاب .

ولقد شعرت خلال فترة حديثى عن **زملاء سبتمبر ٤٢** – وهى التى استطال بها الكتاب مادة واستقصاء وزمنا – أننى أقوم بسياحة فريدة ، وأنفاسى مبهورة .

كم تجولت وشاهدت . كم استمعت واستمتعت . كم تصايحت وهمست . كم عبثت « وقفشت » . كم تفكهت وتنبهت . كم تأملت وتألمت . كم فوجئت ودهشت . كم رحت « أطبطب » على الأكتاف مواساة وكم صفقت إعجابا . كم صعدت من درجات سُلّم التاريخ وهبطت ثم صعدت وهكذا .. وبصحبتى عشرات وعشرات من الزملاء . مشيناها خطى كتبت علينا . وكم بكيت شهداء لنا أو مفارقين فى رحلة الحياة . وكم سعدت بما أحرزه العديدون من نجاحات فى حياتهم العسكرية والمدنية من قادة عظام ومن رئيس وزراء ووزراء وسفراء ومحافظين ورؤساء مؤسسات وشركات وبنوك وأعضاء بالمجالس النيابية ورجال أعمال .. وجنود مجهولين ، وجميعهم من أبناء سبتمبر ٤٢ عبر نيف وأربعين سنة . ومن حصيلة ذلك كله فكم رويت وحكيت .

وإذا كانت حروبنا فى فلسطين ٤٨ و ٥٦ و ٦٧ و ١٩٧٣ وفى اليمن أيضا قد أثرت على شعبنا المصرى والعربى تأثيرا بالغا ، فإنها من باب أولى قد فعلت فيما يخص ضباط وجنود القوات المسلحة المصرية . **ودفعة سبتمبر ٤٢** – بمفهوم المناسبة – تأثرت تأثيرا مباشرا . وإن كنت أعترف أن هزيمة ٥ يونيو ٦٧ هى الشجن العام وشجنى على وجه الخصوص الذى ما فتىء يعاودنى ويمسك بتلابيبى ويلح علىّ وألح عليه وأصرخ به كل آونة وأخرى فى صفحات هذا الكتاب وغيره كلما ذكرت ثورة ٢٣ يوليو ٥٢ .

ودون عمد منى فقد كان على سن قلمى هذه اللمسات التى قد لا تغيب عن كاتب شاعر يعمل بالصحافة . فقد كنت حينا أصوغ الأخبار المثيرة ، وحينا أكتب على طريقة اليوميات ، وحينا أنحو منحى القصة ، وحينا أفيض بالشعر ، وحينا أعمد إلى التحليل . ودائما أتوخى وضع « العناوين الفرعية » أو « فواتح الشهية » التى قد تسترعى الانتباه وتطوع القراءة والمتابعة !

وما فاتنى أننى أكتب على هامش التاريخ ولا أؤرخ . ومثل هذه الكتابات ليست محتاجة إلى دعمها بالوثائق والمستندات . وإن كان خلوها منها – بالضرورة – لا يعنى كونها مدحوضة أو وهمية أو « مفبركة » ، فقد كتبتها بصدق نفس وتوخيت فيها صدق القول .

ولقد أعلم أنها ليست وافية طبعا ، فما يمكن أن تأتى هكذا ولا هى استهدفت أن تكون شبه مستوفاة . ويقولون عن « الفن » أنه « اختيار » . وربما من هذه الزاوية الفنية فإن حكاياتى تلوح مفعمة بالسوانح والاختيارات .

وبعد ، بعد سنتين ونصف السنة من بداية فكرة الكتاب إلى تمام تنفيذها ..

فليست هذه « مذكرة تفسيرية » لنصوص كتابى ، فهو يفسر نفسه بنفسه . وإنما هى أقرب « للمدخل » إليه .

والصورة التى تشكلت على صفحات هذا الكتاب سواء حققت أم جاوزت أحلامى أم لم تبلغها كلها .. هى على أى حال أشعرتنى بما يشبه ارتياح الرضاء النفسى . أتراها تحظى بمرضاة الله جل فى علاه ، ثم برضاء القارىء الكريم ؟ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

مصطفى بهجت بدوى

الفصل الأول

أيام الكلية الحربية

□ تلك الليلة من ليالى شهر أغسطس ١٩٤٠ كانت ليلة ليلاء مشهودة . كانت تجربة جديدة علينا . هى ليست عناوين صحف عن أحداث خارجية جارية نتابعها على البعد . ولا هى فيلم سينمائى من انتاج هوليوود يشدنا إليه بمشاعر اللحظة وشغف أو قلق الرؤى المصورة المعروضة علينا . ولا هى حتى لقطات من « جريدة الحرب المصورة » التى تسبق عرض الفيلم الرئيسى بما يشبه يوميات الحرب العالمية الثانية التى كانت فى شهرها الثانى عشر بين المحور والحلفاء ، بين هتلر وتشرشل . إنما الذى حدث وقع فى عقر دارنا .. فى مسقط رأسى .. فى الاسكندرية . جاءت الطائرات الايطالية المغيرة من « الغرب » حيث كانت ايطاليا موسولينى - أضعف ما فى المحور - تحتل منذ سنوات شقيقتنا ليبيا .. أو « لوبيا » كما كانت تطلق عليها الصحف المصرية آنذاك ! أراد موسولينى أن يستعرض ويثبت وجوده أو « يهوش » بأن الغزو على الأبواب ، فبعث ببضع طائرات فى غارة عشواء عرجاء على مدينة الاسكندرية . أفرغت قنابلها كيفما اتفق ولاذت بالفرار . قليل من القتلى وقليل من الجرحى وقليل من الهدم فى الثغر السكندرى وقليل جدا من العقل فى الرأس الايطالى ! ولكن ذاك كان أول لقاء حقيقى لنا « بويلات الحرب » .

وذهبت من زيزينا حيث منزلى برمل الاسكندرية إلى بولكلى برمل الاسكندرية حيث وقعت الغارة بالأمس أعاين « آثار العدوان » التى بدت فى شارع « ألن » بالتحديد . والغريب أن اسم هذا الشارع وأمثاله كان موضوع أول مقال أو كلمة نشرت باسمى فى الصحف . فقد كتبت قبل عامين – أى سنة ١٩٣٨ – إلى جريدة « الثغر » الأسبوعية التى تصدرها جمعية مصر الفتاة أطالب بتغيير وتمصير الأسماء الأجنبية التى تحملها بكثافة شديدة واستفزاز أشد شوارع الاسكندرية بالذات .

إننى أذكر تلك الليلة كأنها فاجأتنا بالأمس فقط . أذكرها بصفارات الانذار وصدى الفرقعات المدوية وصفارات الأمان وخرائب البيتين المتهدمين من الغارة فى الشارع المذكور كأنهما « البيتان المكسوران » فى أول قصيدة كتبتها قبل قليل من الأشهر ! فبعد ساعات من تلك الليلة – وبالمصادفة – كنت فى الطريق من الاسكندرية إلى القاهرة . لم أكن أنشد « الهجرة » أو الاحتماء من الغارات ، وإنما كنت أشرع فى تقديم أوراقى للالتحاق بالكلية الحربية الملكية ! هكذا كانت البداية مع الغارات والأنوار الكاشفة والمدافع المضادة للطائرات ..

والقطار يقف بنا فى مدينة دمنهور كانت أحاديث الركاب أن الاسكندرية عانت أول أمس من غارة هائلة ! وفى محطة طنطا أشيع أن نصف أهل الاسكندرية لقوا حتفهم ! وعندما وصلنا إلى محطة القاهرة جنحت المبالغات والمزايدات بالناس إلى القول بأن الاسكندرية أصبحت « كومة تراب » !

لعل مئات غيرى من شتى أنحاء القطر المصرى كانوا يحذون حذوى أو كنت أحذو حذوهم . نستكمل أوراقنا لنقدمها إلى الكلية الحربية التى أعلنت عن قبول دفعة جديدة من حملة شهادة التوجيهية (البكالوريا سابقا ، والثانوية العامة لاحقا) . جاءوا من المدن والقرى . من الوجه البحرى والوجه القبلى . من مختلف الأوساط . المهم للقبول .. الشهادة والسن والطول والكشف الطبى ، ثم آخر وأهم الأشياء : كشف الهيئة .. أى الشفاعة والوساطة . وكأنما هم خطابات لا تصل إلى أهدافها إلا إذا كان « موصى عليها » ! « **جمال عبد الناصر** » مثلا لم يكن ليقبل فى الكلية الحربية إلا لكونه توصل – أو توسل – إلى **عبد المجيد إبراهيم صالح باشا أحد أقطاب حزب الأحرار الدستوريين** . أحد أعيان أسيوط ، فصحبه إلى الكلية الحربية وأعطاه

صوته فكان هو جواز المرور . ولو كان الباشا يعلم – والله أعلم – بأن هذا الفتى سيقود ثورة ضد الاقطاع بعد نحو ١٦ سنة لما زكاه ، ولربما ألقى به من عربته فى عرض الشارع !

وتحدد يوم الجمعة ٦ سبتمبر ١٩٤٠ لدخول المقبولين من دفعتنا إلى الكلية الحربية الملكية بالقسم الاعدادى . وكانت دفعة القسم النهائى الضخمة (حصيلة دفعتى الثقافة ليوليو ١٩٣٨ والتوجيهية ليوليو ١٩٣٩) قد تخرج منها قبل دخولنا مباشرة ٧٠ ضابطا واستبقوا الآخرين ليخرجوا مائة بعد شهر ثم ليحتفظوا بالباقين فترة أخرى لحين النظر فى أمرهم وتدبير الميزانية ! ولكنهم جميعا منحوا اجازات لمدة أسبوعين ، فخلت الكلية فى الأيام الأولى لدخولنا إلا من طلبة القسم المتوسط المنقولين من الاعدادى بعد سنة كاملة من إلتحاقهم بالكلية فى سبتمبر ١٩٣٩ . فى حين أن الكلية الحربية درجت فى أعوام سابقة ألا تحجز طلبتها بين جدرانها أكثر من ١٢ شهرا ثم ترقيهم ضباطا لحاجة الجيش وظروف الحرب . بيد أن الحظ يلعب دوره فى الاختصار والانتظار مثلما تفعل أحيانا ظواهر المد والجزر ! والخلاصة أننا وجدنا أنفسنا فجأة بين يدى « **محدثى نعمة** » أنفردوا بنا « وفين يوجعك ! » حيث تولوا أمرنا لبضعة أيام كأسوأ وأغشم وأحمق ما تكون الولاية ! وليس بخاف أن السن سن طيش ومشاغبة ومراهقة وأن « المناخ » يتحكم وينقل العدوى !

ومن المسلم به أن الصور بعد هذا العمر الطويل تراكمت وتداخلت ، ثبتت وبهتت . وإذا كان الغبار قد اعترى الكثير منها فإن الكثير أيضا كأنما خرج لتوه من التحميض والطبع ! وليس بالضرورة أن يكون ما بقى سليما هو الأقوى أو الأهم ، ولا ما تلف هو الأضعف . فكم سيفوتنى العديد من هذا وذاك . ورغم ولعى برواية تفصيلات هنا وهناك أعتذر للقارىء عن الاطالة فيها ـ وأود أن يجد فيها بعض « المتعة » كما وجدت – فليس هذا الكتاب بطبيعة الحال يوميات طالب بالكلية الحربية أو ضابط بالقوات المسلحة (وكلها مجتمعة لا تتجاوز ١٤ سنة وثلاثة أشهر) وإنما هو – فيما أرجو وأنتوى – نسيج مرحلة خاصة وعامة متفرعة وممتدة .

ومن الصعب أن يُنسى أول أيام الكلية الحربية . الأولوية دائما مذكورة . فى الأفراح والأحزان وفى التجارب عامة . أول حب ، يوم الزفاف . ميلاد المولود

الأول . أول سيجارة . أول عمل سياسى . يوم وفاة الأم أو الأب .. الخ .. الخ .

ثم أن « الصدف » – أو القدر – تلعب دورها فى تشكيل الأحداث وربما خريطة حياة المرء كذلك . مثلا – ونحن بصدد الحديث عن اليوم الأول فى الكلية الحربية – من هم من دفعتك الذين تجمعهم سرية واحدة وفصيلة واحدة وجماعة واحدة وعنبر واحد . ومع توافر المزاج المشترك أو تخلفه ، ينشأ تآلف أو على النقيض ينشب تنافر . ولكن محصلة التآلف والتنافر قد تتناغم معها الأوتار فيكمل « الهارمونى » فتقوم صداقة مؤقتة أو دائمة ، سطحية أو عميقة . والذى لا تصادقه فى سريتك قد تنتقيه من سرية أخرى . والذى لا تلتقى به طالبا قد تتعرف إليه وتصادقه ضابطا . وربما الأبعد أثرا فى ظروف الكلية الحربية من هم الصف ضباط المباشرون فى جماعتك وفصيلتك وسريتك من الطلبة القدامى .. أهم من الطيبين أم « المؤذيين » ، من واسعى الأفق أم المتزمتين .. وذلك بصرف النظر عن التزام الطالب الأحدث نفسه أم شقاوته !

افتتاحية بكائية بالكلية الحربية !

أول ما قرعنا – وأربكنا أيضا – فى اليوم الأول هو إرتداء الملابس « الكاكى » .. وعلى وجه الخصوص « الألشين » ! صحيح أننا كنا مهيأين لذلك ، ولم يكن متصورا أن نحتفظ بملابسنا المدنية نروح بها ونجيء ، وإلا لكنت « يا أبا زيد ما غزيت ! » ، وإلا لكانت فوضى وانتفت حكمة التهيىء والتحول . وحتى فى المدارس الابتدائية والثانوية الخاصة لهم رداء خاص (يونيفورم) وفى الفرق الرياضية .. الخ . كما أن للأزهر الشريف وطلبته رداء الجبة والقفطان والعمة . ولكن أن ترتدى القميص الكاكى مهندما حسب الأصول ، والبنطلون الكاكى القصير لما تحت الركبة ، والقايش (الحزام الكاكى « البُل » .. هكذا يسمى) والشراب الصوف الكاكى الخشن والحذاء الأسود الغليظ ذا الرقبة ، وأخيرا أن تلف « الألشين » لأول مرة أو لعاشر مرة بحيث لا يتهدل وبطريقة وجدناها أشبه بما يفعله الحواة فندبره ونصعد به تماما كما ورد فى كتب التعليم العسكرية « والتمثيل مع التفسير » .. أشياء كانت أشبه باقتحام وادى الجن ! وما علينا من أنه كان لزاما علينا تسليم رؤوسنا للحلاقين بادىء ذى بدء لاجراء عمليات جز شعرنا لا بضعة سنتيمترات وإنما ليبقى

منه ملليمترات أى حلاقة الشعر نمرة ٣ ! وأكاد أقطع بأن منظرنا أمام أنفسنا فى المرايا بعد اجراء اللازم فيما تقدم أوشك أن يجعلنا لا نتعرف على أنفسنا فضلا عن أنه كان مثيرا للضحك والرثاء معا ! كلنا - أو بالأحرى المحيطون بنا فى « العنبر » - كنا ذلك الطالب المرتبك الموصوف آنفا . كلنا فيما عدا زميلنا « **عبد الرحمن فهمى** » الذى ولد فى ظل « العسكرية الناشفة » ونشأ وعاش هكذا وسجل أعمالا عسكرية بطولية ومات عظيما مبرورا . فهو ضابط ابن ضابط وذو نسب فى العسكرية عريق ! وكان من أحسن الناس أخلاقا وشهامة .. وكم حفلت دفعة سبتمبر ٤٢ بهذه الخصال . ثم أنه كان لطيف المعشر على ظاهر تجهمه . كان عبد الرحمن فهمى - على اختلاف النشأة بيننا - من أقرب الناس إلى قلبى ومن الصفوة المختارة . وهو هو الذى علّمنى - وعلم العنبر كله .. وأخيرا بعد لاى - طريقة لف « الألشين » المعذّب . وهو دائما بعد نوبة « صحيان » - بدقائق معدودة - الأسبق المكتمل « القيافة » التامة وعلى « سنجة عشرة » .

شىء لا أبرح أذكره من الليلة الأولى لنا بالكلية الحربية .. وآناء الشهور وأطراف السنين ! وقع هذا الشىء مساء اليوم الأول لنا الذى كل ما فيه جديد وغريب ومربك ومرهق ، وشمال يمين ، وهرج ومرج ، وشخط ونطر ، وتعليم وتعليمات وعدم فهم للتعليم والتعليمات ! لم يكن يتخلل اليوم الأول المذكور من « الترفيه الموسيقى » سوى زعقات أو نوبات البروجى (والبروجى كلمة تركية ككثير من تراث المصطلحات العسكرية آنذاك ابتداء من الرتب العسكرية أمباشى يوزباشى بكباشى .. الخ ومرورا بأسماء الأشياء والأدوات والكتائب فيقال عن الكتيبة الأولى برنجى ، والثانية كنجى ، والثالثة تشنجى ، والرابعة أربعجى .. الخ) . فبعد هذا اليوم الأول الحافل الذى يتعذر كثيرا جدا على المرء فيه أن يختلس دقائق معدودة يلتقط أنفاسه أو يخلو فيها إلى نفسه أو يؤدى صلاة واجبة .. بعد هذا اليوم الكبيس قيل لنا فى المساء أن ثمة نوبة تسمى « **نوبة رجوع** » فى الساعة التاسعة والربع مساء لا يجب عند انتهاء « عزفها » أن يكون أى من الطلبة فى الحمام أو الردهات أو أى مكان آخر سوى العنبر الذى تحدد له سريره وفراشه إلى جوار دولاب ملابسه العتيد ، وذلك استعدادا للنوم والارتماء فى الفراش - « كالفسيخة » - عند « نوبة نوم » فى تمام الساعة التاسعة والنصف مساء - أى بعد ربع ساعة - حيث تطفىء

الأنوار ! وبالكاد استطعت واستطاع غيرى أن يعودوا إلى العنبر مع آخر نغمة من مقطوعة « الرجوع » . وإنها – للحق ولأتاحة الفرصة – « أطول » ما أبدعه فن الموسيقى العسكرية وأعذبها وأكثرها حزنا كذلك ، أو ليست « تُستعار » فى مراسم دفن العسكريين أو زيارة قبورهم .. « يأيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك .. » ؟! ولعل نوبة رجوع مألوفة بعض الشيء لدى « القارىء المدنى » ، فكثيرا ما يشهدها ويسمعها فى التليفزيون لدى الزيارة المصورة لمقابر الشهداء أو الرؤساء كعبد الناصر والسادات فى المناسبات .

لم يتخلف عن نوبة رجوع فى تلك الليلة إلا نفر قليل أشبعهم الطلبة القدامى لوما وتقريعا . وكنت فى شغل شاغل عمن حضر وعمن غاب . فقد كان علىّ أن أؤدى ما فاتنى من صلوات اليوم . هذا يوم عصيب عجيب ، حاسم قاصم . أخال كل طالب جديد منا فيه كأن قد انشق نصفين . أو وقف تفكيره وشل . لم يعد يذكر أهله ، ولا رفاق صباه ومراحه ، ولا اليوم الأول الذى ألتحق فيه بمدارسه الابتدائية والثانوية ، ولا أيامها كلها ، ولا تلك المدارس نفسها ! كأنه يوم الحشر . لولا أننا حشرنا بارادتنا ، ولولا أن « النفخ فى الصور » هنا بَشَرى زائل ومحلى محدود ، وأن خارج عالمنا أناسا لم يسمعوا صورا ولا نفيرا وهم ما برحوا فى خوضهم يلعبون ! ولكنه – على أى حال وحتى ذلك اليوم – كان عندنا أطول يوم فى التاريخ !

كانت مشكلتى ليلتئذ هى أداء الصلوات المتأخرة باستثناء ركعتى الصبح التى خطفناها خطفا قبل ولوج باب الكلية ذلك الصباح الفاصل فى ٦ من سبتمبر ١٩٤٠ . لم نستطع وضوءا ولا تكبيرا ولا ركوعا ولا سجودا حتى حانت لحظة الرجوع . ولا مندوحة أن أجمع « جمع تأخير » الظهر والعصر والمغرب ثم أصلى العشاء . فهل تتسع مهلة الـ ١٥ دقيقة قبل موعد النوم المحدد لأصليها جميعا ، ولأصل ما لم ينقطع – بحمد وفضل وهدى الله – بعد أن أكرمنى سبحانه وشرح صدرى للاسلام بالفعل وللسنة المحمدية من منابعها الأصيلة والمستنيرة فى سبتمبر – ودائما سبتمبر – ١٩٣٨ ؟ صعب أن تتسع ربع الساعة لهذه الصلوات . وكان حتما أن تجيىء ساعة النوم ونوبة نوم (٩,٣٠ مساء) وأنا مازلت قائما أصلى فى المحراب .. محراب الكلية الحربية ، وياله من محراب غير معترف به فى تلك

الليلة ! وليت عدم الاعتراف كان مهذبا أو معقولا : ولكن لك أن تتصور أو تتذكر - والتمثيل مع الفارق طبعا - بعض الصحابة فى مكة مع بداية الإسلام إذ قاموا يصلون وقد أحاط بهم أهل الجاهلية يسخرون وربما يلقون عليهم القاذورات ! فقد تجمع حولى قدامى الطلبة (والقسم المتوسط الحاكم مؤقتا !) بزعم انهم مسئولو الضبط والربط وهم فى حقيقتهم « محدثو نعمة » تجمعوا أشبه ما يكونون « بالكلاب المسعورة » يصيحون فى وجهى : **بايظ ! ملكى !** (أى مدنى غير عسكرى .. وهل كنت غير ذلك ولم تمر علىّ بعدُ اثنتا عشرة ساعة فى هذا القشلاق ؟) **فوضوى ! درويش مجنون !** .. وكأننى جئت أمرا إدا . كادوا يلفحوننى بأبصارهم التى تطايرت شررا ، وأفواههم التى طفحت حمما ، وأيديهم التى امتدت إرهابا ووعيدا .. من حيث كنت لا أستجيب سوى بدموع تنساب حسرة عليهم وعلى نفسى ! وحين انتهيت من صلاتى ودلفت إلى الفراش مضيت أبكى وانشج مهموما مكروبا مذهولا حتى غلبنى النوم بأحلام كالكوابيس ..

هل أطلت فى تناول ذلك اليوم ، وإن لم أحط إلا بشذرات منه ؟ ألم أقل إنه كان إلى ذلك الحين يحسب عندنا كأطول يوم فى التاريخ ؟ هل أشير - ولو بمفهوم المخالفة - إلى قول شوقى أمير الشعراء :

قد يهون العمر إلا ساعة وتهون الأرض إلا موضعا

الكتابة على السجية !

وأعترف أننى حتى كتابة هذه السطور مازلت أتحسس طريقى فى رواية « حكايات سبتمبر ٤٢ » . ذلك أنها - كالحياة - متداخلة ومتناقضة . وفيها الحلو والمر . والطيب والخبيث . والطريف والعادى . والمقاومة والاستسلام . والبراكين والسهول الخضراء ومفاجآت صروف الدهر وترويض الأحداث وتطويعها . والظلمات والنور . والصداقات غير المستقرة والعداوات غير الدائمة . والحل والترحال . والخاص والعام . والفصول المحددة والفصول المسلسلة . واعترف أننى قد أكون خططت لهذا الكتاب كما يخطط لسيناريو حقيقى محكم ، ثم نحيت ذلك جانبا وقلت فلأكتب عفويا على سجيتى حتى ولو سبقت وقائع حديثة وقائع قديمة وحتى

لو امتد الحديث إلى أمورنا الحالية فى الثمانينات . ثم لعلى آثرت الجمع بين « المنهجين » .

كانت « الدفعات » للكلية الحربية فى أواخر الثلاثينيات وبالتحديد بعد توقيع معاهدة ١٩٣٦ ومع بوادر ونشوب الحرب العالمية الثانية فى سبتمبر ٣٩ تتميز بظاهرتين طارئتين وعلى غير المألوف . **أولاهما** غزارتها عددا **وثانيتهما** اختصار فترة الدراسة وضغطها من ثلاث سنوات إلى سنة واحدة أو سنة وبضعة شهور قليلة . وخاصة أن الكلية الحربية كانت تقبل فى ذلك الحين فى السنة الواحدة أكثر من دفعة واحدة على فترات متفاوتة ، وإن تراخت فى ذلك مع بداية سنة ١٩٤٠ فلم تقبل سوى قرابة ثلاثين طالبا قبلنا بشهرين أو ثلاثة . وإن كان معروفا أن هؤلاء بالذات على ذمة « البحرية » أى السلاح البحرى الذى فكروا فى إحيائه . وكان - وهو صاحب التاريخ والأمجاد من أيام محمد على باشا - قد انكمش واضمحل لسنوات طويلة قاتمة وكأنه عقاب مستمر منذ أن تجمع أعداؤنا لهزيمة طموحات محمد على التى تحطمت فى موقعة « نافارين » . ولكن حتى تلك الدفعة البحرية لم يجدوا بدا إلا أن يضموها إلينا لوفرة دفعتنا التى قاربت المائتين . انخرط هؤلاء إذن بيننا . وكنا نستطيع تمييزهم من أول نظرة لاختلاف نوعية ودرجة اللون الكاكى فى الملابس التى يرتدونها عن ملابسنا ، وفعلا باتوا منا وبتنا منهم . وباستثناء تسعة منهم بعثوا بهم فى السنة التالية إلى « المدرسة البحرية » بالاسكندرية للتخصص البحرى وليتخرجوا ضباطا بحريين ، فإن الباقين تخرجوا معنا بين صفوفنا فى الجيش .

زمـلاء البحـرية فى الدفعـة
السابقون السابقون فى الشهادة ..

ومن سخرية القدر وكالمآسى الاغريقية فإن هؤلاء التسعة قبيل تخرجهم بأسبوع واحد فى يونيو ١٩٤٢ وفى مناورتهم البحرية الأخيرة اصطدمت سفينتهم فى مدخل ميناء الاسكندرية بلغم بحرى ألمانى . ذهبت يبابا وشعاعا وهباء منثورا . لم تبق ولم تذر قبطانا وضباطا بحريين وطلبة على وشك التخرج ، وغرقت بشهدائها حطاما فى أعماق البحر . لم ينج سوى واحد فقط بمعجزة نادرة . ويبدو أنه فى تلك اللحظة المنكودة كان منفردا فوق سطح الجانب الأبعد من اصطدام السفينة باللغم فأطلقته قوة

الاصطدام كأنه صاروخ « بحر جو » . وبالجاذبية الأرضية أو البحرية هوى من حالق على صدره فوق صدر الماء . انتشلته مركب عابرة وظل ينزف ويعالج شهورا متصلة حتى كتبت له السلامة آخر الأمر . بقى « شاهدا » على أن من بين « دفعتنا » ضابطا بحريا . ذلكم هو **اللواء بحرى سعد الدين حافظ** الذى شغل منصب نائب مدير القوات البحرية أيام كان « يحتكر » قيادتها الفريق سليمان عزت .

كذلك – والاستطراد هنا مطلوب ، واستباق الأحداث مناسب – فإن من بين دفعتنا التى لم تخصص لها « حصة » مبكرة لسلاح الطيران من تقدم – بعد سنوات قليلة من تخرجه معنا وخدمته بسلاح المشاة – والتحق بكلية الطيران متساويا بالطلبة الجدد مضحيا بأقدميته فى الجيش . وأعنى به **الملازم على مصطفى بغدادى** . ومن الطريف أنه ترقى إلى رتبة لواء طيار قبل ترقى دفعتنا إلى رتبة اللواء . وذلك من جراء التوسع فى دعم القوات الجوية بالضباط الطيارين بعد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . وقد بلغ على بغدادى ما هو أهل له فأصبح فى أول السبعينيات قائدا للقوات الجوية بحكم كفاءته المشهودة واستقامته الحميدة وأعصابه الهادئة الفولاذية :

إذن فقد طوفنا بالفروع الثلاثة الرئيسية للقوات المسلحة : الجيش والطيران والبحرية .

ولا يفوتنى وقد عرضت لدفعة البحرية الشهيدة أن أشير إلى أننى ما غاب عنى رثاؤهم فى حينهم بقصيدة باكية أسيفة نشرتها بين صفحات ديوانى الأول « **وجدان حائر** » سنة ١٩٤٧ .

السابقون السابقون من أبناء دفعتنا البحرية الشهداء هم : مصطفى عقل غيث – أبو عبيدة السعدى – حسن أحمد حسن – مصطفى كمال برعى – فوزى على السيد – محمد عبد الحليم منصور – السيد محمد بدر – أحمد عوض زين الدين – ومعهم قادتهم من الضباط الشهداء البكباشى السيد حمزة – الصاغ مصطفى المدنى – اليوزباشى فؤاد حسنى .

كيف كانت مشاعر مصر
نحو الحرب والانجليز والألمان ؟

الجيل الحالى لم يشهد حربا عالمية والحمد لله . لم ير جنود الاحتلال يعيثون فسادا فوق أرضنا . يجرحون كرامتنا ويتحدون كبرياءنا الوطنى . تطالعهم أعيننا صباح مساء فى ثكنات قصر النيل . فى قشلاقات العباسية . فى ميدان محطة مصر . فى منطقة القناة . فى ثكنات مصطفى باشا بالاسكندرية . فى شوارعنا وطرقاتنا . فى هيلمان « المندوب السامى » والسفير البريطانى . فى تدخلهم عبر صميم الارادة الوطنية المصرية . فى سيطرتهم على العرش الملكى . لم يشتبك جيل الستينيات والسبعينيات والثمانينات مع الانجليز فى مظاهرات أو معارك . ولكن جيلنا عاش هذه الأحداث كاملة قبل الحرب العالمية الثانية ثم عند نشوبها ومع تزايدهم وحلفائهم بمئات الآلاف لخوض المعارك ضد الايطاليين والألمان فى صحرائنا الغربية .

ولكن كيف كانت مشاعر مصر بصفة عامة نحو الحرب والانجليز والألمان . هذا سؤال مطروح وينبغى أن أعرض له قبل استئناف الاسترسال فى خواطرى وحكاياتى عن الكلية الحربية سنة ١٩٤٠ وما بعدها .. أى فى « عز الحرب » . ماذا كان يقول الرأى العام المصرى أو ماذا كان يخبىء من أحاسيس ؟

نشبت الحرب العالمية الثانية بين ألمانيا النازية وبريطانيا العظمى والأخيرة تحتل أراضينا فلا غرو إذا بتنا – وسط المشاركين فى الحرب – بين المتفرجين . لكن مشاعرنا توزعت بين كراهة المحتلين الانجليز وتعكير صفوهم بمقاومة محدودة وتربص الدوائر بهم ، وبين تصور الخلاص على يد أعداء أعدائنا ، وبين كراهة الفاشية والنازية إيثارا للحرية والديموقراطية كما نأملها فى أعماقنا .

إن تلك المرحلة الدقيقة الحرجة فى حياة الشعب المصرى ربما تبدو غائمة مستعصية على التحليل . على أنه – والحديث عن غالبية المصريين من رجل الشارع إلى العامل والفلاح والموظف والتاجر إلى مختلف الطبقات – قد يكون من الخفة اعتبار ما بدا من « تعاطف » ظاهرى واكب انتصارات الألمان الأولى هو محض « شماتة » أو « اعجاب بالبطولات العسكرية » أو « تواصل مع الرايجة » ،

ولا مجرد ردود فعل كبت المحتل البريطانى لنا طويلا وصراعاتنا معه ، ولا مجرد سلبية شعار « لاناقة لنا ولا جمل فى الحرب الدائرة » ، ولا فرط « بلادة » أو على العكس فرط « ثقة » بأن حضارة مصر الفرعونية وسيادتها عائدة لا محالة بلا تعب أو مجهود وكأن الكواكب تدنو لنا فننظمها ، والغزاة يقتربون منا فنقبرهم ! لعل مشاعرنا كانت خليطا من ذلك كله وغيره .

« تشنجى دفعة » على المشرحة !

نعود إلى دفعتنا بالكلية الحربية وهى فى أولى درجاتها أى فى قسم الاعدادى ، فى حين أن بقايا دفعة ثقافة ١٩٣٨ وتوجيهية يوليو ١٩٣٩ هى فى أعلى درجات الكلية أى فى القسم النهائى ، فهم صف الضباط « الماسكون » الكلية حتى تخرجوا فى أبريل سنة ١٩٤١ .

كيف كنا وكيف كانوا ؟

الأيام تمر بدفعتنا . السن المتقاربة . « العِشرة » . الحياة داخل الأسوار ليل نهار . المتاعب المشتركة . روح الدعابة للتخفيف من جهامة الحياة العسكرية . المفاجآت المتتالية . الطرائف المتوالدة . الطوابير . الدروس . الطعام والشراب .. الخ ..الخ . كلها أمور من شأنها أن تتآلف فى ظلها هذه الأعواد الرطيبة « أعوادنا » . والأحكام على هذه الدفعة هنا دافعها الصدق والمودة والتنافس الشريف ، وإن كانت كلها أو معظمها أحكاما تتسم بطابع « القبلية والعشائرية » ! الدفعة إذن فى مجموعها ظاهرها الطيبة والخلق الحسن . طبعا .. وشأن كل الجماعات والشعوب هناك إستثناءات . ولكن الدفعة لم تخرج عن كونها قطاعا متقاربا من الشعب المصرى الذى عرف فى جملته بالطيبة والسماحة والمروءة وخفة الظل . فهل تعدم أن تجد من بينه – وبيننا – نماذج غير سوية ؟!

وإذا أخذنا مثلا الدفعة التى كانت تقود الكلية الحربية فى تلك الآونة وهى « **تشنجى دفعة** » فقد يحكم عليها البعض أنها كانت سيئة أو يسميها « **حثالة دفعتها** » .. وهذا غير صحيح . فمن ناحية هى كانت ممرورة وربما معذورة أن زملاءهم تخرجوا ضباطا فى حين أنهم مازالوا طلبة لا لسبب إلا شحوب ميزانية

الدولة . ومن ناحية أخرى هى حافلة على قلتها (حوالى نيف وستين صف ضابط وطالبا) بالنفوس الكبار .

كان من حظى أن « **كمال عابدين** » أمباشى جماعتى هو واحد من أرق من عرفت ومن أدمثهم أخلاقا ، وممن يقال عنهم إذا وضعتهم على الجرح يطيب . هادىء مهذب متسامح . وكان شاويش فصيلتى الطالب « **حسنى الصاوى** » وهو أيضا « جنتلمان » وواسع الأفق . هل أقول للتدليل على ذلك أنه كان يسمع حوارى الدائم الخافت أثناء الطوابير مع زميل العمر **محمد عبد الهادى حسونة** وتعليقاتنا الساخرة على كل شىء أمامنا أو فى بالنا ويتصامم عنها أو ربما « يتسلى » بها ويتابعها فيما يشبه الشغف ، حتى وإن وجه لنا من حين لآخر « لفت نظر » ؟! ثم باشجاويش سريتنا الثالثة « ٣ جى بولك » « **محمد عبد الله محمد** » هو الآخر كان أخا كريما نبيلا وعلى درجة عالية من الأدب وعفة اللسان . بل إن أقدم طلبة ٣ جى دفعة باشجاويش الكلية « **حسن حسنى حسن** » على ما يتعمده من شدة تثير الضحك أحيانا كانت فيه شهامة وطيبة « الصعايدة » الحسنى « الربابة » .

طبعا كان من بين ٣ جى دفعة متخصصون فى « الرزالة » و « اللسان الزفر » . وكانوا يتنقلون « بداخليتهم » – أى خطبهم النكراء – من سرية إلى أخرى . وكأنهم هم « الأعضاء المنتدبون » لعملية إظهار العين الحمراء أو « الوجه القبيح للدفعة » أمام سائر طلبة الكلية . ولا أخفى أننى لم أنس هجاء بعض من زعماء هؤلاء ، وكنت حديث عهد بقرض الشعر . وربما ساعد على هجائهم شعرا – فوق ما تقدم – أننى فى نهاية سنة ١٩٤٠ تلقيت رسالة من زميل بالاسكندرية ، وقد كتب على الظرف العبارة التالية « حضرة الأخ الشاعر مصطفى .. الطالب بالكلية الحربية » . وحين أخذ الوكيل أومباشى يوزع البريد ويقرأ الأسماء وقف عند صفة « الشاعر » وراح « يستظرف » : نعم ياسيدى ؟ شاعر ؟ شاعر بإيه ؟ شاعر بمغص ؟ .. الخ . ولكن هذه المسائل واردة ، وأمرها يهون .

فى مـــدة المستجـــدين ..

يطلق على الأسابيع الخمسة الأولى بعد الالتحاق بالكلية الحربية اسم « مدة المستجدين » . لا يبرح ولا يتعدى فيها الطالب المستجد أسوار الكلية إلا بألقاء

النظرات إن أمكن من حين لآخر على الرائحين والغادين فى شارع الخليفة المأمون الذى كانت تقع فيه الكلية الحربية آنذاك .. « ويبقى النظر فى النظر والقلب قايد نار » ! لا تصريح أجازة خميس وجمعة . عزلة تامة عن العالم الخارجى بإستثناء السماح بزيارة لمدة ساعة أو اثنتين صباح يوم الجمعة من أسرة الطالب داخل أسوار الكلية . ومعظم وقت الزيارة يكرس - عادة - للشكوى من سوء المعاملة لدرجة أبداء الرغبة فى الاستقالة من الكلية تقديرا من الطالب أنه قذف به من الجنة إلى النار حتى دون المرور على « الأعراف » ! وعادة أيضا تقابل شكاواه بعبارات العزاء والتسرية ، وأن « الغربال الجديد له شدة » وأنه سيعتاد على الحياة الخشنة بعد فترة تطول أو تقصر . وهى عبارات ودودة سديدة .

هذه « **الحَبْسة** » الحاجزة فوق أنها عُرف عالمى هى منطقية لصقل الطالب المستجد وإمراره فى « معمل الاختبار وإحداث الهزّة » أو الصدمة الكهربائية المطلوبة لتسهم فى تحويل تياره من « الموجة المدنية » إلى « الموجة العسكرية » بقدر المستطاع !

وكما يحدث فى « الزيارة » مع « المسجونين » حيث تتصدر المأكولات وشهى الطعام مراسم الزيارة لتؤكل دفعة واحدة خلال الزيارة ، فكذلك كان الأمر مع زيارة الطلبة المستجدين بالكلية الحربية صباح الجمعة . والحق أن الطعام فى الكلية الحربية أيامنا كان متقشفا ومحدودا وموجعا . لم يكن يتناسب لا مع سن النمو الـ Teenages ولا مع المجهود البدنى المبذول .. وكأنما رفعت الكلية شعار « **جوعوا تصحوا** » ولكن الجوع الذى كان بات قارصا ! ولم يكن هناك « كانتين » يستكمل به الطالب شبعه أو يملأ معه جوفه بعض الشىء . ولا كان يسمح « بالأكل الملكى » على الاطلاق .. فتلك مخالفة جسيمة بل جريمة ! (تطورت الكلية الحربية تطورا ضخما الآن شمل كل شىء .. المنهج ، التدريب ، المواد التى تدرس ، العدد الهائل ، الطعام والكانتين والكافيتيريا .. الخ . حتى بدت كأنها عالم آخر لا نكاد نتعرف عليه) .

كانت أول وجبة فى الصباح الباكر هى « شوربة العدس » مع قطعة جبن أو حلاوة . وأشهد أن شوربة العدس كانت متقنة وشهية ومشبعة كأنما هى « وقود » حركة اليوم كله . ثم وجبة الغداء بعد الطوابير والمحاضرات والعناء الجسدى

والذهنى ونحن نتضور جوعا تأتى مخيبة للآمال . خضار أشبه باللغز ولا يرقى حتى لنوعية خضار غداء المدارس الثانوية (وكنا نتناول طعام الغداء فى عنابر المدارس الثانوية على أيامنا . ولم يعد هذا ممكنا فى مدارسنا الآن ومنذ أمد .. مع وفرة العدد وضيق الأماكن ومجانية التعليم وضيق ذات يد الحكومة !) ثم قطعة لحم أرق من دين اليهودى كما يقولون فى الأمثال ! ثم أرز لا يكفى « السرفيس » المخصص كنصيب ٧ من الطلبة طالبا واحدا بدون مبالغة . حتى أننا كنا نعد حبات الأرز التى نتناولها فلم تكن تتعدى ٤٠ حبة ! ومن الطريف أن حظى أوقعنى مع جماعتى بالميس وبيننا أحد « النباتيين » لا يأكل اللحوم – وهو الطالب **كمال الدين رفعت** – فكنا محسودين عليه إذ نوزع نصيبه من اللحم علينا بالدور على مدار الأسبوع ! وفى الساعة الخامسة بعد الظهر كان هناك ما يسمى طابور الشاى . ومن الواضح أنه مقتبس عن النظام الانجليزى Five O'clock Tea ولكنه شاى فحسب لا يصحبه حتى قطعة كيك أو بسكويت ! وأخيرا وجبة العشاء التى تجعلنا هى الأخرى نكاد نبيت على الطوى !

« الكانتين » كما قدمت غير قائم . والأكل الملكى أى المستحضر من الخارج ممنوع منعا باتا . وليس لأن كل ممنوع مرغوب ، ولا لأننا « أكولون مفجوعون » ، ولا من باب « الفشخرة » .. ولكن لكون طعام الكلية الحربية لا يكفينى ولا يكفى غيرى أننا كنا نتحايل على إحضار أو « تسريب » الأكل الملكى بطريقة أو بأخرى معنا عند العودة من الأجازات . وعلى شدة « الضبط والربط » والمغالاة فيهما أحيانا فإن الطلبة الصف ضباط كانوا يتغاضون عن هذا « التهريب » ربما لأنهم يفعلون نفس الشيء أو لأننا كنا نُحكم الاخفاء والتمويه وكأننا « نسرق » ، أو كأننا لا نشترى ما نشتريه من حر أموالنا . كما أن ضباط الكلية هم أيضا لم يضيقوا علينا الخناق فى هذا الشأن مادمنا لا نجاهر ومادام « تفتيش الدواليب » يسفر عن خلوها من هذه المأكولات كأنما تعامل معاملة « المخدرات » !

ولكن أحيانا ما كانت تحدث شدة وتقوم « هوجة » فضلا عن أن نفرا من الضباط النوباتجية لا يجاوزون عدد أصابع اليد الواحدة فُطروا على التشدد إلى درجة « التشنج » ، وعلى « التعقب » إلى درجة تحرى العقاب .. أو ما كنا نسميه « **حب الأذية** » !

حـادث تهـريب « مأكولات » ..!

ففى مساء العودة من أجازة الخميس والجمعة شاء سوء الحظ أن يكون الضابط النوبتجى هو « **اليوزباشى عبد المجيد أبو العلا** » .. وما أدراك ما هو صرامة زائدة عن الحد وضربا فوق الحزام وتحت الحزام مع براءة شبه طفولية ! وكنت قد أعددت « **الزاد والزواد** » من المشبعات كأمثال التمر (وكان فاخرا متعدد الأنواع والألوان فى ذلك الحين) والحلاوة الطحينية والفستق (برخص تراب الأربعينيات حتى أن ثمن كيلو الفول السودانى الآن فى أواخر الثمانينات يصل إلى ثلاثة أضعاف فستق زمان الرخاء والبلاش !) . وأعلن « عبد المجيد أبو العلا » على بوابة الكلية حالة طوارىء وحجرة تفتيش رهيبة ومحاكم تفتيش أيضا !

وكانت « الجانطة » العامرة بما لذ وطاب فى يدى كالعادة ، وطيباتها محكمة الاخفاء والتمويه . ولكن حتى « الجيوب السرية » ما كانت لتخفى على « عبد المجيد أبو العلا » الأريب الرهيب ! وارتأيت أن أصطاد أى طالب « معرفة » ألقى إليه بالجانطة من سور الكلية ليسلمها إلىّ فى العنبر .. وله الحلاوة ! وأوقعنى سوء الحظ فى الطالب « **بشرى حنا ويلسن** » وهو من أبطال الكلية فى الجرى وألعاب القوى فألقيت إليه بالجانطة مطمئنا إلى مصيرها ومصيرى ، فلا أحد يستطيع اللحاق ببشرى ويلسن ! ثم ولجت من باب الكلية خفيفا نظيفا والعصا الطلابية فى يدى كأنها عصا المارشالية ! وفحصنى عبد المجيد أبو العلا وتساءل أين جانطتى ؟ ولأن « الكذب الأبيض » كان مشروعا شائعا فى الكلية الحربية ابتغاء « التقيّة » فقد أجبته أنه لم تكن بى حاجة للجنطة ظنا منى أن « الكذب منجى » .. وهيهات ! ثم بحثت عن بشرى حنا ويلسن طولا وعرضا فإذا هو فص ملح وذاب ! طيب .. والجانطة ؟ لا أحد يعرف لها أى مكان ! بيد أن مكانها كان فى حجرة الضابط النوبتجى اليوزباشى الهمام « عبد المجيد أبو العلا » ! فالذى حدث أن « **بشرى** » عندما قذفت إليه بالجانطة من فوق سور الكلية وعقدت معه اتفاق التسليم والتسلم . لمح على البعد أحد الجنود من حرس الكلية فألقى بها على « ساحة المعركة » وألقى لساقيه الريح .. وهو من أبطال الجرى كما قدمت فاختفى فى ثانية أو اثنتين ، وكان يمكن أن يحملها معه ولكنه لم يفعل .. سامحه الله ! وحملها الجندى إلى الضابط النوبتجى ، وبعد ربع ساعة كنت اسمع اسمى ينادى عليه فى ميكروفون الكلية لمقابلة عبد المجيد أبو العلا فى حجرة

الضابط النوبتجى .. فقد فتحها وقرأ اسمى على إحدى الكراسات فانتفخت أوداجه ! لقد سجل نقطة ثمينة فى مضمار الضبط والربط ! سلمنى الجانطة بعد تجريدها من محتوياتها « المحرّمة » وفتح الله عليه بكلمتين من قوارص الكلم ! كان فى وسعه أن يكتفى بالمصادرة والكلمتين ، ولكنه رفع تقريرا إلى « **متولى بك** » كبير المعلمين بالكلية الحربية . وتراخى الأميرالاى محمد بك متولى فى استدعائى لمكتبه مما أتاح لى أن أتشفع إليه بأحد أصدقائه وأقربائى (**اللواء حسن الألفى**) ليعفو عنى أو ليجعل العقوبة مجرد « نصيحة » . وحين أدارونى إلى مكتب « متولى بك » كانت تتنازعنى عوامل التفاؤل والشك معا . وحين خاطبنى باسمى قائلا : **ليه يا مصطفى يا ابنى ؟!** قلت لنفسى : بشرى .. خير ! وإن لم يأتنى من « بشرى » أى خير ! ولم أفصح عن كون طعام الكلية غير كاف .. فالعارف لا يعرّف ! ثم فى هدوء وبصوته الخافت ألقى متولى بك قنبلة شديدة الأنفجار : **أربعة أيام حجز قشلاق** ! كان ذلك أول وآخر عقاب لى فى حياتى العسكرية . وهو جزاء غير هيّن ، كأنى - لولا الشفاعة - كنت سأودع فى الزنزانة ! وما أن سمعت هذه العقوبة المثيرة حتى كادت الأرض تميد بى ! كيف يمكن أن « أفرّج » الكلية على شخصى بعد ظهر أربعة أيام فى طابور زيادة متلفعا بحمل « الجربندية » والبطانية فوق ظهرى ، وأحد الجنود يقرع الطبول خصيصا لى لاذرع فناء الكلية جيئة وذهابا وشمالا ويمينا ! كان لى - والحمد لله - بين الطلبة ، على وفرة مداعباتى وضحكاتى وقفشاتى ، « صيت محترم » ربما أكسبنى إياه مسلكى الدينى الذى تمسكت بأهدابه . ولهذا - ورغم كل شىء ورغم الندم على الكذب الأبيض ، ورغم الإيمان بالثواب والعقاب ، ورغم الامتثال لقضاء الله وقدره . فقد عزّ علىّ أن أهز صورتى على الملأ وأمام « اللى يسوى واللى ما يسواش » لا نفاقا ولا غرورا بل عشما فى وجه الله الغفور الرحيم التواب الستار . استغفر الله .. كان شاعرنا المبدع « المنفلت » أبو نواس هو المفتى ! وداونى بالتى كانت هى الداء ! حلا لى أن أعالج الكذب الأبيض بالكذب الأبيض ! فلاتجنب « الفعل العلنى الفاضح » فى طوابير حجز القشلاق ، فإن ألسنة الطلبة لا ترحم ، وذاكرتهم للمواقف الصارخة لا تغيب .. فضلا عن شماتة الشامتين ! ومن هنا فقد بيّت أمرا .. باجتهاد يختلط فيه سعة الأفق بالتأويل بالشقاوة وبمبدأ « اللى تغلب به العب به » . وهكذا « **ادعيت** » **المرض** وذهبت إلى طبيب الكلية أشكو مغصا حادا . وقد فهم « الفولة » ولكنه كان سمحا كريما فمنحنى أربعة أيام « شفخانة » وهى « وسط » بين

الصحة والمرض وبين الكلية والمستشفى العام . والأربعة أيام هذه على مقاس الأربعة أيام حجز قشلاق ، وتدرأ عنى التنفيذ العملى لطوابير الجربندية المشدودة وحمل « السفرى » وشمال يمين والفرجة العامة ! وحمدت الله كثيرا أن حمانى من شماتة من قد يشمتون ، فالمحجوز شفخانة لا يمارس شيئا .. لا طوابير عادة ولا طوابير حجز قشلاق . ومن الطريف أن الطبيب حين رآنى أنصرف من عنده متوجعا بالمغص المزعوم (لاستكمال الحبكة) ابتسم قائلا : ما خلاص يا عم .. أنت أخذت ما تريده !

« الفريق » حسين فريد .. ونصيبى من الدنيا !

ولما كان الشىء بالشىء يذكر . وبمناسبة العقوبات ، فقد كان مرخصا لباشجاويش الكلية وكل سرية وبعض صف الضباط الآخرين من الطلبة القدامى « الحاكمين » أن يوقعوا جزاءات على الطلبة « طوابير زيادة » ، وكانت واسعة الانتشار كثيرة العدد . وارتأى أركان حرب الكلية البكباشى حسين فريد (الفريق حسين فريد رئيس أركان حرب الجيش عند قيام ثورة ٢٣ يوليو ٥٢) أن يسلبهم هذا السلاح المشهر « الشاطر » الذى كثيرا ما يطول ! فقرر أن يُكتفى بتدوين اسم الطالب المخالف وما ارتكبه لينظر هو فى الأمر ويقرر له ما يقرره من طوابير زيادة .

ويقضى نظام الكلية أن ثلاث سرايا من الأربع تخرج أجازات خميس وجمعة ، والرابعة – بالدور – تستبقى فى الكلية **كسرية حريق (بولك حريق)** . ولو أننى لا أذكر أن حريقا واحدا نشب فى الكلية ولا تدربنا على إطفاء الحريق إطلاقا . وكأنه مجرد « **تكة** » ومحض حرمان كل سرية من أجازة الخميس والجمعة مرة كل ٤ أسابيع تحت ستار ودخان الحريق المحتمل !

وفى إحدى المرات حين حل الدور على السرية الثالثة – سريتى التى أنتمى إليها – للبقاء فى الكلية يومى الخميس والجمعة كبولك حريق حلت صلاة الجمعة وكنت بين من غشوا مسجد الكلية لأدائها . ونحن من أهل السنة .. ونظرية « الإمام الغائب » لدى « الشيعة » وليست لدينا . ولكن « الإمام الغائب » فى يوم الجمعة المذكور كان إمام مسجد الكلية الحربية حيث لم يعثر له على أى أثر ! وكان لابد



الفريق حسين فريد رئيس هيئة أركان حرب الجيش (البكباشى حسين فريد أركان حرب الكلية الحربية) يستقبله اللواء محمد نجيب قائد الثورة فى أواخر يوليو ١٩٥٢ . وقد عرض رجال الثورة عليه بعد « عزله » من الجيش منصبا مدنيا .. سفيرا أو غير ذلك فرفض ولزم بيته حتى وافته المنية فى أوائل الثمانينيات .

من التصرف . فلم أجد مفرا من أن أعتلى المنبر وألقى خطبة الجمعة . فعلتها ولم يرتجّ علىّ ؛ فقد وفقنى الله سبحانه بأكثر مما تصورت . وكان محور الخطبة أداء الواجب الدنيوى فى الإسلام إلى جانب الفرائض الدينية . واستشهدت بقصة قارون الواردة فى القرآن الكريم « وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تنس نصيبك من الدنيا » . وكان « البكباشى حسين فريد » أركان حرب الكلية من بين المصلين ، وإن لم أره ـ لحسن الحظ حتى لا أرتبك – فقد جلس على الحصر خارج المسجد . ويبدو أن الخطبة أعجبت حسين فريد ، وهو رجل – رحمة الله عليه – يجمع بين الصرامة العسكرية والطيبة الأصيلة والتقوى . وربما لأنه لم يتخيل أن طالبا فى سن المراهقة يمكن أن يرتجل خطبة الجمعة تضاعف اعجابه حتى أنه بعث باسمى إلى باشجاويش الكلية آنذاك الصديق العزيز « **وهيب زكى وهبة** » لاستدعائى إلى مكتبه . وبالفعل صحبت الباشجاويش يوم الاثنين التالى إلى مكتب حسين فريد . وأشار إلى خطبتى اليتيمة التى لم تتكرر بعدها ، وأسمعنى كلمات غير مألوفة من أركان حرب الكلية

إلى أى طالب فيها . وأحمر وجهى من خجل المفاجأة والتكريم ، وتمتمت بكلمات متعثرة بين الشكر والتهيب والتواضع الخالص .. ورحم الله امرءا عرف قدر نفسه . وآذنت المقابلة بالانتهاء . غير أن الباشجاويش « الماكر » انتهز الفرصة فقدم لحسين فريد كشفاً بأسماء الطلبة المخالفين .. وكان اسمى فى صدارتهم بوصفى ارتكبت مخالفة الكلام الخافت أثناء الطابور ، تلك التى كانت تسليتى الكبرى ودائى المزمن على السواء ، وخاصة مع جارى المفضل وزميل العمر **محمد عبد الهادى حسونة !** وما أن رأى « حسين فريد » اسمى (العالق فى ذاكرته) بالقائمة حتى أفلتت منه ابتسامة نادرة .. وهى شديدة العذوبة ، ما لبث أن أقتلعها اقتلاعا ! وأخذ يوجه الحديث إلىّ قائلا : « أظن أنك أشرت فى خطبتك إلى قوله تعالى « ولا تنس نصيبك من الدنيا » . قلت : أيوه يافندم ! قال وقد علا صوته واكتسب « جهامة » مصطنعة : هذه المرة سماح .. وإذا تكرر ذلك منك بعدها سيكون الجزاء مضاعفا ! والتفت إلى الباشجاويش صائحا : دوّر !

وخرجت لا أعرف هل أبدى سعادة أم أكظم غيظا !

عندما نجوت من الاعدام بمعجزة !
والحكم « للفريق » فؤاد الدجوى !

وقد سبقت « حكاية نجاتى من الاعدام » بشهرين أو ثلاثة شهور حكاية أخرى أشد هولا وأسلم عاقبة !

ففى أبريل ١٩٤١ حين تعطفوا على « تشنجى دفعة » - أى الطلبة الباقين فى القسم النهائى كما أشرت آنفا - وأذنوا بتخريجهم ضباطا ، تسلمت الدفعة الوسيطة بيننا - دفعة سبتمبر ١٩٣٩ - الكلية ، وكان أول طلبتها - أى باشجاويش الكلية - « **على عبد الدايم** » .

ولا شك أن للأولوية بهجتها أينما كانت ، ولكنها فى الكلية الحربية « أكمل وأشكل » ! فمنها « إمارة » الكلية وقيادتها ، ومنها أن الدفعة تنسب لأولها مدى الحياة .

غير أن « المسكين » على عبد الدايم لم يهنأ بهذه الأولوية أكثر من أسابيع قليلة .

ذلك أنه بعث إلى أبيه فى الأرياف يزف إليه هذا النبأ السعيد ، ويردف أنه سينتهز الفرصة « لبث الروح الوطنية بين الطلبة » . فيها حاجة دى ؟ طبعا لا .. بكل المعايير إلا معيار الاحتلال البريطانى لمصر وخلال ذروة تأزم الحرب العالمية الثانية فى سنة ١٩٤١ !

الخطاب سلمه « على عبد الدايم » لطالب زميل له اسمه « **يوسف أدهم** » من دفعته فى السرية الأولى حيث أن سرية على عبد الدايم كانت محجوزة فى الخميس والجمعة « للبولك حريق » الذى لا يستثنى أحدا من « البولك » ! وإن هى إلا ثلاثة أيام من إرسال الخطاب حتى كان « البروجى » يعزف فجأة نوبة « **جمع الكلية** » وهى عادة لا تعزف فى خير وإنما تعزف عنه ! واصطف معظم ضباط الكلية وعلى رأسهم **اللواء « مصطفى باشا صادق** » مدير الكلية . وأخذ كبير المعلمين يتلو قرارا وقع علينا وقع الصاعقة لغرابته وضراوته : **تقرر فصل باشجاويش الكلية على عبد الدايم من الكلية الحربية فصلا نهائيا ! ذلك كان البند الأول . أما البند الثانى : فقد تقرر أيضا فصل الطالب يوسف أدهم من الكلية الحربية فصلا نهائيا !**

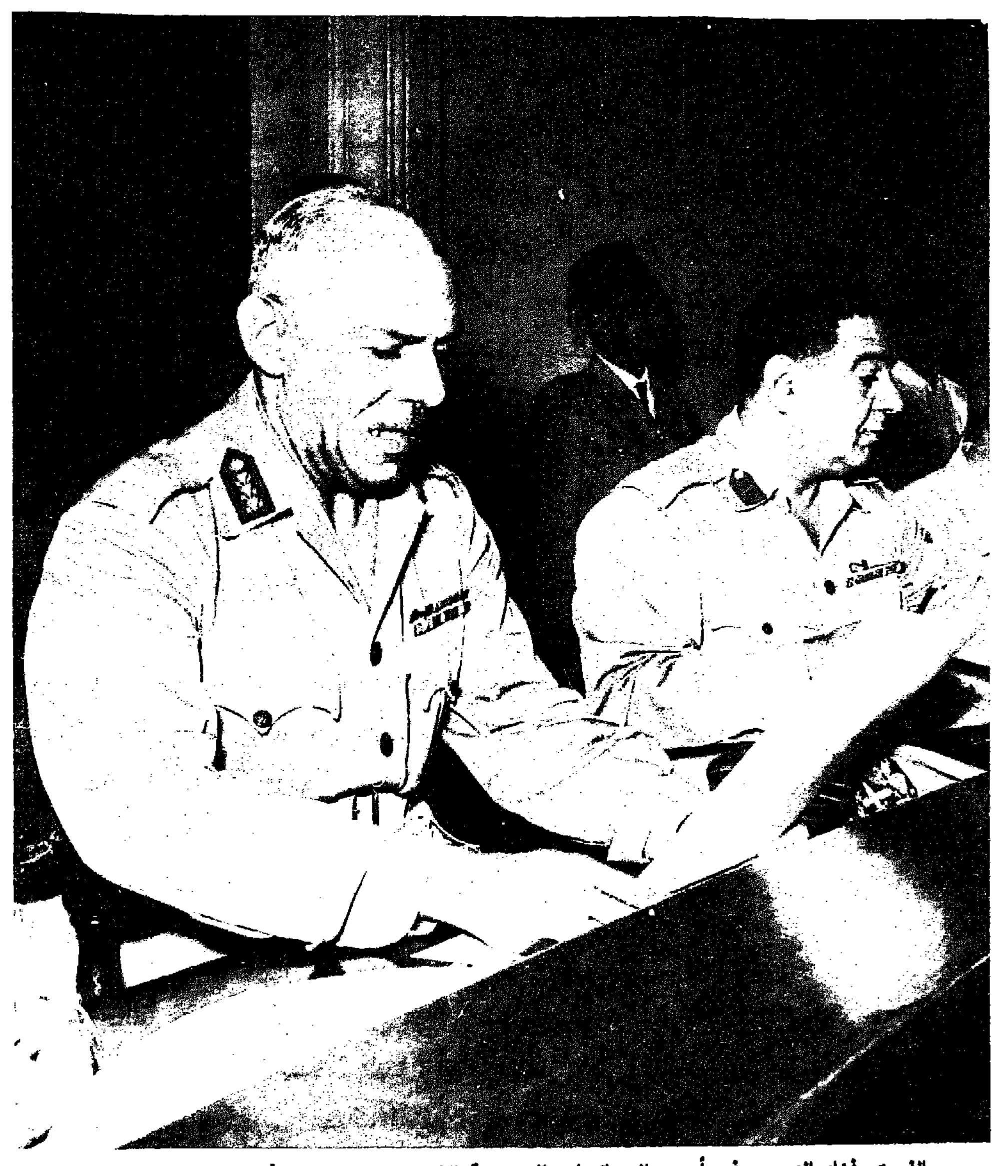
ورحنا نضرب أخماسا لأسداس حتى أتانا الخبر اليقين . وقع خطاب على عبد الدايم فى مصفاة الرقابة العسكرية الحكومية المحكومة بحديد ونار البريطانيين ، فهاجت قيادة الحرب البريطانية فى مصر وشمال أفريقيا ومنطقة الشرق الأوسط ! وكأن **رشيد عالى الكيلانى** آخر على وشك الظهور فى مصر ! (رشيد الكيلانى قام بثورة مسلحة ضد الانجليز فى العراق) . هل بث الروح الوطنية جريمة أو خيانة عظمى ؟ لقد كانت هذه هى « الترجمة الانجليزية » لها .. ففيها معنى العمل ضد الاحتلال البريطانى ، ولا جزاء عليها – فى عرف المحتل الباغى العاتى – إلا البتر ! وأوامر انجلترا نافذة فى مصر ! ولم يقتصر البتر والفصل على « على عبد الدايم » وحده ، وإنما بعد التحقق من ملابسات وواقعة إرسال الخطاب الذى لم يصل أبدا إلى الموجه إليه رُئى فصل كاتبه وحامله أيضا كأنه رجس من عمل الشيطان .. كالخمر لعن الله شاربها وبائعها وحاملها ! وهكذا لحق بعلى عبد الدايم .. « يوسف أدهم » أيضا فى ضربة قاصمة واحدة . كأنما إذا ضرب المربوط يخشى السايب !

وهكذا تولى ثانى الدفعة « وهيب زكى وهبة » إمارة الكلية .

وفى أعقاب ذلك الحادث العصيب المتوتر الرهيب – مباشرة – تلقيت خطابا من زميل فى الدراسة والسياسة ، فى العباسية الثانوية بالاسكندرية ومصر الفتاة ، وكان طالبا بالسنة الأولى بكلية العلوم السكندرية . وخلال حصة دراسية فى الاقتصاد السياسى « **للدكتور حسين فهمى** » أرسل مساعد أركان حرب الكلية **اليوزباشى** « **فؤاد الدجوى** » ! .. ساعى مكتبه يستدعينى بالاسم لمقابلته . وبدا أن ساعى مكتب المستدعى كأنه المدعى العام تأبط شرا استنتجته واستنتجه مقدما زملائى فى اعدادى السرية الثالثة المنخرط بها !

ولليوزباشى « فؤاد الدجوى » بين الطلبة سمعة عريضة كمدرس للنيادة والطوابير بصوته الجهورى ولسانه السليط المشوب بخفة ظل ! ومن مأثوراته « خناقاته » المستمرة مع قارع الطبلة التى نسير على ايقاعها « شمال يمين » فى الطوابير ، فلطالما كان ينبهه إلى « ضبط الايقاع » لتنتظم خطى الطلبة ويناديه : يا طبلجى .. اصح ! وفى إحدى المرات قال له : يا طبلجى إما أنك حمار أو أننى أنا الحمار ! فرد عليه العسكرى بتلقائية الريفى أو « غرور الموسيقار » : أنا مش حمار يافندم ! فجرى نحوه فؤاد الدجوى وهو يسب له الأخضرين والوالدين ! ولم يكن اختيار الدجوى مساعدا للبكباشى حسين فريد أركان حرب الكلية عبثا ، وإنما استكمالا للضبط والربط .

وحالما وقفت أمام الدجوى فى مكتبه بادرنى متساءلا : تعرف « واحد » اسمه **مصطفى كمال عبد العليم** ؟ قلت : أيوه يافندم . هو صاحبى من الاسكندرية ! قال : لا .. ليس صاحبك بل عدوك ! إنه .. (وأخذ يستظهر قاموسه من السباب الذى عهدناه مع الطبلجى وغيره) . ولما ظهرت علامات العجب والرهب على وجهى ، ناولنى مظروفا مفتوحا معنونا لى . فلما رحت أتلو الخطاب الكامن (الذى كان أشبه بالكمين !) داخله اصفرّ وجهى واحمرّ واخضرّ ! كتب لى مصطفى كمال عبد العليم يقول بين ما يقوله نضرّ الله قلمه : عزيزى مصطفى .. بعد التحية « لقد وقع الاختيار عليك وعقدنا الآمال عليك للقيام بثورة مسلحة ضد الانجليز ! ولا عذر لك .. فالبنادق والأسلحة عندك بالكلية الحربية بغير حساب » !



الفريق فؤاد الدجوى فى أحدى المحاكمات العسكرية الشهيرة التى كان يرأسها فى الستينيات ..

يا ستار يا رب ! إذا كان من سيبث الروح الوطنية بين الطلبة عوقب بالرفت النهائى من الكلية هو وحامل خطابه ، فماذا كان يمكن أن ينتهى إليه مصيرى مع هذا الخطاب والثورة المسلحة المبيتة التى « سوف أتزعمها » .. وتحت سيف الجلاّد البريطانى ؟ إما الاعدام - وهو الأرجح - أو الأشغال الشاقة المؤبدة !

وعقدت الدهشة والمفاجأة والخوف لسانى ! فرمقنى اليوزباشى فؤاد الدجوى بنظرة حانية كأنها « المعجزة السماوية » - النظرة والمسلك - **وقال لى : أنا لا أطالبك إلا بشىء واحد .. هو أن تكتب إلى « مصطفى كمال عبد العليم » هذا خطابا وتقطع علاقتك به . أما عن هذا الخطاب الذى بين يديك فلكى تطمئن وتهدأ بالا وتقر عينا فمزقه إربا إربا أمامى ! وفعلتها .. أعدمت بيدى دليل الاتهام والاعدام !**

طبعا هذا موقف عظيم لا يمكن أن ينسى كشهامة ومروءة وسعة أفق وفضل كبير .

بقى أن تعرف أن اليوزباشى فؤاد الدجوى هو نفسه الفريق فؤاد الدجوى الذى اختاره جمال عبد الناصر رئيسا للمحكمة العسكرية العليا فى الستينيات بعد أن رقاه لرتبة الفريق وعينه مديرا لمصلحة خفر السواحل ، وهو صاحب المحاكمات والأحكام سيئة السمعة التى شملت المئات .

هل يمكن أن يتغير الرجال هكذا وينقلبوا رأسا على عقب كما حدث لفؤاد الدجوى بعد موقفه الوطنى النبيل معى ، ثم بعد عشرين سنة مما يعرفه ويذكره الناس جميعا عنه فى محاكماته ، أم أن الدنيا قُلّب ، أم هو سيف المعز وذهبه ؟!

محمد صبيح .. والثورة المسلحة ببساطة !

ولنناقش أسلوب التعامل بالثورة المسلحة على هذه الصورة من البساطة أو السذاجة !

ففى واقع الأمر أننى عندما خلوت إلى نفسى والتقطت أنفاسى بعد هذا « الزلزال المصطفاوى » رحت أمعن التفكير فى هذا العجب العجاب . كيف يتأتى للصديق مصطفى كمال عبد العليم أن يتصور أننى وحدى أو حتى بمعاونة السرية الثالثة كلها من الكلية الحربية - إذا كانت هكذا رهن إشارتى - استطيع القيام بثورة مسلحة ضد الانجليز الذين احتشدوا بعشرات الآلاف فى القاهرة ومنطقة القناة وسيناء والصحراء الغربية مدججين بأحدث الأسلحة ؟!

وتذكرت أن هذا الأسلوب أو هذا التفكير كان شائعا فى حزب مصر الفتاة ومُلَّقنا ومتداولا ..

مثلا .. فى أغسطس ١٩٤٠ عندما حملت أوراقى من الاسكندرية للالتحاق بالكلية الحربية فى القاهرة ، كان من بين أهم المزارات و « الطقوس » والشحنات الوطنية التى وجدتنى منساقا إليها « البيت الأخضر » .. أى مقر مصر الفتاة و « كعبة » الفتيان المصريين المنتفضين حيوية وحماسا وحبا لمصر وتطلعا لمجدها وكراهية للاحتلال البريطانى « أس البلاء » !

ومهما أخذ من أخذ وما أخذ على مصر الفتاة و**أحمد حسين** – وهناك مآخذ كثيرة بطبيعة الحال – فمن المستحيل أن ينكر أن دعوتها كانت بالغة التأثير ، وأن حركتها كانت تتجاوب مع الوجدان الوطنى الشاب الثائر أو تُشكلُّه ، وأنها جذبت إليها جيلا بأكمله لدرجة أنه إذا اجتمع الآن مائة من جيلى فإن نحو أربعين منهم من المرجح أن يكونوا انضووا لفترة ما تحت لوائها أو تعاطفوا معها . منهم من أصبحوا محامين أو ضباطا أو أطباء أو مهندسين أو زراعيين أو تجاريين أى بين كل خريجى الجامعة المصرية وغيرهم . وليس من قبيل المصادفة أن عددا ملحوظا من أعضاء مجلس قيادة ثورة ٢٣ يوليو مروا على مصر الفتاة فى مرحلة من حياتهم .. **وفى مقدمتهم « جمال عبد الناصر » نفسه الذى كان قبل التحاقه بالكلية الحربية سكرتيرا لشعبة مصر الفتاة فى باب الشعرية** . وله صورة شهيرة بالقميص الأخضر تجمع الأعضاء البارزين فى تلك الشعبة ويتوسطهم « **محمد صبيح** » سكرتير عام الحزب .

المهم أننى فى أغسطس ١٩٤٠ ترددت على « البيت الأخضر » وصافحت أحمد حسين الذى كان يعرفنى لسببين على وجه الخصوص . **أولهما** أننى الشقيق الأصغر لأستاذه فى كلية الحقوق **الدكتور حلمى بهجت بدوى** وكان أقرب طالبين إلى قلبه **أحمد حسين وفتحى رضوان** وتنبأ لهما بمستقبل عظيم كما جاء فى خطابه إلى صديقه « **توفيق الحكيم** » الذى نشره بدوره فى كتاب أصدره خلال السبعينيات مع مجموعة أخرى من رسائل ذات قيمة ودلالة تلقاها فى باكورة شبابه . **وثانيهما** أننى ألقيت فى تحية أحمد حسين – وأمامه – قصيدة طويلة مدوية عند افتتاح شعبة مصر الفتاة بمحرم بك بالاسكندرية فى أول سنة ١٩٤٠ . وكانت القصيدة هائلة « متفجرة »

رغم أنها القصيدة الثالثة أو الرابعة التى نظمتها بعد بداية انبعاثى إلى الشعر فجأة فى آخر سنة ١٩٣٩ .

قابلت إذن **محمد صبيح** سكرتير عام الحزب وصاحب اليد الطولى فى التثقيف المبسط الشعبى بسلسلته المبتكرة عن الشخصيات الإسلامية والتاريخية الصادرة باسم « **كتاب الشهر** » ، فهو خريج آداب قسم تاريخ ومولع بالصحافة والتأليف والنشر . وانتحى بى صبيح جانبا وقال بذات البساطة التى فعلها من بعده زميل الدراسة مصطفى كمال عبد العليم : **نريد القيام بثورة مسلحة ضد الانجليز لطردهم من مصر ! وسألته : ومن أين لنا بالسلاح ؟ قال : يا سلام ! حاجة فى منتهى السهولة والبساطة . فى الليل أزنق أحد الجنود الانجليز وأضربه على أم رأسه بهراوه ثم خذ مسدسه واجر !**

نعم أجرى .. وأجرى على الله !

على أى حال ، لقد فعلها أحد أبناء مصر الفتاة القدامى بعد سنوات وفى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وقام بثورة مسلحة ، ولكن بتنظيم آخر وبأسلوب آخر وضد الملك والاقطاع والفساد ابتداء ..

محـاكمة « عزيز المصرى » سنة ١٩٤١

كانت مصر تموج وتضطرم فى أوائل الأربعينيات بالحركات الوطنية السرية والعلنية ضد المحتل البريطانى .

وكان واحدا من أشهر الضباط الوطنيين القدامى على رأس المناضلين ويعتبر الأب الروحى لمصر الفتاة ولغيرها من الحركات الثورية . كان هذا الواحد الزعيم هو الفريق عزيز باشا المصرى . كان ثائرا حالما مثاليا . وقد اتصلت به وبنا واقعتان عاصرناهما من مكاننا بالكلية الحربية . أولى هاتين الواقعتين أنه - فى غفلة من الزمن والانجليز - كان قد عيّن مفتشا عاما للجيش المصرى . وحينما حل موعد امتحاننا فى مايو ١٩٤١ وخلال عقد الامتحان التحريرى ، مر على صالة الامتحان ولاحظ وفرة المراقبين من الضباط علينا نحن الطلبة . وهنا أتى بإجراء « عملى » و « فورى » غير مسبوق . صاح فى الضباط وفى مدير الكلية الحربية ومساعديه

الذين كانوا يصاحبون المفتش العام قائلا : **ما هذا الذى يجرى هنا ؟ طلبة سيتخرجون ضباطا تخشون أن يغشوا أثناء الامتحان وتقيمون عليهم رقباء وأوصياء ؟ أى أنكم لا تأتمنونهم فى حين أننا نأتمنهم على سلامة الوطن وحماية أراضيه عندما يتخرجون ضباطا ! لا ! اسحبوا المراقبين ولتكن ثقتكم بالطلبة وذمتهم كاملة !**

وأطاعوا الأمر على الفور ، لأن مثالية القائد والمفتش العام ينبغى ألا تُناقش ! وآمنت بفراسة أجدادنا الذين قالوا فى أمثالهم أن « **المال السايب يعلم السرقة** » ! ولست أتهم أحدا أو أفرادا بعينهم أنهم اغتنموا الفرصة – برد الفعل الفورى – فانتشر الغش كما تنتشر النار فى الهشيم ! ولا أبرىء نفسى .. إن النفس لأمارة بالسوء ، ولكنى أقول إن مكان هذه السماحة الملائكية فى جنة عدن فحسب ! ومن هنا فقد عاد الرقباء إلى لجان الامتحان بعد أقل من عشر دقائق !

والواقعة الثانية مشهورة ، وإن جرت اخر فصولها فى الكلية الحربية أمام أعيننا .

ذلك أن عزيز المصرى كان قد فكر أن يهرب إلى الخارج بطائرة حربية يقودها كل من الضابطين الطيارين عبد المنعم عبد الرؤوف وحسين ذو الفقار صبرى . وذلك للاتصال بالألمان بغية وضع خطة لتحرير مصر من الاحتلال البريطانى وتحقيق استقلالها التام المنشود . غير أن الرياح لا تأتى عادة بما تشتهى السفن ولا الطائرات ! فما أن حلقت بهم الطائرة فى الجو حتى اضطربت المحركات ، ولم يجدوا مندوحة من الهبوط الاضطرارى فالاختفاء . وطال اختفاؤهم لبعض الوقت . وكان من بين المختفين الهاربين من الاعتقال فى ذلك الحين صاحبنا أحمد حسين زعيم مصر الفتاة . وجهد البوليس السياسى فى البحث عنهم جميعا .. وبالأخص أحمد حسين ! ولوحظ على « أحمد عبد الفتاح رزق » صديق أحمد حسين (وعزيز المصرى أيضا) تصرفات مريبة ، فوضع تحت المراقبة . وتجمعت الخيوط والدلائل لدى « **محمد إبراهيم إمام** » **رئيس القلم المخصوص (البوليس السياسى)** بحيث جعلته يرجح أن « أحمد رزق » يخفى « أحمد حسين » . ودهموا بيت رزق .. ولكنهم لم يجدوا أحمد حسين مختبئا فيه . عثروا هناك على صيد ثمين آخر هو الفريق عزيز باشا المصرى . واعتقلوه وحققوا معه لتقديمه إلى المحاكمة العسكرية .



الفريق عزيز باشا المصرى مفتش عام الجيش فى جولة تفتيشية أول سنة ١٩٤١ ..
وفى أكتوبر ١٩٤١ أصبح ماثلا للمحاكمة أمام كوكبة من الضباط الكبار الذين كان يفتش عليهم منذ شهور !

وفى ٤ أكتوبر ١٩٤١ نشرت « الأهرام » الخبر التالى :

« أصدر سعادة الفريق إبراهيم عطا الله باشا أمرا بتأليف المجلس العسكرى لمحاكمة عزيز باشا المصرى وزميليه الطيارين عبد المنعم عبد الرؤوف وحسين ذو الفقار صبرى . وذلك برئاسة اللواء عبد الحميد حافظ باشا رئيس الامدادات والتموين وعضوية اللواء على شريف باشا مدير القرعة واللواء أحمد ناشد باشا قائد المنطقة الجنوبية واللواء شاكر منصور الروبى باشا مدير سلاح خدمة الجيش واللواء محمد زكى الحكيم باشا مدير مصلحة الحدود والأميرالاى أحمد الصاوى بك مدير سلاح الاشارة والأميرالاى محمد حمد بك قائد لواء الأساس . وتتألف هيئة الدفاع من المحامين حافظ رمضان بك ومصطفى الشوربجى بك وفتحى رضوان وحمادة الناحل . كما قرر النائب العام إطلاق سراح أحمد عبد القادر رزق صاحب المنزل الذى قبض فيه على عزيز باشا المصرى » .

وكان مكان المحاكمة فى إحدى قاعات الكلية الحربية .

لم تقف الكلية الحربية على قدم وساق وتهتز أرجاؤها وتشتد الحراسة فيها مثلما حدث خلال محاكمة عزيز المصرى ، اللهم إلا عند زيارة الملك فاروق للكلية الحربية لأول وآخر مرة يوم الخميس الموافق ٢٧ مارس سنة ١٩٤١ كما يبين « السجل التاريخى » بمحفوظات الكلية والذى أطلعت عليه وعلى برنامج الزيارة قبيل كتابة هذه السطور ، واستعدت معه ذكريات التدريبات التى « عدمونا العافية » فيها استعدادا لهذه المناسبة التاريخية ! وكان من نصيبى الاشتراك فى جماعة تركيب الكوبرى لعبور حمام سباحة الكلية على الأقدام وبالبنادق أمام الملك والمدعوين ، ونحن « جماعات مكثفة » وكأنها عبور القوات المصرية لقناة السويس فى ٦ أكتوبر ١٩٧٣ .. وشتان شتان !

ومن بين كافة طاقم محاكمة عزيز المصرى من المحكمة والمتهمين والمحامين كان يعنينى بالدرجة الأولى - بانتهاز فرصة واختلاس نظر - « فتحى رضوان المحامى » بالذات بوجهه الوسيم وذكائه المشع وخطاه الواثقة . فهو واحد من الأربعة الكبار من قادة مصر الفتاة الذين أحببتهم حبا خالصا لم يتحول مهما امتد الزمن واختلفت المواقع وهم أحمد حسين ، وفتحى رضوان ، ومصطفى الوكيل ، وإبراهيم شكرى يكمل بعضهم البعض ويشكلون معا أعظم وأكرم وأنقى ما أتصور وأحس . ولما كان الشعر ترجمان النفس والأحاسيس فقد خصوا وحدهم بأن نظمت فيهم القصائد العزيزة إلى نفسى .. وإن فاز بالقسط الأوفر قديس الوطنية الشهيد الدكتور مصطفى الوكيل لأن حسرتى على كوننا خسرناه فى أوج شبابه وعبقريته ووطنيته وإيمانه وتقاه وخصاله الفريدة حقا هى حسرة ما برحت قائمة .

كانت محاكمة عزيز المصرى كما قدمت فى الكلية الحربية وزمانها فى أكتوبر ١٩٤١ .. ولم أكن قد أفقت تماما من أشد وأشهر محنة تعرضت لها مع لفيف من الزملاء بالكلية الحربية كما سأعرض لها فيما يلى

أسقطـونا .. ونحـن ناجحـون
وصححوا الوضع .. بالشفاعة !

أسلفت الاشارة إلى أن هواجس الاستقالة من الكلية الحربية والالتحاق بكلية الحقوق لأعمل بالمحاماة .. تلك الهواجس والنوازع ما فتئت تشاغلنى وكأن لى روحين : واحدة تسكن الكلية الحربية تصارعها أو تعايشها .. موجودة وغائبة ، عابثة وعابسة ! والثانية تحلق فوق قبة جامعة فؤاد الأول . وتحوم حول مدرجات كلية الحقوق ، وتحلم بمستقبل سياسى لا عسكرى ! فبقدر ما ضحكت فى الكلية الحربية بقدر ما فكرت فى الاستقالة ، بقدر ما عانيت بقدر ما أصررت على الاستقالة . والحصيلة أننى لم آخذ الكلية الحربية – للأسف .. وأعترف – مأخذ الجد ، ولا أوليت الاستذكار العناية الواجبة .. وكأننى مفطور على رفض الأمر الواقع !

كانت مواد الدراسة عسكرية ومدنية كزحام الأتوبيسات ، وكنت فيها واقفا لا أملك القراءة !

ويتألف المنهج من المواد التالية : تعليم أولى (بيادة) . أسلحة صغيرة . تكتيك . هندسة ميدان . هندسة سيارات . طبوغرافيا (قراءة الخرائط) . رياضة وحساب مثلثات . طبيعة . كيمياء . اقتصاد سياسى . تنظيم وإدارة . تاريخ عسكرى . جغرافيا عسكرية . قانون عام . قانون الأحكام العسكرية . لغة انجليزية . لغة فرنسية . تربية بدنية .

فما هى المحنة الجلل التى اعترتنى وبعض الزملاء ؟

جاء ترتيبى بين الدفعة فى القسم الاعدادى متأخرا ولا عذر لى حتى مع إلحاح هواجس الاستقالة ، وإنما اللوم يقع على عاتقى وليس على كثرة المواد أو عدم استذكارها ، فالمفروض أن ما يقع علىّ يقع على غيرى . **جاء ترتيبى الـ ١٤٠ من ١٩٢ طالبا** . وكان لابد من حصول الطالب على ٦٠٪ من المجموع الكلى للدرجات لكى يعتبر من الناجحين ويجتاز وينقل إلى القسم المتوسط .. وكان مجموعى ٦٨٪ . وقد رسب ١٧ طالبا من الدفعة لم يحصلوا على نسبة الـ ٦٠٪ . ورضيت من

« الغنيمة » بالاياب إلى الاسكندرية فى أجازة قرابة شهرين . وكان المفروض خلال هذه المدة الطويلة أن تعد الكلية الحربية نفسها لاستقبال دفعة جديدة من توجيهية سنة ١٩٤١ كما هى العادة . ولكن الكلية لم تفعل لعدم وجود ميزانية تسمح كما قيل . طيب .. وإحنا مالنا ؟!

الغرض .. عدنا من الأجازة صباح يوم الجمعة ١٢ سبتمبر ١٩٤١ لنفاجىء وبدون سابق إنذار بأنهم يعاملوننا معاملة البعير .. هذه قافلة تمضى إلى الأمام ، وتلك تُحجز أو تذبح !

لم أعرف معنى قولهم « اسودت الدنيا فى عينيه » قدر ما عرفته وعشته بالفعل ساعتئذ ! وشاغلتنى لفترة وجيزة مجموعة من الأمثال الشعبية المناسبة لواقع الحال . « جت الحزينة تفرح مالقتلهاش مطرح » ! « قليل البخت يلاقى العضم فى الكرشة » ! « راضيين بالبلا والبلا مش راضى بينا » . « آخر خدمة الغز علقة » ! « آخر الزمر طيط » ! ولكم كانت حصيلتى وفيرة من الأمثال الشعبية أخذتها فى صباى عن أهل زمان وسيدات البيوت خاصة !

صحيح أننى لم أكن حريصا – كما قدمت – على الانتظام فى السلك العسكرى وكأنما كنت أروح وأجيىء فيه واستقالتى فى جيبى ، ولكن أن يجرى لنا هذا فهو فوق الاحتمال ! لقد شعرت بالظلم المبين والإهانة البالغة والقهر القاتل . وما كنت أصدق زعم من يزعمون أنهم قضوا الأيام والليالى المتعاقبة لا يزور النوم جفونهم ، لكن هأناذا لم استطع النوم إطلاقا منذ يوم العودة المتعوسة حتى ساعة خروجى فى الخميس التالى . فما هى الحكاية بالضبط ؟

لقد تفتقت عبقرية الذين خططوا هذا التخطيط المروّع فيما يخص الـ ٣٧ طالبا الناجحين الذين ضموّهم إلى الـ ١٧ الراسبين عند تقسيمهم إلى فصلين . إعدادى ١ وحكمداره **الطالب « عبد القادر عيد »** الذى يسبقنى مباشرة فى ترتيب الناجحين « المُسقطين » . إعدادى ٢ وحكمداره الفقير إلى الله تعالى كاتب هذه السطور . وخلال تلك الأيام تحولت إلى « آلة » بالمعنى الحرفى للكلمة . حيث أنادى على الفصل « صفا » و « انتباه » ، حين أحمل السلاح وأخطو الشمال ثم اليمين . حيث تتهادى وتثقل على سمعى الدروس المعادة . حتى كلمات العزاء ونظرات الاشفاق كانت

بالنسبة لى باهتة آلية بلا معنى . ومن الطريف أننى كنت قد صحبت معى – وبالمصادفة البحتة – لدى عودتى من الأجازة كتابين من مكتبتى الدينية فى مجلد واحد ، وكان عنوان أحدهما « **عِدة الصابرين** » والثانى « **تسلية أهل المصائب** » ! وغنى عن البيان أننى لم استطع أن أقرأ سطرا منهما ، وإذا كنت قد فعلت فما وجدت تسلية أو عزاء !

وفى أجازة الخميس والجمعة قررت التحرك على جبهتين : جبهة الشفاعة والوساطة (وحتى الحق محتاج إلى وساطة !) وجبهة التظلم والشكاوى .

كان أبى يرقد فى ذلك الحين فى مستشفى الدمرداش يعانى من مضاعفات حادث أليم ألمّ به منذ مارس ١٩٤١ . وكنت قد أخبرته كذبا – وربما درءا لإزعاجه – أن ترتيبى فى امتحان الاعدادى للمتوسط بين الدفعة هو « الأربعون » .. أى أسقطت مائة من الحساب ! ولكن سرعان ما حان وقت افتضاح الكذب إثر ما فعلوه بنا . وصارحته بالحقيقة بين الخجل والندم عن الماضى وبين الغضب والحزن والانفعال فى الموقف الحاضر . وكان شقيقه – عمى – الدكتور عبد الحميد بدوى باشا وزيرا للمالية فى حكومة حسين سرى باشا القائمة فى تلك الآونة . ولم يكن مجرد وزير بل أقوى الوزراء إن لم يكن هو الوزارة نفسها – كما كان يُقال ويُكتب – بحكم مكانته وكفائته ورجاحة عقله وبراعته فى الافتاء والرأى والفقه والتشريع منذ أن كان هو الحجة اللامعة المبرزة فى شبابه الباكر بين اللجنة التى وضعت دستور سنة ١٩٢٣ وما بعد ذلك .

طوبى للدكتور عبد الحميد بدوى باشـــا وحكايات عنه لوجه الله والحق والتاريخ

وبعد أن أنهيت اعترافاتى واعتذاراتى لأبى قلت : إن القضية لا هى شخصية بل تشمل ٣٧ طالبا ، ولا هى استثناء ضد القانون وإنما المطلوب إعمالهوتصويب الخطأ . ونحن – حتى لا نثقل على ميزانية الحكومة – متنازلون عن التعويض ! طبعا أكتب هذا اليوم – على البارد وعلى الرايق ! – بعد ٤٨ سنة ، ولم يكن حالى هكذا آنذاك . المهم أن الصدف السعيدة ساقت لى عمّا يلى وزارة المالية وذا جاه ونفوذ

وتأثير ، إن لم يكن – بتعبير ما بعد الثورة وما بعد النكسة – فى طليعة مراكز القوى ! فإذا نحن طلبنا هذا المطلب العادل اليسير ، فالأمل كبير . وطلب أبى أخاه أمامى وأبلغه فحوى شكواى وطلبى ورسالتى .

ولا حرج عندى أن أفيض فى الحديث عن عبد الحميد بدوى . فمن ناحية هو نسيج وحده ، ومن ناحية هو مِلْك لمصر كلها ولقضاياها ولأبنائها جميعا وبصورة لابد أن تُسَجَّل بعض معالمها وحكاياتها ، وفى هذا الكتاب بالذات ، وهنا فى هذا الموضع الذى هيأ لى الفرصة لأداء بعض ما يجب نحوه ولو كفرض كفاية .

هناك طبيعة متميزة ذات أهمية بالغة لدى عبد الحميد بدوى باشا سوف أعرض لها ضمنا لوجه الله والحق والتاريخ . فما أظن أن مسئولا كبيرا كان مفطورا على فعل الخير والخدمات للناس وجبر خاطرهم والاستجابة لمطالبهم بكل ما يملك من اتصالات مثل بدوى باشا . هذه حقيقة يعرفها الخاص والعام ، حتى قيل – على سبيل المبالغة – إن نصف موظفى الحكومة والشركات كان بدوى باشا السبب فى تعيينهم ! كان مقصودا ممن يعرفه وممن لا يعرفه . وكان لا ينسى أو يتناسى ، بل يجهد حتى يحقق الأمانى والرجاءات ما دامت ذات وجاهة أو كانت تصل عيشا لوجه الله . صحيح أن عددا ضخما من أهل الدقهلية والاسكندرية (محافظتيه المنتسب إليهما بالمولد والنشأة) كانوا يمثلون نسبة عالية فيمن يتشفعون به ويستجيب لهم ، ولكن هذا لا ينفى أن بابه مفتوح لكل صاحب حاجة من أى موقع أو محافظة . ولقد دأبت على رسم « صورة خيالية » تعبر عن طبيعة وأسلوب وإصرار استجابته « لصنع المعروف » ، ولا أحسبها رغم تخيلها بعيدة عن واقع حاله . كنت للتمثيل والتقريب والوصف من الاستقراءات والنتائج فى هذا الخصوص أورد ما يلى : تصوّر أن فلانا ركب القطار مثلا من الاسكندرية إلى القاهرة ففوجيء بأن عبد الحميد بدوى باشا (الذى قد يعرفه من صور منشورة له) يجلس على المقعد أمامه . ثم يتذكر هذا الفلان أن أحد أبناء زميل أو صديق له تخرج من الجامعة حديثا ولم يجد عملا للآن . فتواتى هذا الفلان فكرة أن يجرب حظه ويوصى بدوى باشا عليه ، فيقرأه السلام ويدير معه حديث سفر عارض فيه بطبيعة الحال هذا التقدير المتواتر لشخص عبد الحميد بدوى . ثم قبل أن يصل القطار إلى القاهرة يعنّ لهذا الفلان أن « يتجاسر » ويطلب من هذا الرجل الكبير مساعدة ابن صاحبه وتعيينه بمؤهله فى الحكومة أو فى

أية شركة . ولا يتردد عبد الحميد بدوى فى إخراج مفكرته الصغيرة الشهيرة ويدون فيها المعلومات عن الخريج كاملة ، ويكتب اسم الموصى (رفيق السفر) ورقم تليفونه ، ويعده خيرا . قد يظن صاحبنا أنه أدى ما عليه « وأراح ضميره » بهذا الحديث الذى يبدو كأنه أشبه « بفك المجالس » . ولكن عبد الحميد بدوى لا يقر قراره - رغم مشغولياته - قبل أن ينجز ما وعد مهما تكررت وتنوعت المحاولات وطالت الأيام إلى أن يعلم أن ثمة استجابة وإمكانية لتعيين الخريج « العاطل » . وما أن يطمئن إلى تهيؤ الفرصة لتحقيق المطلوب حتى يتصل تليفونيا بهذا الفلان الذى قد يكون نسى الأمر تماما ، ويخطره بأن على الخريج أن يقابل الوزير أو المدير أو رئيس شركة كذا لأن الوظيفة متاحة له والمطلب مجاب ! إلى هذا المدى وزيادة كانت فطرة وقدرة عبد الحميد بدوى الخارقتين الفذتين . ولقد ساعد عبد الحميد بدوى على ذلك كونه شغل لسنوات طويلة منصب رئيس لجنة قضايا الحكومة وكبير المستشارين الملكيين وكان منصبا جليلا متداخلا فى شعاب الدولة كلها ، وأضفت عليه شخصية عبد الحميد بدوى - المحترمة العبقرية ذات التاريخ - مهابة لا تضارع واستجابة لا تنازع .

بقيت مع تداعى الأفكار والاستطرادات مسائل أخرى حول عبد الحميد بدوى وحكاياته .

فإذا كان عبد الحميد بدوى هكذا على المستوى الخاص فكيف به على المستوى العام .. أى إذا نادته مصر ؟

كان عبد الحميد بدوى ابن مصر البار فى مؤتمر مونترو سنة ١٩٣٧ لإلغاء الامتيازات الأجنبية ، وحمل العبء الأكبر حججا وفكرا وحسما وصياغة حتى أن الدكتور أحمد ماهر باشا (وكان وفد مصر إلى مؤتمر مونترو برئاسة مصطفى النحاس باشا وعضوية مكرم عبيد باشا وواصف غالى باشا وأحمد ماهر باشا وعبد الحميد بدوى باشا) صرح - أحمد ماهر - لدى عودتهم من توقيع اتفاقية مونترو لإلغاء الامتيازات الأجنبية قائلا : « إننا نحن لم نصنع شيئا . إن الذى صنع كل شىء فى هذه الاتفاقية هو عبد الحميد بدوى » .

ومن بعد وهو وزير للمالية وعندما أوشك بنك مصر على الافلاس (وكانت



الدكتور عبد الحميد بدوى باشا يجلس الى جوار شقيقه (والد المؤلف) فى حفل عائلى سنة ١٩٥١ .

انجلترا تعمل على ذلك من وراء ستار) سارع عبد الحميد بدوى إلى انقاذ بنك مصر ودعمه بضمانة الحكومة المصرية إبقاء على هذا الصرح الاقتصادى المصرى العظيم ، وساند طلعت باشا حرب فى محنته حتى عاد بنك مصر أقوى مما كان عليه .

عبد الحميد بدوى يحرم الملك فاروق من « جـــزيرة الذهـــب » بأســـوان

أما إذا أراد الملك فاروق الاستيلاء على جزيرة الذهب بأسوان – وهى المملوكة لمصلحة الأموال المقررة ووزارة مالية مصر – ليضمها إلى الخاصة الملكية ، فهنا لا مجال للاستجابة ولا للخواطر . **نعم لن يفرط فى أموال مصر والشعب المصرى لصالح أى فرد ولو كان الملك نفسه** . ولم يكن فاروق على حداثة سنه يتصور أن يرفض له طلب . مستحيل أن يقال له : لا ! ولكن عبد الحميد بدوى باشا وزير المالية قالها ، فقامت الدنيا عليه ! ودبرت حملة ظالمة منظمة ضده . وللأسف ، فقد كان أحد قادة هذه الحملة الأستاذ مصطفى أمين رئيس تحرير مجلة الاثنين – آنذاك –

وصلته بالسراى الملكية معروفة . وزعموا أن عبد الحميد بدوى قد ملأ الحكومة بعائلة بدوى ! مع أنه لم يكن من أقربائه فى الحكومة سوى اثنين .. الدكتور حلمى بهجت بدوى الأستاذ بكلية الحقوق ، وحمزة بدوى سكرتيره الخاص .. وكان الله يحب المحسنين ! أما أقاربه فى الأسرة المصرية الكبيرة الذين عينهم فى الحكومة وغيرها كما أسلفت ولوجه الله فهم كثيرون كثيرون . وبتحريض من السراى وبشائعات ما أنزل الله بها من سلطان .. أخذت مجلة الاثنين بالذات – تهاجم الدكتور عبد الحميد بدوى باشا بالكلمات والمقالات من عينة « أخرج أيها الوزير الصغير » ! وبالكاريكاتير القاذع الظالم .

أمام هذا « الطفح » الرذل المرذول بعث الرجل باستقالته من الوزارة فى يناير ١٩٤٢ وخرج . نعم .. خرج الوزير الكبير الذى لم يصغر أبدا ، ولم يُصغر لطلبات الملك . خرج فى صمت من الوزارة التى كان راغبا عنها – لا فيها – من البداية . خرج ولزم بيته وقراءاته وكتاباته ، وتعفف عن الرد بكلمة واحدة على الحملة الغاشمة . فالحقائق واضحة ، والتجنى مفضوح فى ذاته وبغير تعليق ! وظل كما هو عبد الحميد بدوى كريم النفس عزيز الجانب لم ينقص من قدره شيء حتى « أتته الوزارة منقادة » حين عهدوا إليه بتولى وزارة الخارجية ليرأس وفد مصر إلى مؤتمر سان فرانسسكو سنة ١٩٤٥ حيث صال وجال وكان له الأثر الفعال . ثم انتخب عضو فنائب رئيس محكمة العدل الدولية فى لاهاى إلى أن وافته المنية فى ٥ أغسطس سنة ١٩٦٥ ، وإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا .

تبدلت الدنيا فى مصر خلال تلك السنوات ، وقامت الثورة ، وانتهى عصر الملكية وحتى الأحزاب والباشوات . فانظر إلى فضل الله كيف حمى عبد الحميد بدوى وبقى دوليا بمنأى عن العواصف والأنواء والأهواء فلم يتغير عليه شيء .. وما تغير هو فى سعيه لصنع المعروف وجبر الخواطر .. جبر الله خاطره ورحمه رحمة واسعة .

قلت إذن فى سياق ما كنت بصدده – قبل الاسترسال السابق والواجب والحبيب – أن المحور الأول الذى تحركت فيه لرفع الغبن عن « ذيول » دفعتى أننى

أبلغت صوتنا إلى الجهات العليا من خلال عبد الحميد بدوى وزير المالية فى سبتمبر ١٩٤١ وحديثه العذب المنطقى المقنع إلى تلك الجهات .

على أننى لم أكتف بالشفاعة ، وإنما تحركت على محور التظلم الرسمى العلنى حتى « أحوّط » على القضية المثيرة .. من كافة جوانبها . وهكذا وجدتنى بمبادرة شخصية أتوجه إلى مكتب تلغراف مصر الجديدة ، وأبعث بالبرقية التالية – التى أذكر نصها كأنما كتبتها هذه الساعة ! – إلى رئيس الديوان الملكى وإلى رئيس الوزراء حسين سرى باشا وإلى وزير الحربية حسن صادق باشا وإلى رئيس هيئة أركان حرب الجيش الفريق إبراهيم عطا الله باشا وإلى مدير الكلية الحربية اللواء مصطفى صادق باشا .. يعنى إلى كل الجهات المعنية أقول فيها :

« يستصرخ بعطف وعدل جلالة الملك طلبة ناجحون من القسم الاعدادى إلى القسم المتوسط بالكلية الحربية الملكية ولم ينقلوا إلى القسم المتوسط مع زملائهم الناجحين وهم شديدو الأمل والثقة فى تحقيق رجائهم » .

عنهم محمد مصطفى
١٥ شارع الجامع بمصر الجديدة

وكل ما فى البرقية صحيح مائة فى المائة ماعدا الاسم والعنوان طبعا ، وإن كاد المريب يقول خذونى ! وبرقية هامة وخطيرة على هذا القدر وإلى شخصيات بهذا المستوى كان من الميسور أن يتقبلها موظفو التلغرافات فى هذا الزمن « غير المعقد » . فلم يناقشونى ، ولم يطلبوا مستندا سواء أكان بطاقة شخصية (ولم يكن قد عُمل بها بعد) ولا حتى كارنيه الكلية الذى كان من المفروض أن طالب الكلية الحربية يحمله معه . تمت المسألة ببساطة شديدة وبغير مناقشة ، وكأن ابنا مغتربا بالقاهرة يطلب من أبيه فى الأرياف مصروفه الشهرى الذى تراخى فى الوصول إليه !

وعدنا إلى الكلية مساء الجمعة ١٩ سبتمبر ١٩٤١ ، ومر السبت والأحد والأثنين والثلاثاء وكأن شيئا لم يكن . وفجأة فى « ساعة سعد » يوم الأربعاء ٢٤ سبتمبر ظهرا أطلق بروجى الكلية **نوبة** « جمع الكلية » وكأنه يزغرد بها ! وحضر مدير وضباط الكلية « بربطة المعلم » ثم أخذ كبير المعلمين **القائمقام محمد متولى بك** يقرأ بنفسه

من « دفتر الأوامر » ما يلى :

« تقرر اعتبارا من اليوم إنشاء فصل جديد بالقسم المتوسط إلى جوار الفصول الستة القائمة الآن ويحمل اسم متوسط ٧ وينقل إليه الطلبة الآتية أسماؤهم بعد (وتلا أسماء الـ ٣٧ طالبا الناجحين الذين ظلموهم) . على أن يشكل القسم الاعدادى من الطلبة المذكورين فيما يلى (وتلا أسماء الـ ١٧ طالبا الذين رسبوا فعلا فى الامتحان من الاعدادى إلى المتوسط) بالأمر . مدير الكلية اللواء مصطفى صادق باشا » .

وناهيك عن هزة الفرح التى اجتاحت الطلبة عامة (الدنيا بخير ! دولة الظلم ساعة ودولة الحق إلى قيام الساعة !) وأسعدتنا وطلبة القسم المتوسط خاصة . ولا أخال أن الكلية الحربية شهدت فى عمرها الطويل « حركة تصحيح » عاجلة كتلك التى دوت فى أرجائها ظهر يوم الأربعاء ٢٤ سبتمبر ٤١ ! وكنا – نحن المظلومين الذين أنصفوا – نترقب النداء الختامى لهذا الطابور . كلية : صفا ! كلية : انتباه ! كلية : انصراف !.. لنتعانق ونهلل ونكبّر . على أن متولى بك قبل أن يفض الطابور غلبه الفضول – وكأنما ليثبت أن لكل شىء سببا وأن العملية ليست رمية من غير رام ! ـ فنادى فى الكلية بصوته الخفيض النافذ : مين الطالب محمد مصطفى ؟! فين الطالب محمد مصطفى ؟! مين الطالب اللى ساكن فى ١٥ شارع الجامع بمصر الجديدة ؟! وبدا كأنما يكلم نفسه فلم يجبه أحد بطبيعة الحال وبالذات تصاممت وأنا أكتم ضحكة وفرحة ! تصامم « الفاعل الأصلى » !

المهمومون الوحيدون كانوا الـ ١٧ الراسبين بالقسم الاعدادى . وكأنما تأكد رسوبهم فى تلك الساعة فقط ، وتجددت أحزانهم . أو كأنما خذلناهم وتركناهم لمصيرهم وحدهم وقد « فضيت الدنيا عليهم » . وللحق ، فإننا حددنا بعض الشىء عن التعبير عن سعادتنا الغامرة – بعد احقاق الحق – احتراما لمشاعرهم .. ولو أنهم قضوا الأجازة الصيفية وقد تهيأوا نفسيا لاعادة القسم الاعدادى بحكم رسوبهم ، فى حين أننا قضيناها كطلبة فى القسم المتوسط بحكم نجاحنا . غير أن البشر بشر .. ولا مفر ! ولا تثريب على لطفى يوسف (أحد الـ ١٧) حين هاج هياجا بدائيا فى مواجهتنا بعد اعلان قرار متوسط ٧ قائلا : إزاى ؟ وأنتم لحمنا ودمنا ! وهو معذور نعم ، ولكن لست أدرى هل كلمته تلك تذهب مثلا على « الكوميديا السوداء » أم النكات المريرة ؟!

إذن فقد تجاوزنا السنة من عمرنا العسكرى بالكلية الحربية . وكانت « السُنَّة » فى مرحلة ما قريبة – فيما بين معاهدة ١٩٣٦ وبداية نشوب الحرب العالمية الثانية – كافية ليتخرج الطالب بعدها ضابطا . ولكن ها هى ذى تمتد وتتعقد إلى درجة كونهم لم يعلنوا عن قبول دفعة جديدة من الحاصلين على التوجيهية سنة ١٩٤١ ، وإلى درجة إتجاههم إلى محاولة « أسقاط » بعض من نجحوا من الاعدادى للمتوسط لولا أن « أفشلنا » إتجاههم . وإلى درجة أنهم تركوا فى القسم الاعدادى ١٧ طالبا فقط مما قد يوحى بمرحلة إنحسار .. أى عودة حجم الكلية إلى ما قبل الثلاثينيات التى كانت تقبل الطلبة « بالقطارة » ! على أن « سخرية القدر » كانت مدخرة للسبعة عشر طالبا الذين نيط بهم قيادة الكلية حين آن الأوان . لقد فوجىء الـ ١٧ « بأمطار طلابية غزيرة » بعد أن انتقلوا إلى القسم المتوسط وبعد أن « صفصفت » الكلية الحربية عليهم (إثر تخرج دفعة وهيب زكى فى يونيو ١٩٤٢ مكملة ثلاث سنوات بالتمام لأول مرة منذ أعوام طويلة حتى أنها سميت « الدفعة سيئة الحظ » .. وكأنما أنفك سوء الحظ بتخرجهم فلم نلبث نحن أن استدعينا من أجازتنا فى صيف ١٩٤٢ وحدنا لنمضى ستة أسابيع « مكثفة وشكلية » فى القسم النهائى ، ثم تزف إلينا بشرى التخرج بغير امتحان وإنما وفقا لترتيب نجاحنا فى امتحان القسم المتوسط ! تخرج بصورة عاجلة ومرتجلة وشاملة حتى الذين رسبوا من دفعتنا فى القسم المتوسط وكذلك من رسبوا فى امتحان القسم النهائى من الدفعة السابقة لنا . وكان تاريخ تخرجنا ضباطا فى ٢٥ أغسطس ٤٢ واعتبارا من أول سبتمبر ٤٢ « ومن هنا سميت دفعة سبتمبر ٤٢ ») . ويغير الله من حال إلى حال .

داورية ليلية مع أم كلثوم !

وإذا كنت قد عرضت كثيرا فيما تقدم بصرامة ومشقة أيامنا وشهورنا فى الكلية الحربية ، فمن المدهش أنه رغم ذلك ورغم أن الحرب العالمية الثانية كانت مستعرة الأوار حولنا ، فإننا قد أمضينا عامين فى الكلية الحربية دون أن نشهد أو نجرى مناورة عسكرية واحدة ! ولست أجد تعليلا لذلك . فمن سبقونا أجروا مناورات ، ومن التحقوا بالكلية بعدنا توالت مناوراتهم . أما نحن فكأنما شاءوا لنا أن نخرج « ناقصين سوى » .. مع أننا « استوينا » عسكرية ! صحيح أننا فى مرتين أو ثلاث وفى مادة



ودارت الايام .. وفى سنة ١٩٧٤ وكنت رئيسا لمجلس إدارة دار التحرير ورئيس تحرير الجمهورية زارتنى « أم كلثوم » ومعها « عثمان أحمد عثمان » للدعوة إلى مساهمة الجماهير فى مشروع « دار أم كلثوم للبر » الذى لم ير ـ النور .

« التكتيك » خرجنا إلى الصحراء القريبة – أى فى طريق السويس – ننتشر ونتلقى دروسا فيما يطلق عليم اسم « مشروع » على الطبيعة لا مجرد « تخت الرمل » . غير أن « المشروع » محدود جدا إذا قورن برحابة وأهمية وإحكام وجدوى « المناورة العسكرية » ، وكأنما ادخرت لنا حتى حرب فلسطين وبالذخيرة الحية ! أكثر من هذا ، فإننى – ودفعتى بالتالى – لم أقف شاكى السلاح فى « داورية ليلية » لحراسة الكلية الحربية سوى مرة واحدة لم تتكرر . ومازلت أذكر وقائعها إلى الآن ..

كان وقت « نوبتى » أو « نوباتجيتى » من منتصف الليل حتى السادسة صباحا . ومكانها فى الباب المؤدى إلى مكتبة الكلية الحربية والمطل على شارع الخليفة المأمون . والزمان هو الخميس الأول من شهر ربيعى لا أذكره بالدقة . وهل كان أحد فى مصر كلها – وخاصة فى الأربعينيات ثم ما بعدها – لا يعرف ماذا يعنى الخميس الأول من كل شهر ؟! إنها ليلة أم كلثوم التى تسهر مصر معها على الراديو ومن أقصاها إلى أقصاها . وكنت شأنى شأن كل مواطن مصرى وعربى أحب

أم كلثوم .. ولكن ليس بدرجة ترسيمي من « عشاقها المعاميد » ! كنت « وهابيا » من عشاق عبد الوهاب .. أدندن له وأكاد أحفظ وأردد أغانيه كلها ، ولم أكن « كلثوميا » على إعجابي بها . ثم كانت ليلة الدورية المذكورة . وفي هدأة الليل ونعومة نسماته القاهرية واختلائي بنفسي في الوضع « صفا » .. جاءني من مذياع بعيد صوت أم كلثوم بالضبط كما وصفه أمير الشعراء أحمد شوقي :

حديثها السحر إلا أنه نغم   جرى على فم داود فغناها

سحرتني في تلك الليلة المشهودة . غدوت « كلثوميا » إلى جانب كوني « وهابيا » ! كانت تغني أغنيتها الشهيرة البالغة الرقة والعذوبة « رق الحبيب وواعدني » التي اجتمعت مع قيثارة وحلاوة وملائكية صوتها .. رشاقة أبيات أحمد رامي وحلاوتها ، وأصالة ألحان محمد القصبجي وتجديداتها . ومنذ تلك الليلة وأنا لا تكاد تفوتني سهراتها في الراديو كلما استطعت إلى ذلك سبيلا . ولو تركت لنفسي العنان هنا لتحدثت طويلا عنها وعن ملحنيها العباقرة قديمهم وحديثهم وإن كان لابد أن يخص اثنان هما زكريا أحمد ورياض السنباطي .. أما الجدد مثل محمد الموجي وكمال الطويل وبليغ حمدي فلا أدري لأي هؤلاء الموهوبين أهلل أكثر . ولعل لي « نسبيا » ما يربطني بالموسيقى ، فإنني أعزف على البيانو « سماعي » منذ أن بلغت السابعة من عمري . وربما لو كنت تعلمت النوتة والعزف على العود ودرست وتعمقت الموسيقى أكثر من مجرد الحب والهواية .. لكنت جربت حظي في التلحين والغناء .. ولكن الله سلم واكتفيت بموسيقى الشعر « وسماعيا » أيضا !

مطربا الكلية الحربية بجواري !

على أنه كان من نصيبي وحظي في الكلية الحربية أن يجلس إلى جواري – في تختة الفصل – شهورا في القسم الاعدادي ثم شهورا في القسم المتوسط قطبا الرحي في الغناء بالكلية الحربية وأشهر اثنين وهبهما الله حلاوة الصوت ومارسا الغناء بإجادة تشد الأسماع .. سمعي خاصة لاستئثاري بهما ، وأسماع طلبة الكلية عندما تتاح أو تختلس الفرصة !

أما المطرب الأول – في الاعدادي – فهو المرحوم **سيد أبو العلا** الذي استشهد

فى معركة فلسطين سنة ١٩٤٨ . ولا أستطيع أن أحصى عدد المرات التى استمعت واستعدت فيها أغنيتيه المفضلتين « فى الليل لما خلى » و « بلبل حيران » وأحسبهما من أجمل ما لحن وغنى محمد عبد الوهاب لأمير الشعراء أحمد شوقى ، ولعلهما أيضا من أشهر « كلاسيكيات » موسيقارنا الكبير فى مرحلة الثلاثينيات . ولقد استطاع سيد أبو العلا أن يضع اسمه ويخلده إلى جوار هذين العملاقين عندى على الأقل ، فما من مرة يسعدنى الحظ فأسمع أية أغنية من الاثنين إلا وتذكرت سيد أبو العلا وترحمت عليه ..

أما المطرب الثانى – وكان جارى فى القسم المتوسط – فهو الزميل **اللواء عبد الوهاب راشد** الذى بلغ من عذوبة الصوت وموهبة التلحين الحد الذى كاد فيه أن يحترف الغناء ، وإن كنت أعتبره بالفعل محترفا ومتخصصا فى محمد عبد الوهاب ، ولا أظن أن أحداً « يتعبد » فى « محراب » ألحان محمد عبد الوهاب مثل عبد الوهاب راشد مد الله فى عمره وشكر له فضله ، فهو الذى أمدنى – بعد طول بحث – بصورة من صفحات « كشف الجيش » تضم فيها أسماء دفعة سبتمبر ١٩٤٢ وأسلحتهم والسنين التى ولدوا فيها . ولقد أروى قصة التوصل إلى أسماء الدفعة فى موضع آخر من هذا الكتاب . وإنما أقول « مد الله فى عمره » كدعاء خالص يصدر عن اعزازى له وحرصى عليه . غير أن ثمة سببا إضافيا يزيد من لهفتى – اليوم وأنا أكتب هذه الكلمات – ومن ضراعتى وأنا أدعو بهذا الدعاء له ولكل أبناء الدفعة ولكل الأحباء مؤمنا حق الايمان بأن الموت حق ، وبقوله تعالى « ولكل أجل كتاب » . وإنما دافع اللهفة أن « حبات السبحة » أخذت تنفرط كثيرا وسريعا ، وأن ضباط دفعتى يتساقطون تباعا الواحد تلو الآخر غير غافل أن أصغر من فيهم تجاوز الثالثة والستين من عمره والأعمار بيد الله . إن هذه « الشعفة » الاعتراضية – اعتراضية فى السياق طبعا لا فى حكم المنية .. فلا راد لقضاء الله ولا معقب لحكمه – مبعثها أن عددا كبيرا من الدفعة قد رحل إلى جوار ربه . فى هذا الشهر الأخير قدمت واجب العزاء فى اثنين من خيرة أبناء الدفعة . منذ ثلاثة أسابيع انتقل إلى رحمة الله زميلنا العزيز **اللواء حسين السيد على** . وبالأمس رحل عنا زميلنا العزيز الآخر **اللواء محمود فوزى الوكيل** . وعدت اليوم إلى هذه السطور متعجلا أن أفرغ من حكايات سبتمبر ٤٢ وأنا لا أدرى أيهما يسبق .. أجل هذا الكتاب أم كتاب الأجل ؟!

أو ليس من المفارقات أن أبدأ كلماتى فى هذا الموضع من الكتاب بالحديث عن الغناء وعبد الوهاب ، ثم انتهى بحديثى عن الموت ؟ استهل بالليل الذى خلا إلا من العاشق الساهر ، وبالبلبل الحيران والحب والهوى ، ثم كأنما أنهيه بأغنية عبد الوهاب الباكية « أيها الراقدون تحت التراب ، جئت أبكى على هوى الأحباب » ..

أين « بطلة » رواية الكلية الحربية ؟
البطـــلة .. فى بطـــن الشـــاعر !

ولابأس من أن نعود – وفى خصوصية – إلى الهوى والغرام ، فهكذا الحياة .. ساعة وساعة !

فإذا كان هذا الكتاب – مع كثير من التجاوز – هو أشبه بالرواية فى وفرة شخصياتها وما جرى لهم ومنهم وعليهم ، وفى « اعترافاتى » ، فلربما يتساءل القارىء : وأين المرأة فى هذه الرواية .. أين « العنصر النسائى » ؟! ولعلى أجيب على هذا السؤال بأنها فى صدرى .. فى ضميرى ، وإن كنت حتى لا أتناولها بضمير الغائب !

ذلك أننى قبيل التحاقى بالكلية الحربية بشهر واحد كنت قد وقعت صريع الهوى والغرام . قد يكون حبا من طرف واحد (على طريقتى !) ، أو ربما من الطرفين . كتمته – أو كتمناه – دون مجاهرة به إلا بلقاءات أُسَرية على الملأ تغنى فيها نظرات العيون وخفقات القلب المراهق ولمسات الأيدى العارضة .. كل ذلك يغنى عن البوح والنجوى وعن نعيم أو جحيم من القبل ! لا شىء البته .. وكأنما الصمت و« لحن القول » يفصحان ! وخلال تلك الفترة القصيرة كنت أذهب إلى دارها ولسان حالى مثل قيس بن الملوح « كم جئت ليلى بأسباب ملفقة ، ما كان أكثر أسبابى وعلاتى » !

بيد أن لله فى هذا التوقيت من الغرام المشبوب حكمة .. سبحانه جلت حكمته وقدرته . فأن أدخل الكلية الحربية « عاشقا » غيرى إذا دخلتها خاليا . عندما كنت انفرد بنفسى كل ليلة وكل يوم أسرح معها وكأنها معى ! حتى العديد من الأحلام الهانئة كانت هى أنسها ونوارتها ! ولقد يبدو هذا الهوى المنطوى – للبعض – أمرا غريبا غير مألوف . ولكن للناس فيما يعشقون – وكيف يعشقون – مذاهب ! ويلوح لى أن

ذلك كان مذهبى وقدرى وفطرتى . ويقدر ما كنت « جسورا » مع « البنات » جسارة المبادءة والدعابات البريئة الهازلة (وكلها .. تليفونيا) فى مرحلة الدراسة الثانوية .. وما كان أقصرها مرحلة لهو برىء قبل هزة تعرفى وتعلقى بالسنة المحمدية فى صيف سنة ١٩٣٨ ، بقدر ما عدت خجولا حييا .. لطفا من الله ، وعودة إلى المنابع الأصلية للنفس .. ربما !

قصارى ما توصلت إليه فى هذا الهوى الناشىء مع الكلية الحربية وطوال عامين كاملين ثم عام ثالث بعد التخرج أننى تعديت التفكير والأحلام إلى نظم الشعر والتشبيب بالحبيبة الغالية الغائبة التى ملكت وجدانى بقصائد مشبوبة أسمعتها لأصفيائى وخلانى – بل لكل من هب ودب – إلا مايعنيها الأمر ! أقول هذا بالصدق كله .. وليبلغ عجب القارىء – إذا شاء – أقصى مداه ! كم من القصائد كتبت فى هذه المعشوقة الغضة الاهاب والشباب خلال فترة الكلية الحربية وما بعدها ؟ لا أذكر ! كم منها أخذت فى ديوانى الأول « **وجدان حائر** » وكم استبعدت ؟ لا أذكر ! الذى أذكره تماما أنها كانت نعم السلوى فى الكلية الحربية حيث تعز السلوى ! والذى أذكره أيضا أن هذا الهوى مالبث – بعد استيفاء المدة ! – أن تهاوى .. وكنت أظنه أبديا ! كيف تزلزل أو ذهب مع الريح ؟ والله لا أدرى إلا أن الحب فى هذه السن الفتية شىء مقدور ، والنسيان شىء مقدور ..

وليس من باب الادعاء أو التفاخر أن أقرر أننى لم تكن لى مغامرات مع الشابات أو « الغوانى » فى أجازات الخميس والجمعة ! والأجازات الصيفية ، فما كان يسمح بذلك دينى وخلقى وحيائى . كما أنه ليس من باب القذف أو التشهير أن أتصور أنه كان لعدد من طلبة الكلية الحربية مغامراتهم وغزواتهم ونزواتهم فى هذا المجال مع فورة الشباب « وفتنة » الزى الرسمى ، فلعل ذلك أمر ذاع وتواتر .

ولقد يسوقنى هذا المدخل أو يعيدنى إلى « رذالة » وحماقة وتجاوزات « قليلة الأدب » لبعض الطلبة الأقدم (الصف ضباط) بالكلية الحربية عندما تأخذهم « العنجهية » وتطيش منهم الكلمات ، وقد خالوا أنفسهم أباطرة ونحن الرعايا أو « الخشب المسندة » !

باشجاويش يسىء الأدب فألقنه درسا !

إننى أروى تلك الواقعة كما حدثت بلا زيادة ولا نقصان .

بعد تناول الغداء فى ميس الطلبة كانت تتفتح أحيانا شهية الصف ضباط فى الأمر والنهى والزجر و « الرغى » فيما يسمى « **الداخلية** » (أى محاضرة متعالية فيها من الاسفاف قليل أو كثير) .

وذات يوم من أخريات سنة ١٩٤١ وبعد تناول الغداء مباشرة فى مطعم الكلية بالعنبر الكبير الذى كان يجمع بين طلبة السرية الثالثة (٣ جى بولك) عن اليمين وطلبة السرية الرابعة (٤ جى بولك) عن اليسار (أى نصف عدد طلبة الكلية تقريبا) ، نادى علينا باشجاويش سريتنا الثالثة النداء التقليدى : ثابت .. الميس ! أى أن الطلبة عليهم أن يجلسوا بلا حراك كالتماثيل .. لا همسة ولا لمسة ولا رمشة عين ، ليشنف آذانهم ! ثم وقف على رأس المائدة يصرخ ، فكان كالعادة خطبا لا خطيبا ! وراح يلقى إحدى سخافاته الطفولية ، وكيف أن العسكرية فى خطر ، وأن الطلبة أصبحوا فى منتهى « البوظان » ، وأن الطرابيش أصبحت كالعمم .. الخ ..الخ ما اعتدناه وألفناه منه ومن « المفوهين » الذين كانوا قبله ! ولإراحة أنفسنا كنا نحرص على أن يدخل هذا الكلام المصطنع الممجوج من الأذن اليمنى ليخرج على الفور من الأذن اليسرى ! غير أنه فى هذه المرة – فجأة وبعد قليل من اللت والعجن - خرج عن « قواعد اللعبة » وعن الحدود الممكن التجاوز عنها ، ودخل فى مناطق محظورة غير مقبولة ولا فى شوارع « حوش بردق » !

قال « احنا مش فاضيين لدلع أى بنت فيكم . احنا بنطلع خميس وجمعة وبنشوف حالنا مع البنات » ..

وعندئذ لم أحتمل هذا الاسفاف الحقير وليكن ما يكون .. فلعنة الله على كل شىء يمثله هذا المنحى فى الكلام الذى لا يراعى إلاّ ولا ذمة ولا دينا ولا أصولا . قمت منتفضا – بين ذهول بعض الزملاء – ورحت أصرخ فى هذا الباشجاويش بصوت أعلى من صوته : أنت فاكر نفسك إيه ؟ مالكش كبير ؟ إحنا لم ندخل الكلية الحربية

علشان نتهان على هذه الصورة . وأنا لازم أوقفك عند حدود الأدب ، وأخللى مدير الكلية يربيك أنت وأمثالك ..

ولو أننى كنت « أخذته قلمين » لربما جاز لى ذلك تأديبا وتهذيبا ، ولكنى فى سورة الغضب والانفعال آثرت أن آخذ حقى بالقانون - وهو الأوجب - وكيلا أسقط جانبا من حقوقنا بإرتكاب خطأ مادى يميع القضية ! فالذى فعلته فى هذه المواجهة - ولعلها غير مسبوقة فى الكلية الحربية - هو رد فعل طبيعى ومسلم مشروع . وبين دهشة متجددة من الزملاء أخذت طريقى إلى باب الميس مهرولا واتجهت إلى إدارة الكلية وأنا لا ألوى على شىء ، وكأننى أجرى امتحانا لإدارة الكلية فإما أن يعتبرونى شططت بهذا الدفاع عن شرف الكلية الحربية وطلبتها دفاعا لا يتفق مع « الانصياع العسكرى » ثم التظلم فتوقع على شخصى العقوبة التى تراها (وتحيا الكرامة ولو فيها رفت !) ، وإما أن تجرى وترسى العدالة وحفظ الحقوق وتقتص لنا من هذا الباشجاويش المفتون . ولم أجد مدير الكلية بل كبير المعلمين **القائمقام محمد عثمان** . وحين شاهد ساعى مكتبه إنفعالى وإصرارى على المقابلة استأذن لى فدخلت إليه على الفور . قصصت عليه ما جرى بأمانة وهو مطرق برأسه يستمع إلىّ فى صمت لا يفصح عما ينتويه . وطلب القائمقام محمد عثمان الباشجاويش المتهم . وجاء لتوه بوجه شديد الاصفرار . ليس هذا هو « الغضنفر » الذى كان يصول ويجول منذ دقائق . راحت السكرة وجاءت الفكرة ! وفى حضورى ألقى محمد عثمان على الباشجاويش المذكور درسا لا ينسى ، وأنذره أنه سوف يضعه تحت المراقبة . طيّب محمد عثمان خاطرى ورد اعتبارنا بقدر ما فى وسعه . ولقد تساءلت فيما بينى وبين نفسى ماذا كنت أفعل لو كنت مكان محمد عثمان وهو - طيّب الله ثراه - معروف بالهدوء والطيبة ؟ لعلى - ومع موقع السلوكيات ثم الضبط والربط - كنت أحذو حذوه ؛ باستثناء واحد هو أن ألزم ذاك الباشجاويش فى اليوم التالى وفى نفس الموعد بالميس أن يصلح بال الطلبة بكلمتين مثلما اعتدى عليهم جهرا بكلمات غير مسئولة . وفى إصلاح البال ما يفيد الأسف والاعتذار غير المباشر إذا كان الاعتذار المباشر - والواجب -غير وارد فى نظم عسكرية شبه عقيمة ! وفى رأيى أن ذلك كان لا ينقص من « رئاسة » وموازين الباشجاويش شيئا بل يهذبها ، كما الحسنات يذهبن السيئات .

ولكن « النقد الذاتى » – كتعبير – لم يكن قد « سُك » بعد ، بالاضافة إلى صعوبته فى الجيش .

بقى فى هذه الحكاية أن أقول إنها لم تكن فرط شجاعة فردية من جانبى وحدى . فإننى إذا كنت تأخرت ثوانى قليلة فى رد فعلى فلا أحسب إلا أن أحدا آخر من أقرانى كان سيفعل ما فعلت . فثمة عشرات من الدفعة – برغم أنهم لا يقيمون وزنا لأمثال هذه الداخليات عامة – كانوا سيثورون فى وجه باشجاويشهم . غاية الأمر أن واحدا يكفى أن ينوب عنهم – فهى ليست مظاهرة – وأن يتحدث باسمهم ويتصرف عنهم .. وكنت هذا الواحد . وكان يمكن أن ينوب عنا زيد أو عبيد من السرية والدفعة ، ولكن كأنما « القرعة » رست على شخصى لمعالجة القارعة بالقارعة ! وبقى أن أقول أيضا أن باشجاويش السرية المذكور بعد تلك الواقعة المدوية لم يحاول الثأر منى ، ولعله راجع نفسه وحمل لى تقديرا . وكأنما نسى الحكاية برمتها ونسيتها .. وإن لم أنسها فى هذه الحكايات !

نبذبة مـع الرياضيـات ..

معاملة المدرسين عسكريين ومدنيين لطلبة الكلية الحربية تختلف حسب طبائع وسلوكيات هؤلاء المدرسين . طبعا بصفة عامة كان المدرسون المدنيون بالكلية الحربية أقرب إلينا ، فقد كنا قريبى عهد بالمدارس الثانوية المدنية . ألفنا أمثالهم فيها . أو لعلهم يشعروننا أننا دخلنا الجامعة وهؤلاء هم أساتذتها . أية كلية جامعية لا يهم .. مادامت جامعية ! صحيح أن عددا منا كانوا قد انخرطوا فى جامعة القاهرة (فؤاد) أو جامعة الاسكندرية ، ولكنها قلة وقد فارقوها أو هربوا منها بعد سنة أو اثنتين . ربما لأنهم تقدموا لدفعات سابقة فى الكلية الحربية ولم يقبلوا . ربما تركوا الجامعة حبا فى العسكرية . ربما ضمانا للعمالة . ربما لأسباب أخرى . ولكن عدد هؤلاء قليل على أى حال . بل أن **أمين شاكر (أول دفعة سبتمبر ٤٢)** ترك كلية الطب وهو طالب فى السنة الثانية أو الثالثة وينجح بتفوق .. وقيل أن مرجع تركه الطب اختلافه مع أساتذته ، أو لعله « بعد نظر » فى رمية من غير رام ! على أن الأغلبية العظمى من الدفعة كانوا من حملة التوجيهية (الثانوية العامة) لسنة ١٩٤٠ ، وكان فى عقلهم الباطن – بشكل أو بآخر – تعلق بكليات الجامعة . وكنت واحدا من هؤلاء الكثرة الكاثرة .

وكان حالى مع مادة الرياضيات بالذات عجبا غاية العجب . ففى أحيان أحبها حبا يفوق الوصف ، وفى أحيان أبغضها إلى حد البلادة ! هل هو « مزاج متقلب » أم وفقا لبراعة « وحضور » أستاذ الرياضيات أو تهجمه وتجهمه ؟ مثلا فى شهادة الثقافة العامة حصلت على الدرجات النهائية تقريبا فى الرياضيات . ثم فى التوجيهية احترت بين القسم الأدبى والقسم العلمى واخترت الأدبى ، فميولى الأدبية كانت قد تفتحت .. وعينى على كلية الحقوق ! وكان بالقسم الأدبى شعبتان أيضا – وفى مادة واحدة – فإما أدبى رياضة وإما أدبى فلسفة . ووجدتنى تلقائيا اتجه إلى الأدبى رياضة . وما أن مرت عشرة أيام حتى كنت أطلب تحويلى إلى أدبى فلسفة ! ثم ما هى إلا أيام أخرى حتى آثرت العودة إلى أدبى رياضة . وبعد أسبوعين عاودتنى « الذبذبة » فطلبت تحويلى إلى أدبى فلسفة . وهنا استدعانى ناظر المدرسة العباسية الثانوية وسألنى : أنت إيه حكايتك بالضبط ؟ لماذا لا ترسى على بر ؟ قلت وأنا فى شدة الخجل : خلاص أدبى فلسفة .. فهذه المرة عملت « استخارة » ! وضحك الناظر وأعادنى إلى أدبى فلسفة قائلا ما كان يجب أن يقوله : طيب .. وهذا قرار لا رجعة فيه وكفاك لعب عيال !

وفى اعدادى بالكلية الحربية كان يدرس لنا مادة الرياضيات **المرحوم محمد بنونة** . أستاذ كبير وقدير بلا شك . ولكن من اعتزازه بنفسه وخفة ظله معا كان يحب « التريقة » التى قد تبعث ضبابا قد يحول دون وصول المادة – بيسر – إلى ذهن المتلقى . والظاهر أن المثل الشعبى « مبروم على مبروم ما يركبش » صح فى حالتى معه ، فلكونى شغوفا بالتريقة مثله – ولأنه « مدنى » وممكن الاجتراء عليه بعض الشىء – فقد كنت أبادله التريقة ، وكأنما شغلت بها عن تلقى جوهر مادة الرياضيات . وأذكر أنه فى الواجبات (المسائل والتمارين) التى كان يعهد بها إلينا بين حصة وأخرى ويصححها أنه دأب على « التأشير » على ثلث أوراق إجابة الطلبة بتأشيرة خصنى بها وهى : « عصبة بدوى » ! إما أنه قصد بها أننا غششنا من بعضنا البعض بزعامتى ! وإما أننا جميعا دون المستوى ! وكانت النتيجة أننى نجحت فى مادة الرياضيات من الاعدادى بدرجة « مقبول » وهى على أى حال أرحم من الرسوب فى تلك المادة ، فقد جرى نظام الكلية الحربية أن المادة التى يرسب فيها الطالب « تُشطَب » ولا تضم درجتها إلى المجموع الكلى وبالتالى يهوى من حالق .. ويمكن

أن ينجح – باستثناء الرسوب فى مادة التكتيك – مادام مجموع درجاته فى المواد كلها قد تعدى ٦٠٪ ولو كان شطب له مادتان أو حتى ثلاث مواد !

وعلى خلاف ما جرى فى الاعدادى فقد تولى تدريس مادة الرياضيات لنا فى القسم المتوسط **الدكتور عبد العزيز سيد** (وزير التعليم العالى فى الستينيات) . وكان – رحمه الله – يشرح المادة بهدوء وبرصانة وبيسر هو « السهل الممتنع » أو بالأحرى السهل النافذ إلى اللب . فأحببت المادة وبرعت فيها ، وحصلت فى الامتحان النهائى بالقسم المتوسط على درجة « امتياز » فى مادة الرياضيات ! ومن الغريب أن ابنى ورث عنى هذا المنحى . فحتى قبيل شهادة الاعدادية كان بينه وبين الرياضيات عداء مقيم . وكنت ألاقى عنتا معه حين جعلت من نفسى مدرسا خصوصيا له فى المنزل . ثم حين عثرت على « كنز » فى صورة أستاذ رياضيات موهوب قادر على ترغيب الطلبة فى مادته واستخراج كوامن الموهبة من أعماقهم . وهو **الأستاذ محمود فؤاد سيد أحمد** مفتش الرياضيات بوزارة التربية والتعليم سابقا – وبدأ يتعامل مع ابنى كمدرس خصوصى نقله نقلة نقلة أخرى فإذا بالرياضيات معشوقته « ولعبته » فلا يستعصى عليه شىء منها . ويمضى فيها كما تقطع السكين الحادة قالب الزبد بغير عوائق ، ويحصل على الدرجات النهائية ويمتاز بها فى الثانوية العامة ثم فى كلية الهندسة حتى تخرج منها مهندسا إنشائيا . وكان سر التحول والفضل لله سبحانه ثم لمن حبب إليه هذا المجال العلمى .

وكما حدث فى مادة الرياضيات – وحذو الحرف بالحرف تقريبا – جرى فى مادة الاقتصاد . كان أستاذ الاقتصاد فى الاعدادى **الدكتور أحمد سويلم العمرى** ، ثم فى المتوسط **الدكتور حسين فهمى** .. والتفوق – تفوقى – فى الاقتصاد جاء فى المتوسط فقط فلم يكن بينى وبين الدرجة النهائية إلا درجتان فحسب . مع اننى – على المستوى الاقتصادى الشخصى – قد لا أزيد عن درجتين فوق الصفر .. ولا فخر !

أما المدرسون الضباط العسكريون فهم كما قدمت يختلفون وفقا لطبائعهم . فمنهم الشديد الطيبة حتى ليعتبر ملائكيا ، ومنهم المؤذى « لله فى لله » ! ومنهم من نضحك عليه ، ومنهم من يضحك علينا ! ومنهم الصارم ومنهم الساخر وهكذا ..

حـكايــة عبد النــاصـــر مع الشـــاذلى
وكيف تحول إلى أحسن واحد فى العالم !

وقبل أن استعرض قائمة أسماء المدرسين عسكريين ومدنيين الذين تعاقبوا علينا فى الكلية الحربية ، وبمناسبة « السخرية » فثمة حكاية مشهورة فى أوساط الجيش وهى بالغة الطرافة . بدأت فى أواخر الثلاثينيات – أى قبل التحاقنا بالكلية الحربية واستكملت طرافتها وذروتها فى أواخر الخمسينيات .

يروون أن « اللواء » عبد المنعم الشاذلى مدير نادى هيليوبوليس كان مدرسا برتبة اليوزباشى فى الكلية الحربية سنة ١٩٣٧ عندما كان جمال عبد الناصر طالبا فيها . وفى جولة تفتيشية على طابور انصراف الطلبة إلى أجازة نهاية الأسبوع كان الشاذلى هو الضابط الموكول إليه التفتيش . وكأنما لم يجد من بين طلبة الكلية الحربية سوى « جمال عبد الناصر » ليمارس فيه سخريته .. وأمام الملأ ! وجد الشاذلى أمامه فتى طويلا نحيلا أسمر الوجه حاد النظرات كبير الأنف فوجه إليه هذه الكلمات من غير مناسبة :

« أنت إيه ؟ جاى منين ؟ تلاقيك أحسن واحد فى عيلتكم » !

ومرت السنوات ، وقامت ثورة يوليو ٥٢ ، ونسى الجميع هذه الكلمات العارضة التى عفا عليها الزمن والتى مرت على الكلية الحربية من أمثالها الكثير والكثير . نسى الجميع الحكاية فيما عدا اثنين : جمال عبد الناصر (« الفيل » « المتضرر » !) وعبد المنعم الشاذلى (« العقرب » « اللاذع » !) .

ترقى عبد المنعم الشاذلى إلى رتبة اللواء وعين قائدا لسلاح المدرعات . وفى سنة ١٩٥٨ وبعد قيام الوحدة المدوية بين مصر وسوريا . وفى ١٤ من شهر يوليو ١٩٥٨ وكان جمال عبد الناصر رئيس الجمهورية العربية المتحدة قد استقل سفينته لحرية (يخت « فخر البحار » سابقا) فى زيارة لصديقه الحميم « جوزيف تيتو » رئيس يوغوسلافيا .. شبت ثورة العراق . فرأى عبد الناصر أنه من المناسب التشاور والتذاكر مع قادة الاتحاد السوفيتى (خروشوف بالذات) إذ أن موازين القوى أخذت تميل أكثر وأكثر إلى نجاحات حركات التحرر الوطنى التى كان عبد الناصر فيها قطب الرحى . وبدلا من أن يعود عبد الناصر بحرا عاد بالطائرة التى رؤى أن تهبط

فى مطار حربى هو مطار « أبو صوير » حيث كان فى استقباله استقبالا رسميا قادة القوات المسلحة وقد اصطفوا لتحيته . ومضى عبد الناصر يصافحهم الواحد تلو الآخر إلى أن وصل إلى اللواء عبد المنعم الشاذلى (إياه) فابتسم عبد الناصر وهو يصافحه وسأله قائلا : أيوه يا شاذلى .. دلوقتى أنا إيه ؟!

واستحضر الشاذلى على الفور حكايته العابرة القديمة معه فى الكلية الحربية منذ قرابة عشرين سنة فأجاب على سؤال عبد الناصر قائلا بصوت عال : يافندم سيادتك أحسن واحد فى العالم ..!

واشتهرت هذه الحكاية طويلا – وإن لم تسجل كتابة – إلى أن طواها النسيان ، ولكننى ارتأيت أن أبعثها من جديد وأسجلها فى استطرادات هذا الكتاب – وما أكثرها .. – نظرا لطرافتها الملحوظة .

الأحب والأهدأ والأحمس !

إن ذكرياتنا مع مشاعرنا نحو مدرسينا الضباط وغير الضباط ربما تحتاج إلى كتاب قائم بذاته . حسبى هنا أن أقول إنهم جميعا أصحاب فضل علينا . وإن أحب مدرسينا إلى قلوبنا كان **اليوزباشى المهندس محمد الفاتح عمر** (أمير الأمراء .. ومدير المطابع الأميرية فى الستينيات) **واليوزباشى مصطفى صادق أحمد** (أوسم ضباط الكلية ومن أكثرهم أدبا ودبلوماسية وسفير مصر فى كوبنهاجن ومدير نادى التحرير الدبلوماسى فيما بعد) وأن أهدأ ضباط الكلية حتى لنكاد لا نسمع لهما صوتا كانا **اليوزباشى زكريا محيى الدين** (رئيس الوزراء فيما بعد) **ومحمود رياض** (وزير الخارجية فيما بعد) . وأن أكثر الضباط حماسا كان **اليوزباشى يوسف منصور صديق** (حجر الزاوية فى ثورة ٢٣ يوليو ٥٢ .. و « شهيدها ») **واليوزباشى أحمد عبد العزيز** (القائمقام أحمد عبد العزيز قائد المتطوعين وأشهر شهداء فلسطين) **والصاغ محمد كامل الرحمانى واليوزباشى محمد وجيه خليل** . وكان يوسف صديق وأحمد عبد العزيز بين مدرسى التاريخ العسكرى لنا بالكلية الحربية ، وقد دخلا بالفعل التاريخ العسكرى لمصر والوطن العربى .

بقى من مدرسى مادة التاريخ العسكرى لنا بالكلية الحربية اثنان آخران هما **اليوزباشى أ . ح محمد عبد العزيز فتحى** (اللواء مدير خفر السواحل ورئيس

شركة باتا بعد الثورة) **والقائمقام يوسف بك مصطفى** .. وهو « مجاهد » مصرى قديم بالجيش المصرى والجيش التركى واعتزل الحياة العسكرية واحتفظ بالتاريخ العسكرى .

وكان أشد ما يضايق القائمقام يوسف بك مصطفى أن يغلب النوم أحد الطلبة أثناء إلقائه محاضرته . وكان أول جار لى فى « التختة » بالقسم الاعدادى الزميل الصديق الأعز **محمد الكشكى** ضيق العينين لدرجة أن لا تدرى أهو نائم أم صاح ! وفى إحدى المرات إزدادت شكوك يوسف بك مصطفى فى أمر يقظة الكشكى فاقترب منه . وحين تبين له أن المسألة ليست مجرد عينين شبه مغلقتين وإنما ها هو ذا يسمع شخيره خافتا هوى بمؤشره فوق طربوش الكشكى صائحا « قوم فذ » !

لكن هناك حكاية طريفة ومثيرة للضحك حول يوسف بك مصطفى وقد اشتهرت فى أرجاء الكلية فى عهدها وطواها الزمان ، وأزيح عنها الستار الآن . وهى تخص زميلنا « **يحيى مصطفى خضير** » وأباه **الأميرالاى مصطفى بك خضير والقائمقام يوسف بك مصطفى** . وقد حدث أيضا أن نام يحيى مصطفى خضير خلال شرح يوسف بك مصطفى فدنا منه يوسف بك وأخذ « يصرخ » فى شرحه عسى أن يفيق يحيى مصطفى خضير من نومه . فلما لم يفعل هوى يوسف بك بمؤشره فوق كتفه ، ولم يملك جماح نفسه وغيظه من أن يخاطبه قائلا : اصح يابن الكلب ! وصحا يحيى مصطفى خضير على هذا السب العلنى ! وذهب خلال أجازة الخميس والجمعة إلى أبيه الأميرالاى مصطفى بك خضير شاكيا .. وقص عليه الحكاية .

وللأسف فإن الأميرالاى مصطفى بك خضير لم يستطع معالجة هذا الموقف بحكمة ، وإنما فعل العكس على طول ' خط ! حضر إلى الكلية الحربية فى الأسبوع التالى وقد ضبط مواعيده على الحصد التى يلقى فيها القائمقام يوسف بك مصطفى محاضرته على طلبة الفصل الذى بين طلبته ابنه يحيى مصطفى خضير . واقتحم الأميرالاى مصطفى بك خضير الفصل ببدلته العسكرية (وبدون إحم ولا دستور) وخاطب يوسف بك مصطفى أمام طلبة الفصل جميعا قائلا : أنا ابنى يحيى مصطفى خضير عندك هنا فى الفصل .. وإزاى تقول لابنى يابن الكلب ؟

فما كان من يوسف بك مصطفى إلا أن أجابه قائلا : والله أنا ماكنتش عارف أن الكلب ده يبقى سعادتك !

وضج الجميع بالضحك . وعدّت الحكاية .. وكأن يوسف بك مصطفى قال عن مصطفى بك خضير ما قاله الشاعر العربى : أنت كالكلب فى وفاء العهود !

قصـيدة فى « التخـرج » !

وكان حفل تخرجنا من الكلية الحربية – كما قدمت – يوم ٢٥ أغسطس ١٩٤٢ ومنحونا أسبوعا « أجازة » لتفصيل وتسلم بدل الضباط برتبة الملازم الثانى .

وفى يوم أول سبتمبر ١٩٤٢ صباحا – وهو تاريخ تعييننا بصفة رسمية – تجمعنا فى حرم الكلية الحربية وبالدقة فى مكتبتها الفسيحة . ثم حضر **القائمقام أ . ح عباس حلمى زغلول بك** كبير المعلمين العسكريين (اللواء نائب الأحكام العسكرية والمحامى الكبير فيما بعد) . أقبل علينا بأبوته وإشراق طلعته وأخذ يتلو أسماءنا واحدا إثر الآخر وفقا لترتيب تخرجنا « وللتتميم » علينا . وعندما نادى على اسمى وأجبت كالمتبع بصوت عال « افندم ! » نظر إلىّ نظرة تقدير غالية مازلت استحضرها للآن . ثم قال لى : كويسه يا مصطفى .. كويسه قوى !

ولم يفهم أحد من زملائى ماذا يعنى عباس بك زغلول بقوله هذا . حسبى أننى فهمت وامتننت .

والحكاية أننى أخترته هو بالذات – لأبوته الحانية وثقافته الناضجة السخية – لأبعث إليه قبيل تخرجنا مباشرة بخطاب فيه قصيدة كتبتها بلسان الكلية الحربية تحيى أبناءها الخريجين . دفعتى . دفعة سبتمبر ٤٢ . وكان عنوانها « كلية مجيدة » ..

ورغم أن أمير الشعراء أحمد شوقى هو شاعرى المفضل إلا أننى كتبتها على نهج قصيدة حافظ إبراهيم الشهيرة « مصر تتحدث عن نفسها » . ربما لأن حافظ إبراهيم من الضباط الشعراء ، أو الشعراء الضباط . وقد استهللت قصيدتى تلك بهذه الأبيات :

وذّع النشء يا قصيـد وهــنّ ... وترنّـم بمـا تـحسّ وغــنّ

فرحة النشء فرحتى .. يالسعدى ... يالفخرى ! جهادهم كان منـى

أنا تـاج بين المعاهـد واسأل ... مصر فى نصرها تنبئك عنى !

الفصل الثانى

من كوبرى القبة الى طريق المطار

□ هذا الفصل أحترت أين أضعه فى طيات حكاياتى

ربما كان أول ما يتبادر إلى الذهن أن موضعه الطبيعى هو فى ختام الكتاب بحكم الأقدمية .. أقدمية الأحداث والسنين .

ولكنى لم ألزم نفسى بتسلسل تاريخى فى سياق سطورى ، وما كانت مثل هذه القيود تتفق مع روح الكتاب المنطلقة !

ومن هنا ولأننى خصصت الفصل الأول لأيامنا فى الكلية الحربية (وإن كنت سأعود إليها بالضرورة فى حديثى عن زملاء الدفعة) ، فلقد آثرت ـ والحديث مكثف طازج عن الكلية الحربية موديل ٤٠ / ١٩٤٢ ـ أن أقفز هنا فى هذا الفصل هذه القفزة « المحسوبة » إلى سنة ١٩٨٧ .. وهى ليست قفزة فى المجهول على حد التعبير المعروف ! هى محسوبة لأنها تعقد مقارنة أو توضح الفارق الكبير بين ما كانت عليه الكلية الحربية فى عهدنا وما انتهت إليه فى هذا العهد الحديث .. أوليس من المفيد تبيان تواصل الأجيال واختلافها أيضا . فلا بأس من استكمال « فذلكة » عن الكلية الحربية قائمة بذاتها . وهى ـ أى القفزة أو التى تبدو مثل القفزة ! ـ محسوبة لأن

فيها أيضا إطلالة سريعة على نشأة الكلية الحربية وتطورها منذ أن كانت بذرة فى اوائل القرن الماضى إلى أن استوت على سوقها وشهدت من المد والجزر ما شهدت .

ما أحلى الرجوع إليها !

والحقيقة أنه مع تبلور فكرة هذا الكتاب فى ذهنى كان لابد لى من أن أخطو أولى خطواتى « العملية » فى التحضير له ، وأن أدخل البيوت من أبوابها . ولم يكن أفضل فى تحقيق هذا الغرض من زيارة المكان الذى نبتت فيه هذه الحكايات من بدايتها : الكلية الحربية ! حتى ولو تبدلت الأرض غير الأرض والبناء غير البناء . فالاسم والمعنى والاهداف هى الأصل سواء كانت فى « كوبرى القبة » كما ألفناها ، أم فى أطراف مصر الجديدة على « طريق المطار » كما هى الآن .

وكان ذلك حدثا هاما أن أعود لدخول الكلية الحربية من جديد وبعد أن كان آخر عهدى بها فى الأربعينيات طالبا ثم زائرا فى « ركاب » الفريق محمد حيدر باشا وزير الحربية وهو يخطب فى الخريجين حتى أول الخمسينيات .. ولم أر ـ منذ قيام ثورة يوليو ٥٢ ـ من الكلية الحربية إلا أسوارها الخارجية هنا وهناك .

نعم كان ذلك يوما تاريخيا بالفعل وهو يوم ٢٤ من فبراير سنة ١٩٨٧ الذى حدده لى اللواء أركان الحرب محمود على المصرى مدير الكلية الحربية لأجلس إليه فى مكتبه بالكلية وأسأله وأسمع منه . وكأنما كان لسان حالي يردد : ما أحلى الرجوع إليها زائرا لا طالبا !

لم يتحدث اللواء المصرى عن الماضى كثيرا وإنما عن الحاضر والمستقبل ، ولم أشر إلى الماضى إلا من خلال عقد المقارنات بين أيامنا كطلبة فى الكلية الحربية وأيام الطلبة الجدد الآن . وقد أغنى اللواء المصرى عن حديث الماضى السحيق وتاريخ الكلية الحربية منذ نشأتها كتيب مطبوع أهداه لى ، وكان قد صدر فى سنة ١٩٨٦ بمناسبة مرور ١٧٥ سنة على قيام الكلية الحربية .

نعم هو تاريخ عتيق ولا يخلو من طرافة وحكايات .. ولعل ترتيب الكلية الحربية بين المعاهد والجامعات يأتى مباشرة بعد جامعة الأزهر الشريف ، وإن كان الفاصل بينهما عدة قرون .

وكان اسم الكلية الحربية عند انشائها فى سنة ١٨١١ « مدرسة القلعة» ، ولا غرابة فى أن يكون صاحب فكرتها هو ذلك الرجل الذى يعتبر أول منشىء لمصر الحديثة وباعث لنهضتها : محمد على .

مدبحة المماليك جرت فى القلعة ، وفى أعقابها مباشرة أنشئت فيها تلك المدرسة وسميت باسمها .. باسم القلعة لا المماليك طبعا !

ومحمد على البانى هو « ألبانى » كما هو معروف .. ومن الطريف أنه حين حاول تطبيق النظم الأوروبية الحديثة على قواته من الألبانيين عزفوا عن التجديد وثاروا على التحديث ، فما كان من محمد على إلا أن نقل مدرسة القلعة (الكلية الحربية) إلى أسوان فى سنة ١٨٢٠ ليبعد بها عن الأنظار ولتقترب أكثر وأكثر من السودان الذى امتدت إليه أنظاره وتطلعاته وفراسته وليجند السودانيين مع المصريين .

وأصبح لهذه المدرسة كيانها بالفعل وخاصة حين تولى ادارتها **الكولونيل الفرنسى سيف** والمعروف بعد اسلامه باسم **سليمان باشا الفرنساوى** .

ومن أسوان انتقلت المدرسة الحربية ـ وهذا كان اسمها الجديد ـ إلى اسنا سنة ١٨٢٣ ثم إلى أخميم فالنجيلة فأسيوط ثم استوت فى موقع بين الخانكة وأبى زعبل فى معسكر مركزى عام للجيش سمى « جهاد أباد » فأطلق عليها مدرسة الجهادية ، فالحربية .. وتفرع من المدرسة الحربية ـ ومع فتوحات محمد على ـ مدارس أركان حرب والسوارى والطوبجية بين السنوات ١٨٢٥ و١٨٣١ .. وكان عصرا حربيا ذهبيا .

ولست أريد الدخول فى تفصيلات ومتاهات تاريخ المدرسة الحربية مع اختلاف الولاة بعد محمد على وابنه ابراهيم ثم إظلام عهد عباس الأول فتأرجحات عهد سعيد باشا بين الاقدام والاحجام .

ثم جاء عهد اسماعيل باشا من سنة ١٨٦٣ / الى ١٨٧٩ (أى ١٦ سنة .. ومن المصادفات أن تتماثل معها فى عدد السنين فترة حكم حفيده فاروق الأول من سنة ١٩٣٦ الى سنة ١٩٥٢ .. وحتى فترة حكم جمال عبدالناصر من سنة ١٩٥٤ حتى

سنة ١٩٧٠) وكان عهد اسماعيل امتدادا لعصر محمد على فى التحديث والأخذ بمظاهر الحضارة الغربية البازغة ، والتى كان من بينها تطوير المدرسة الحربية وتفريعها إلى مدارس للسوارى وللطوبجية وللهندسة العسكرية وللأركان حرب وللاشارة وللجبخانة وللطب البيطرى .. الخ . وبلغ جملة طلبة هذه « الجامعة العسكرية » ١٨٩٠ طالبا . ومع الاحتلال البريطانى لمصر فى سنة ١٨٨٢ « ترنّحت » المدرسة الحربية وأدارها وقلّصها ضباط انجليز .

وانتقلت المدرسة الحربية إلى كوبرى القبة بشارع الخليفة المأمون فى يونيو سنة ١٩٠٨ . ثم بعد أن حصلت مصر على استقلال سنة ١٩٢٢ نظمت الادارة الخاصة بالمدرسة الحربية وأصبح القائد مصريا فى حين بقى رئيس المعلمين انجليزيا . وظل هذا الوضع سائدا حتى عام ١٩٣٦ وتوقيع المعاهدة المصرية البريطانية فزاد عدد الطلبة ، وتم اقامة منشآت جديدة لمواجهة هذه الزيادة فى مجالات الايواء والتدريب والنشاط الرياضى . كما عدّلت المناهج الدراسية لتماثل ما يدرس فى الكليات العسكرية الأجنبية . وفى ١٤ مارس سنة ١٩٣٨ صدر أمر عسكرى خصوصى رقم ٤٢ (ربما تيمنا بدفعة سبتمبر ٤٢ !) بتغيير اسم المدرسة الحربية إلى اسم « الكلية الحربية الملكية » .

متى إذن انتقلت الكلية الحربية من مبناها القديم بكوبرى القبة إلى مبناها الحالى فى طريق المطار ؟ جرى هذا فى أول يوليو سنة ١٩٥٤ ، وكان تعدادها آنذاك ١٤١١ طالبا . ثم تم تخريج أول دفعة منها فى مارس ١٩٥٥ . ومن سوى البكباشى أ . ح جمال عبدالناصر قائد الثورة ورئيس مجلس الوزراء أجدر بالقيام بهذه المهمة ورئاسة حفل التخرج ؟!

ولو كانت مساحة الكلية الحربية « الجديدة » بطريق المطار ١٤٤ فدانا كما بدأت لكانت هذه وحدها أضعاف مساحة الكلية الحربية القديمة . فكيف وقد توسعت فى الأعماق والأجناب فأصبحت ٣٥٢ فدانا ثم ٤٠٠ فدان . انها ـ على أى حال ـ معفاة من قانون تحديد الملكية (أو الاصلاح الزراعى) الذى أصدرته الثورة ! حتى ان المرء يشعر وهو يحاذيها أنها تمتد إلى ما لا نهاية .. أقصد الكلية الحربية لا الثورة !

فترة وحيدة مؤقتة ابتعدت فيها الكلية الحربية عن مكانها الحالى حين انتقلت إلى

السودان الشقيق مع حرب الاستنزاف فى شهر فبراير ١٩٧٠ ثم عادت إلى قواعدها سالمة فى نوفمبر ١٩٧٢ ..

سبحان مغيّر الأحوال

ومثلما اختلف كل شىء فى هذا الزمان وارتفع وزاد عما كان عليه فى زماننا حدث ذلك للكلية الحربية .. وبطبيعة الأشياء وتطورها .

■ كنا أربع سرايا أولا عن آخر ويتراوح تعداد الطلبة بين ٤٠٠ و٥٠٠ (أحيانا بلغت ٦٥٠) فأصبحت الكلية الحربية الآن ١٨ سرية (أى لواء)وتعداد طلبتها يناهز ٤٠٠٠ طالب !

■ كان عدد الأساتذة عسكريين ومدنيين فى حدود الثمانين وبات عددهم الآن ٤٥٠ عسكريا و٢٠٠ مدنى ، وسوف يزيدون ..

■ كانت العلوم العسكرية والمدنية ١٨ مادة فغدت الآن ٣٢ مادة وعلما .

وبعد ان كنا قد قضينا عامين لم نجر فيهما مناورة عسكرية واحدة ، بات من البرامج والاعدادات الهامة الآن مناورة سنوية ضخمة لا مقطوع ولا ممنوع .

■ حصص المذاكرة زادت من ٣ ساعات إلى ٥ ساعات يوميا ، ولهذا امتد السهر .. فلم تعد « نوبة نوم » الساعة التاسعة والنصف مساء بل فى الساعة ١١ مساء . اما « نوبة صحيان » فهى ثابتة « مقدسة » فى الخامسة والنصف صباحا !

■ طرأت أشياء ترفيهية لم نعهدها على أيامنا . فهناك الآن ناد للطلبة وبوفيه و٣ كافيتيريات .. يعنى لو أنها وجدت وحتى على مستوى ضيق على أيامنا لكانت تغنى أمثالى عن محاولة إحضار « الأكل الملكى » من منازلهم وما يترتب على ذلك من مخاطر !

■ ظلت العسكرية « الناشفة » على حالها فهى مطلوبة ومفهومة ، ولكنها تطهرت من أساليب القهر والاستفزاز والسخافات والاهانات .

بقيت مسألة بالغة الأهمية : أى نوع من التعليم والدراسة والمناهج يتلقى الطالب فى الكلية الحربية ؟

طبعا وأساسا وفى المقدمة تعليم الفنون العسكرية من الألف إلى الياء .. ذلك أمر حتمى وإلا فلا معنى لانشاء كلية حربية .

ولكن ماذا عن العلوم الأخرى ؟

لقد كان فى زماننا يكتفى بثقافة ومعلومات عامة كأنما نقطف من كل بستان زهرة فى اللغات والعلوم الاجتماعية والرياضيات والطبيعة والكيمياء والاقتصاد إلى آخر ما أوضحت فى مناسبة هذا الحديث من قبل عن السنتين من سبتمبر ٤٠ حتى سبتمبر ٤٢ . غير ان هذا لم يعد يناسب العصر والتطور من ناحية « ومستقبل الضابط » من ناحية أخرى .

ولهذا فقد بدأت تجربة جديدة منذ نهاية سنة ١٩٧٩ وكانت تستهدف تطوير التعليم والمنهج والدراسة بالكلية الحربية بحيث تتجه الى شعبتين . شعبة يؤهل فيها الطالب طوال السنوات الأربع من دراسته بالكلية الحربية لسنة خامسة نهائية ـ بعد التخرج ـ فى كلية التجارة يحصل بعدها وبموجبها على بكالوريوس التجارة .. ويكون فى تلك السنة الخامسة بكلية التجارة متفرغا نصف الوقت .

وشعبة أخرى يؤهل فيها الطالب طوال السنوات الأربع من دراسته بالكلية الحربية لسنة خامسة نهائية بعد التخرج فى كلية الهندسة يحصل بعدها وبموجبها على بكالوريوس الهندسة . ويكون تفرغه فى السنة الخامسة بكلية الهندسة تفرغا كاملا .

ولم تأت هذه التجربة بنتائج مجدية أو طيبة فى كلية التجارة . أما فى كلية الهندسة فكانت نتيجتها أشد سوءا .. كأنما يصبح الضابط ـ وهو ضابط على كل حال قبل السنة الأخيرة بالتجارة أو بالهندسة ـ أقول كأنما يصبح الضابط الذى لا يجتاز بنجاح امتحان البكالوريوس هنا أو هناك معلقا بين السماء والأرض .. أو بتعبيرنا السائد : يرقص على السُلَّم ..

ومن هنا رئى البحث عن بديل لهذه التجربة يكون أجدى وأفعل .

والحق أن الهدف من وراء ذلك ـ فوق التزود بمزيد من الثقافات ـ كان يتوخى تأمين مستقبل الضابط فى سن الرجولة أو الكهولة (بعد سن الأربعين) إذ لوحظ أن مدة الخدمة بالجيش لعدد غير قليل من الضباط تنتهى مع رتبة العقيد (القائمقام) ولا تتسع مجالات الترقى إلى الرتب الأعلى إلا لعدد محدود . فالضابط « العقيد » المحال إلى المعاش هو فى سن الرجولة إذن ، فهل يتحول إلى طاقة عاطلة ؟ كيف يستفاد من خبراته الدراسية والعملية فى الحياة العامة بعيدا عن حكاية « أهل الثقة » التى لا تدوم ولم تدم ؟

ومع التأمل والبحث والتدارس وجدوا أن التخصص المفيد لطلبة الكلية الحربية إنما يكمن فى الدراسات الهندسية إلى جوار العسكرية طبعا وأساسا .. فما هى الجرعة اللازمة وما هو الأسلوب الأنسب ..

مثلا .. حتى فيما يخص سلاح المشاة فقد باتت المشاة كلها ميكانيكية وتدرس الوقود والكومبيوتر إلى آخر ما يلزمها .. وقس على ذلك فيما يتعلق بالمدفعية والمدرعات .. الخ .

وهذا الحجم الكبير من الدراسة الهندسية من المفروض ـ وأخذا بنظرية التطوير ومواجهة المستقبل ـ أن يعادل شهادة ما .

وبدأ قادة الكلية الحربية والمسئولون عن التعليم يجوبون - فى جولات استقصاء ميدانية ـ الكليات العسكرية بين الدول المتقدمة وبالذات فى الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا .

كلية « وست بوينت » الأمريكية العسكرية مثلا تمنح خريجيها بكالوريوس علوم عسكرية بالاضافة إلى شهادة هندسة وعلوم يؤهل طلبتها لها . وعلى سبيل المثال فان « ايزنهاور » قائد جيوش الحلفاء فى الحرب العالمية الثانية ورئيس الولايات المتحدة الأمريكية فى الخمسينيات (٥٣ / ١٩٦٠) هو خريج كلية وست بوينت العسكرية وحاصل على شهادة هندسة وعلوم .

على أن اللجنة العسكرية المدنية المصرية انتهت إلى أن أصلح الأنظمة التى يحسن الأخذ بها هو النظام الانجليزى . فطالب الكلية الحربية الانجليزى يحصل على

بكالوريوس علوم عسكرية وبكالوريوس هندسة تكنولوجية بموجب تنسيق مع جامعة « لافيرا » الانجليزية المعترف بها دوليا والتى تدّرس الهندسة فى ثلاث سنوات مكثفة .

وهكذا تم الأخذ بهذا النظام وتطبيقه فى الكلية الحربية المصرية ابتداء من الدفعة رقم ٨٣ التى بدأت العام الدراسى ١٩٨٦ / ١٩٨٧ وتعاقدوا مع الجامعة الانجليزية واتفقوا على المنهج واستدعوا بعض الأساتذة الانجليز للتدريس فى المراحل الأولى لحين استقرار النظام الجديد . وباتت الكلية الحربية تقبل الحاصلين على الثانوية العامة (علمى ورياضة فقط) بأعلى المجاميع (ويلاحظ أن هذا النظام الجديد هو غير نظام « الكلية الفنية العسكرية » التى لا تزال وستظل قائمة ، والتى تدرّس منهج كليات الهندسة بالتمام والكمال - إلى جوار العلوم العسكرية ـ وتخرّج ضباطا مهندسين على وجه التحديد) .

نعم .. هكذا تم الأخذ بهذا النظام المتبع فى الكليات العسكرية البريطانية وتطبيقه فى الكلية الحربية المصرية . ومن هنا ضمنوا شيئين هامين للحال والاستقبال . فمن جانب أصبحت الدراسة العلمية والعملية بالكلية الحربية ذات مستوى رفيع . ومن جانب آخر « ضمنوا » للضباط عند التقاعد فى سن مبكرة أن تتخاطفهم الأعمال المدنية ، لخبرتهم العلمية والعملية المفيدة ولشهادتهم الفنية المعترف بها دوليا . فطوبى لهم هذا الاعداد الذكى والمستقبل الرضى .

هل سيمضون فى الكلية الحربية على هذا النسق الجديد أم يلحقه تغيير آخر ؟ ذلك أمر فى علم الغيب .. والله أعلم !

ولقد يبدو هذا الفصل من الكتاب موجزا فعلا ..

ولكنى وددت أن يكون فيه « ما قل ودل » !

الفصل الثالث

كيف عثرت على « حجر رشيد »؟!

□ حين اختمرت فكرة هذا الكتاب لدىّ كان العثور على أسماء دفعتى كاملة هو نقطة البداية أو « الورقة الرابحة » بل الخطوة الحاسمة التى بموجبها - إذا صحّت - أشرع فى نسج سطور الكتاب ، وإذا لم تصحّ وتتوفر عدلت عنه كليةً مكتفيا باعزاز حاضر غائم أكنّه لدفعتى بينى وبين نفسى دون تسجيل . وبالتالى فإننى لو فشلت فى العثور على كشف الجيش القديم Army List ما كنت لأستمتع هذه المتعة العظيمة القريدة المنعشة التى صاحبتنى حين شرعت ومضيت فى كتابة حكايات سبتمبر ٤٢ .

وقد قلت لكل من لاحظ أننى أعكف على مواد وسطور هذا الكتاب باهتمام بالغ دؤوب : حسبى أن السعادة والحماس والمتعة غمرتنى كما لم تغمرنى فى خلال ما أصدرت من كتب نثرا وشعرا ! حسبى أننى عشت بصفاء نفس وشباب قلب هذه الذكريات والحكايات والمواقف والطرائف من جديد تتدفق على الورق فى إنسيابية وتلقائية ، وبمذاق يطيب لى حلوا ومرا ! حسبى هذا كله حتى ولو لم أطبعها وأصدرها فى كتاب ينشر ويقرأه من يقرأه .

ولعلى توهمت أن العثور على أسماء دفعة سبتمبر ٤٢ ميسور جدا . لم أكن أخال أن دون ذلك خرط القتاد كما يقولون . فما هى حكاية هذا الكشف العزيز ؟ وهو بالفعل كشف بمعنى « قائمة » ، وكشف بمعنى « اكتشاف » كأننى عثرت على حجر رشيد ! ما هى حكايته تفصيلا ؟

بدأت بمكتبتى « المنكوشة » المبعثرة بين حجرة المكتب وحجرات أخرى والمكدس عدد منها فى « البدرون » ! لأمر ما كان يلحّ علىَّ تصوّر معذَّب بأننى أقتنى من قديم « كشف جيش » منذ النصف الثانى من الأربعينيات وقد دونت فيه أسماء دفعة سبتمبر ٤٢ بين سائر الدفعات . ورحت أفتش عنه أسابيع متصلة دون أن أعثر عليه إلا أن أزيد مكتبتى « نكشا فوق نكش » ! وبعد أن تأكد لى أننى فقدت أثر هذا الكشف العتيد أو ربما تخيلت أنه فى حوزتى من حيث أنه لم يكن من بين مقتنياتى .. لم أجد مندوحة من سؤال كل ضابط ألقاه من دفعتى أو غير دفعتى عن هذا الكشف فلم يكن المسئول بأعلم أو بأوفر حظا من السائل .بل إن البعض أنكر تماما أن مثل هذا الكشف جرى بين أيدينا ، وكأنما هو مجرد نسخة واحدة مخطوطة محفوظة لدى إدارة كاتم اسرار حربية .. فى حين أننى أقطع لهم بأنه مطبوع وحصل عليه الكثيرون منا . ولكن أحدا ليس عنده هذا الكشف الخفى !

ثم اتجهت لادارة شئون الضباط التى قيل انها الاسم الجديد لادارة كاتم أسرار حربية ، ألتمس الاطلاع على كشف الجيش القديم اطلاعا وثائقيا أصوره أو أنقله بخط يدى . غير أننى دخلت بهذا الطلب اليسير فى متاهات واستخبارات وتعقيدات صرفتنى تماما عن المضى فيها .. وكفى الله المؤمنين القتال .

حكاية احتفال الدفعة بنفسها

فى بداية سنة ١٩٦٧ كانت بى رغبة جامحة أن نحتفل ذلك العام (فى سبتمبر) باليوبيل الفضى (٢٥ سنة) على تخريج دفعتنا من الكلية الحربية . كنت أحن للقائهم ولو لسويعات . أن نجتمع من جديد لنتعرف على الجديد فى مسيرتنا أو نتواصى على إبقاء أواصر القربى بيننا بصورة ما .. فربَّ أخ لك لم ينجبه أبواك ! ولأن أقرب اثنين لحسن التنظيم والاطلاع بهذه المهمة كانا كمال الدين رفعت وزير الشئون الاجتماعية وعباس رضوان وزير الداخلية (آنذاك) بوصفهما من أبناء الدفعة وفى

أوج السلطة التى تيسر مثل ذلك الاحتفال ، فلقد كثّفت اتصالاتى بهما لاستقبال هذه المناسبة التاريخية بما هو جدير بها . ورحّبا ورسمنا معا الخطوط العريضة لهذا « المشروع » !

لم نكن ندرى أن القدر ـ بل غفلتنا ـ سوف يرسم خطوطا سميكة سوداء فى نفوسنا وكرامتنا فتتمزق تمزيقا إثر العدوان الاسرائيلى وهزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧ المنكودة التى احتلت فيها اسرائيل قطاع غزة وسيناء والضفة الغربية أى فلسطين كلها وسيناء كلها والجولان كلها . كيف حدث ذلك هكذا فى غمضة عين ، وما هى مقدماتها ونتائجها وأوجاعها فى قلب كل مصرى وعربى وفى قلبى بصورة مكثفة بوصفى ضابطا سابقا فى الجيش المصرى ، وبوصفى كرست عمرى وقلمى لقضية فلسطين ولكراهية ما تمثله اسرائيل . كيف ؟ هذه حكاية أخرى .. وأية حكاية . ومن المؤكد أن سأعود بمشيئة الله لتعذيب نفسى وقارئى بها عند الحديث عن أبناء دفعتى . رغم أننى أسرفت فى تجرع هزيمة يونيو وما قبلها وما بعدها فيما أصدرت من كتب ودواوين حتى أن الكاتب الشاعر الناقد الأخ العزيز كمال النجمى كتب معلقا على كتابى « كلام عنا وعن اسرائيل » قائلا « وكأن هزيمة ٥ يونيو وقعت على رأس واحد فقط هو صاحب هذا الكتاب » !

قصارى القول فى موضوعنا ان « اليوبيل الفضى » أصبح غير ذى موضوع . مات بالسكتة القلبية . فكيف نحتفل بعيد ـ أى عيد ـ ونحن كلنا فى مأتم كبير أقيمت سرادقاته فى أعماقنا .

وانقضت خمس سنوات عصيبة مرت فيها مياه كثيرة من تحت الكبارى كما يقولون ، وتبدّلت أشياء وجدّت أشياء وخضنا حرب الاستنزاف وعام الحسم فالاعداد للمعركة . والتقطنا بعض الأنفاس على ما فيها من غصة .

ونبتت مرة أخرى فكرة اجتماع دفعة سبتمبر ٤٢ فى سبتمبر ٧٢ أى بعد ثلاثين سنة . وكأنما نجتمع هذه المرة كى نتواصل على ارادة القتال والثأر وأن ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة . وكأنما الذين ابتعدوا من الدفعة عن صفوف القوات المسلحة لسبب أو لآخر يتولون « الحث » فى حين أن الباقين من الدفعة يتولون الأعمال التنفيذية . فقد أصبحوا لواءات وعمداء وقادة فى القوات المسلحة . ثم انها أمنية قديمة

أن نجتمع ونتعانق ونتذاكر ونستعلم ونرفه عن أنفسنا و« نهرِّج » أيضا ، فالحياة مستمرة لمن كتبت لهم الحياة !

وتطوع بمهمة الاعداد والاتصالات والتنظيم والتنسيق لهذا الحفل والعيد الثلاثينى ابن الدفعة **اللواء أ . ح محمد رفعت وهبة** الذى كان مديرا لسلاح الاشارة آنذاك (وهو أيضا رابع الدفعة وأقدم العاملين بالقوات المسلحة من زملاء سبتمبر ٤٢) .

وفى نادى الضباط بالزمالك تم الاجتماع والتأم الشمل وطفرت السعادة من الوجوه التى خرطتها تضاريس الزمن بتجاعيد هنا وشيبة هناك . ولكن « الروح » كانت فى الأغلب هى ذاتها التى حملناها أو جمعتنا ونحن فتية صغار طلبة بالكلية الحربية .

ولم يقتصر الاحتفال على ضباط الدفعة بل دعى اليه وشاركنا الضباط العظام الذين تولوا التدريس لنا خلال العامين اللذين قضيناهما بالكلية الحربية .

وكان خطيب الحفل وأكثر الحاضرين شبابا وحماسا أستاذنا **اللواء الدكتور السفير محمد كامل الرحمانى** ، وكأنه بخطبته كان يضع الخطة ويصدر الأمر بقتال العدو الصهيونى ، وهو ما تم بالفعل بعد سنة وخمسة أسابيع فى ٦ أكتوبر ١٩٧٣ .

إذن كان اختيارى فى محله للزميل اللواء محمد رفعت وهبة ليزودنى بكشف الجيش ، أو على الأقل بأسماء الذين دعوا إلى حفل سبتمبر ١٩٧٢ . غير أنه لا هو عثر على كشف الجيش ولا أوراق الحفل المذكور ، ولا هو نجح فى الوساطة لدى ادارة شئون الضباط ليكشفوا اللثام أو ليرفعوا الحظر عن كشف الجيش القديم وكأنه سر حربى خطير !

وأسقط فى يدى . هل كُتب على هذا الكتاب ألا يُكتب ؟!

وفجأة هبطت فكرة عبقرية على محمد رفعت وهبة أسعفته بها ذاكرته وكانت غائبة عنى . قال : أظن ان أسماء دفعات خريجى الكلية الحربية كانت تنشر كاملة فى « الوقائع المصرية » ! قلت : يا سلام .. عفارم عليك ! كيف فاتنى هذا المصدر ؟!

وعندما رجعت الى محفوظات وميكروفيلم مؤسسة جريدة الأهرام لاستخرج

العدد المطلوب من جريدة الوقائع المصرية صُدمت بأن الأهرام يحتفظ بها فقط منذ سنة ١٩٥٠ فى حين أن ضالتى المنشودة هى فى سبتمبر ١٩٤٢ ، أى أننا اعتبرنا بين تاريخ ما أهمله التاريخ !

ولم يبق سوى دار الكتب كأنه خط الدفاع الأخير .. ولم تخذلنى .

وبقى فى نفسى شىء من « حتى » ! و« حتى » أو هذا الشىء .. هو كشف الجيش الأكثر تفصيلا وتطورا من نشرة التخرج (وإن كانت أوفى فى بيان أسماء الدفعة كاملة) . كما أن كشف الجيش يحدد أسلحة ووظائف الزملاء و« يفضح » أعمار كل زملاء الدفعة !

وساق لى القدر فى شهر مايو ١٩٨٧ زميلا عزيزا ابن الدفعة ورفيق « التختة » المشتركة فى متوسط ٧ **العميد** أ . ح **عبدالوهاب راشد** . وأحضر لى صورة فوتوغرافية من الصفحات التى تحمل أسماء دفعة سبتمبر ٤٢ والبيانات عنهم وكشف الجيش لسنة ٤٩ / ١٩٥٠ .. فله أخلص الشكر .

ومن بعده « أتحفنى » الزميل العزيز **العميد عبدالحميد بكير** « بالأصل » .. بكشف الجيش كاملا ، بالمجلد نفسه أهداه لى ، وله وافر الشكر ..

اكتشافات فى كشف الجيش !

والواقع أن كشف الجيش منذ أن انضم إلى مكتبتى أصبح من أعز مقتنياتها .. وبات كأنه « بانوراما » حين أطل عليها من حين لآخر أو أتصفحها « يتخلق » أمامى الجيش المصرى فى سنة ١٩٤٩ طولا وعرضا وليس فقط دفعة سبتمبر ٤٢ . دفعات الضباط بالاقدمية العامة . بالأسلحة . بالوظائف . بتاريخ ميلاد كل ضابط . بالأوسمة والنياشين التى حصلوا عليها . بأسماء خريجى كلية أركان الحرب من سنة ١٩٣٩ حتى سنة ١٩٤٨ .. الخ .

ولعله مما استرعى انتباهى أن دفعة خريجى كلية أركان الحرب لسنة ١٩٤٨ والتى تخرج فيها الرئيس الراحل جمال عبدالناصر ، ربما كانت دفعة فريدة فى نوعها عبر تاريخ كليات أركان الحرب بين جميع بلدان العالم . لا أظن أن دفعة

من خريجي أية كلية أركان حرب أو غيرها سجلت عددا ونسبة عالية من الكبراء والوزراء بين خريجيها كما سجلت دفعة أركانات حرب مصر سنة ١٩٤٨ .. و« بالمصادفة » هي دفعة جمال عبدالناصر !

فمن بين ٢٣ خريجا هناك رئيس جمهورية هو جمال عبدالناصر . ونائب رئيس جمهورية قائد عام للقوات المسلحة هو عبدالحكيم عامر . واثنان من رؤساء الوزارات هما زكريا محيي الدين والمهندس محمد صدقي سليمان . وستة وزراء هم : صلاح سالم وثروت عكاشة وسمير حلمي وأمين حلمي كامل ونزيه أمين ، وكمال هنرى أبادير ! ومن الباقين من لا يقلون « رفعة » وهم : أمين أنور حسنين الشريف وعبدالمحسن مرتجي ومحسن ادريس ومجدى علي يونس ومحمد علي عبدالكريم وأحمد صلاح نسيم . ونسبة المهندسين بين الوزراء والكبراء عالية في دفعة أركان حرب ١٩٤٨ .

والحق أن معظمهم تجتمع فيهم مقولة : أهل الثقة .. وأهل الخبرة !

في جنازة صلاح سالم ..
عبدالناصر وعبدالحكيم يتساءلان عن جنازتيهما !

على أن من أكثر الشخصيات نفاذا وذكاء وديناميكية بين دفعة أركان الحرب هذه هو .. « **صلاح سالم** » ذلك القريب الى قلبي دائما منذ أن استضفته هو وزكريا محيي الدين وعبدالحكيم عامر في عربتي العسكرية يوم ١٧ مايو سنة ١٩٤٨ من العريش إلى غزة بفلسطين (وكانوا قد تخرجوا لتوهم من كلية أركان حرب) . وذهب زكريا إلى الكتيبة الأولى مشاة ، وعبدالحكيم إلى الكتيبة التاسعة مشاة ، أما صلاح سالم فلم يجدوا له مكانا في الأسبوع الأول فألحقوه بي وبالشئون العامة ووزعنا المصاحف معا على الضباط والجنود إلى أن تم تعيينه برئاسة القوات المصرية بفلسطين (بعد حصار الفالوجة في أكتوبر ١٩٤٨ اخترق زكريا محيي الدين وصلاح سالم إلى الفالوجة وانضما إلى جمال عبدالناصر والمحاصرين هناك لتعزيزهم ورفع قوتهم المعنوية) .

وإن لصلاح سالم حكايتين متداولتين بين الكواليس ولم يسبق نشرهما على حد علمي . **احداهما** وهو في فراش المرض ، **والثانية** وهو مثوى في نعشه .

اما الأولى : فقد حدث قبل وفاة صلاح بعدة شهور وفى سنة ١٩٦١ أن اشتدت عليه العلة (قبل رحلة العلاج فى أمريكا) ولزم فراش المرض فى بيته . وجلس من حوله عدد من أعضاء مجلس قيادة الثورة السابقين عبداللطيف البغدادى وزكريا محيى الدين وكمال الدين حسين وحسن ابراهيم . ثم بعد نصف ساعة من حضورهم ومن تبادل « الذكريات الثورية » مع صلاح سالم ، حضر أنور السادات وحده . جلس معهم لمدة عشر دقائق فقط لا غير ، ثم استأذن فى الانصراف بحجة ارتباطه بموعد .. فى حين انه ـ أى أنور السادات ـ حتى ذلك الحين ولسنوات بعده كان « خارج الصورة » ومن أبعد رفاق عبدالناصر عن الأعباء والمناصب المسئولة .

وما أن انصرف أنور السادات حتى التفت صلاح سالم إلى زواره قائلا : « عارفين مين اللى حيورث جمال عبدالناصر فيكم بكلكم » ؟! وصمت الجميع فى انتظار إجابة صلاح سالم الذى قال « مفيش غير هذا الأسمر الغطيس أنور السادات » !

وسواء أكانت هذه « الرؤية » من الذكى الأريب صلاح سالم ضربة معلم أم ضربة عشوائية أم حسابات موازين القوى ، أم شفافية .. فهى قد صدقت كما توقع تماما !

أما الحكاية الثانية . فقد جرت وقائعها (أو تأملاتها وهواجسها) فى جنازة المرحوم صلاح سالم الذى توفى فى ريعان شبابه يوم ١٨ فبراير سنة ١٩٦٢ وهو بعد فى الأربعين من عمره . وكان أول الراحلين من مجلس قيادة الثورة ، كما كانت الثورة فى أوج زهوتها بعد . ومن هنا فقد تجمع خلق كثيرون بعشرات الألوف يودعون صلاح سالم . وكانت واحدة من أضخم الجنازات الرسمية والشعبية حتى ذلك التاريخ . واصطفت الجماهير ألوفا ألوفا على جانبى الطريق من جامع عمر مكرم حتى جامع جركس .

وكان يتقدم الصفوف بطبيعة الحال أعضاء مجلس قيادة الثورة يتوسطهم جمال عبدالناصر وعبدالحكيم عامر جنبا الى جنب . ونحن بشر . ومن هنا فقد « بهرت » هذه الحشود الضخمة (التى لم تكن متوقعة بهذا القدر) كلا من جمال عبدالناصر وعبدالحكيم عامر . وسأل عبدالناصر صديقه عبدالحكيم بصوت متهدج ولكنه

مسموع : « يا ترى يا حكيم لما نموت حيمشى فى جنازتنا هذا العدد الكبير »؟!

« القمة الدرامية » كانت فى « الاجابة القدرية » التى هى فى علم الغيب .

حين انتحر (أو قُتل أو مات) المشير عبدالحكيم عامر فى ٢٥ أغسطس سنة ١٩٦٧ « هرّبوا » جثمانه إلى أسطال فى محافظة المنيا ، وشيعت جنازته بعدد محدود جدا كأنها « عملية سرية » أو جنازة أحد المجهولين .

وحين مات الرئيس جمال عبدالناصر فى ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٧٠ شيعت جنازته فى أول أكتوبر ١٩٧٠ بصورة رسمية وشعبية لا مثيل لها فى تاريخ مصر . يكفى أن شوارع القاهرة وحدها غصت بثمانية ملايين من المشيعين المنتحبين ، وماجت مصر بالدموع والاحزان والأناشيد الملتاعة التى ألفت ولحنت فى الطرقات فور المناسبة « الوداع يا جمال يا حبيب الملايين » كذلك كان الحال فى سائر مدن مصر والبلدان العربية . وكل نفس بما كسبت رهينة ، وسبحان من له الدوام وعنده الحساب ..

أسماء دفعة سبتمبر ٤٢ جملة واحدة

ولنعد إلى دفعة سبتمبر ٤٢ .. إلى أسماء أبنائها فى جملة واحدة « أتلو » المرسوم الملكى الصادر بتعيين دفعتنا ضباطا كما جاء منشورا فى الوقائع المصرية العدد ١٧١ فى ١٠ سبتمبر ١٩٤٢ . وتحت عنوان « تعيين » .

تفضل حضرة صاحب الجلالة الملك فأحسن بمنح حضرات الأفندية الطلبة المذكورين بعد خريجى الكلية الحربية الملكية رتبة الملازم الثانى (تحت الاختبار) اعتبارا من أول سبتمبر سنة ١٩٤٢ وعينوا فى الوحدات المبينة قرين اسمائهم (وسوف أجتزىء هنا بالأسماء) ..

أمين مصطفى شاكر ، ومحمود فوزى الوكيل ، وسعد حنفى حسن ، ومحمد رفعت وهبة ، وأحمد صادق ، ومصطفى كمال الزواوى ، وعمر حسين جوهر ، والسيد جمال الدين زكى ، وابراهيم محمد شرقاوى السيد ، وحسن محمد مجيد الجريدلى ، وعبدالرحمن فهمى ، ومحمد جمال خليفة ، وعبدالرحيم محمد عجاج ،

ومحمد سعيد سليمان ، وأحمد عصمت العزيزى ، ومحمد جمال الدين على محفوظ ، وابراهيم حسان زيادة ، وعلى مصطفى بغدادى ، ويوسف صلاح الدين مراد ، ومحمد حسان على شلبى ، ومحمد محمد أحمد أبوشقة ، ومحمد سعد الدين زكى ، ومحمد بيومى والى ، وحسين كامل ، وسعد غبدالله عفرة ، وحسين حسن عرفة ، وابراهيم رفعت ، وابراهيم عثمان اسماعيل تمام ، ومحمد كمال الدين سلامة الخولى ، ويحيى محمود فهمى ، وكمال الدين محمود رفعت ،وسعاد حسن ، وأحمد عزت بركات ، وعبدالرحمن محمد يوسف الشعبينى ، واللولى أحمد أبوالعز ، وابراهيم السيد حسن حجاج ، ومحمد سليمان سليمان الكشكى ، وعبدالرحمن الرافعى ، وعبدالله صادق ، ومحمد فتحى ابراهيم مبروك الديب ، ومصطفى كمال شاهين ، وأنور محمد السعيد السيد ، ومحمود عبدالله شكرى ، وعبدالسلام عبدالمجيد أحمد بدوى ، ومحمد على فهمى ، وحسن محمد التهامى ، ومحمد حسنى طاهر عبدالمنعم ، ومحمد أنور محمد مصطفى ، وابراهيم رشدى عبدالفتاح ، وخليل محمد زكى ، ومحمد مصطفى محمد خفاجى ، وأحمد البيلى أحمد عثمان ، وكمال محمد المسيرى ، وعلى أحمد الشيخ ، وابراهيم على محمد الوردانى ، وصالح مصطفى أمين ، ومصطفى كمال حسين ابراهيم ، وفتح الله رفعت محمد محمد أحمد فتح الله ، وكمال السيد حمزة ، وعبدالمنعم أحمد محمد عبدالله ، وسعد محمد عبدالمعطى قراعة ، ومحمود حافظ على ، ومحمد بيومى محمد البرقى ، وعبدالعزيز على حمدى ، وحلمى يعقوب سامى فانوس ، وعبدالقادر ابراهيم على عيد ، ومحمد عبدالهادى محمد ، وكمال محمد الغر ، وعبدالمجيد فوزى الشهدى ، وعزت ابراهيم سليمان ، وحسن يوسف فتحى ، وكمال الدين حسن على ، ومحمد مصطفى عبدالحميد داود ، ومحمد أبوالفضل ، ومحمود حلمى ، ورمضان عبدالحميد رمضان ، ومحمد محمد محمود بركة ، وأحمد امام ، ومحمد على فهيم ، وأحمد محمد حافظ ، وحسنين حسنى عبدالمجيد ، ومحمد فؤاد محمد السيد مرعى ، ومحمد مكرم محمود ، وأحمد فوزى عبدالمعطى مرعى ، ومحمد كمال حسن ، وسعد السيد محمود شحاتة ، وحسين السيد عبدالقادر ، ومحمد محيى الدين ابراهيم حسين ، ويحيى مصطفى خضير ، وعلى محمود على يوسف أغا ، وجميل فؤاد صالح ، ومحمد فتحى الخولى ، وخيرى محمود حسين ، ويحيى محمد زكى صالح ، وأمين ماهر ، وكامل شكرى عبدالحميد ، ومصطفى رياض بهجت بدوى ، وأحمد حمدى

عبدالرؤوف فائق ، وحسن حسنى حافظ حسن ، وفريد حبيب بشاى ، وأحمد صلاح الدين عفيفى عبدالعال ؛ وابراهيم كامل محمد ، والغريب محمد خليل الحسينى ، وبشرى حنا ولسن ، وحنا شاكر حنا ، وحسن ضياء الدين سليمان ، ومحمد شكرى ، وأمين سالم شحاتة الخولى ، واسماعيل صبرى ، وأحمد فؤاد سليم هلال ، وعباس عبدالوهاب أمين رضوان ، وحسن محمد زكى عليش ، ومصطفى كامل على صالح ، ومحمد على سالم ، وسيد جاد عبدالله سالم ، ومحمد عبدالهادى محمد حسونة ، ولطيف جيد شكرى ، وعبدالعزيز فهمى عبدالرحيم فهمى ، وأحمد عبدالمعطى كرمى ميزو ، وصبحى حليم غبريال ، وعلى صادق عبدالعزيز الجارحى ، وسعد زغلول عبدالغفور ، ونوال سعيد ، وجمال الدين محمد السنوسى محمد حسن ، وحسن أحمد وهبى ، وفريد محمود حمدى ، وحسين سيد على ، وعمر محمد السرساوى ، وهلال أحمد أحمد سليمان ، ومحمود حسين عبدالناصر ، ومحمد فتحى محمد كامل الابراشى ، وعبدالغنى عبدالجواد ابراهيم فرحات ، وعبدالوهاب محمد حسن عمر ، وشوقى اقلاديوس ، وسعيد شكرى ، وحسين حمزة ، وسامى عزمى ، ومصطفى حليم فهمى ، ويوسف عزيز عقداوى ، وعبدالوهاب عبدالوهاب الحديدى بدير ، وبدر لبيب منقريوس ، ومحمود عمر محمود سليمان ، وعبدالحميد بكير خليل ،ووهيب زكى وهبة ، وحسين حافظ فهمى ، وعمر عبدالفتاح عيد ، ومحمد قرنى حسن البدوى ، ومحمد صلاح الدين توفيق ، وكمال الدين فوزى ، ومحمد عبدالمنعم محمد توفيق النادى ، وأحمد ابراهيم العطار ، ومحمد فؤاد نصر ، ومحمد أحمد أبو دقن ، وزكى عبدالرازق حسن قنديل ، ورشاد حسن حسن حنتيرة ، وأحمد أحمد سعد ، وابراهيم عبداللطيف طلعت ، ومحمد محيى الدين محمد أبوالفضل ، ومحمود صفوت ، ومحمد عبدالمنعم خضر ، وحسين أحمد عبدالهادى ، ومصطفى كمال شمس الدين أبو زهرة ، وعبدالوهاب راشد ، ومحمد صلاح الدين المصرى ، وعبدالفتاح على محمد ، ومصطفى مختار ، وعبدالكريم عطية موسى ، وسيد أبو العلا ابراهيم ، ومحمد عماد الدين عبدالسلام حسن ، ومحمد فوزى مصطفى الشناوى ، وعبدالعال حسين أحمد شاهين ، وشكرى فهمى جندى ، ومصطفى كمال حسين زكى ، وعبدالفتاح محمد نصير ، وتيسير محمد عبدالقادر العقاد ، وعادل محمود العمرى ، وعبدالفتاح محمود الفقى ، ومحمد عثمان محمد ، وصبحى فؤاد يسى ، وصلاح الدين توفيق عبدالسلام ، وابراهيم عثمان السيد ، وزكريا بركات ،

ولطفى حنين ابراهيم ، ومحمد عبدالمنعم عبدالتواب ، ومراد جمالى ، وحسن حافظ فهمى ، وعبدالمنعم محمد السباعى شاهين ، وعباس همام زاهر ، وأحمد راغب العيوطى ، وعبدالسلام صبحى .

ما رأيكم؟
بسم الله ما شاء الله ..
وقد تكون كما « كُرّت » هكذا مجرد أسماء صماء ، ولكنها حين تدب فيها الحياة .. فأية حياة حافلة !! إن وراء كل اسم من هذه الأسماء قصصا وحكايات .. ولست أنكر أننى تهيبت من ثقل الدفعة بقدر ما أحببتها .

هل من المعقول أو من الممكن أن أنقِّب عنهم واحدا واحدا بعد هذا العمر الطويل ، ثم أتناولهم على التعاقب ؟

وهل سيحالفنى الحظ فى « استكشافهم » ، وماذا سوف أكتب عنهم ، وهل يسيغ لهؤلاء الأعزاء وللقراء الأعزاء أيضا ما أنا مقدم عليه ؟ وكيف وكيف ..؟

شىء ما .. احساس ما .. تصميم ما .. ايمان ما .. يقول لى : هيا تقدم ولا تخف فلعلها أمانة فى عنقك ،وتوكل على الله فانه هو سبحانه المستعان ، ومن توكل عليه فهو حسبه .

الفصل الرابع

نظرة عامة بين أبناء الدفعة

٤٢ ● حكايات سبتمبر ٤٢

□ كان أمامى منهجان لتناول أبناء وزملاء سبتمبر ١٩٤٢ فى هذا الكتاب . المنهج الأول – وهو الذى سلكته ابتداء – أن أستقصى عن مسيرة كل واحد منهم سواء باللقاء الشخصى معه ، أو بتكثيف الأسئلة و « التحريات » عنه لدى مصادر متعددة من زملائه وزملائنا ، أو بالاعتماد على الذاكرة والانطباعات .

وكل ذلك يقتضى أن أتتبع فى كشف التخرج والجيش كل اسم وسلاحه ووظيفته وتاريخ ميلاده ، ثم أروى ماذا صنعت به الأعوام الطويلة وما اكتنفها من مواقف وطرائف . وقد تقصر حتى لا تتعدى بضعة سطور وقد تطول حتى تتجاوز صفحات وصفحات . وأقول الحق إن هذا المنهج أنعش ذاكرتى وأشبع فضولى وروى مودتى . ولكنه جاء فى نهاية الأمر « ملحمة » ضخمة لا يسعها إلا مجلد كبير من جزءين قد يشق على القارىء وربما قد لا يهمه كثيرا . ومن هنا فقد آثرت – بعد أن أمضيت شهورا وشهورًا فى كتابة هذا الاستقصاء التفصيلى – أن أحتفظ به لنفسى . وانتهيت إلى منهج آخر آخذ به علاجا للاطالة المفرطة ، وإن كان ذلك – وبكل أمانة – قد شق علىّ مظنة التصور أننى « أخذل » فريقا من الزملاء الأعزاء . ولكن كان لابد

مما ليس منه بد .. لاعتبارات عملية وطباعية أسلم بضرورتها ووجاهتها فى مجال النشر . ربما تساءلت بينى وبين نفسى أكان هذا المنهج المعدل - أو « فعلتى » الاضطرارية - أشبه بعملية جراحية قاسية .. أكان « مذبحة » ؟ وصحت : حاشا لله ! إنهم جميعا فى سويداء القلب . وحسبى من المنهج الأول كونى أحسست كأنما تعرفت على « الدفعة » فردا فردا من جديد « استحضرتهم » ونظمت « أرشيفا خاصا » لهم أعود إليه من آن لآخر ما بقى لى من عمر وأضعه رهن طلب من يشاء منهم . كان مطلوبا ولزاما إذن أن أمر « مرور الكرام » - فيما أرجو - على أغلبية الزملاء ثم أتوقف عند عدد من الأسماء دون أن ينقص ذلك من قدر الآخرين . غاية الأمر أن هذه الأسماء (التى أصابها الدور !) قد تكون لها دلالتها التى توظف فى خدمة المحورين الأساسيين لهذا الكتاب وهما الأحداث التى هى على هامش عهود فاروق وعبد الناصر والسادات ، ثم السيرة الذاتية لكاتب هذه السطور وفيما وددت أن ينفع الناس . وهكذا ارتأيت إعادة كتابة فصول طويلة متعددة لأقصرها على فصلين . الفصل الأول (وهو هذا الفصل) يمثل نظرة عامة بين أبناء سبتمبر ٤٢ . ثم الفصل التالى عن أبناء سبتمبر ٤٢ يشدون الانتباه والذكريات على الوجه الذى استخرت الله فيه . وفى الفصلين ما قد يدخل - كشرائح تطبيقية - فى دائرة « علم الاجتماع » ..

كتلة أخلاق ..

من أول وهلة ونظرة فى كشف الجيش لست أستطيع أن أغفل ذكر المرحوم **اللواء أ . ح عمر حسين جوهر** . فلم تجمع دفعة سبتمبر ٤٢ على شىء قدر إجماعها أنه كان أحد أحسن أبنائها أخلاقا .. كان « كتلة أخلاق » . وهى فطرة وتربية ثم وضع شعار « الرياضة أخلاق » موضع التنفيذ . فقد كان عمر جوهر - الجنتلمان الراقى - من كبار رياضيى الدفعة ، وفاز بميداليات ذهبية فى السباحة لدى بطولات البحر المتوسط . وختم حياته بأنه كان مسئول التنظيم والادارة خلال معركة العبور فى أكتوبر ١٩٧٣ . ثم رحل عنا فى أعقابها بعد عامين أو ثلاثة مبرورا مذكورا مبكيا عليه .

ثلاثة دكاترة ..

ولأن كشف الجيش كان نصب عينى ، فقد استلفتنى الذى يلى عمر جوهر فى الأقدمية بيننا وهو **المقدم « السيد جمال الدين زكى »** . والسيد زكى أقدم ثلاثة من زملائنا حصلوا على شهادة الدكتوراه . حصل السيد جمال زكى على دكتوراه فى علم النفس من الولايات المتحدة الأمريكية التى شد إليها الرحال مبكرا . ثم استقر هناك أستاذا فى جامعاتها . كان « نجم » قطار الرحمة فى أول ثورة يوليو . تملأ صوره الصحف والمجلات مع الفنانين والفنانات . ولم يكن يدور فى خلدنا أن هذا القطار سيقوده فى نهاية المطاف إلى « الدنيا الجديدة » . ولكن « أهو ده اللى صار » .. على رأى سيد درويش ومن بعده فيروز !

وقد حذا حذو السيد جمال الدين زكى زميله وزميلنا فى الدفعة والمدفعية **العميد أ . ح كامل شكرى عبد الحميد** . حصل على دكتوراه فى المحاسبة من الجامعة الأمريكية بالقاهرة . ثم رحل مع زوجته الأمريكية إلى نيويورك أستاذا فى جامعتها . فكما أن لمصر مندوبا دائما بمقر الأمم المتحدة بنيويورك فإن لدفعة سبتمبر ٤٢ مندوبا دائما فى مقر جامعات نيويورك هو زميل السرية الثالثة والمدفعية كامل شكرى عبد الحميد الذى يسبقنى فى الأقدمية مباشرة « وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا » ..

أما ثالث حملة الدكتوراه من أبناء سبتمبر ٤٢ فهو **الزميل عبد السلام عبد المجيد بدوى** الذى حصل عليها فى ادارة الأعمال من كلية التجارة بجامعة الاسكندرية . ولكنه آثر العمل فى جامعات مصر بعد أن شغل منصب مدير مكتب رئيس الجمهورية للشئون الاقتصادية ، ثم سكرتير عام مجلس الوزراء فرئيسا لمجلس ادارة المعهد القومى للادارة العليا . وكأنه ابن كلية التجارة لا الكلية الحربية التى كانت بالنسبة له أشبه بالتدريب العسكرى الذى يتلقاه طلبة الجامعات ! ولم يكن عبد السلام بدوى هو الوحيد من أبناء الدفعة الذى شغل منصب سكرتير عام مجلس الوزراء ، فقد أعقبه زميلنا الطبيب الودود **أحمد صلاح الدين عفيفى** .

مدير الكلية الحربية .. ولواءات من دفعتنا

وفى مناسبة الدراسات العليا فلعلى أزعم أن أكبر نسبة من حملة شهادة كلية

أركان الحرب بين دفعات الضباط كانت بين دفعة سبتمبر ٤٢ .. يستوى فى ذلك أوائلها وأواسطها وأواخرها ! حتى أنه من المأثور عن جمال عبد الناصر فى أوائل الستينيات قوله « الله ؟ الظاهر أن دفعة سبتمبر ٤٢ ماسكة الجيش » ! ولقد ترقى إلى رتبة « العميد » معظم من بقى من الدفعة فى الخدمة العسكرية حتى أواخر الستينيات ، ولكن عدد اللواءات منها الذين واصلوا المسيرة ليس مفرط الوفرة . وهؤلاء العشرات القليلون الباقون خاضوا حرب ٦ أكتوبر ١٩٧٣ وأبلوا فيها بلاء حسنا .

وثمة منصب « أكاديمى » مرموق تتوالى دفعات الضباط فى درج الترقى ولا يحظى أحد منهم بهذا المنصب « الجامعى » الرفيع فى السلك العسكرى إلا فرد واحد من هذه الدفعة أو تلك كل أربع سنين . وأعنى به منصب مدير الكلية الحربية . ولم يفت دفعتنا أن تسهم فيه ، وكان الذى تفرد به من بيننا هو **اللواء أ . ح مصطفى كمال شاهين** مدير الكلية الحربية من نوفمبر ١٩٧٣ حتى أبريل ١٩٧٧ بعد مسيرة حافلة فى التشكيلات العسكرية والحربية فى معركة العدوان الثلاثى ١٩٥٦ وحرب اليمن التى ترقى فيها ترقية استثنائية فحرب ١٩٦٧ فحرب ١٩٧٣ وحصل على وسام النجمة العسكرية . المدهش أننى « تنبأت » له – من فرط حبه للكلية الحربية والحياة العسكرية – ونحن نقدم أوراقنا إلى الكلية الحربية سنة ١٩٤٠ أنه سوف يصبح مدير الكلية الحربية . وصدقت فراستى .. مجرد رمية من غير رام !

ولا ننسى أن اللواء على مصطفى بغدادى مدير القوات الجوية فى أول السبعينيات كان من أبناء دفعة سبتمبر ٤٢ كما اسلفت .

ومن الذين حدثونى طويلا عن تجاربهم فى أتون معركة العبور سنة ١٩٧٣ .. فى الخطوط الأمامية ابن دفعتنا اللواء أ . ح صالح مصطفى أمين الذى بعث به الفريق سعد الدين الشاذلى رئيس هيئة أركان حرب الجيش فى بداية المعركة ليتولى مع قواته المشاركة فى السيطرة على معابر القناة بدباباته . ولن أدخل فى حديث ثغرة الدفرسوار ، فالذى كُتب عنها كثير والذى فُهم منها قليل ! وبصراحة .. ربما كان من الأفضل لى هنا أن أفعل مثلما فعلت آنذاك . يسألنى ابنى المهندس محمد عن الثغرة كل ليلة لدى عودتى متأخرا من عملى بجريدة الجمهورية « فأزوغ » منه . وكأنها ثغرة فى حديثى .. كأننى أتجاهلها فى حين كنت أتميز غيظا

وكمدا من داخلى ، وأود لو طالت يداى وامتدتا لتسدا براحتيهما هذه الثغرة المناوئة . صحيح أنها لم تستطع أن تنال كل النيل من حجم نصر العبور .. ولكنها شابته ، وكان فى مقدرتنا لو فطنا إليها من بدايتها أن نقطع دابرها تماما ونأسر « ايريل شارون » كما أسرنا « عساف ياجورى » !

وبين الذين أدوا دورا ملحوظا فى محاولة سد الثغرة ابن دفعتنا فى المدرعات أيضا **اللواء عبد المنعم عبد الله الذى استقبل ٢٥٠ دبابة بعث بها الرئيس هوارى بومدين من الاتحاد السوفيتى بجسر جوى ، وكذلك ٣٥٠ دبابة من ليبيا ويوغوسلافيا** وأعدها جميعا للقتال . جهز لها فى سرعة خاطفة أطقم أفراد مدربين للعمل عليها جمعهم من أفراد كتيبة الإمدادات ومن الباقين أحياء بين خسائر دباباتنا فى المعركة . ولولا أن هذه الأطقم جهزت على جناح السرعة لبقيت الدبابات الجديدة مجرد كتل حديدية بلا حراك .

حكايات عن « الامبراطور » شمس بدران !

ولعل من طرائف زميلنا عبد المنعم عبد الله أنه كاد يطاح به من القوات المسلحة سنة ١٩٦١ حين عاد إلى القاهرة بعد خدمته كمساعد ملحقنا العسكرى فى واشنطن .. وكان سبب احتمال الاطاحة غاية فى الغرابة . ذلك أنه لم يحضر « للامبراطور الصغير » شمس بدران ما كان قد طلب منه أن يحضره من « أدوات التنكر والاخفاء » كتلك التى يستخدمها ممثلو السينما فى الأفلام كمكياج ! لماذا أرادها ؟ ربما ليستخدمها وهو يمارس التعذيب أو ليمش على حل شعره دون أن يعرف أحد شخصيته الخطيرة ! ولما لم يحضرها عبد المنعم عبد الله غضب شمس بدران وانطبقت السماء على الأرض ، وكانت كلمة منه لدى المشير عبد الحكيم عامر كفيلة بأن تعز من تشاء وتذل من تشاء فى تصوره ! ولولا تدخل ابن دفعتنا « **عبد الرحمن الشعبينى** » أحد مديرى مكتب المشير عامر لذهب **عبد المنعم عبد الله وراء الشمس ! وإن كان الجميع تقريبا قد ذهبوا بعد ذلك وراء الشمس .. بما فيهم شمس نفسه !**

وقد تعاظمت سلطة وسطوة شمس بدران فى الستينيات حتى أن زميلنا **عبد الوهاب راشد** وحفنة من الضباط الجسورين كتبوا فى تلك المرحلة تقريرا إلى الرئيس جمال عبد الناصر أشادوا به فيه ثم قالوا بالحرف الواحد (**إن « المشير »**

شمس بدران و « البكباشى » عبد الحكيم عامر سوف يوردان الجيش موارد التهلكة ولابد من حل جذرى) ! واستطاع عبد الناصر أن يحميهم من العصف الشديد بهم ، واكتفوا بنقلهم إلى السلك المدنى !

ومما رواه زميلنا المقدم عبد العزيز فهمى أنه بعد الافراج عنه أثر انقضاء ٢٥ شهرا من الحكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة فى قضية مؤامرة مزعومة لقلب نظام الحكم فى مايو ١٩٦٢ التقى به صديقه عبد الرحمن فهمى يوسف كاتم أسرار حربية فقال له : لكى تصلح أحوالك ومستقبلك اذهب فاكتب اسمك فى سجل التشريفات (هكذا بالضبط) الخاص بشمس بدران ! فأجابه عبد العزيز فهمى بنخوة وكرامة ابن الصعيد : والله هذا رابع المستحيلات . ولو لم استطع أن أكسب لقمة العيش من بيع الكوكاكولا أو غيرها فسأجيىء إليك وأطالبك بأن تعيدنى إلى السجن لأكمل المدة ! »

وبدلا من كشك كوكاكولا فتح الله على ابن دفعتنا عبد العزيز فهمى فى شئون الفندقة والسياحة وأصبح من كبار رجال الأعمال ..

المخــابرت .. معمل تفريخ !

وقبل تناول حديث رجال الأعمال من أبناء سبتمبر ٤٢ والذى ابتدرتنى إليه – بصورة عارضة – استطرادات حكايات عن شمس بدران كما تقدم ، فإن هناك « مؤسسة » لعبت دورا هاما وخطيرا فى حياة مصر وفى مصائر عدد من أبناء دفعتنا وغير دفعتنا ، وينبغى ألا يفوتنا التطرق إليها فى هذه النظرة العامة .. وأعنى بهذه المؤسسة « **إدارة المخابرات العامة** » .

ولقد كانت المخابرات العامة كأنها حجرة عمليات جراحة تجميل ، أو معمل تفريخ ، أو مركز تأهيل ، أو خاتم سليمان ! ولن أستطيع إحصاء عدد العسكريين الذين تخرجوا منها وزراء وسفراء ومحافظين وكبار مسئولين ، ولكنهم كثار . كما أنه من الصعب أيضا إحصاء العاملين فى صمت بليغ فعّال فى المخابرات العامة من أمثال « **عزيز الجبالى** » الذى كشف عنه النقاب الزميل **الكاتب الصحفى صالح مرسى** فى بحثه بين ملفات المخابرات العامة (الوجه الطيب منها) وكتبه لنا ثم صاغه مرة أخرى فى مسلسله التليفزيونى البديع « رأفت الهجان » .

وبعيدا عمن سوف أتحدث عنهم تفصيلا فى الفصل التالى ممن مروا على المخابرات العامة ، فإن من خريجى المخابرات العامة الذين تشملهم النظرة العامة هنا زميلنا « **سعد عبد الله عفرة** » . فعندما خلا منصب مدير مصلحة الاستعلامات بانتقال **الدكتور محمد عبد القادر حاتم** (خريج مخابرات أيضا) وزيرا للارشاد القومى ، عيّن الرئيس عبد الناصر زميلنا سعد عفرة مديرا لمصلحة الاستعلامات . وكان سعد عفرة هادئا صموتا كعادته فى مجال يصعب فيه الهدوء والصمت . ولكنه مع ذلك نجح ووفق ثم كانت الخطوة التالية التى تناسب استعداده وهدوءه وكتمانه ودبلوماسيته حين أصبح سفيرا فى وزارة الخارجية ، فسفيرا لمصر فى بلدان كثيرة لعل أهمها يوغوسلافيا .

وعلى الجانب الآخر كان يستعان ببعض ضباط الجيش فى وزارة الداخلية مع بداية الثورة وبالذات فى مكتب زكريا محيى الدين وزير الداخلية (وأحد مؤسسى المخابرات العامة) . وكان من بين من استعين بهم ابن دفعتنا **محيى الدين أبو العز** . ثم عاد إلى المخابرات العامة ، ومنها عيّن محافظا للفيوم . لكن المسكين الواعد الموعود محيى الدين أبو العز لم يطل به المقام فى دنيا المخابرات والداخلية والحكم المحلى وفى دنيانا الفانية برمتها . ففى إحدى الأجازات الصيفية أوائل الستينيات ، وكان يسبح فى شاطىء العجمى داهمته أزمة قلبية فغرق – وهو السباح الماهر – قبل أن يسعف . مات – رحمه الله – شهيدا . **فمن مات غريقا مات شهيدا** كما يقول الحديث النبوى الشريف .

ومن المخابرات أيضا خرج (نسبة إلى الخارجية) ابن سبتمبر ٤٢ **السفير عزت إبراهيم سليمان** . ولست أنسى أن من أكثر ما أسعدنى واهتممت به رسالة بالبريد العاجل المسجل تلقيتها حيث كنت أعمل رئيسا لتحرير جريدة الجمهورية فى سنة ١٩٧٤ وكان صاحب الرسالة عزت إبراهيم سليمان ، وقد أرفق بها صورة له (ببدلة التشريفة) وهو يقدم أوراق اعتماده سفيرا لمصر لدى حكومة إيران . وعلى الفور نشرتها فى مكان بارز بالجمهورية وفى إعتزاز خالص بزملاء سبتمبر ٤٢ .

سفير آخر بين دفعتنا من خريجى المخابرات هو **السفير** « **أحمد فؤاد سليم هلال** » الذى أوفد إلى عديد من البلدان الأجنبية والعربية وإن كانت ألمع فترات عمله الدبلوماسى عندما كان سفير مصر فى الأردن . وبدت الدنيا كأنما تضحك له وتصفو .

ولكن متى كانت الدنيا تصفو لأحد على طول الخط ؟ **كانت تنتظره مأساة غير عادية** أصابه بها القدر . وللقدر حكمة نجهلها .. ونستسلم لها ولا مهرب . كان السفير أحمد فؤاد سليم هلال يستعد للذهاب إلى مقر عمله فى الصباح . داعب ابنه الصغير - الذى رزق به على كبر - وأسرف فى تقبيله مودعا ، ثم اتجه إلى جراج الفيللا التى يقيم بها وأدار محرك سيارته ثم تحرك بها إلى الخلف كما يفعل كل يوم . ولكن ذلك اليوم المنكود لم يكن ككل يوم . فما هى إلا ثوان قليلة من بدء تحركه للخلف حتى كان يسمع صراخا ينبعث من تحت السيارة . وفى جزع محموم هرول من السيارة . ولم يكن يدرك أن ابنه الصغير بعد توديعه قد تبعه إلى الحديقة فالجراج ليحييه ووقف بقامته الطفلة القصيرة بين السيارة وباب الفيللا . انخلع قلب فؤاد هلال . لم يكن يتصور أن ابنه سيدركه الموت فى طفولته وأنه هو أداة التنفيذ المقدرة ليتحول طفله إلى جثة هامدة . حوادث فاجعة - لا أراكم الله - نقرأ عنها ونشفق على من تصيبهم - نعرفهم أو لا نعرفهم - ونسأل الله أن يلطف بنا وبالجميع فيما جرت به المقادير .

على أن ما جرى للطفل الصغير حين لقى حتفه بحادث السيارة الأليم وقع لأبيه بعد سنوات .. وبالتحديد فى أوائل سنة ١٩٨٨ . فقد لقى أحمد فؤاد سليم هلال حتفه فى حادث سيارته وهو متجه إلى فيللا يملكها بمنطقة فايد . ذهب والد وما ولد ، ولا يبقى إلا من لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد .. جل شأنه .

سفيران من « الجيزويت »

نائب رئيس الجمهورية السابق « **على صبرى** » « جيزويتى » أى خريج مدارس الجيزويت والفرير الفرنسية . وقد احتضن فى فترة رئاسته للمخابرات العامة عددا من خريجى هذه المدارس الفرنسية ، فاتقان اللغة الأجنبية هو بلا شك عامل مساعد ، وخاصة فى هذه المراكز الحساسة المتفتحة على العالم الخارجى .

ومن بين أبناء سبتمبر ٤٢ السفراء خريجى الفرير والمخابرات **السفير محمد مصطفى شكرى** . ورغم هدوءه الملحوظ فإن له مغامرات فى السلك الوظيفى منذ نعومة أظفاره . فحين حصل على التوجيهية (الثانوية العامة) سنة ١٩٣٨ بدأ يخطط لمستقبله فعمل موظفا ببنك الكريدى ليونيه وفى نفس الوقت بدأ يدرس بمدرسة

الحقوق الفرنسية (كان عمره آنذاك ١٨ سنة) وهى من الحالات النادرة فى الدفعة (ومن الحالات الطريفة الأخرى فى الدفعة أن زميلنا **عبد الحميد بكير** قبل التحاقه بالكلية كان منخرطا فى حزب مصر الفتاة وعمل سكرتيرا خاصا لأحمد حسين وسائقا لعربته أيضا !) . ثم فجأة أبدل محمد شكرى اتجاهه ودخل معنا الكلية الحربية . ولم ينس أن يستأنف بعد تخرجه دراسة الحقوق فحصل على الليسانس سنة ١٩٤٨ وكان بذلك أول الحقوقيين من أبناء الدفعة الحافلة بخريجى الحقوق (على كبر) ، وإن لم يتمسك بالعمل فى المحاماة إلا ثلاثة هم : **مصطفى كمال بدوى الزواوى بالاسكندرية ، ومحمد أبو الفضل الجيزاوى وسيد جاد عبد الله سالم بالقاهرة .**

وفى نفس السنة (١٩٤٨) اختير محمد مصطفى شكرى كضابط اتصال للأمم المتحدة مع كوكبة من الضباط كان يرأسهم **محمود رياض** (مدرسنا بالكلية الحربية ووزير الخارجية وأمين عام الجامعة العربية فيما بعد) . ومن بينهم **السفير عباس حلمى صدقى وحسن صبرى الخولى الممثل الشخصى للرئيس عبدالناصر** فى بعض المهام العربية ، ثم نقل محمد شكرى بعد الثورة إلى المخابرات العامة ، وتولى رئاسة قسم الملحقين العسكريين إلى أن أصبح هو نفسه ملحقا عسكريا فى روما . ومن السلك العسكرى نقل إلى وزارة الخارجية سنة ١٩٥٨ وتدرج فى وظائفها وعمل مديرا لمكتب أستاذه وزميله القديم محمود رياض وزير الخارجية ، ثم أصبح سفيرا لمصر فى كندا فتركيا فتشيكوسلوفاكيا فوكيلا لوزارة الخارجية . وأخيرا – وكسنة الحياة – اعتزل فى هدوء كما دخل فى هدوء .

وكان السفير « الفرنسى » الثانى زميلنا **مصطفى مختار** خريج مدرسة سان مارك بالاسكندرية والكلية الحربية والمخابرات العامة . وكنت أعرفه منذ الطفولة إذ كان يسكن إلى جوارنا فى بولكى بالاسكندرية . وكان منزله عبارة عن كلية حربية مصغرة بقيادة أبيه الضابط السابق « المرعب » **مختار بك** الذى أنشأ أسرته نشأة عسكرية وكاد ينشر العسكرية فى بولكلى كلها ! على أننى لم ألتق بمصطفى مختار بعد تخرجنا من الكلية الحربية إلا فى بودابست سنة ١٩٧٢ حين كنت فى مهمة صحفية هناك ، وفوجئت بأن سفيرنا بالمجر هو مصطفى مختار .

بقى أن أقول إن المخابرات العامة لم تقدم إلى الحياة العامة وزراء وسفراء

ومحافظين فحسب ، وإنما أفرزت صحفيين (**مصطفى المستكاوى وكمال الدين الحناوى وغيرهما**) وبعض أنشطة أخرى . ربما من أهمها هذا المنصب الذى تولاه الزميل العزيز النزيه ابن دفعتنا **كمال الغر** الذى انتدب فنقل من المخابرات العامة رئيسا للرقابة الادارية وعمل لوجه الله والوطن ، على عكس ما كانت تفعله شرذمة وحثالة البوليس الحربى والمباحث الجنائية العسكرية أيام « الهاربين » شمس بدران وحسن خليل من افتيات واعتقالات بالباطل وبالهوى . فقد كان كمال الغر رئيس الرقابة الادارية يحقق ما توفر له من معلومات كأنه قاض يتأنى ولا يتجنى ، فإذا رأى أن الوقائع التى تحت ناظريه تمثل انحرافات حقيقية جمع خيوطها ومستنداتها وقدمها لذوى الشأن حتى يروا فيها ما يرون ويقدمونها كقضية متكاملة . وعندما أعلن الرئيس الراحل أنور السادات سياسة الانفتاح كان الواضح - والحاصل - أن مهمة الرقابة الادارية لازمة وصارمة . فالقطط يروحون ويجيئون من هذا الباب المفتوح حتى يصبحوا من القطط السمان ! إزداد حجم الرشاوى واستغلال النفوذ والسمسرة الطفيلية والكسب غير المشروع وتهريب الأموال إلى الخارج . وكل أحداث ومشتقات فسد . يفسد . فسادا وإفسادا . وكان يكمن وراء هذا الفساد مسئولون كبار ، ومقربون ، ومساندون ، ومتواطئون . وهنا ضاق السادات ذرعا بالرقابة الادارية وبكمال الغر ، فعصف بهما فى غمضة عين !

كوكبة من رجال الأعمال

وليس كل من اشتغل بالأعمال الحرة انحرف . أبدا .. ففيهم الطيب والخبيث أو لعل نسبة الطيبين منهم أعلى .. والله أعلم !

والحق أن عددا غير قليل من أبناء سبتمبر ٤٢ قد غدوا من رجال الأعمال . منهم من أصاب حظا ومنهم من لم يصب .. هكذا الدنيا . مثلا هناك زميلنا **المقدم أ . ح إبراهيم رشدى عبد الفتاح** الذى استقال من الجيش مبكرا ليتفرغ لأعمال المقاولات . بدأها ببناء مساكن الضباط بمصر الجديدة ولما أداها على أحسن وجه انطلق لمجالات أوسع وأبرع . وبالمثل زميلنا (الذكى ذكاء ملفتا ، والذى ليس له « تقل » على العسكرية بدرجة ملفتة أيضا !) **عبد الله صادق** .. وإن جمع بين مهنة المقاولات ومهنة المحاسبة . ومنهم أحد أعز الزملاء والأصدقاء المغامر المرحوم

أحمد عصمت العزيرى . صعد نجمه إلى السماء ثم « لطشت » معه فى المقاولات هنا وفى البلاد العربية وعاد شبه صفر اليدين . وكنت وأنا أشيع جنازته أجتر ذكرياتى الحميمة معه (زميل السرية الثالثة بالكلية الحربية والمدفعية والأنوار الكاشفة) وأبكى حسن معشره وسوء حظه رحمه الله رحمة واسعة .

على أن المقاولات ليست مقصورة على أعمال البناء وشق الطرق فحسب ، ولكن ثمة نوعية من المقاولات هى مقاولات تموين السفن بالموانى . وبين الذين تفردوا بهذه المهنة الحرة من أبناء سبتمبر ٤٢ **العميد محمود صفوت** الذى كان قد انتدب فى ميناء الاسكندرية حيث فهم سر الصنعة – صنعة تموين السفن – فتفرغ لها بعد احالته إلى المعاش ، وأخذها مأخذ الجد بما يتفق مع جديته ففتح الله عليه . ولابأس من رواية حكاية من حكايات محمود صفوت تكشف عن معدنه الأصيل والصريح المستقيم . ففى سنة ١٩٦٦ كان محمود صفوت يقود إحدى كتائب المشاة فى سيناء ، وأجريت مناورات ، وتم التفتيش على مختلف الوحدات . **وجاءه المشير عبد الحكيم عامر مهنئا يقول له « مبروك ! لقد ثبت لنا أن كتيبتك هى أحسن كتيبة فى الجيش » ! فنظر إليه العقيد محمود صفوت متحسرا وقال فى أسى « سيادتك زعلتنى ! إننى أعلم بكتيبتى وأنا غير راض حتى الآن عن كفاءتها واستعدادها رضاء كافيا . وإذا كانت هى أحسن كتيبة فى الجيش فالله يرحم القوات المسلحة » !**

حتى العمل كحرفيين لم ينأى فى فترة التقاعد عن بعض أبناء سبتمبر ٤٢ . مثلا زميلنا المرحوم **عمر الرساوى** لكونه موهوبا فى الفنون التشكيلية كان يطرق النحاس ويشكله كأبدع ما يكون التشكيل والتماثيل .. ويسوّقه . ولم تقتصر نشاطاته على ذلك بل عمل أيضا مدرسا للغة الانجليزية فى إحدى مدارس البنات الخاصة لولا أن أشتدت عليه علته مما اقتضى استئصال إحدى رئتيه الأمر الذى أفضى إلى موته بعد قليل فى عام ١٩٨٦ .

شىء آخر . لعل من بين كل عشرة من أصحاب الدخل المحدود ممن يملكون سيارة خاصة .. ستة على الأقل يفكرون أن يحولوا سياراتهم الملاكى إلى « تاكسى » يقودونه بأنفسهم ليزيدوا من دخلهم وإيرادهم بعائد سيارة الأجرة تلك ! ولكن بين

هؤلاء الستة أقل القليل الذين قد تواتيهم الشجاعة والمبادرة العملية لتنفيذ ما يخامر أفكارهم . ومن هؤلاء القلة القليلة ابن سبتمبر ٤٢ **بدر لبيب منقريوس** الذى ووجه بأعباء الحياة ومصروفات المدارس الأجنبية (وقد تزوج فى سن متأخرة نسبيا) وتكاليف أخرى بعد المعاش فأقدم بالفعل على هذه العملية وقاد عربته واستثمرها بعد أن حولها إلى تاكسى ! ولا غضاضة عليه ، ولا مهانة على الاطلاق فى هذه المهنة أو أية مهنة شريفة أخرى . ضابط سابق وسائق تاكسى ؟ ولماذا لا ؟ أوليس أكرم له فى مواجهة الحياة أن يأكل من عرق جبينه بالرزق الحلال الشريف ؟ رحم الله بدر لبيب .. هذا الصديق العزيز اللطيف العفيف .

أما الذين اشتغلوا من الدفعة بعد المعاش بالاستيراد والتصدير والتجارة والزراعة فنسبتهم عالية وحظوظهم متفاوتة . ولعل عميدهم هو **اللواء أ . ح حسنين حسنى عبد المجيد الضو** صاحب شركة الضو للاستيراد والتصدير . وقد كان حسنى عبد المجيد من أعز وأنظف المقربين للمشير عبد الحكيم عامر واختاره لانشاء ادارة التوجيه المعنوى . وإن كان حسنى عبد المجيد قد دفع ثمن صداقته للمشير عامر بأن أودع السجن دون محاكمة أثناء قضية المشير لقلب نظام الحكم فى أغسطس ١٩٦٧ . ولم يُفرج عن حسنى عبد المجيد إلا بعد وفاة عبد الناصر بأسبوع وأعيد إلى الجيش وأكمل خدمته حتى أحيل إلى المعاش وتفرغ للاستيراد والتصدير ..

مجلدات فى أثر ثورة ٢٣ يوليو

ولقد أعلم أن عددا من أبناء سبتمبر ٤٢ - وغيرهم من الضباط - لم يتأثروا فى قليل أو كثير بقيام وامتداد ثورة ٢٣ يوليو ٥٢ ، ولم يقطفوا - بطريق مباشر - من « ثمارها » شيئا مذكورا . كما أعلم أنها رفعت كثيرين منهم وآذت آخرين .

غير أن ثورة ٢٣ يوليو - ولا جدال - كان لها أثر كبير فى حياة مصر من شتى النواحى سياسيا واجتماعيا واقتصاديا وعسكريا .. بايجابياتها وسلبياتها . كما أن ثورة ٢٣ يوليو أثرت على وجه التحقيق فى حياة العرب وأفريقيا . بل هى امتدت بآثارها إلى أمريكا اللاتينية ، وليس سرا أن فيديل كاسترو - مثلا - اعترف بأنه لم يكن ليقوم بثورته وينجح فيها ويحرر كوبا من النفوذ الاستعمارى لولا ثورة ٢٣ يوليو ، وجسارة عبد الناصر فى تأميم قناة السويس ومواجهة

الاستعمار . إن ثورة ٢٣ يوليو أثرت فى العالم الثالث وغيّرت فيه ، بل لقد تعدى تأثيرها إلى العالم الغربى نفسه . فباصرار وإشعاع ثورة ٢٣ يوليو فقدت بريطانيا وفرنسا مستعمراتيهما . وبتقارب ثورة ٢٣ يوليو من الاتحاد السوفيتى بات له هذا « الوجود » فى منطقة الشرق الأوسط . وإذا كانت أمريكا قد أفادت بكونها ورثت نفوذ بريطانيا وفرنسا فى المنطقة ، فمن ذا الذى ينكر أن ثورة ٢٣ يوليو لها يد طولى فى تعرية المزيد من الوجه القبيح لأمريكا ؟

ومن تحصيل الحاصل التنويه بأثر ثورة ٢٣ يوليو فى القضاء على الاقطاع ، وفى التمصير وفى بناء الصناعات الجديدة ، والسد العالى .. الخ . ولا أظن أن أحدا يمارى فى أن ثورة ٢٣ يوليو غيرت الخريطة الاجتماعية لجماهير الشعب المصرى ابتداء من الفلاح إلى العامل إلى الطالب الذى وفرت له فرصة التعليم الجامعى المجانى ثم أتاحت له فرص العمل بعد أن كان خريج الجامعات يتلطم على الأبواب فلا تستجيب .

هذا من الناحية العامة .. ولا أتحدث عن المحصلة العامة لايجابيات وسلبيات ثورة ٢٣ يوليو .. فتلك فى تقدير العزيز العليم .

ويمكن – وقد كان – أن تؤلف فى آثار ثورة ٢٣ يوليو الكتب والتحليلات السياسية .. مجلدات ومجلدات سواء معها أو ضدها ، ولا يزالون مختلفين .

أما فى نطاق ضباط القوات المسلحة المصرية ودفعة سبتمبر ٤٢ – دفعتنا – فحدث ولا حرج عن أثر ثورة ٢٣ يوليو .

ودون أن نغمط حق أحد أو نقلل من شأن أحد – وإنما هى شهادة أمينة وواجبة وواقعية – أقول إنه لولا ثورة ٢٣ يوليو ٥٢ ما كان ليصل عدد موفور من أبناء سبتمبر ٤٢ إلى ما وصلوا إليه من مناصب مرموقة ومراكز صدارة . من تكرار القول إن من بيننا رئيس وزراء ووزراء ومحافظين وسفراء ونوابا بالمجالس التشريعية ورؤساء مؤسسات وشركات وبنوك .. الخ ، فضلا عن فتح أبواب لأعمال شتى فى مجالات عديدة ما كان يمكن أن تفتح بذلك اليسر لولا أن فى تاريخ أصحابها ملابس كاكية ارتدوها ونجوما ونسورا كانت على أكتافهم يوما ما ، ولولا أن ثورة

٢٣ يوليو – وعسكرييها السابقين – بقيت هى الحاكمة منذ قرابة ٣٧ عاما حتى ولو أعلن أنها انتقلت من الشرعية الثورية إلى الشرعية الدستورية !

ولن أتوانى عن الاعتراف .. ولا أملك سوى الاعتراف بأنه لولا ثورة ٢٣ يوليو ٥٢ لما توليت رئاسة مؤسسة دار التحرير ورئاسة تحرير جريدة الجمهورية فى مرحلتين ، أولاهما فى عهد الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ، وثانيتهما فى عهد الرئيس الراحل أنور السادات . وربما هو لون من ألوان التزيد القول بأننى جمعت بين كونى من « أهل الثقة » ومن « أهل الخبرة » . فصحيح أننى كتبت فى الصحف قبل ثورة ٢٣ يوليو ٥٢ ، وصحيح أننى أصدرت ديوان شعرى الأول قبل خمس سنين من الثورة ، وصحيح أننى التحقت بكلية الحقوق قبل عامين من بداية الثورة .. ولكن غاية ما كان يمكن أن أصل إليه على الأرجح – لولا ثورة ٢٣ يوليو – أن أشتغل بالمحاماة وبالصحافة وأصدر دواوين الشعر . أما أن أتولى رئاسة تحرير جريدة يومية ورئاسة مؤسسة وشركات للطبع والنشر فأمر مستبعد فى مناخ ما قبل ثورة يوليو لو أن هذا المناخ ظل هو السائد ولم تقم ثورة الجيش .

وما يندرج علىّ فى هذا الشأن ينطبق على الآخرين من أبناء دفعتى وغير دفعتى ومن قادة الثورة وصفها الثانى والثالث فى ميادين مختلفة سواء ابتدرتها ثورة ٢٣ يوليو أو ورثتها ..

وعلى المستوى الشخصى فقد يكون مما يعزينى أننى لم « اختطف » منصبا من أحد والحمد لله .. بل حتى لم أسع إليه ، وإنما توليت ما توليت داخل أنشطة هى من مبادرات وانشاءات الثورة ابتداء وانتهاء فى الحقل الصحفى .

هذه كلمة حق لا مندوحة فى الافصاح عنها ولأنهى بها هذا الفصل من الكتاب الذى كأنما لم أدخل الكلية الحربية واتخرج منها إلا لأكتب حكايات سبتمبر ٤٢ !

الفصل الخامس

ممن يشدون الانتباه والذكريات

□ لو قيل لى إن فى هذا الفصل« مربض الفرس » مع عدم الاقلال من شأن ما سبقه ، وما يلحقه لقلت لمن رأى هذا الرأى : ربما معك حق ! لذلك فهو أطول فصول هذا الكتاب ..

فهأنذا أقف وسط هذا الحشد الحاشد من زملائى ثم استأذنهم فى أن أتخير البعض وأتحدث عنهم .

وحكاياتهم سوف تطول بالتأكيد ، وخاصة أن حكاياتى الذاتية وانطباعاتى وآرائى ستتخللها بضرورة « ضمير المتكلم » ، وليس « نرجسية الاحساس بالذات » .. لا سمح الله ! فلست إلا واحدا منهم .. واحدا من عباد الله الضعفاء قيضّ لى سبحانه أن أحمل القلم وأخوض هذه التجربة ، ولو خطرت الفكرة لغيرى من زملائى ونفذها لربما فعل مثلى وأفضل منى وأكثر تفصيلا ، ولألحت عليه تجربته الذاتية فى السطور وبين السطور .

والآن .. فلنمض قدما فى تقديم هؤلاء الزملاء الأعزاء .

وإذا كان عددهم أربعة وعشرين فلعلهم « الممثلون الشرعيون أو القدريون »

للجمعية العمومية التى بلغ تعدادها مائة وواحد وتسعين من أبناء سبتمبر ٤٢ .. بمعنى أننى كأنما أتناول الأصل والجمع كله ضمنا .

كذلك فإذا كنت فى الفصل السابق قد دونت أسماء أبناء وزملاء الدفعة « جملة واحدة » وفقا لترتيب تخرجهم ، أو بالأحرى نجاحهم فى امتحان القسم المتوسط إلى القسم النهائى بالكلية الحربية والذى كان آخر امتحان لنا فيها ، فإن الأمر هنا يختلف جملة وتفصيلا عن « الجملة الواحدة » ! غاية الأمر أننى أعرض لهم بترتيب أقدميتهم فى الدفعة ..

١

أمين مصطفى شاكر

هو أول دفعة سبتمبر ١٩٤٢ وسميت الدفعة ـ كالعادة ـ باسمه . فهى دفعة أمين شاكر مثلما كانت سابقتها دفعة وهيب زكى وقبلها دفعة الخربوطلى أو البهنساوى ، ودفعة عجاج ، ودفعة مطاوع وهكذا ..

والأولوية شطارة وصيت ونجومية .. ومسئولية . تماما مثلما يقال إن الصعود إلى القمة سهل (ولو إنه ليس كذلك !) وإنما الصعب هو البقاء عليها ! .

ولا شك فى أن أمين شاكر على قدر كبير من الذكاء والاجتهاد ، ولا شك أيضا أنه عوّض ـ بأولويته تلك ـ السنوات الطويلة التى أمضاها فى كلية الطب حتى السنة الثالثة وكان فيها من المتفوقين (وحكاية سنوات الطب هذه تفسر لماذا دخل الكلية الحربية وعمره قد تعدى اثنتين وعشرين سنة ، وكان من دفعته فيها عند الالتحاق بها من لم يتعدوا سن الـ ١٦) .

وشق أمين شاكر طريقه بسلاح الاشارة فى القوات المسلحة ، وكان رهن « إشارتها » .. أو لم يؤثرها على الطب ؟! ثم شق طريقه بصورة أكثر رحابة بعد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

ولم أجرب الأولوية فى حياتى الدراسية على الاطلاق والحمد لله ، ولا تحملت

تبعاتها ! كأنما تمسكت حرفيا بقول الله سبحانه « وكذلك جعلناكم أمة وسطا » ! المرة الوحيدة التى « ضربت » معى كانت فى فرقة دراسية بمدرسة المدفعية سنة ١٩٤٤ وفى فرع متقدم جديد للأنوار الكاشفة اسمه « التحكم من بعد » أو « الروموت كونترول » كهذا الجهاز الذى يستخدمه بعض مشاهدى التليفزيون والفيديو ، ولا يعرفون ـ ولا أعرف الآن ـ عنه شيئا علميا مذكورا . وكانت الفرقة من خمسة ضباط لا يزيدون ، وبعد امتحان الفرقة التى دامت شهرين جاءت نتيجتى على الوجه التالى « اجتاز وامتاز وفاز بالأولوية » ! .

وكان أمين شاكر فى السرية الأولى (غاوى أولوية !) وكنت فى السرية الثالثة بين السرايا الأربع فى الكلية الحربية . وكانت أقرب السرايا إلينا هى السرية الثانية باعتبارها امتدادا لنا فى الطابق الذى نشغله أو نحن امتداد لها . ولهذا فلم نعرف نحن طلبة السرية الثالثة أمين شاكر فى الكلية . هو مجرد طالب من دفعتنا . فلما جاء ترتيبه الأول فى امتحان القسم الأعدادى اتجهت إليه أنظارنا وأنظار الجميع . ولو كان اختيار الأول « بالطول » لربما حصل أمين شاكر على الأولوية أيضا فهو من أطول دفعتنا قامة إن لم يكن أطولها بالفعل ! أما كونه نحيلا فكلنا كنا كغصنى البان الرفيع باستثناء قلة معدودة . تحكّم فينا السن والجهد البدنى الدؤوب وطعام الكلية المقتّر !

ولا أظن أننى تبادلت مع أمين شاكر الحديث فى الكلية إلا عرضا . الجماعة أولا فالفصيلة ثانيا فالسرية ثالثا .. اما ما عدا ذلك فلا يقوم القرب بين طلبة السرايا وبعضهم البعض إلا بصلات سابقة قبل الكلية أو لظروف رياضية أو عسكرية مشتركة .

وبعد أن احتفظ أمين شاكر بمركزه كأول للدفعة فى امتحان القسم المتوسط والانتقال للقسم النهائى لم يهنأ طويلا أو عريضا بمنصب « باشجاويش الكلية » سوى ستة أسابيع فقط .. وعلى من ؟ على دفعته فحسب ! فقد تخرجت دفعة وهيب زكى فى يونيو ١٩٤٢ وحصلنا على اجازة قصيرة استدعينا بعدها على وجه « الصريعة » وتخرجنا أيضا على وجه الصريعة بعد أن قضينا « اثنين وأربعين يوما » .. ولاحظ رقم ٤٢ أى مضاعفات رقم ٧ معنا فى السنة والأيام !

سلاح الاشارة .. الحلم المبدد !

وقد جرت العادة على أن يخيّر الخمسة الأوائل .. أى يختارون السلاح الذى يفضلونه . وقد كان لسلاح المدفعية الصدارة فى اختيارات الخمسة الأوائل له عادة . إلا أن سنة ١٩٤٢ بالذات شهدت انحسار سلاح المدفعية إلى الدرجة الثانية فى الاختيار ، وزاحمه وسبقه سلاح الاشارة .. كان هو موضة ٤٢ ! هكذا بدأ التحول من دفعة وهيب زكى « إشارة » ثم فى دفعتنا . فبين الخمسة الأوائل منا اختار أربعة سلاح الاشارة فى مقدمتهم أمين شاكر نفسه .

ومن المؤكد أن « الاشارة » باعتبارها سلاحا جديدا نسبيا براق السمعة قد « خايل » مشاعر وأحلام الطلبة آنذاك . ولم أنج من أحلام كهذه داعبتنى . فقد تشفعت بعمى الدكتور عبدالحميد بدوى باشا (وكان فى « الظل » حينئذ) لدى الفريق ابراهيم عطا الله باشا كيما أعيَّن فى سلاح الاشارة عند التخرج . وفوجئت بأننى عينت فى سلاح المدفعية . على أن عطا الله باشا بعث برسالة رقيقة إلى بدوى باشا مازلت أحتفظ بها للآن يقول له فيها معتذرا « أن نظام الجيش يقضى بأن يعين فى سلاح المدفعية الطلبة المتفوقون فى علم الرياضيات . وهذه ميزة لا ينالها إلا الأكفاء الممتازون » ! طيّب عطا الله خاطر عمى وجبر خاطرى وأراد الله بى خيرا ، فلا أدرى ماذا كنت سوف أفعل فى سلاح الاشارة وامتحاناتها الطويلة المتصلة وسط هؤلاء الأوائل « العتاولة »؟! وكان الله بى حفيا ، إذ أن غالبية أحبائى ومن « استظرفهم » عينوا معى فى سلاح المدفعية ، فوجدت فيه نفسى وأهلى !

ولقد أحببت أمين شاكر . وأساسا لأننا « دفعة أمين شاكر » فهو رمز للدفعة ولا جدال .

والصورة التى انطبعت لدىّ عن أمين شاكر أن عينيه اللتين تبدوان كأنهما زائغتان غير مستقرتين تخفيان ذكاء حادا وكأنما مخه « يشتغل » فى ألف حاجة وحاجة ! وأن قناع الصرامة الذى كسا به وجهه يخفى روحا مرحة لا تلبث إذا حركتها أن تنطلق على سجيتها مقهقهة ! على أن حصيلة ذلك كله والذى اجتمعت فيه الثقة الشديدة بالنفس مع بعض السخرية الكثيفة أظهرته بمظهر المستخف بالغير . ولقد روى أحد أبناء دفعتنا وكان زميلا لأمين شاكر فى بدايات مجلس قيادة الثورة انه دخل

على اليوزباشى أمين شاكر فوجده يطلب تليفونيا الاميرالاى (العميد) حسن حشمت مدير سلاح الاشارة الذى كان أمين شاكر حتى شهور مضت قبل الثورة يعمل تحت قيادته فى هذا السلاح . وفوجىء صاحبنا بأن اليوزباشى أمين شاكر يستفتح حديثه مع الاميرالاى حسن حشمت قائلا : صباح الخير يا بوعلى !

وقد يرى البعض أن استخفاف أمين شاكر يقارب أحيانا حد « الرذالة » وخاصة أنهم يلاحظون عليه أحيانا سلاطة اللسان . ولكن الذى يعرفه يجده لطيف المعشر ويحبه حقا ..

وعندى مثلان أولهما يتصل بما أسلفت فى السطور السابقة مباشرة ، والثانى يتعلق بما تعارف البعض على تسميته « **فهلوة** » !

من المنتدب ١ إلى المنتدب ٢ !

عندما صدر قرار تنظيم الصحافة فى ٢٤ مايو ١٩٦٠ عُيّن مصطفى أمين رئيسا لمجلس ادارة مؤسسة .. أخبار اليوم . كما تعيّن اثنان معا عضوى مجلس ادارة منتدبين هما : الدكتور السيد أبوالنجا الذى كانت صلته الادارية قديمة وممتدة فى أخبار اليوم والذى يعتبر كفاءة ادارية كبيرة بل هو الرائد « المصرى » لادارة الصحف ، وأمين مصطفى شاكر . غير أن قرار التعيين ـ بقصد (غالبا) أو بغير قصد ـ سبق فيه اسم أمين شاكر اسم السيد أبوالنجا فى منصب العضو المنتدب .. المشترك ! ولا شك أن مثل هذا الوضع ينشأ عنه ـ عادة ـ تنازع فى الاختصاصات يمكن تنسيقها وتكاملها . ولكن أمين شاكر هو أمين شاكر !

ويكفى للتدليل على أسلوب تعامله مع السيد أبوالنجا ما تواترت به الحكايات ـ والحقائق ـ من أن أمين شاكر كان يبعث إلى الدكتور السيد أبوالنجا بخطابات يستهلها بقوله : من العضو المنتدب (١) إلى العضو المنتدب (٢) !

هذا مثل اجتزىء به فى أسلوبه المثير .. آنذاك !

أما المثل المضروب على « فهلوة » أمين شاكر ، فقد شاهدته عن قرب ..

فى مرحلة تالية ـ ومازلنا فى أوائل الستينيات ربما سنة ١٩٦٢ ـ أقنع أمين

شاكر الرئيس جمال عبدالناصر بأن يصدر مجلة شهرية فاخرة باسم « بناء الوطن » ذات طابع دعائى خاص يرأس تحريرها ، كما يصدر شقيقة لها فاخرة أيضا وناطقة باللغة الانجليزية سميت آراب ريفيو THE ARAB REVIEW الأولى تطبع بالألوان فى دار الهلال بالروتوغرافور . والثانية تطبع فى شركة الاعلانات الشرقية طبعا مسطحا بالألوان .

وللأمانة فإن مثل هذه المجلات لا تقرأ عادة ، وإنما هى للاستهلاك الدعائى والشخصى .. ولكن من يقف فى مواجهة الثورة المستمرة ؟ إنها (أى الثورة) ـ على حد تعبير مأثور للزعيم المخضرم الطيب الأريب مصطفى النحاس باشا ـ مثل « وابور الزلط » لا يحسن أن يقف أحد أمامه !

وكنت آنذاك فى سنة ١٩٦٢ العضو المنتدب لمؤسسة دار التحرير للطبع والنشر التى تتبعها شركة الاعلانات الشرقية المختصة بالمطابع . ووقعت مع أمين شاكر العقد المتفق فيه على أسعار طبع مجلة « آراب ريفيو » وسدد أمين شاكر أول فاتورة .. والثانية . ثم بدأ التراخى.على الأصح « بلّط فى الخط » .. أو ليست الثورة كما سماها النحاس وابور زلط ؟! ورغم المطالبات والاستعجالات والانذارات كان يرجىء السداد .

لكن الذى لفت الأنظار ان عمال الجمع الأفرنجى لهذه المجلة وبصفة مستمرة كانوا يولونها عناية فائقة ويبدّونها على غيرها ، وكذلك عمال الطباعة ! وسرعان ما انكشف المستور .

كان أمين شاكر « يرش » ببذخ و « فهلوة » على العمال مكافآت تشجيعية لا يحصلون عليها من أى « عميل » آخر يطبع لدينا ! صحيح لم تكن تتجاوز هذه المكافآت مائة وخمسين جنيها فى العدد الواحد ولكنه مبلغ ذو شأن فى سنة ١٩٦٢ يساوى ١٥٠٠ جنيه الآن على الأقل . فى حين أن أمين شاكر ـ أو بالأحرى الجهة التى يمثلها ـ كان لا يسدد الفواتير الأصلية المستحقة والتى هى بآلاف الجنيهات اعتمادا على « **قوة الدفع الثورى** »! وأن المجلة تصدر بأمر « وحس » عبدالناصر الذى يدعم دار التحرير بالذات بمبالغ سنويا كبيرة لتستمر فى اصدار صحفها الجمهورية والمساء والاجيبشيان جازيت والبروجريه اجبسيان ..

كل ما استطعت الحد منه هو أننى ألزمت أمين شاكر باحضار الورق الأبيض الفاخر اللازم لطبع المجلة .. ولم يجد مفرا من شرائه وتسليمه لنا. اما قيمة الطبع ـ وهى ليست هينة ـ فمؤجلة .. والحساب يجمع ! وتوقفت المجلة ولكن المديونية قائمة نتفاوض بشأنها مع وزارة الارشاد القومى التى آلت إليها المديونية بقدرة قادر !

الطريف أننى حينما انتقلت من دار التحرير إلى دار الهلال سنة ١٩٦٤ وظننت اننى تحررت من « نزناز » فواتير الآراب ريفيو غير المسددة .. كان فى انتظارى هناك بدار الهلال مشكلة أدهى وأمر ! فلقد كان أمين شاكر يتبع نفس الأسلوب فى طبع مجلة بناء الوطن هناك مع اختلاف ثقيل هو أن دار الهلال بحكم توفر « بوبينات » ورق الساتنيه لديها ، والذى تطبع عليه مجلاتها بالروتوغرافور كانت تمد بناء الوطن بالورق أيضا مع الطباعة ، إذ لا حجة لديها فى أنها تفتقد ورق المجلة على عكس افتقاد شركة الاعلانات الشرقية للورق الأبيض الفاخر الجاهز لطبع مجلة آراب ريفيو . ومن هنا كانت مديونية مجلة بناء الوطن فى دار الهلال أثقل وأرذل ! وإن لم تخنى الذاكرة فقد سوت وزارة الثقافة والارشاد ما على صديقنا أمين شاكر من مديونية مجلتيه بأن سددت ـ بعد مفاوضات كوميدية كالنكات التى تروى على مشتروات الصعايدة ـ أقل من ثلث المستحق ، واعتبر الباقى ديونا معدومة ! ولا عدمنا فهلوة أمين شاكر !

فى بؤرة اهتمام عبدالناصر

كان أمين شاكر أحد الضباط الأحرار ، وبينه وبين جمال عبدالناصر إعجاب متبادل .

وحين قامت ثورة ٢٣ يوليو كان اليوزباشى أمين مصطفى شاكر كبير معلمى مدرسة الاشارة بسلاح الاشارة الملكى فى بعثة دراسية بايطاليا مفروض أن تمتد قرابة ستة شهور .. ولم يكن قد مضى من هذه الشهور آنذاك سوى شهر واحد . وحالما سمع أمين شاكر فى ايطاليا نبأ قيام ثورة ٢٣ يوليو ٥٢ لم يذهب فى اليوم التالى إلى فصول الدراسة هناك ، بل اتجه مباشرة إلى المطار واستقل أول طائرة عاد بها إلى القاهرة ، « وقدَّم نفسه » على الفور إلى جمال عبدالناصر القائد الفعلى لثورة يوليو والذى ضمه على الفور إلى هيئة مكتبه بغير تردد !

وظل أمين شاكر فى مجلس قيادة الثورة قريبا من جمال عبدالناصر . إذا اشتكى أحد « الكبار » من أمين شاكر تمسك به عبد الناصر قائلا « أنتم لا تتصورون أمين شاكر مريحنى قد إيه » ! وقد كان عبدالناصر على حق غالبا ، فلن يتسنى له أن يعثر على مدير مكتب في اقتدار أمين شاكر وتجتمع له الشخصية والذكاء والولاء ! وفى تقديرى أنه لولا رتبة أمين شاكر الصغيرة آنذاك (يوزباشى) – وإن كان فى مثل سن عبدالناصر – لربما رشحه عبدالناصر عضوا فى مجلس قيادة الثورة .

على أن عبدالناصر وضع أمين شاكر دائما فى بؤرة اهتمامه ومودته .

عيّنه مديرا لمكتبه بعد أن انتخب رئيسا للجمهورية فى سنة ١٩٥٦ ، ثم عضوا منتدبا لمجلس ادارة مؤسسة أخبار اليوم سنة ١٩٦٠ كما أسلفت ، ثم سكرتيرا عاما مساعدا للمؤتمر الاسلامى الذى كان سكرتيره العام أنور السادات . ثم عينه سفيرا لمصر فى فنزويلا وترينداد سنة ١٩٦٤ . وقبل أن تنتهى السنة – أى فى ديسمبر ١٩٦٤ – عينه سفيرا لمصر فى بلجيكا ، وضم إليه – وإليها – لوكسمبورج فى السنة التالية . وفى سبتمبر سنة ١٩٦٦ اعتمد أمين شاكر سفيرا لمصر فى السوق الأوروبية المشتركة . أى أن أمين شاكر « ساح » نحو عامين بين أمريكا الجنوبية وأوروبا واكتسب خبرات سياسية واقتصادية ودبلوماسية وادارية زادت من صقل هذه الشخصية المميزة المصقولة أصلا . ثم اختاره عبدالناصر وزيرا للسياحة بالوزارة التى رأسها المهندس محمد صدقى سليمان فى ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٦٦ فعضوا باللجنة الوزارية للخطة والانتاج فى أول سنة ١٩٦٧ . وحين دهت هزيمة يونيو ٦٧ وزارة صدقى سليمان والقوات المسلحة وعبدالناصر ومصر وشعبها ، وكعادته فى « الملمات » تولى جمال عبدالناصر فى ١٩ يونيو ١٩٦٧ رئاسة الوزارة إلى جوار رئاسة الجمهورية والقيادة العليا للقوات المسلحة واحتفظ بأمين شاكر فى وزارة السياحة . ولم يكن الهدف هو « السياحة » بالتحديد ولكن هى ترجمة عن كون أمين شاكر محل ثقة وتقدير من « الريس » .

« فرصة » عبدالناصر !

ويقال إن الدهر قُلّب ، والدنيا لا تدوم لأحد .. وهذا صحيح . بيد أنه صحيح

أيضا أن أى زعيم لأية ثورة فى العالم ـ ومن باب أولى العالم الثالث ـ لا تدوم مودته لأحد مدى الحياة إما لتقلب المزاج ، وإما لوشاية ، وإما لاختلاف الرأى ، وإما لأنه لم يعد يحتمل شطارته الزائدة ! دلونى على واحد فقط صفت علاقة عبدالناصر به على مدى سنى حكمه ودون أية شوائب ابتداء من عبدالحكيم عامر ومرورا بأعضاء مجلس قيادة الثورة وعلى صبرى ووزراء عسكريين ومدنيين وسكرتارية .. الخ . وإن كانت هذه هى طبيعة الحياة والبشر .

قد يقال إن هناك واحدا بالفعل « نجا » من هذه التقلبات .. **وهو محمد حسنين هيكل ألمع وأبرع الصحفيين وأقرب حوارىّ عبدالناصر إليه** . وهذه اجابة صحيحة بنسبة ٩٥ ٪ . أما لماذا لم يحصل هيكل على الدرجة النهائية فلأنه ـ وهو المستشار الأول والأقرب لعبدالناصر ـ فاجأه الرئيس بتعيينه وزيرا للاعلام فى أول سنة ١٩٧٠ ودون استشارته وضد رغبته أيضا . وإذا كان هيكل قد استطاع أن يحتوى هذه الأزمة الطارئة واحتفظ ـ بجهد جهيد ـ بموقعه الأكثر أهمية كالهرم الأكبر فى جريدة الأهرام ، فإن هذا لا ينفى أنه قضى ساعات رهيبة وكئيبة إذ أحس أن صديقه عبدالناصر قد « قرصه من أذنه » ولو مرة واحدة ، ثم عاد فطيّب خاطره ! ولذلك فما أكثر حُسّاد محمد حسنين هيكل !

أما أمين شاكر فقد كانت « قرصة » عبدالناصر له طويلة وموجعة . فقد أخرجه عبدالناصر من الوزارة فى ٢٠ مارس سنة ١٩٦٨ . ولم يكن خروجا عاديا ولا مجرد إقالة ، بل إن عبدالناصر أصدر أوامره بحبس أمين شاكر ! صحيح أنه حبس من « الدرجة الثانية » على الطريقة التى اتبعها عبدالناصر مع كمال الدين حسين ، ولكنه يشترك مع لب الحبس فى تقييد الحرية . فالفرق ليس كبيرا جدا بين أن يزج بالمرء خلف قضبان السجون ، وبين أن تحدد إقامته إجباريا فى بيته فلا يبرحه وكأنه سجينه ومنبوذ من المجتمع . وقد دامت هذه الاقامة الجبرية سبعة شهور لم يخرج من بيته إلا حين توفى شقيقه الوحيد ، فكان لزاما أن يشيع جنازته .. وكأنما رققت هذه المصيبة قلب عبدالناصر على أمين شاكر فأصدر أمره برفع الحظر عنه .. وأطلق سراحه من بيته .

ما سر هذا الغضب الفجائى على أمين شاكر ؟ تتعدد الروايات والحكايات والشائعات .. والله أعلم .

والرواية الوحيدة « المكتوبة » جاءت فى أخبار اليوم بعد عودة مصطفى أمين اليها فى السبعينيات ، فلا تدرى أهى الحقيقة التى يرويها هذا الصحفى الكبير ؟ أم هى « تصفية حسابات وتارات » من جانبه مع عبدالناصر الذى حاكمه بتهمة التخابر مع أمريكا وسجنه فظل حبيسا تسع سنين ؟

كتبت أخبار اليوم فى بابها « الموجّه » (عزيزتى أخبار اليوم) ردا على سؤال لقارىء « ما هى حكاية الوزير الذى اعتقله عبدالناصر فى منزله لمدة سنة » ؟ فقالت أخبار اليوم ما معناه انه أمين شاكر وزير السياحة . ففى أول سنة ١٩٦٨ خرجت المظاهرات ضد عبدالناصر . وفى اجتماع بمجلس الوزراء قال شعراوى جمعة وزير الداخلية إنها مظاهرات مدبرة . فرد أمين شاكر بقوله إنها مظاهرات حقيقية تعبر عن شعور واستياء الرأى العام ، فأخرجه عبدالناصر من الوزارة وحدد اقامته فى بيته لمدة سنة . وعلى تقديرى لعبدالناصر .. وعلى حبى المقيم لشعراوى جمعة (أحد أمراء المروءة والشهامة فى مصر) فمن الجائز أن تكون هذه الرواية « الاخبار يومية » صحيحة .

٥ يونيو ٦٧ وحكاية ٩ و١٠ يونيو

وإننى لأشعر هنا أنه من الصعب علىّ ألا أقطع سياق الحديث عن أمين شاكر لأعرج إلى حكاية هزيمة ٥ يونيو ٦٧ وحكاية ٩ و ١٠ يونيو ، فالحديث مرسل وذو شجون .

أما أن مظاهرات سنة ١٩٦٨ لم تكن مدبرة بل ترجمان صادق عن تمزق الجماهير إثر وضوح معالم الهزيمة وللتعبير عن استيائها من الأحكام الخفيفة الصادرة ضد المسئولين فى الجيش والطيران من الهزيمة .. فذلك حق لا شبهة فيه . فقد كان ذلك هو شعورى وشعور الكثيرين .. وإن لم أشترك أو لم يشتركوا فى المظاهرات . وكانت تلك أول مظاهرات ـ وبحق ـ بعد المظاهرات الشعبية العارمة أثناء النزاع بين عبدالناصر ومحمد نجيب فى مارس ١٩٥٤ . أى أن جيلا كاملا من طلبة الجامعات لم يعرفوا للمظاهرات كُنها أو سبيلا ، ولكنها كامنة بالتأكيد فى نفوس أبناء

الوطن كالشعلة الخامدة تتوهج وتنطلق عند الاقتضاء والجراح والغضب . وكانت مصر جريحة أيما جرح من هوان الهزيمة التى يستحيل حساب خسائرها المعنوية والمادية الجسيمة جدا . وإذا كانت هتافات فى هذه المظاهرات ترددت من أمثلة « **لا صدقى ولا الغول ، عبدالناصر المسئول** » فإن الجماهير على حبها لعبدالناصر الذى تجلى فى مساء ٩ يونيو وصباح ١٠ يونيو ١٩٦٧ تمسكا به (لانقاذ حطام سفينة تسبب ـ وهو ربانها ـ فى جنوحها ، فالانقاذ مسئوليته أيضا) فإنها مع وضوح الرؤية أحست بكثافة مسئوليته عن الهزيمة ابتداء وانتهاء ، ولم تعد تأخذ خطابه فى ٢٣ يوليو ١٩٦٧ الذى أعلن فيه صراحة مسئوليته الشخصية عن الهزيمة .. لم تعد تأخذ هذا الاعتراف على أنه مجرد شجاعة أدبية تتحمل وتغطى خطأ الآخرين . وإنما جماهير مارس ١٩٦٨ راحت تعلن غضبها الكظيم ، وإن كانت فى الوقت نفسه كأنما تستحثه أن يسلك سياسة أكثر حرية وديموقراطية كما تطالبه أن يبذل جهودا خارقة لاعادة بناء القوات المسلحة وتقويتها وحسن وصرامة إعدادها مدرّبة مجهّزة لازالة آثار العدوان .

وفى الحق أن عبدالناصر فى الشق الثانى الذى هو بناء القوات المسلحة من جديد نجح بامتياز . أما الشق الأول ـ وهو الحريات ـ فلعله اكتفى ببيان ٣٠ مارس ١٩٦٨ ومجرد وعود بالاصلاح الديموقراطى واقصاء مراكز القوى . أى أنه فى الشق الثانى تفتقت عبقريته العسكرية والوطنية والتنظيمية فى حين أنه فى الشق الأول غلبت عليه زعامته وسلطته النافذة التى دانت له سنوات طويلة ليس من الميسور الخلاص منها . وقد كان يعيبها ما سميته فى أكثر من تحليل بالصحف « **خوف عبدالناصر فى أعماقه من الشعب** » رغم كل شىء ! أى أن عبدالناصر كان يحب الشعب الذى أحبه ، وكان أيضا يخشى الشعب الذى لا يأمن جانبه مع أنه شعب طيب مأمون الجانب لو وجد زعامة مخلصة عاملة ، ولو أيقن أنه مدعوّ ـ بصدق ـ للمشاركة المخلصة العاملة الحرة المتفتحة التى تنعم بحسن الظن فى آرائها وتحركاتها وخير ما تكشف عنه من معدنها . كل هذا لا ينفى أن عبدالناصر بعد الهزيمة ورغم معاناته الجريحة كان « أكثر نضوجا » منه قبل يونيو ١٩٦٧ . بل إننى كررت فيما سطرت من مقالات قولى ان **أمجد سنوات عبدالناصر كانت تلك التى عاشها منذ الهزيمة ومرورا بحرب الاستنزاف وإعادة بناء لقوات**

المسلحة وحتى رحيله فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ . وذلك رأى ـ على ظاهر غرابته ـ يُسلِّم بواقعيته وصحته الكثيرون . ثم انه رأى يصدر عن انسان ـ هو كاتب هذه السطور ـ يعرف تماما ايجابيات عبدالناصر وثورة يوليو وسلبياتهما ، ولا تزر وازرة وزر أخرى .

ثم إننى لا أخفى كيف غضبت على عبدالناصر أشد الغضب وسببته بأقذع السباب مساء يوم ٨ يونيو ١٩٦٧ حين استمعت من محطة إذاعة الأمم المتحدة على الهواء وقائع جلسة مجلس الأمن حيث كان « **عوض القونى** » مندوب مصر فى الامم المتحدة يطلب بل يلتمس ـ بصوت جازع متهافت ـ إيقاف إطلاق النار . ونحن الذين كنا نظن أن تل أبيب ذاتها كانت طوع أيدينا .. ولم يكن الأمر كذلك من جراء الاعداد السيىء المرتجل الذى حاول الاعلام الصارخ الكاذب أن يخفى حقيقته قبل الحرب وأثناءها . حتى أننى ـ وكنت فى قلب الاعلام والصحافة ـ خدعتنى هذه الدعايات وصدّقتها . نعم ، صدقتها كأنها الأمانى البراقة الفارغة ، مع أن مقدمات انهيار المؤسسات ـ بما فى ذلك الجيش ـ كان يشى عنها واقع الحال . وكانت القيادة العامة للقوات المسلحة ـ المشير عبدالحكيم عامر وبطانته وحاشيته ومستغلوه ـ مشغولة بأشياء أخرى سوى الاعداد المسئول الجاد للمعركة . زيّن لها هيلمانها انها بجهاز الشرطة العسكرية والمباحث الجنائية العسكرية قادرة على التغلغل فى شرايين الحياة المصرية .. وليتها تغلغلت للخير أو للاصلاح وانما طاحت افتيأتا واستغلالا وسيطرة طامعة فى المغانم على حساب القيم والأبرياء . ثم إن التاريخ السرى لهذه المرحلة (السابقة على الهزيمة) قد تزاحمت فيه الزيجات الجديدة ـ الفنية وغير الفنية ـ فى بعض الأوساط الثورية ، وتعدد السهرات الحمراء والزرقاء فى البعض الآخر . اما الفساد بصور متفاوتة والأموال السائبة ، ومحاولة الاثراء والاقتناء وبناء الفيللات والقصور والابتعاد عن « الطهارة الثورية » فقد لاغ فى هذا كله كثيرون من بين الصفوف الثانية والثالثة ومن صنعتهم وصعّدتهم الثورة التى انشغلت ـ والى حد كبير ـ عن بناء المجتمع الجديد ـ بحماية نفسها « وافتعال » المحاكمات السياسية المتعددة ، وكأنما اهتمت الثورة بشعارات التطبيق الاشتراكى عن التطبيق الحقيقى الصالح رغم كل الصناعات والشركات والمؤسسات التى أقامتها . فبدت أشبه بالخاوية من الداخل .

وقد تجمعت معالم هذا الانحسار الحاد الكيفى فى سنتى ١٩٦٥ و١٩٦٦ على وجه الخصوص . مجرد « زخم » خادع من الخارج أما ما تحت السطح فان من يستشفونه يرون فيه نذيرا خطيرا ينبىء عن سقوطه عند أول امتحان جدى . ولم يكن أحد يتصور أن موعد هذا الامتحان العسير هو ٥ يونيو ٦٧ ، ولا أن نتائجه ستأتى بهذه الدرجة من الفداحة القاصمة التى لا حدود لها .

واذا كنت قد ثرت على عبدالناصر ثورة بالغة الحنق مساء ٨ يونيو وبكيت على بلدى بكاء مريرا كما لم أبك من قبل وطفقت أردد كالمصدوم المهزوم المحموم : **أهكذا يفعل هؤلاء بمصر ؟! إنها مصر ! هل يعرفون ما هى مصر ؟** إذا كنت قد انفجرتُ على هذه الصورة مساء ٨ يونيو ٦٧ فان أبناء الشعب جميعا كانوا فى الشوارع صباح يوم ٩ يونيو ٦٧ يهتفون ضد عبدالناصر ويسبّون له الأخضرين . ومازلت أتذكر تلك الأيام كأنها البارحة .. فذكراها لا تبرحنى أبدا رغم كل شىء .

ماذا حدث مساء ٩ يونيو ٦٧ ؟

وفى مساء ٩ يونيو ١٩٦٧ كنت بحجرتى الرحيبة فى دار الهلال وقد وقف حولى جمهرة من شباب دار الهلال قاربوا المائة وعيوننا تتطلع إلى جهاز التليفزيون أمامنا فى حجرتى انتظارا لخطابِ عبدالناصر الذى أعلنوا أنه سيلقيه ويبثه التليفزيون هذا المساء . كان الحاضرون جميعا ساخطين على عبدالناصر . وربما كان بعضهم ممن خرجوا فى مظاهرات الصباح هاتفين ضده . ولكن العيون محدقة و الآذان مرهفة . وأخذ عبدالناصر يلقى خطابه الأليم الحزين « وكنا نتوقع هجومهم من الشرق فجاءوا من الغرب .. الخ .. الخ » إلى أن بلغ خطابه عبارة « **ولهذا قررت التنحى عن جميع مسئولياتى كرئيس للجمهورية** » ولم يكد يكملها حتى فوجئت مفاجأة كبرى لم تكن فى حسابى اطلاقا ..

عند هذه العبارة بالذات .. عبارة التنحى ، كأنما أصيب الشباب الحاضرون بمس .. بما يشبه « اللوثة » فراحوا يصيحون فى نفس واحد : لا يا ريس ! لا يا ريس !

سبحان الله ! ما هذا الذى يجرى أمامى . أحلم أم علم ؟!

وارتفع نشيجهم الباكى وكأنهم ـ والآن فقط ـ قد أصيبوا فى أعز ما يملكون !

لماذا لم أفعل مثلهم ، ولماذا لم أحس إحساسهم ؟ وهل كنت من طينة أخرى غيرهم ؟ هل هى « بلادة » منى ؟ مؤكد لا بلادة ، فقد كنت انتفض حزنا « وحرقة » على بلادى فلم يزاحمه شىء واحد حتى هذا الذى طالما أحببته ولعلى اكتفيت فى تلك اللحظة بأن أرثى له .. على أحسن الفروض .

وانتهى عبدالناصر من خطابه . وكان لزاما علىّ ـ أو هكذا تصورت ـ أننى بوصفى كبير الحاضرين فمن واجبى أن أقول كلمة فى هذا الشأن . وتحاملت على نفسى وتصورت أننى فيما خطر لى أن أقوله كنت واقعيا ومنطقيا . قلت أن مصر تجتاز ظروفا أليمة جدا لم يسبق أن مرت بها . وإذا كان القائد الزعيم قد ارتأى التنحى ، فليس أمامنا سوى الاستجابة ومواجهة الموقف الجديد بالتجلد وبالعزم والصلابة والإباء الوطنى والعمل الدؤوب ..

بيد أن هؤلاء الشباب المهتاجين على عبدالناصر فى الصباح ، والباكين الرافضين قراره بالتنحى فى المساء لم يمكّنى بكاؤهم من الاستطراد ، فاجتزأت بقولى : كان الله فى عون مصر .. وفى عوننا .

وبعد أقل من ربع الساعة كان شارع المبتديان الذى تقع فيه دار الهلال يغلى كالبركان بجموع المتظاهرين الرافضين قرار عبدالناصر بالتنحى . وهكذا كانت شوارع القاهرة من أقصاها إلى أقصاها حتى أننى لم أتمكن من العودة إلى بيتى بمصر الجديدة ، ومشيت على الأقدام بصعوبة لأبيت لدى شقيقتى بجاردن سيتى ، وأنا فى أشد حالات العجب والذهول . ما معنى هذا الذى يجرى أمام عينى .. وقد كان نظيره قائما فى مختلف بلدان مصر بل الوطن العربى . ومن المستحيل أن أكون على صواب وهذه الملايين هى المخطئة .

وان الذين يزعمون أنها مظاهرات مدبرة من الاتحاد الاشتراكى العربى ليسوا واهمين فحسب ، ولا حتى مجرد متحاملين ولكنهم يخلعون على الاتحاد الاشتراكى مقدرة لم يملكها أبدا هذا الجهاز الواهن الصورى غير المؤثر ، والذى يلبس ثوبا فضفاضا . إن الاتحاد الاشتراكى لم يكن يستطيع أن يحرك أكثر من ألف أو ألفين

من تابعيه غير المؤمنين به فى أعماقهم ، أما هذه الملايين الحاشدة ، فقد خرجت من تلقاء نفسها وبملء إرادتها أو ـ ليكون التعبير أكثر دقة ـ بملء عاطفتها ، فلا جدال أننا شعب عاطفى جدا . ولا شك ان لعبدالناصر ـ رغم السخط المبرّح عليه صباحا ـ له رصيداً من الحب والتقدير فى نفوس الشباب وخاصة الشباب الذين نشأوا فى ظل الثورة التى انحاز زعيمها إلى الفقراء لينصفهم بكل ما فى وسعه . ينصفهم فى لقمة العيش وفى التعليم المجانى وفى تمثيلهم السياسى ـ على شكلية ـ كعمال وفلاحين وفى .. وفى ..

هذه واحدة . أعنى العاطفة .. والشعب العاطفى .

أما الثانية فهى « الحاسة السادسة » . فالجماهير بفطرتها أدركت ان احتجاب عبدالناصر فى هذه المرحلة لا يعنى فقط حرمانها منه ومن صورته القديمة المألوفة فى أذهانهم ، ولكن يعنى أيضا تكريسا للهزيمة .. وهو ما لا ترضاه الجماهير .

أما الثالثة فلعلى سبقت بالاشارة إليها فيما سلف من سطور . ومؤداها أن الشعب كأنما يقول لعبدالناصر : إنك مثلما أغرقتنا فعليك أن تنتشلنا . مثلما أنك تسببت فى الهزيمة ، فإن عليك أن تقودنا لانتزاع النصر ، فلابد أنك استوعبت الدرس القاسى .

وفى تقديرى أن فى تاريخ كل أمة « لحظة » يقال فيها إن التاريخ قد توقف عندها ليرى ماذا هى صانعة . كأنه يحبس أنفاسه فى انتظار المنعطف الهام الذى يختاره الشعب . وغالبا ما يكون قرار الشعب أشبه بالالهام . والشعب واتاه إلهامه فى تلك الليلة (وأخص مساء ٩ يونيو لأنه أكثر صدقا وعفوية من صباح ١٠ يونيو) فى حين أننى تخلى عنى الالهام .. أعترف !

وقد كان رفض الشعب المصرى لتنحى عبدالناصر موقفا تاريخيا . منعطفا تاريخيا . إلهاما تاريخيا .. فعلا لا مجرد كلمات مرصوصة . وإذا لم يكن قد تم رفض التنحى على هذا الوجه ، فالله وحده يعلم ماذا كان سيؤول إليه مصير هذا البلد . ولا شك فى أن الهزيمة كانت فادحة بدرجة تفوق الوصف ، ولكن إذا كان عبدالناصر قد صمم على التنحى فإن الهزيمة كانت ستغدو مؤكدة نهائية لا رجعة فيها . استسلاما بلا قيد ولا شرط .

ورغم أننى لم أغفر ولا أغفر لعبدالناصر أبدا ـ والله يغفر لى وله ـ أنه تسبب وقادنا إلى هزيمة ٥ يونيو النكراء ، فإننى بعد أيام أو شهور تيقنت أن الشعب كان أبعد منى نظرا وفراسة فطرية حين رفض تنحى عبدالناصر ، وان بقاءه فى موقعه فوّت فرصة للشماتة الكاملة والنصر المبين لدى أعدائنا ، وان ذلك العدول عن التنحى كان ـ على غرابة التعبير واستغفر الله ـ من لطف الله بنا . وقى الله شر مقاديره ، لطيف السماء ورحمانها .

أقول هذا على كراهيتى لعبدالناصر يوم الهزيمة وطوال شهر يونيو ١٩٦٧ . أقول هذا حتى عندما بقى فى نفسى منه شىء أو أشياء بعد استعادته فى الشهور التالية الكثير من مكانته عندى . أقول كل هذا وأنا الذى لم أمانع فور اللحظة فى أن يتنحى جمال عبدالناصر كما أعلن ..

نعم مرة أخرى .. كنت مخطئا ، والشعب بإلهامه هو الذى كان على صواب .

بقى قول البعض إن التنحى كان « تمثيلية متقنة » من جانب جمال عبد الناصر . ولم أدخل فى سريرته لأقول ان تنحيه كان صادقا مائة فى المائة . وإنما أى راصد للأحداث الكئيبة المرتبكة فى ذلك اليوم ـ ٩ يونيو ـ يتعين عليه أن يقول إن الموقف لم يكن يسمح لعبدالناصر بالتمثيل ، وهو المقصوم ظهره . هناك فقط احتمال وفى حدود عشرة فى المائة أو أقل بأن يكون قد راوده ـ لا تمسكا بالسلطة فى الدرجة الأولى ، وانما ببقية « تمسك » أو أمل فى تحسين صورته ـ أن هذا الشعب العاطفى قد يصدم بالتنحى وقد يرفضه .

على أى حال فإن عبدالناصر ـ على خلاف ما تصوره بعض الناس ـ لم يتدلل فى رفض التنحي ، ولكنه ـ حقيقة ـ نزل على إرادة الشعب ، ولم يجد بدا من أن يشمر عن ساعد الجد .. ويحاول ويجتهد رافعا شعار « **ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة** » .

إننى أقول إن عبد الناصر ـ بهزيمة ٥ يونيو ـ دفع ثمن الأخطاء الصغيرة والكبيرةالتى ارتكبها وتلك التى جرت من وراء ظهره .. ولو أن مصر هى التى دفعت الثمن .

هذا هو قصارى القول في عبدالناصر و٥ يونيو .

ولكن هناك قول مأثور عن حسين الشافعي طالما ردده في أحاديثه بعد رحيل عبدالناصر طبعا وهو قوله « إن عبدالناصر مات يوم ٥ يونيو » . وهو يعني أن عبدالناصر مات في هذا التاريخ بالمعنى المجازي .. بمعنى أنه انتهى هو وزعامته .

وفي رأيي أن هذا القول ليس قاسيا وإنما هو - على اعجاب وتمسك حسين الشافعي - غير دقيق . فالذي فعله عبدالناصر بعد هذا التاريخ كثير وكثير ، مع التسليم بأنه عاش وهو ينزف ويتجرع كبرياءه المثخنة بالجراح .

اما القول القاسي بل الشديد القسوة فهو لم ينكر جهرا ولم يُكتب ، ولم يعرف من صاحبه وانما هو دار همسا ، ولاكت هذا الحديث المهموس بعض أوساط المثقفين من اليمين واليسار على السواء ذلك هو قولهم « إن ما حدث من هزيمة لنا في ٥ يونيو ٦٧ شيء فظيع ، ولكن الذي كان سيصبح أفظع هو لو كنا انتصرنا ! » ولقد كنت أرفض هذا الرأي لا حبا في ثورة ٢٣ يوليو أو عبدالناصر وإنما حبا في مصر . وأعقب قائلا إن الثورة يمكن أن تزول بين يوم وليلة وعبدالناصر ممكن أن يموت أو يقتل في ثانية واحدة ، أما مصر فهي الباقية وهي التي يتوجب أن تبقى .

ما معنى قول هؤلاء إن الهزيمة كانت أفضل من الانتصار ؟ معنى هذا الرأي القاسي ان رجال ثورة يوليو لو كانوا انتصروا لاستبدوا كما لم يستبدوا من قبل « وعلّقوا لنا المشانق » ! وكنت - ولست إرهابيا أبدا ، كما أدين الارهاب والاغتيالات - أقول ردا على هذا القول البالغ القسوة عن عبدالناصر بالذات : يستبد .. يعلق المشانق بعد النصر ؟ بِ سلام ، فلننتصر وليحاول أن يفعل « فديّته رصاصة » تزيله وتُبقى النصر !

وهي صورة افتراضية بشعة ابتداء وانتهاء ، ولكنها تعبر عن مدى ما كان عليه سوء الظن بالثورة وعبدالناصر عند هؤلاء . أترى عبدالناصر سمع هذا القول المهموس في حينه ؟ أترى بلغت عبدالناصر هذه الصورة البشعة عن الجانب المظلم من ثورة ٢٣ يوليو ؟ أتراه لو كانت بلغته أو استوعبها أكان يراجع صفحات ثورة ٢٣ يوليو صفحة صفحة ، وتدارس ما كان يجب أن يفعله هو وأصفياؤه وما كان يجب

ألا يفعلوه . أتراه حينئذ لو ملك إعادة الزمن إلى الوراء لكان قد حرص على نقاء الثورة كما بدأت ، ولكان وضع الرجل المناسب بالفعل فى المكان المناسب ، ولما جامل فى حق ولما سدر فى باطل ، ولكان وثق فى الشعب وأعطاه كل حرياته السياسية والاجتماعية ، لا بميثاق بليغ مكتوب وإنما بنهضة شريفة عفيفة متجردة جادة ترقى بالشعب وتؤمن به ، ولكان جعل الجيش جيشا مقاتلا بمعنى الكلمة وعهد إليه بقائد كفء متفرغ محترف لا قائد صديق ثبت فى عدوان ١٩٥٦ وفى الانفصال سنة ١٩٦١ أنه ليس أهلا للقيادة ! أترى عبدالناصر ما كان غامر بإغلاق خليج العقبة لكونه ضاق ذرعا بمن « يعيرونه » بأن السفن الاسرائيلية تعبر خليج العقبة رافعة أعلامها فى مياهنا الاقليمية .. وهو الذى طالما أعلن أن أحدا لن يدفعه لخوض غمار حرب مع اسرائيل قبل الأوان وقبل أن يكون على تمام أهبة الاستعداد لها . أتراه كان عمل ـ على الأقل ـ أن يتقى ضربة الطيران الاسرائيلى ويتجنب هزيمة ٥ يونيو ؟ لا أظن أن الوقت كان يتسع لعبدالناصر لهذه المراجعة الشاملة فى ذهنه ، فقد كان ذهنه فى شغل شاغل لازالة آثار العدوان .

هل أنا « ناصرى »؟!

ولقد أعلم أننى أطلت الحديث عن هزيمة ٥ يونيو وعبدالناصر ، وأننى رغم ذلك لم أفرغ بعد من هذا الحديث وقطعا سأعود إليه عشرات المرات ، كما أعلم أن رأيى فى عبدالناصر يبدو « مشوشا » و« متقلبا » و« عنيفا » أحيانا وبالأخص لانتكاس الديموقراطية والجيش القوى فى نظامه حتى سنة ١٩٦٧ ورغم كونهما من مبادىء الثورة الستة .

ولكن عبدالناصر ـ رغم كل شىء ـ بحسه الوطنى المتوهج وبشخصيته القوية الموهوبة والفذة وبانحيازه للفقراء وبأحلامه العريضة لمصر وللقومية العربية هو أحد أبرز الزعماء فى تاريخ مصر والعرب . ومن هنا لا تفتأ تخايلنا ذكرى عبدالناصر لا تطمسها هواجس التشويش والتقلب سواء أتت هذه الهواجس من غيرنا أو منا ! ولا أخفى أننى كلما ذكر اسمى أمام أناس لا أعرفهم معرفة شخصية ولا يعرفوننى تصايحوا : هو « ناصرى » ! هو « بتاع عبدالناصر » ! وابتسم فلا أنا ناصرى ولا أنا بتاعه ولا حتى التقيت به عمرى فى لقاء خاص ولا دخلت بيته أبدا أو مكتبه ،

رغم أنه كان يعرفنى سماعا ويعيننى رئيسا لتحرير الجمهورية سنة ١٩٦٥ سماعا أيضا ! ولقد أعلم ان سر اتهامى بالناصرية يرجع الى مقال حار اشتهر فى مارس سنة ١٩٧٤ حين نشرته بالجمهورية وكتبت فيه ما كتبت وتصديت للدفاع عن عبدالناصر وسط بداية موجة من الاسقاط عليه والتجريح فيه . وكان لمقالى المذكور « **تعالوا إلى كلمة سواء** » رد فعل قوى جدا فاق التصور .. وتأييدات بالآلاف والآلاف فاجأتنى وأدهشتنى . بل أتذكر أن المرحوم عز العرب عبدالناصر شقيق جمال عبدالناصر اتصل بى تليفونيا من الاسكندرية غداة هذا المقال المذكور وصوته يتهدج بتأثر باك وهو يردد « **والله لم يعد لنا فى مصر سواك** » ! وكذلك فعل شقيقه المرحوم الليثى عبدالناصر . يا دين النبى ! ألهذه الدرجة « هان » أمر عبدالناصر ؟! واعتبرنى لفيف من الناس حبيب عبدالناصر وحامى حمى الناصرية فى مصر والوطن العربى ! ورغم أننى أشرت فى مقالى ذاك إلى أننى لن أغفر لعبدالناصر أبدا هزيمة ٥ يونيو ونددت بسلبيات له ، ولكنى دافعت عن ايجابياته . غاية الأمر أن مقالى جاء منصفا وفى وقته وأحدث دويا هائلا لأنه عبّر عن مشاعر حبيسة لدى الجماهير التى عز عليها هجوم خصوم عبدالناصر عليه وخروجهم من الجحور دون أن يتصدى لهم قلم !

لست ناصريا إذن بل مصرى عربى لا يرضيه الجحود المطلق والتحامل المغرض . ولست حامى حمى الناصرية ولا يحزنون . إنما أقول ما لعبدالناصر وما عليه ، وأمرى إلى الله . ومن المستحيل أن أتنكر ببساطة لزعامة عبدالناصر التى دامت سنين ولا لاجتهاداته البعيدة الأثر والمدى رغم ما قد يكون شابها .

ثم .. انه كان لا يمكن أن يصدر هذا الكتاب ـ حكايات سبتمبر ٤٢ ـ الذى ينسج من حول الحياة العسكرية والمدنية المصرية عبر ٤٧ سنة أو أكثر .. بغير تناول يبدىء ويعيد حول جمال عبدالناصر وحول الثورة ، وبغير أن أُفيض مرارا ومن زوايا مختلفة فى ذكريات يونيو ٦٧ .

ولعل اختيارى الاسترسال فى ذلك كله وأنا بصدد الحديث عن « أمين شاكر » جاء شعوريا ولا شعوريا لا لقربه فحسب من عبدالناصر ـ فالقريبون كثار ـ وإنما

أيضا لأن أمين شاكر هو رأس دفعتنا فى الجيش .. الجيش الذى قام بثورة ٢٣ يوليو ٥٢ وأهدى شعبنا الزعيم الرئيس الراحل جمال عبدالناصر .

أمين شاكر .. كاتبا

نعم لقد شردت طويلا كدأبى .. وعفوا ، فأين تركت القارىء الكريم فى حكاية غضب عبدالناصر عى أمين شاكر ؟

فاكر ! فبعد سبعة أشهر من وفاة شقيق أمين شاكر وخروجه من بيته المحددة إقامته فيه لتشييع جنازته ، رق قلب عبدالناصر له وعفا عنه . وبالفعل فى ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٦٨ عيّن أمين شاكر خبيرا لدى المقر الأوروبى فى شئون السياحة ، وتخصص أمين فى دول العالم الثالث .

ثم عاد أمين شاكر إلى مصر من منصبه البعيد فى عهد رئاسة الرئيس الراحل أنور السادات .

ولم تكن الكتابة الصحفية لتستعصى على أمين شاكر بذكائه ومواهبه وخبراته . ثم أنه إلى جانب إجادته صياغة اللغة العربية أجاد اللغة الانجليزية والفرنسية والأسبانية والايطالية فتيسر له التزود والاطلاع على الكتب والصحف والمجلات والمراجع الصادرة بهذه اللغات مما طوع له الاغتراف والكتابة .

وربما كان أشهر مقال له فى عهد السادات هو ما كتبه فى الأهرام بتاريخ ١٦ ديسمبر سنة ١٩٧٧ تأييدا جارفا لمبادرة السادات وفيه قام بتنصيبه « زعيما نادرا فى هذا الزمان وكل زمان » ! وفيه أيضا هجم هجوما ضاريا على « المسكين » « المحسود » من معظم حملة الأقلام .. محمد حسنين هيكل ! فبقدر ما اقترب وأفاد هيكل من عبدالناصر بقدر ما خلق لنفسه عداوات وثارات بايتة .. خاصة ممن اقتربوا من عبدالناصر وأفادوا منه ، لأن كفة هيكل كانت أرجح دائما !

وبعد رحيل السادات مضى أمين شاكر يكتب مقالات وأبحاثا فى القضايا العامة وضد اسرائيل وأمريكا . واستضافته صحف المعارضة وخاصة جريدة الشعب لسان

حال حزب العمل الاشتراكى . وأشهد أنه نشر بها مقالات طيبة رصينة وفيها غيرة يقظة من أجل مصالح الوطن .

وانضم أمين شاكر إلى نقابة الصحفيين عضوا فيها ، ولأصبح « أقدم » منه فى شىء ما !

أما لماذا خصصت أمين شاكر بحديث طويل على ما فيه من تفريعات واستطرادات ، فمرجع ذلك أنه أول الدفعة التى تحمل اسمه بجانب كونها دفعة سبتمبر ٤٢ .. فهو إذن جدير بالتخصيص والابراز .

٢

سعد حنفى حسن

فى سنة ١٩٤٦ كان إسماعيل صدقى باشا رئيسا للوزراء ووزيرا للمالية . وكان حزب العمال البريطانى قد وصل بالانتخاب إلى الحكم بعد الحرب العالمية الثانية . سقط تشرشل بطل الحرب ورئيس حزب المحافظين . ونجح فى الانتخابات وفاز بالأغلبية أتلى رئيس حزب العمال الواعد والمهيىء للإصلاح الاجتماعى والاقتصادى عقب الحرب . صورة مثالية للديموقراطية وبعد النظر والانتخابات الحرة التى لا تزيف إرادة الشعب .. وصورة أيضا لميل الجماهير الفطرى للتغيير . واختار أتلى لوزارة الخارجية مساعده العمالى المتمرس ارنست بيفن . وكان بيفن متفتحا وعدوا للصهيونية .

وإذا كان من المعلوم أن مفاوضات جرت بين صدقى باشا والمستر بيفن أسفرت عن مشروع ما سمى معاهدة صدقى / بيفن ولم يكتب لها النجاح مع أنها أفضل كثيرا من معاهدة ١٩٣٦ وقريبة الشبه باتفاقية الجلاء التى أبرمت سنة ١٩٥٤ ، فإنه من غير المعلوم للكثيرين عرض هام وخطير ومصيرى تقدم به بيفن إلى صدقى لتشترى مصرى مائة دبابة ثقيلة من أحدث طراز آنذاك اسمه « شيرمان » .

غير أن صدقى باشا – عفا الله عنه – رفض هذا العرض ، ولم تتم الصفقة العظيمة بحجة أن الميزانية لا تسمح ! مع أن مصر كانت دائنة – وليست مدينة –

لبريطانيا بنحو ثلاثين مليونا من الجنيهات الأسترلينية بسبب نفقات القوات البريطانية فى مصر خلال الحرب العالمية الثانية . ضيّع صدقى باشا فرصة العمر .

ولقد كشفت سر هذه الصفقة « الهدية » المرفوضة فى مقال بجريدة الجمهورية سنة ١٩٧٢ وأنا أذوب حسرة على أنها أفلتت من بين أيدينا .. ومتى ؟ قبيل حرب فلسطين بعامين اثنين .

لو أن هذه الدبابات الشيرمان المائة كانت فى حوزة الجيش المصرى آنذاك وتدرب على استخدامها وتزود بذخيرتها لما قامت دولة « إسرائيل »! نعم وأقسم بالله العظيم إننا لو كنا تملكنا حتى نصفها لاستطاع الجيش المصرى فى حملة فلسطين فى ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ أن يصل إلى أعماق تل أبيب ، وأن يقضى على أحلام الصهيونية وأطماعها وسلبها للأراضى الفلسطينية العربية ، ولتغير وجه ومجرى التاريخ تماما ولما تعقدت القضية على هذه الصورة الرهيبة المتحكمة التى ما فتئت تحاصرنا ..

ماذا كانت عليه « إسرائيل » فى بداية إعلان « دولتها » مساء ١٤ مايو ١٩٤٨ ؟ لاشىء سوى بضع عصابات متفرقة ومستعمرات متناثرة هنا وهناك . حصينة بعض الشىء ولكنها لا تستعصى إطلاقا على هجوم مسلح جاد . ولم تكن إسرائيل قد حصلت بعد على الأسلحة التى تقاطرت عليها من كل مكان ابتداء من النصف الثانى لشهر يونيو ٤٨ حتى النصف الثانى من شهر أكتوبر ٤٨ . لم يكن لدى إسرائيل فى منتصف مايو ٤٨ لا طائرات ولا دبابات ولا مدفعية ثقيلة .. بل مجرد بنادق ومدافع رشاشة وقنابل يدوية وحصون محاطة بالأسلاك الشائكة وبعض الألغام .

ولست أنسى يوم هجوم الجيش المصرى على مستعمرة دير سنيد القريبة من غزة . وقد شاهدت المعركة بعينى رأسى وسمعت بأذنى ضباطنا وجنودنا وهم يتأهبون للهجوم فى جسارة وإن كانوا يتصايحون فى حسرة : آه لو أن لدينا ولو عشر دبابات شيرمان لا هذه الدبابات الخفيفة الورقية ! ورأيتهم وهم يهجمون بصدورهم العارية فيتقدم البعض ويخر البعض الآخر شهيدا أو جريحا . ولو أنهم تقدموا كما تقضى أصول الحروب الحديثة من وراء حماية وقوة دروع ونيران الدبابات الثقيلة – لا المدفعية فحسب – لتساقطت المستعمرات فى غمضة عين !

وليس هذا التمهيد فقط لكون سعد حنفى حسن - وهو ثالث الدفعة - ذهب إلى سلاح الفرسان (الدبابات والمدرعات) بمحض اختياره بين ثمانية من الدفعة - أصلا - هو على رأسهم ، وإنما لأن سعد حنفى بالفعل كان على رأس أبطال الدفعة الذين استشهدوا فى حرب فلسطين سنة ٤٨ . استشهد وهو يقود دبابته الخفيفة فى المعركة .

أذكى أبنـاء سـبتمبر ٤٢

إن سعد حنفى حسن - رضوان الله عليه - كان أذكى دفعتنا . أقول أذكى (أفعل تفضيل) وليس فقط من أذكى طلبة وضباط دفعتنا . هذه شهادتى عنه وشهادة كل من عرفوه . فهو « الأذكى » بالاجماع .. بالتزكية . كان لماحا حاضر الذهن متوقده ، لا يحتاج إلى مذاكرة دائبة ليتفوق ، وإنما يكفيه الانتباه والاستيعاب والموهبة التى اعترف بها زملاؤه ورؤساؤه على السواء . وكان مرحا بسيطا نقيا غير متجهم وإنما هو متفتح قريب إلى القلب . كان أكبر من سنه الحقيقية بمراحل ولو أننى لست أعرف تاريخ ميلاده بالتحديد لسبب واضح هو أن كشف الجيش لسنة ١٩٥٠ الذى فى حوزتى خلا من اسمه وبالتالى من تاريخ الميلاد . ذلك أنه كان قد انتقل إلى جوار ربه مع الصديقين والأبرار بعد استشهاده فى حرب فلسطين ٤٨ وبالتحديد فى ٤ يناير ١٩٤٩ .

أسفى عليه .. فقد كان مرجوا واعدا ، وكان قمينا أن يصبح ذا شأن كبير جدير بتميزه وألمعيته وشخصيته المتكاملة ، وذكائه الخارق . وكان أيضا جسورا معتزا بكرامته . ويذكر له أنه بعد أسبوع من تعيينه فى سلاح الفرسان وكان يرأسه آنذاك الأميرالاى إسماعيل داود بغطرسته وتركيبته و « المونوكل » الذى يتمشدق به - فاشتبك سعد حنفى مع « البرنس » فى قضية مبدئية تتعلق بالأصول والكرامة . كان قد تقرر قيام وحدة من الفرسان (جنود وضباط) بطابور سير . والمفروض أن الجنود يحملون البنادق فى هذا الطابور فى حين يحمل الضباط طبنجات (مسدسات) . ولكن إسماعيل داود أمر بأن يحمل الجميع ضباطا وجنودا بنادق إما استظهارا لسطوة « سموه » وأن الأمر أمره وليس النظام المعمول به فى الجيش المصرى وجيوش العالم ، وإما تعمدا لاهانة الضباط . ورفض سعد حنفى إلا أن ينفذ

القانون ويحمل هو والضباط زملاؤه المسدسات لا استعلاء فقد كان أبسط من البساطة وإنما لاعطاء كل ذى حق حقه . فما كان من الأمير إسماعيل داود إلا أن نقله على الفور إلى سلاح الحدود « تكديرا » له . ولم يبال سعد حنفى . وبعد قليل من الشهور عاد هو إلى سلاح الفرسان وترك إسماعيل داود سلاح الفرسان والجيش كله !

أسفى على سعد حنفى . لم أنعم بصحبته إلا لماما ، فقد كان بالسرية الثانية . لا الثالثة – فى الكلية الحربية . وهى على مجاورتها لنا لم تكن تتيح لنا أن نتجاذب مع أسرتها أطراف الحديث كثيرا . وإن كان قد شدنى إليه هو بالذات بروحه الحلوة وصفاء ذهنه ودماثة خلقه . تحدثنا وضحكنا معا ولكن خطفا وأذكر أننى كنت أداعبه بأنه « الرجل الأخضر » لأخضرار وكثافة منابت الشعر فى ذقنه التى يحلقها كل يوم فى حين أننا بالكاد نحلقها كل ثلاثة أيام مرة . ولم أكن أعلم أنه سيرحل عنا « أخضر العود » . ففى فلسطين عندما عثرت عليه وعانقته وداعبته قبل خوضه معركته ما دريت أننى أودعه وأننى سأفقده ويفقده معى الجيش والوطن ، وأن مداعبتى الضاحكة له ستتحول إلى دموع تنهمر عليه . وإذا كانت تلك الدموع قد جفت مع الزمن فإن مثلى ومثل دفعتى لا تنسى سعد حنفى ولا ينبغى لبلادنا أن تنساه أو تنسى شهداءها مدى الدهر حتى ولو عاجلهم الأجل مبكرا فلم يذع صيتهم .

أسفى على « رمز الذكاء » فى دفعتنا والذى ضم إلى صفاته الرمزية الأثيرة أنه بات أيضا « رمز الفداء » أسكنه الله فسيح جناته .

٣

حسن محمد مجيد الجريدلى

حسن الجريدلى من فصيلة أخلاق زميلنا عمر جوهر ! ربما شىء يجرى فى العروق ، فوالد عمر جوهر وهو اللواء **حسين باشا محمود** مدير سلاح المدفعية هو خال حسن الجريدلى ..

ومن سلاح الاشارة حيث عمل حسن الجريدلى طويلا اجتاز امتحان كلية أركان الحرب فأخرجته شهادته وكفاءته من « روتين » سلاح الاشارة وأنطلق فى مجالات

أخرى أرحب وأوسع آفاقا . وحين انتقل إلى العمل بمكتب **الفريق محمد إبراهيم** رئيس هيئة أركان حرب الجيش فى أوائل الثورة ، كان هناك « أحمد إسماعيل » الذى يعمل كأحد مساعدى محمد إبراهيم . وتوسم - أى أحمد إسماعيل - فى حسن الجريدلى نجابته وارتاح لعمله إلى جواره وآثره بحق . وحين انتقل أحمد إسماعيل للعمل كرئيس لهيئة العمليات اصطحب معه حسن الجريدلى . ولما بدأت حرب أكتوبر ١٩٧٣ والمشير **أحمد إسماعيل** وزير للدفاع وقائد عام للقوات المسلحة نقل اللواء أ . ح حسن الجريدلى مساعدا لرئيس العمليات الحربية الفريق (المشير فيما بعد) **محمد عبد الغنى الجمسى** . وفى النصف الثانى من حرب أكتوبر **وبعد تنحية الفريق الشاذلى من رئاسة أركان حرب الجيش** عُيّن الجمسى رئيسا للأركان مكانه ، كما عين اللواء حسن الجريدلى رئيسا للعمليات الحربية مكان الجمسى .

السادات « يمثل » للتليفزيون الأمريكى !

ذات مساء فى مناسبة العيد الأول لحرب أكتوبر ٧٣ وبالتحديد فى الأيام الأولى من أكتوبر ١٩٧٤ وكنت آنذاك رئيسا لمجلس إدارة دار التحرير ورئيسا لتحرير الجمهورية ، تم استدعاء رؤساء مجالس إدارات ورؤساء تحرير الصحف والمجلات المصرية فجأة دون أن ندرى ما القصد وما الحكاية سوى أن عربات عسكرية توجهت بنا إلى مكان مجهول فى مدينة نصر . تركونا هناك نحو ساعة من الزمان فى حجرة مغلقة داخل سراديب تحت الأرض نضرب أخماسا لأسداس . المهمة سرية شديدة التكتم ، ولا أحد من السادة الضباط المرافقين يريد أن يمنّ علينا بكلمة أو بفنجان قهوة ! مجرد ابتسامات لنا من بعيد ونحن نتجاذب أطراف الحديث بين بعضنا البعض ونتبادل الذكريات والقفشات ونترقب المفاجآت !

وأخيرا برح الخفاء وقادونا إلى قاعة فسيحة متلألأة الأضواء وفى نهايتها وقف الرئيس الراحل أنور السادات ببذلته العسكرية الرسمية وأوسمته كقائد أعلى للقوات المسلحة وفى يده مؤشر طويل لزوم القيادة والاشارة (وعلى فكرة .. هو ضابط اشارة سابق) وعن يمينه المشير أحمد إسماعيل وعن يساره الفريق محمد عبد الغنى الجمسى ، واصطف ذات اليمين وذات الشمال ضباط برتبة اللواء وأمامهم تختة كبيرة مجسمة لجبهة القتال .

« أتارى » الحكاية أن أنور السادات كان يصوّر للتليفزيون الأمريكى ما جرى يوم السادس من أكتوبر ١٩٧٣ وكأنه وقع بالأمس لا منذ عام ! وحين فرغ التليفزيون من تصويره ومثّل أمامه نفس المداولات التى جرت بينه وبين مساعديه الضباط الكبار فى غرفة العمليات يوم العبور ، دعانا للوقوف أمامه ليشرح لنا من جديد كيف سارت التعليمات والعمليات يومئذ ..

وتفرست فى الوجوه المحيطة بالسادات مرة أخرى . وتوقفت عيناى عند واحد منهم بالذات ، وكدت « أهلل » من السعادة ! إننى لا أعرفه فحسب .. إنه دفعتى . إنه اللواء أركان حرب حسن الجريدلى مدير العمليات الحربية فى حرب أكتوبر ٧٣ . إذن فدفعتى كانت مُمثَّلة هنا أيضا - والحمد لله - فى القيادة العليا لحرب أكتوبر . وبايماءات رأس ، وبابتسامات منقوعة فى البهجة والعذوبة تبادلت مع حسن الجريدلى التحية .

وتذكرت يوميات كنت كتبتها فى « الجمهورية » قبيل حرب أكتوبر مباشرة وبالتحديد فى ٨ سبتمبر ١٩٧٣ - وكان عنوان اليوميات « الكلية الحربية موديل ٤١ » .. وهى السنة التى قضيناها كاملة من بدايتها لنهايتها فى الكلية الحربية . وجاء فى ختام اليوميات ما يلى :

« وأعلم أن دفعتى - أو البقية الباقية منها - تحتل الآن مراكز قيادية فى القوات المسلحة . وأنه قد سقط منها شهداء ، وأن آخرين تحولوا إلى أعمال مدنية أكدوا فيها كفاءتهم وارتفاع مستواهم وأمانتهم ، غير أن هذه الدفعة - وما حولها - وقد عاصرت ثلاث معارك فى مواجهة إسرائيل العدو الألد ، ولم تساعدهم الظروف لتحقيق أمانيهم وأمانى هذا البلد الأعز فى النصر ، مازال يراودنى الأمل - بل الثقة - فى أن هؤلاء وأخواتهم من الضباط والجنود بالقوات المسلحة المصرية سوف يثأرون لأنفسهم - وقبل بلوغ سن التقاعد - وينتقمون لعزة وطنهم ولكرامة الجيش المصرى « المظلوم » الذى لم يمكّن قط - للأسف وسوء الحظ ولعوامل أخرى - من اثبات قدرته التى لا تقهر ولاثبات « البذرة » المصرية الأصيلة النبيلة الشجاعة فى أعماقه . وأنهم - مع الشعب المصرى العظيم حقا - سوف يحقون الحق

والعدل ، ويستعيدون ويحررون وينتصرون ، وتعود الابتسامات الحقيقية إلى الشفاه » .

وهكذا عادت الابتسامات .. أو بعضها .

وفى النصف الثانى من السبعينيات وحتى أول الثمانينات تقلصت البقية الباقية من دفعتنا بالقوات المسلحة وأخذ المعدودون على أصابع اليد الواحدة يودعون الجيش واحدا اثر آخر وكان منهم اللواء حسن الجريدلى .

وانتقل حسن الجريدلى للعمل مديرا عاما للأمن الغذائى بنفس الكفاءة والهمة والأدب الجم والنزاهة .

٤

عبد الرحيم محمد عجاج

يحدث أحيانا فى بعض الأسر إذا كثر أبناؤها الذكور وتقاربت أعمارهم أن يتجه أحدهم إلى الالتحاق بكلية جامعية معينة فيغرى اختياره الذين يلونه بأن ينسجوا على دربه . أو ربما كانت استعداداتهم وميولهم الموروثة واحدة علميا . فقد يتعاقب المهندسون أو الأطباء أو رجال القانون بين الأشقاء . وقد تتنوع الميول والاختيارات وتختلف . لكن هذه الظاهرة – ظاهرة التواصل فى المهنة الواحدة بين الأشقاء – منتشرة بصورة ما فى القوات المسلحة . قد تجد ثلاثة أشقاء وأحيانا أربعة .. الخ . ضباطا حتى ولو لم يكن آباؤهم من العسكريين . وفى تقديرى أن السر فى هذه الوفرة أنه كان للكلية الحربية منذ منتصف الثلاثينيات والأربعينيات وما بعدها بريق جاذب سواء وطنيا أم عملا مضمونا أم اختصار طريق !

ومن بين هذه الأسر أسرة عبد الرحيم محمد عجاج . ما أن التحق شقيق كبير بالكلية الحربية وتخرج منها (وكان أول دفعة رسمية دفعته كالعادة باسمه .. دفعة عجاج) حتى تابعه أخوه عبد الرحيم وهكذا .. وصاروا أربعة ضباط أشقاء .

وعبد الرحيم عجاج بقدر ما كان « يشنّع » زميله وزميلنا محمد عبد الهادى

حسونة عن شعره الكثيف « الأكرت » وعن افتقار وجهه للوسامة والجمال (ولحسونة فى ذلك زجل شهير تشيب لهوله الولدان وتسير الركبان !) بقدر ما كانت روح عبد الرحيم عجاج حلوة وخفيفة الظل . وبقدر ما كانت عيناه تكاد تغلقهما جفناه المتهدلان بقدر ما كان المرء يتبين من مجالسته والحوار معه أن هاتين العينين تتخفيان أو تخفيان يقظة وثابة وذكاء لماحا . وبين السخرية والهدوء ، بين المكر الحميد والطموح ، بين الموهبة واستبانة ما يريد ، بين الثقة بالنفس والاجتهاد ، استطاع عبد الرحيم عجاج أن يكون أحد ضباط الجيش غير العاديين ، كما تمكن أيضا من أن تكون له بصمات مذكورة فى مجالات خارج الجيش .

والحق أننى لم أعرف عبد الرحيم عجاج فى الكلية الحربية ، ولكنا اقتربنا من بعضنا البعض كثيرا بعد التخرج « وخدمنا » معا فى بطاريات الأنوار الكاشفة فى مدينة الاسماعيلية وضواحيها . كان طلى الحديث والنكتة . وبصراحة .. كان بحسبى أن يكون المرء كذلك لكى يشدنى إليه وأشدَّه إلىّ !

وكان « يشنّع » حتى على أشقائه . أذكر أنه روى لنا حكاية عن شقيق له طبيب (ضابط أيضا !) ذهب مثلا فى النحس وسوء الطالع . قال إن شقيقه الطبيب بعد ما فتح الله عليه « بقرشين » من دخل عيادته اشترى « تاكسيين » دفعة واحدة ، عمل تاكسى منهما فى منطقة مصر القديمة والثانى فى منطقة مصر الجديدة . وذات مساء تلقى أخوه الطبيب مكالمة تليفونية مشئومة عن حادث لا يتكرر كثيرا . لقد اصطدم « تاكسياه » ببعضهما البعض فى منطقة غمرة فأصبحا حطاما ! « فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها » ..

الشاعر عبد الفتاح مصطفى ملحدا ومتصوفا

وكانت الاسماعيلية بوصفها مدينة قريبة وجديدة وجميلة – وليست « منفى » فى أطراف الصحراء الشرقية أو الغربية – مزارا للعديدين من أقرباء وأصدقاء الضباط يقضون ليلة أو ليلتين معنا فى خيامنا على التعاقب بين حين وآخر . وكأنما كان أقرباء وأصدقاء الواحد أقرباء وأصدقاء الكل .. كل الضباط الصغار فى وحدتنا . نعم كان الضباط الصغار متآلفين جد التآلف كأنهم أسرة واحدة . لم يكونوا قد حملوا – بعدُ – هموم الدنيا والزواج والأبناء . كنا فى مطلع حياتنا . وبتهريج صغار الضباط

الموجودين المنعزلين فكر أحدنا أن يجرى مسابقة لانتخاب « ملك الوحاشة » وتنازعها اثنان : عبد الرحيم عجاج ومحمد عبد الهادى حسونة ! ونجم عن هذا أن قامت مساجلات زجلية هجائية فى غاية الطرافة وسلاطة اللسان وخلو البال !

وفى إحدى المرات زارنا أحد أصدقاء عبد الرحيم عجاج . ودار الحوار بيننا فى ذلك الشهر من سنة ١٩٤٤ تحت شمس الاسماعيلية الدافئة . واكتشفت فى صديق عجاج شاعرا موهوبا على حداثة سنه . غير أنه كان يجاهر ويتباهى بمروق ملحد أثارنى . ربما راودت كثيرين فى مرحلة أو أخرى وساوس وشكوك فى شئون الدين تطول أو تقصر ، لكنهم لا يعتبرونها دعوة مفتوحة إلى الإلحاد . غير أن صاحبنا داعية لهذا المروق والإلحاد .. ويستهزىء بالمؤمنين . وبطريقتى الهادئة والواهمة عدت إلى خيمتى بعد انتهاء النقاش أنظم قصيدة طويلة لست أدرى كيف انتهيت منها فى ليلة واحدة لأرد بها – شعرا – على مروقه وأدعوه إلى الإيمان بالله الخالق الواحد الأحد وأهديت قصيدتى إليه . وكأنما الأمر محتاج إلى المحاجاة والاقناع مع أن القضية واضحة كما قال الله عز وجل « وفى الأرض آيات للموقنين . وفى أنفسكم أفلا تبصرون » .

من كان صديق عبد الرحيم عجاج وضيفه وضيفنا ؟ إن اسمه – لولا العنوان الفرعى الذى صدرت به هذه الفقرة – لبات مفاجأة حقا . إن صاحبنا هو بعينه الشاعر الغنائى الرقيق المبدع وشديد الإيمان والتصوف عبد الفتاح مصطفى (راجع مثلا مجموعة الدعاء التى ينشدها عبد الحليم حافظ ويبثها التليفزيون فتأسرنا بشفافيتها وعمقها وكلماتها وصورها وألحانها . وواضع هذه الدعوات والابتهالات الجميلة الصادرة من القلب هو عبد الفتاح مصطفى) .

إن عبد الفتاح مصطفى كما اقتحم مرحلة الشك بعنف فى صباه اجتاز مرحلة الإيمان بحرارة فى رجولته وشيخوخته ، وأطلق لحيته ، وتصوف بعد أن كتب وغنت له أم كلثوم مجموعة من أرق وأعذب أغنياتها منها « حسبيك للزمن » و « لسه فاكر » .. الخ تلك الروائع . ثم انتقل عبد الفتاح مصطفى إلى رحاب الله .. أدخله الله فسيح جناته .

ولم يكن عبد الفتاح مصطفى هو الضيف الوحيد ذا المواهب الأدبية والفنية الذى

عرّفنا به عبد الرحيم عجاج . فقد استقبل واستقبلنا معه ضيفا آخر له موهبة فنية وهى العزف على آلة موسيقية بين العود والماندولين بدت غريبة علينا وعرفت باسم « البزق » أو الجُمبش . إنه توفيق الألايلى الذى لمع بآلته تلك فى الاذاعة بعد أن تلاقينا بسنوات ثم انطفأ فجأة .

يكمل لعبد الناصر « فى سبيل الحرية » .

فتى مثل عبد الرحيم عجاج ونماذج أصفيائه هم على هذه الشاكلة الأدبية والفنية .. فتى متأمل جيد الاستيعاب وواعد وموهوب أصلا ، كان لابد أن يدلى بدلوه فى هذا المضمار .

وقد سنحت له الفرصة للتعبير عن قدراته الفطرية والمكتسبة والمختزنة عندما أعلنت الدولة – فى عهد عبد الناصر طبعا ! – عن مسابقة لاستكمال بداية قصة وطنية كان جمال عبد الناصر قد شرع فى كتابتها قبل التحاقه بالجيش ولم يتمها . وكان اسم القصة أو الرواية « **فى سبيل الحرية** » . كم من الشباب بدأوا قصصا وكم منهم أتموها وزادو عليها فى مرحلة شبابهم ثم ذهبت أدراج الرياح ! ولكن كم من الشباب وغير الشباب بلغوا شأو جمال عبد الناصر ؟ ولأنه أصبح زعيما فقد أخذوا ينقبون فى ماضيه ويلتقطون ولو طرف خيط ليسلطوا عليه الأضواء ويجعلوا من الحبة قبة ومن البحر طحينة ، ويعقدوا حول السطور القلائل من القصة مسابقات ، ويرصدوا لمن يتمها الجوائز . وكان هذا من حظ عبد الرحيم عجاج ، فقد تقدم للمسابقة وفاز بالجائزة الأولى . وطبعت رواية « فى سبيل الحرية » عدة طبعات . وأذكر أننى حين كنت فى دار الهلال حررت مع عبد الرحيم عجاج عقدا يعطينا حق اعادة طبعها ونشرها . وتصادف آنذاك أن قررت الرواية على طلبة المدارس الثانوية وأصبحت من الكتب المدرسية التى توزعها وزارة التربية والتعليم على الطلبة . وهكذا طبعت منها عشرات الآلاف من النسخ وحققنا أرباحا طيبة من احتكار طبعها ونشرها ..

نعم ، حكايات من ورائها حكايات . وإننى أحيانا حيث أمضى أخط سطور هذا الكتاب ذى الطبيعة الخاصة من ذكريات وهوامش وتمحيصات واستعادة تاريخ ما أهمله التاريخ ورسم « لوحة » لزملاء قدامى وعهود ماضية أربطها بالحاضر ..

أقول أحيانا وسط تلك الذكريات المتناثرة التى أحاول أن أنتزعها انتزاعا يدق على رأسى بيت شعر لأبى الطيب المتنبى :

بليت بلى الأطلال إن لم أقف بها
وقوف شحيح ضاع فى الترب خاتمه !

ومحل الاستشهاد هو فى إطالة الوقوف والتنقيب وليس الشح والبخل ، فلست أبخل أو أضنّ على نفسى وعلى القارىء بإطلاق مشاعرى وأفكارى وذكرياتى على عواهنها .

٥

محمد جمال الدين على محفوظ

بين هذا العدد الكبير من دفعتى بالكلية الحربية لابد أنك ستصادف فتيانا اتسموا بالهدوء الناضج الذى ليس هو من سمات سن المراهقة « والشقاوة » . لكن جمال محفوظ - ومن يومه وللآن - ممن يلفتك فيه الهدوء .. والوقار أيضا .

ولأن جمال محفوظ لم يكن من فصيلتى أو سريتى بالكلية الحربية فلم تكن لى معه لقاءات مذكورة ، وإلا لربما أصبح نديمى وأصبحت نديمه ، نتذاكر الآيات القرآنية . ونتطارح الأحاديث النبوية الشريفة التى حفظناها . نعم لم يكن من فصيلتى فى الكلية ولكنه كان من « فصيلتى » ونهجى فى الحياة .. باستثناء « الوقار » الذى تميز به فى حين كنت أميل إلى « التهريج » بمعنى المشاغبة البريئة و « التريقة » الهامسة على عباد الله لا أستثنى ضابطا أو طالبا أو حتى شخصى .

وكما أورثت جمال محفوظ أسرته التقى وحب علم أصول الدين فقد غرست فيه أيضا حب العلم الدنيوى والاجتهاد الدراسى والسبق . ولكنه مع هذا التقى والهدوء والعلم والكد ليس إنسانا منغلقا راكدا بل هو متفتح .

فهل عرفت جمال محفوظ جيدا ؟ نعم ، ولا !

نعم لأننى أعرف خطوطه العريضة ولأنى أكتب بانطباعاتى عنه .

ولكن يشاء الله سبحانه أن ألتقى بجمال محفوظ بعد ما كتبت عنه تلك السطور السابقة وأن أعرف المزيد من التفصيلات عنه لتكتمل حكاياته . فقد اجتمعت به فى ليلة واحدة سعيدة بمنزله أربع ساعات مفعمة بالمودة والمعلومات . وربما لم تصل مجموع الساعات التى لقيته فيها من قبل وتحدثت إليه فيها خلال الكلية الحربية والجيش إلى ساعتين ! ولكن لأن جمال محفوظ « ابن حلال مصفّى » فقد قُدرٌ له ولى أن أعرف منه خلال تلك الساعات من سنة ١٩٨٨ أسرارا عامة وخاصة ، وأن ألقى عليه مزيدا من الأضواء لعلها من انعكاساته هو .. فهو إنسان منير مستنير !

والذى استرعى انتباهى أن لجمال محفوظ العديد من السبق والانفرادات والمبادرات .. وله الحق أن يعتز بها .

ففى الكلية الحربية - وهذه معلومة جديدة علىّ كأُننى كنت فى شغل شاغل عنها - أعلنت إدارة الشئون العامة عن مسابقة بين طلبة الكلية ، ووضعت رؤوس ثلاثة مواضيع يختار المتقدمون للمسابقة أياً منها ويكتبون فيها ورقتين وتدور حول « يوم فى حياة طالب » وما شابه ذلك فى تاريخ الجيش المصرى الحديث . وكانت جائزة الفائز أن يلقى « محاضرته » فى الإذاعة المصرية ! غير أن الطالب جمال محفوظ اقترح أن يضاف بين الاختيارات موضوعا رابعا هو « الجندية فى الإسلام » .. ووافق **الصاغ عبد الرحمن زكى** مدير الشئون العامة آنذاك (اللواء الدكتور عبد الرحمن زكى مدير المتحف الحربى فيما بعد) وفاز جمال محفوظ على المتسابقين الذين لا أعتقد أنهم جاوزوا عشرة طلاب .. فالمسابقة فى تصورى كانت أشبه بمسابقة سرية ! ربما نشروا عنها فى لوحة الاعلانات التى يبدو أننى كنت أتحاشى النظر إليها مخافة أن أجد اسمى مُعاقبا مثلا ! وليس معنى هذا أننى لو كنت علمت بها لكنت تقدمت إليها أو لو كنت تقدمت لفزت . المهم أن جمال محفوظ - بدأبه - قرأ وكتب وأذاع المحاضرة بالفعل فى مايو ١٩٤١ .. وكان أول طالب يفعلها !

والظاهر أن جمال محفوظ كان على موعد آخر فى الأولوية وفى مايو آخر بعد سبع سنين . ذلك أن جمال محفوظ هو صاحب أول طلقة « مدفعية » رسمية فجر يوم ١٥ مايو ١٩٤٨ على مستعمرة الدنجور لحظة بدء دخول الجيش المصرى فى

فلسطين . ومن الطريف أن جمال محفوظ عند دخوله فلسطين فجر ١٥ مايو ٤٨ بوحدة مدفعية الميدان التى يعمل بها كان - ساعتها - آخر ضابط مدفعية انجليزى من ضباط المؤخرة يخرج من فلسطين وفقا لما أعلنته بريطانيا عن انسحابها وإنهائها انتدابها فى فلسطين قبل ١٥ مايو ٤٨ . والتقى الاثنان .. الملازم الأول جمال محفوظ ضابط المقدمة المصرى والملازم الأول « جون بول » ضابط المؤخرة الانجليزى ، والاثنان مدفعية ميدان . ووجّه الضابط الانجليزى - العليم ببواطن الأمور فى المستعمرات الإسرائيلية بفلسطين - سؤالا واحدا لجمال محفوظ : هل معك ذخيرة كافية ؟ فلاذ جمال محفوظ بالصمت الرهيب وهو لا يدرى أكان سؤالا مشفقا أم سؤالا شامتا ؟!

وكان جمال الدين محفوظ من بين القلائل الذين صدرت بأسمائهم أول إنعامات ملكية فى نوفمبر ١٩٤٨ تقديرا لدورهم البطولى فى حرب فلسطين . منحوه نوط محمد على الذهبى مكافأة له على سيطرته الميدانية واللاسلكية فى معركة عراق سويدان وبأعصاب حديدية وتنظيم بارع .

ولكى ندرك كم هو منظم وكم كان يضع أعصابه فى ثلاجة فحسبنا أن نعلم أنه كان يكتب مذكراته فى حرب فلسطين وبعدها يوما بيوم ، ويحتفظ بكل ورقة حتى أنه أطلعنى على وريقات مكاتبات بين **الأميرالاى محمد نجيب (قائد ثورة يوليو فيما بعد)** وبينه مازال يحتفظ بها وبخط محمد نجيب تحمل تعليماته إليه فى المعركة ! وقدم جمال محفوظ صورة هذه المذكرات والمكاتبات إلى لجنة إعادة كتابة التاريخ . وأخشى أن اللجنة - كأعصابه - وضعتها فى ثلاجة .. لأن درجة حرارة اللجنة الآن هى ٥٢ تحت الصفر !

وبعد التحاق جمال محفوظ بكلية أركان الحرب فى أول فوج من دفعتنا بها عمل جمال محفوظ فى مناصب قيادية عديدة فى الرئاسات والعمليات .

يرافق « المشير عامر » فى طائرة ٥ يونيو !

وكان جمال محفوظ قريبا من المشير عبد الحكيم عامر بصورة ما لكونه عمل مديرا لإدارة الشئون العامة . **ومن سخرية القدر أنه رافق المشير عامر فى طائرته**

الشهيرة التى حلقت فى أجواء مصر صباح ٥ يونيو ٦٧ قبيل العدوان بدقائق ، وتسببت فى « تحزيم » الدفاع الجوى حيث منعوا مدافعنا المضادة من التصدى للطائرات الإسرائيلية المغيرة مخافة أن تصاب طائرة المشير فى الجو ! مهزلة دامية ابتداء وانتهاء ..

على أن جمال محفوظ رغم قربه المحدود من المشير عامر لم يشترك فى مؤامرة ولم يتعرض لتلفيق اتهامات ضده . قد يكون مرجع هذا « دعاء الوالدين » . لكن ثمة سبب آخر جوهرى حال دون ذلك وهو أن جمال محفوظ « فى حاله » لا أنتمى طوال عمره لأى حزب من الأحزاب على عكس معظم أبناء جيلنا ، ولا أنضم - رغم تدينه الشديد - إلى جماعة الأخوان المسلمين من قريب أو بعيد . كأنما خُلق ليصبح ضابطا فحسب . ودارسا باحثا قارئا فحسب ، ومدرسا وكاتبا فحسب .. أما الأنشطة « الشائكة » الأخرى فلا شأن له بها !

ولقد سألت جمال محفوظ السؤال المؤرِّق المعذِّب المُلِحّ الذى لا يبرح يشاغلنى : لماذا سافر المشير عبد الحكيم عامر بطائرته إلى الجبهة صباح يوم الأثنين ٥ يونيو ٦٧ .. وكان معروفا للعام والخاص أنه الموعد شبه المؤكد لعدوان إسرائيل ؟

ولأن جمال محفوظ غير متداخل ، ولأنه دبلوماسى ينأى بنفسه عن المناقشات السياسية والخلافات العسكرية ، فإنه لم يجب على سؤالى فيما عدا ما قرره من أن الفريق القاضى قائد العمليات أخبره قبيل إقلاع الطائرة أنه إذا قامت الحرب فسوف نبقى هناك فى الجبهة !

ولكن الحرب لم تكد تقوم حتى انتهت ، كما أنهم لم يبقوا هناك بل عادوا بعد ساعات من التحليق أيضا إلى القاهرة . وشهد العميد جمال محفوظ بنفسه المشير عبد الحكيم عامر وهو يستقل التاكسى من مطار القاهرة متوجها إلى القيادة العامة وغرفة عملياتها بعد خراب مالطة ..

ثم شهد اللواء أ . ح جمال محفوظ معركة ٦ أكتوبر ١٩٧٣ خلال عمله أستاذا بكلية أركان الحرب وأكاديمية ناصر العسكرية ..

٦

محمد بيومى والى

أول ما تعيه ذاكرتى من أيام الطفولة ـ وأحمد الله ـ كان شيئا بهيجا حقا ، فلا أذكر أى شيء قبله . وهل مفروض أو مطلوب من الناس – كل الناس – أن يتذكروا من طفولتهم ما قبل سن الرابعة ؟! نعم ، كنت فى الرابعة من عمرى حيث شاع البشر فى الوجوه وتألق ، وأنطلقت الزغاريد « ولعلعت » ، وعزفت الموسيقى النحاسية ، وغنى المطربون مع « تخت » ذلك الزمان البعيد . فقد كانت تلك الليلة هى ليلة فرح وعقد قران شقيقتى الكبرى فى بيتنا . كانت أول وأعظم فرحة فى أسرتنا . وكان أبى تاجرا ابن تاجر ومن الطبقة الوسطى المتيسرة بفضل الله . وكنا آنذاك فى بدايات سنة ١٩٢٦ ، والبيت الذى نسكنه فى بولكلى برمل الاسكندرية « سراية » هائلة من طابقين وحديقة واسعة جدا فى مقدمتها وأخرى مثلها فى خلف هذا البيت الكبير الذى يقع على ناصية شارعى أبى قير وونجت . وكان الإيجار الشهرى لكل هذا « العز » عشرين جنيها .. وهو إيجار ضخم بمقاييس ذلك الزمان الذى كان يمكن أن تجد فيه شقة محترمة إيجارها عشرون جنيها سنويا ! ولست أقول هذا على سبيل التباهى أو التعالى – حاشاالله – فما كنا أبدا من الطبقة « الأرستقراطية » ولا من ذوى الأملاك وما أحببنا أن نكون كذلك . إنما عشنا ومازلنا أناسا « مستورين » فضلا من الله ونعمة .

والتجارة – كالحياة – فيها صعود وهبوط وهكذا دواليك . وليس أدل على ذلك من أننا فى أعقاب الأزمة الاقتصادية العالمية وبالتحديد فى سنة ١٩٣٤ لم يتحمل أبى هذا الإيجار المرتفع « ! » (وعلامة التعجب تمليها هنا إيجارات المساكن الآن فى أواخر الثمانينات) فانتقلنا إلى فيلا أخرى بشارع على باشا ذو الفقار بمحطة رشدى باشا إيجارها الشهرى ١٢ جنيها .. أى لتوفير ثمانية جنيهات شهريا ! على أن « مربض الفرس » ليس سراية بولكلى بحجراتها العديدة الفسيحة فى الطابقين ، وإنما هاتان الحديقتان « الجنتان » اللتان تحيطان بها . الحديقة الأولى الأمامية كانت مخصصة للزهور .. جميع أنواع الزهور التى تخطر على البال والتى يُقرأ عنها فى دائرة المعارف البريطانية ! وقد ترعرعت فى أحواض مستطيلة ومربعة ودائرية

منسقة تنسيقا بديعا داخل نجيلة خضراء سندسية ومن حولها الممرات . وكان « الجنايني » الذى انقطع لنا فنانا وذا دارية واسعة وكأنما يصلح أن ينتخب نقيبا للمهندسين الزراعيين لولا أنه لم يحصل على شهادة ولا أرتدى زى الأفندية وإنما ذلك السروال السكندرى الساحلى القح والصديرى المميز وفوق رأسه البرنيطة الخفيفة البيضاء تماما كهذا الرداء الذى تراه فى « رقصة البمبوطية » ! والحديقة الثانية الخلفية كانت مخصصة للفواكه التى مازالت حلاوة مذاقها فى فمى للآن . فواكه من الخوخ إلى البشملة إلى الجوافة إلى البلح إلى العنب إلى الفراولة ..

ما الذى دفعنى إلى الحديث عن هذا المسكن العتيد « وجناته » وذكرياته القديمة هنا بالذات فى هذا الموضع ولدى تناولى لمحمد بيومى والى ؟

الإجابة ببساطة هى لكون « أول » ما بادرنى به محمد بيومى والى عندما التقيت به فى نادى هيليوبوليس منذ أيام (نوفمبر ١٩٨٨) وبعد قرابة ٤٦ سنة من تخرجنا كان قوله : فاكر بيتكم الهائل فى بولكى وحدائقه الغناء المثمرة ؟!

وقد دفعنى هذا اللقاء إلى إعادة كتابة ما سبق لى أن كتبته عن بيومى والى من الذاكرة منذ نحو عام مضى .

ومحمد بيومى والى زميل دراسة أخى رشدى الذى يكبرنى بأربع سنين ، وكان بيومى والى يتردد علينا فى هذا « القصر » الذى يخلب الألباب .. وألباب الصغار على وجه الخصوص حتى أنه رغم تعاقب وتقادم السنوات لم ينسه للآن ..

تغيير شامل فى حياتى سنة ١٩٣٨

على أن أعز ذكرياتى عن بيوتنا الثلاثة المتعاقبة بالاسكندرية تكمن فى البيت الأخير الذى انتقلنا إليه فى سنة ١٩٣٧ وحتى سنة ١٩٤٠ (انتقلنا فيها من الاسكندرية إلى مصر الجديدة ودخلت الكلية الحربية) . والبيت الثالث والأخير بالاسكندرية فيلا جميلة بناها صاحبها المرحوم رمضان بك يوسف بمزاج وسخاء وأبهة لسكناه الخاص فى زيزينا عند تقاطع شارع إسماعيل صدقى (الملكة فريدة فيما بعد .. وتغير اسمه بعد ذلك) بشارع العبانى . ثم تخلى رمضان يوسف عن فيللته وأجرها لوالدى الذى تربطه به صلة النسب .

وسر إعزازى لهذه الفيللا ليس فقط لأنها « آخر العنقود » فى مرحلة الصبا شبه الناضج وإنما لأن سنة ١٩٣٨ بالتحديد كانت بالنسبة لى سنة تاريخية ومصيرية بالمعنى الحرفى للكلمة ..

ورغم مرور أكثر من خمسين سنة على هذا التاريخ البعيد فإننى أكاد أذكر كل يوم من النصف الثانى لتلك السنة الحلوة الطيبة الهانئة الكريمة التى قد لا يكون العالم شهد أكثر منها رضاء ودعة فى القرن العشرين على الأقل . لكن لهذه السنة عندى مكانة خاصة ، ففيها تغيّر مجرى حياتى واختلف اختلافا جذريا .. وإلى ما اعتبره – وهو فى الحقيقة وفى شرع الله – إدراكا للصراط المستقيم .

ولست أنسى هذا « السيناريو والحوار » فى صيف سنة ١٩٣٨ .

كنت قد انخرطت فى حزب مصر الفتاة مبكرا فى سنة ١٩٣٦ وأنا بين الرابعة عشرة والخامسة عشرة من العمر . وكانت البداية أن صديقا لأخى عبد الحميد الذى يكبرنى بعشر سنين واسم الصديق **حسين حلمى** (الدكتور والمهندس الزراعى فيما بعد) وكان من مشجعى مصر الفتاة وكان شقيقه الذى يصغره **سمير حلمى** (المهندس سمير حلمى وزير الصناعة ثم رئيس الجهاز المركزى للمحاسبات الذى استشهد فى حادث المنصة يوم ٦ أكتوبر ١٩٨١) عضوا باللجنة التنفيذية للجهاد فى مصر الفتاة والتى يرأسها أحمد حسين المحامى وتضم **فتحى رضوان المحامى وكيلا ثم الدكتور مصطفى الوكيل ومحمد صبيح وعبد الحميد المشهدى وأحمد الشيمى وسمير حلمى وآخرين أعضاء** . وفى أحد الأيام من سنة ١٩٣٦ عاد إلينا أخى عبد الحميد ومعه مجلة الصرخة لسان حال مصر الفتاة . ودفعنى الفضول إلى تقليب صفحاتها لأنها « قادم جديد علينا » فى بيت اعتاد رب الأسرة فيه – أى أبى – أن يشترى ويقرأ جميع الصحف والمجلات ويسهر عليها يقرأها جميعا باستمتاع قراءة نهمة تخصص فيها ، فهى مع كتب الأقدمين والمحدثين التى تشكل ثقافته العامة .. وما أرحبها وأعمقها واتساع آفاقها وأفقه ! وشدتنى مجلة الصرخة إليها ، وسعيت إلى التعرف بحسين حلمى الذى جعل منى أحد المتعاطفين بل المتحمسين لمصر الفتاة . وفى المدرسة العباسية الثانوية بالاسكندرية كان أحد الزعماء المرموقين بين الطلبة **إبراهيم طلعت** خطيبا وشاعرا ومناضلا .. وكان هو ابن مصر الفتاة وداعيتها فى

المدرسة ، فوجدت دعوته قبولا آخر عندى وجذبنى إليه بشخصيته العذبة القيادية . غير أن هذا كله كان يدور دورة مسطحة فى دنيا السياسة والوطنية لفتى صغير لم يطرّ شاربه بعد ، ولم ينضج عقله النضوج الكافى إذ كان يدور أيضا بين الشقاوة « والمعفرتة » !

الحاج إسماعيل السيد إسماعيل

وفى يوم مبارك حقا من صيف سنة ١٩٣٨ مشيت من بيتنا فى زيزينا ١٥٠ مترا فقط حيث تقع قهوة مرتفعة كان اسمها « **قهوة السواقين** » وخلفها حارة أو مدق مسدود أشبه بالسوق التجارية المحدودة ، فعلى جانبيه محلات فيها المكوجى والسمكرى والبقال .. الخ . وكان الهدف من هذا المشوار الخاطف أن أقابل أحد أعضاء مصر الفتاة لإبلاغه بعض تعليمات تلقيتها من شعبة مصر الفتاة برمل الاسكندرية . كان هذا العضو هو **عبد الفتاح السيد إسماعيل** أصغر الأخوة الأشقاء الثلاثة الذين يملكون محل السمكرة (السباكة) فى السوق المذكورة ، ويمارسون المهنة التى شاء الله تعالى أن تسبكنى سبكا ! ولم أجد عبد الفتاح فى المحل ، فدعانى شقيقه الأوسط إسماعيل السيد إسماعيل أن أجلس قليلا وانتظره ريثما يعود بعد قليل . وأخذ الحاج إسماعيل السيد إسماعيل يتبسط ويسترسل فى الحديث والأسئلة . شىء « ربّانى » جذبنى إليه . رجل سمح ملتح خفيض الصوت مهذب وتشع منه نورانية لم ألحظها فى أحد قبله ، ويرتدى بدلة عمل صفراء . سألنى أول ما سألنى عن دراستى ، وأجبت اننى حصلت على شهادة الثقافة العامة منذ أسابيع فقال لى بوجه متهلل : ماشاء الله !

وحقيقة ماشاء الله كان .. تعالت مشيئته . وأخذ يتحدث عن أبنائه الصغار ودراستهم وأمله فيهم . ثم التفت إلىّ وسألنى : هل تصلى ؟ وأجبت بين الصراحة والخجل « والاحتماء » بأكثرية الناس : لا ! إلا صلاة الجمعة أحيانا ! ولم يعلق الحاج إسماعيل مباشرة وإنما ابتسم ابتسامة حانية وأكاد أقول ابتسامة « هادية » ! ومضى الرجل يتحدث عن النبى .. عن محمد رسول الله ﷺ ، وكأنما « يقدّمه لى » لأول مرة رغم كل ما درست فى المدارس وسمعت هنا وهناك ! كان يرصع كلماته بالآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة .. ولم يطلب منى فى هذه الجلسة الشائقة

حتى أن أصلى .. وإنما تركنى لحالى أفكر !

لست أدرى أكان فى القول سحر
أم براهين .. أم هو استعدادى ؟
كم أعاد الشيوخ فى « الجُمَع » النصح
وأصغى .. ولا يجيء رشادى
وأتى الصانع الكريم بما لم
يستطعه الشيوخ فى كل ناد !
وهُدى الله يستجيب لقوم
دون قوم ، والله أقوم هاد

لم أنتبه إلى أن غيبة شقيقه عبد الفتاح قد طالت ، فقد كنت فى شغل شاغل عنه . وانصرفت ببال مشغول طرأ علىّ ولم أدر كنهه ! وفى اليوم التالى لم أذهب إلى عبد الفتاح وإنما إلى شقيقه إسماعيل .. ومن تلقاء نفسى . أحسست كأنما قوة مجهولة تدفعنى إليه . وكأنما كان يتوقع زيارتى .. وكأن جلسة الأمس ممتدة إلى ماشاء الله ! وتكرر هذا المشهد وهذا المجلس أياما وأياما وكأنما أصبحت متفرغا له . كل هذا وهو لا يطلب منى أن أصلى . وكأنما تركنى لضميرى .. لانشراح صدرى تماما إذ يحين ! وعندما كانت تحين الصلاة الظهر أو العصر تتحول نهاية المدق إلى ما يشبه الزاوية أو المسجد تفرش عليها الحصر ويؤم الحاج إسماعيل المصلين الذين لا يتجاوز عددهم أصابع اليدين عادة . ثم يعود لاستئناف الحديث معى خلال عمله وهو ينفخ فى الكير أو يلحم أُذن كوز ! واستمع إليه بعد صلاتهم وضميرى بين الأرق واليقظة ! وقد لاحظت أنه يطيل الركوع والسجود فى صلاته وكأنها صلاة مختلفة عما شاهدت حيثما شاهدت . وقد كان هذا النهج فى الصلاة هو المدخل لبدئى الصلاة بعد أن راح الحاج إسماعيل لأيام متصلة وبأسلوبه الفريد السهل الممتنع غير المباشر يوضح لى أساس التوحيد والسنة المحمدية . وكان قد ترامى إلى سمعى خلال توجهى إليه أنهم – هو وشقيقه – من « السنية » ، وزاد البعض قوله إنهم من « الوهابيين » . ولم تفزعنى هذه التسميات ، فالذى أصغى إليه فى محل السمكرية كلام جديد جميل فى غاية النقاء والعذوبة ، والذى ألحظه تُقى وورع وتعفف وتجرد .

وآن – آخر الأمر – أن أشرع فى الصلاة .. أن أتعلّم وأؤدى صلاتهم أو بالأحرى صلاة النبى عليه السلام الذى قال : صلوا كما رأيتمونى أصلى . وكانت هذه هى « النقلة العملية » .

وبعد أقل من شهر من أول لقاء مع الحاج إسماعيل كانت « الشحنة » قد اكتملت وآخذة فى التوهج والازدياد .

واعترف أن الحماس قد أخذ بناصيتى وتلابيبى ، واستولى على قلبى ولبى ، وأعطانى قوة دفع عجيبة جدا قد يسميها البعض « التطرف » وقد يرى فيها آخرون شيئا من « التنطع » يتوقف الأمر على نظرتهم للدين . ولكن واقع الأمر أننى كنت مثل الظمآن الذى جف ريقه وحلقه وتشققت شفتاه ، فحين عثر على « منبع ماء » أخذ يعب منه عبّا !

هل حرمت ما أحل الله ؟!

أخطر « القرارات » التى اتخذتها فى اندفاعى الدينى أننى امتنعت عن معظم ما اعتدت عليه ، وتخليت عنه بمنتهى البساطة و الغرابة معا .

وبدوت كمن تلقى صدمة كهربائية مذهلة أبدلته من حال إلى حال . كنت أعزف على البيانو من سن السابعة فتوقفت عن العزف .. « عزفت عنه » ! كانت مشاهدة السينما أحب هواياتى إلىَّ حتى أننى كنت آنذاك مشتركا فى كازينو سان استفانو طوال أشهر الصيف حيث يعرض فى سينما حديقته الصيفية كل ليلة فيلمان جديدان أحدهما ماتينية والآخر سواريه ويؤتى بفيلمين جديدين فى الليلة التالية وهكذا ! فلم أتردد فى أن ألقى بالأبونيه (الاشتراك) فى سلة المهملات . حتى « البلاج » شاطىء البحر الذى هو متعة مشاعة لجميع السكندريين والمصيفين حرمته على نفسى حيث يحتشد به السابحون والسابحات ، واستعضت عن ذلك بالتوجه إليه فى الصباح الباكر خاليا بعد صلاة الفجر ! وكانت قمة « المغالاة » أن عكفت على صورى الفوتوغرافية التذكارية خلال الـ ١٦ سنة السابقة التى هى كل عمرى فى ذلك الحين فمزقتها إربا إربا بلا رحمة ! كنت أدخن .. فتوقفت عن التدخين ..

هذا فيما يخص الجانب السلبى .. أى الامتناع .

أما الجانب الإيجابى فمن المؤكد أنه كان خيرا كله .

الحرص كل الحرص على الصلاة .. وصلاة الجماعة فى المسجد فى أوقاتها بما فى ذلك صلاة الفجر بأقرب مسجد إلينا وهو مسجد أحمد يحيى بين زيزينا وجانكليس . صلاة العشاء فى مسجد الحمام بين أحشاء المنطقة الشعبية خلف فلمنج وباكوس مع الحاج إسماعيل السيد إسماعيل والحرفيين البسطاء الأتقياء المستضعفين فى الأرض الذين بدوا لى كأنهم من ورثة الصحابة ! (وأعتقد أن البعد الاجتماعى والاشتراكى فى أعماقى بدأ من هناك) . قراءة القرآن الكريم باقبال شديد الحلاوة ، وتزود من آياته المحكمات وشريعته الغراء . ولم أقتصر على التلاوة بل شرعت فى مرحلة الذهن الدينى المتوقد فى حفظ القرآن . حفظت سورة البقرة تماما فى أسبوعين ، ثم جزءى تبارك وعمّ فى أيام معدودة ، ثم خشيت أن أنسى ما حفظته . وقد حدث - فى قابل الأيام - وهو مكروه - فاكتفيت بالتلاوة . وكنت من قبل كدأب معظم طلبة المدارس والجامعات وخريجيها - للأسف - ومعظم الوزراء ورؤساء الوزارات ورؤساء الجمهورية لا أراعى « النحو » فانصب الفاعل وأرفع المفعول واقرأ اللغة العربية الفصحى كيفما اتفق لا وفقا لقواعد النحو ! القرآن الكريم قوّم لسانى وكان أعظم معلم مادام المرء راغبا ومتمعنا لاغائب الوعى ، ببغائى التلاوة . وإذا كنت قد قرضت الشعر فى سنة ١٩٣٩ فذلك من فضل الله ومن استقامة اللغة التى فتح القرآن الكريم عينى عليها ، ومن موهبة ما كانت كامنة ، ومن موسيقية الأذن !

ومن وفرة الأحاديث النبوية الشريفة التى كان يسمعنى إياها الحاج إسماعيل ، ومن شغفى المتدفق ، ومن حافظة هزت هزا حتى استقرت على انتباه واع وذاكرة حاضرة وجدتنى أحفظ الأحاديث النبوية سماعيا من أول مرة تقريبا . ثم دخلت مرحلة اقتناء وقراءة الكتب الدينية وأمهات التراث وخاصة ما دبجه الامامان العظيمان ابن تيميه وابن القيم الجوزية . ولم أكن بطبيعة الحال أستهدف أن أصبح عالما من علماء الدين ، وإنما أن أتعرف على هذا الدين القيم ، وأن أصحح وأعمق عقيدتى الإسلامية ، وأن أتحصن بالشريعة الغراء الصافية وبالسنة المحمدية الأصولية .

الحوض المكسور ومجلس العائلة والخاطر المجبور !

أية أجازة صيفية كانت هذه فى سنة ١٩٣٨ ؟ إنها لا تتشابه مع أية أجازة قبلها ولا بعدها . فإن الروح التى سرت فى أعماقى كانت لها آثار أقوى المحطات والمولدات الكهربائية فى العالم ! كأنها دورة دراسية عملية مكثفة !

وخافت الأسرة علىّ ، فليس هذا هو شخصى الذى عهدوه ، وقيل إن هذا الشخص الجديد هو قاب قوسين أو أدنى من الجنون ! واجتمع مجلس العائلة .. وخاصة بعد أن أيقظت البيت كله فى أول الفجر دون قصد منى حين كنت أتوضأ لأداء صلاة الفجر فى جامع أحمد يحيى فزلت قدمى من الحوض ، ولم أهوَ على الأرض وحدى ، وإنما هوى الحوض – سامحه الله – معى . وأحدث الارتطام « فرقعة » مدوية فى سكون الليل أيقظت كل النائمين على هذا المنظر « التراجيكوميدى » ! وفى مجلس العائلة لم أجد نصيراً لى سوى والدى . أما والدتى بالذات وأشقائى فقد ارتأوا أننى موشك أن يحدث لى لطف ! إن لم يكن حدث بالفعل ! غير أن والدى قال بحصافته وهو يجبر خاطرى .. إن ما يحدث لى هو عملية فائرة ، وأنها تتم لصالحى أو سوف تأخذ مجراها وتستقر وتهدأ أو تنضج مع الأيام و « تتعقل » وتعتدل بما يرضى الله ولا يستنفر الناس . فهل كان أبى – رحمة الله عليه – بعيد النظر فى هذا كأنما يستقرأ الغيب ؟ وددت أن تكون أحوالى فى الخمسين سنة التالية وما تبقى لى من أجل هى وفق ما ارتأته فراسة أبى وأن تمضى نفسى راضية مرضية بإذن الله .

على أن الشيء الأكيد الحميد أننى قبل صيف ١٩٣٨ كان شأنى شأن الملايين من أترابى وغير أترابى الذين يضعون الجوانب الروحية على هامش الهامش من اهتماماتهم وسلوكهم . وأننى بعد سنة ١٩٣٨ صرت إنسانا آخر عسى أن يتقبله الله فى عباده الصالحين . صحيح أننى بعد سنوات قليلة فترت همتى المتوثبة وغدوت أسير فى الدين بقوة الدفع الأولى ، ولكن كأنما تمثلت نصيحة النبى عليه الصلاة والسلام بأن نوغل فى الدين برفق .. فلن يشاد الدينَ أحدٌ إلا غلبه ! وصحيح أننى عدلت عن كثير مما امتنعت عنه فى البداية من سينما وموسيقى وتصوير .. الخ .

وعشت عصرى وميولى الفنية ، ولكن أوليس الجوهر هو الأهم ؟ والجوهر هو أن يكون ما بينى وبين الله عامرا ، وهذه هى دعوتى الضارعة .

ترى هل أشكر الأخ الزميل اللواء أ . ح محمد بيومى والى الذى دفعتنى كلمته العارضة عن « بيتنا بالاسكندرية » فى سالف العصر والأوان إلى هذه الإفاضة ، أم أعتذر له وللقارىء الكريم ؟! إننى لم أتعمد أن أعرج إلى تلك المرحلة الغالية بهذا التفصيل مع تسليمى بأن السيرة الذاتية فى هذه الحكايات غالبة . ولولا لقائى ببيومى والى مصادفة لما جاشت ذكرياتى بهذه الصورة .. وما يعلم جنود ربك إلا هو !

ولقد مكث اللواء أ . ح بيومى والى فى القوات المسلحة بين مدفعية السواحل والمخابرات الحربية وقيادة حرس الحدود فى معركة ١٩٧٣ حتى أحيل إلى المعاش فى أبريل سنة ١٩٧٤ . ويبدو أنهم فى هذا التاريخ بالذات كانوا يصفون « **المحاربين القدماء** » أو على الأصح الضباط من الدفعات القديمة .. وكان لدفعة سبتمبر ٤٢ نصيبها فى هذه التصفية الشاملة إلا قليلا ..

بين العسل والعنب

قلت لبيومى والى إننى ما سألت أحدا من زملاء الدفعة عنه إلا وقال لى إن له نشاطا خاصا فى « عسل النحل » ، وأن له منحلا يشار إليه بالبنان ! وسألت هذا الزميل السكندرى وأنا أعابثه : كيف أكون آخر من يعلم ؟ وهل بخلت علىّ بكيلو واحد من عسل النحل مع أنك – وباعترافك – ذقت الشهد من فواكه حديقتنا ببولكلى ؟! وضحك والى قائلا : إن هذا نشاط قديم له منذ نيف وأربعين سنة حين اشترى قيراطين فى أطراف الاسكندرية وخصصهما لمنحله العتيد . وأضاف أنه الآن يعمل فلاحا !

فلاح يا والى وأنت ابن الاسكندرية ولا أعرف فيها أراضى زراعية سوى « غيط العنب » فى آخر ضواحى الاسكندرية ؟!

وقال والى تعقيبا على « غيط العنب » إنه بالفعل يزرع عنبا حيث اشترى أرضا جرداء من شركة جنوب التحرير على مقربة من منتصف الطريق الصحراوى بين مصر والاسكندرية . واستصلح الأرض وزرعها عنبا وأثمرت ، وما كانت لتفعل

لولا أنه يعطيها من وقته وعنايته ما جعلها مزرعة نموذجية . وقد كان شعار المدفعية على زماننا هو « فى كل مكان » ، ويبدو أنه شعار دفعة سبتمبر ٤٢ أيضا !

ومثلما أحب محمد بيومى والى عمله ضابطا ، فقد أحبه كذلك فلاحا ..

٧

كمال الدين محمود رفعت

الذى يجمعنى بكمال الدين محمود رفعت كثير .

كلانا من مواليد الاسكندرية وحى الجمرك فيها بالتحديد . كلانا مولود فى سنة ١٩٢١ وفى شهر نوفمبر بالذات . وكلانا انخرط فى حزب مصر الفتاة قبل انخراطنا فى الكلية الحربية .

ويشاء حسن الطالع أن أكون معه ويكون معى فى سرية واحدة وفصيلة واحدة وجماعة واحدة وعنبر واحد بالكلية الحربية .

والأرواح جنود مجندة ، ما تعارف منها ائتلف . وهكذا ائتلفنا .

وكمال رفعت كان قليل الكلام ، ولكن لسانه كان ينطلق معى . وكانت معظم أحاديثه معى – عندما نخلو إلى أنفسنا – أحاديث وطنية ومتوهجة بأحلام ثورية مشتركة . هو حققها فى حين اكتفيت بمشاهدتها وتشجيعها !

وكمال رفعت ساعد بنيانه القوى – واستعداده – على أن يكون نجما من نجوم الرياضة بالكلية الحربية (كرة قدم . ملاكمة . ألعاب قوى بشتى فروعها . سباحة . تجديف ..) حتى أنه من المعروف أن « درجات التفوّق الرياضى » التى أضيفت إلى مجموعه فى الاعدادى كانت أعلى درجات من هذا النوع حصل عليها طالب فى تاريخ الكلية مما جعل ترتيبه فى امتحان القسم الاعدادى رابع الدفعة .. فى حين أننى أكتفيت فى الرياضة بالمشاهدة والتشجيع !

وقد تابعت « كمال » فى جميع مراحله . غير أن تجميع وتكثيف هذه المعلومات

المنسقة عنه زادتنى اقتناعا بما كنت أصفه به دائما : إن كمال الدين رفعت هو « الوطنى الأول » فى دفعتنا .

ولا بأس من أن أقتطف بعض « علامات الطريق » فى مسيرة وملف « جمال عبد الناصر دفعة سبتمبر ٤٢ » .. أعنى كمال رفعت ! ولا أخفى أننى إذ أفعل وأسترسل فى سيرته فإنما يصدر ذلك لا عن تباه به واعتزاز فحسب ، وإنما أشير إلى بعضها أيضا تحية وتقديما له لأجيال قادمة قد تقرأ هذا الكتاب .

فبعد تخرج كمال رفعت من الكلية الحربية خدم مباشرة فى الكتيبة الأولى مشاة بالخرطوم . واستطاع مع بعض الضباط أن يجمع بعض عناصر الطبقة المثقفة فى السودان وكونوا تنظيما سريا لمقاومة الاحتلال البريطانى ، وحاول تهريب أسلحة من مصر إلى هذا التنظيم بالسودان سنة ١٩٤٣ ولكن لم يلبث أن أعيد إلى القاهرة ، أى أنه « ثورى ملتهب » من السنة الأولى خدمة !

وفى سنة ١٩٤٤ نقل كمال الدين رفعت إلى الحرس الملكى . وتطوع مع فصيلة الحرس الملكى للقتال فى حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ ، والتقينا هناك .. ومرة أخرى هو يقاتل وأنا أواكب وأراقب وأشجع وأصور إعلاميا وأمد بمداد الترفيه عن الضباط والجنود ممثلا لإدارة الشئون العامة ! ويعود بعد الحرب سنة ١٩٤٩ - إثر انضمامه إلى تنظيم الضباط الأحرار - إلى الحرس الملكى عينا للتنظيم على السراى الملكية .

ثم عاد كمال الدين رفعت إلى الكلية الحربية .. مدرسا هذه المرة ، وما أسعد طلبة يدرس لهم ضابط من وزن وقيمة كمال رفعت .

وبعد إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ فى سنة ١٩٥١ ما كان ممكنا أن يفوت كمال رفعت تدريب طلبة الجامعات والموظفين على حمل السلاح وحرب العصابات ، ولا أن يتخلى عن المشاركة فى حرب المقاومة ضد الانجليز فى منطقة القناة .

وإذا كنت قد شرعت بالفعل فى تدريب بعض الطلبة والمتطوعين على حمل السلاح ، فإننى لم أسر فى هذا الدرب حتى نهايته . وإنما طفقت أنظم أشعار المقاومة

والتحرير وأنشرها فى صحف مصر الفتاة بتوقيع « الجندى الشاعر » .. اكتفيت كالعادة بالتحميس والتشجيع !

وقامت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وكان كمال رفعت أحد أبطالها ، وعهدوا إليه بالقبض على بعض ذوى الرتب الكبيرة فى ليلة الثورة .

ولم تعقه الثورة ولا المنصب فى ادارة المخابرات العامة عن ممارسة هوايته الوطنية العملية فى أعمال المقاومة مع الفدائيين ، فقد نظم عملياتها فى منطقة القناة جنبا إلى جنب مع المفاوضات الجارية آنذاك والتى انتهت بتوقيع اتفاقية الجلاء فى أكتوبر ١٩٥٤ .

ومع العدوان الثلاثى سنة ١٩٥٦ ووفقا للمثل العربى « اعط القوس باريها » كان حتما أن يوكل إلى كمال رفعت قيادة أعمال المقاومة السرية فى منطقة القناة والقيام بحرب عصابات تخريبية فى الخطوط الخلفية للعدو .

واستقرت الثورة سنة ١٩٥٧ .. ومنذ ذلك الحين ظهر كمال الدين رفعت على الملأ وعرفه الناس وزيرا للدولة وللعمل ، ونائبا لرئيس الوزراء ، وعضوا فى اللجنة التنفيذية للاتحاد الاشتراكى ، ومشرفا على مؤسسة أخبار اليوم ، وأمينا لشئون الدعوة والفكر بالاتحاد الاشتراكى ، والتى تصدر نشرة « الاشتراكى » حتى نهاية الستينيات .

غير أن الثائر الحقيقى يظل ثوريا حتى وهو متقلد لأرفع المناصب .. وهكذا كان كمال الدين رفعت . لم يكن إلى جوار جمال عبد الناصر - وقد كان بالفعل من أخلص وأطهر معاونيه - بقدر ما كان إلى جوار ثورة مصر ومصر الثورة وبقدر ما كان ينشد مجد مصر ويشارك فى العمل على تحريرها اجتماعيا وسياسيا . وحتى حين عاصر الكبوة والنكسة والهزيمة فى يونيو ١٩٦٧ لم ييأس أبدا ولم يفقد إيمانه بأن مصر أقوى من الهزيمة ولم يتلم سيف عزيمته وجهاده فى أن تعود مصر منارة للحرية وقلعة للعروبة .

« النفى » إلى لندن سفيرا !

وحين انتقل جمال عبد الناصر إلى الرفيق الأعلى - وحسابه وحسابنا عنده سبحانه - كان كمال رفعت وزيرا فى وزارة عبد الناصر . وفى المرحلة الأولى التى كان السادات يحنى فيها رأسه أمام تمثال عبد الناصر ، احتفظ بكمال رفعت وزيرا للعمل فى وزارة الدكتور محمود فوزى بعد وفاة عبد الناصر . ولكن سرعان ما أبعد السادات كمال رفعت من الوزارة سفيرا بوزارة الخارجية المصرية . وليس من قبيل الصدفة أن الرئيس الراحل أنور السادات وكان يعد لانقلاب ١٥ مايو ١٩٧١ وهو يعرف شدة مراس كمال رفعت أنه - أى السادات - أبعد كمال رفعت عن مصر كلها « ونفاه » سفيرا لمصر فى لندن فى ٢٩ مارس ١٩٧١ .

ولقد أمضيت أياما هانئة حافلة بالذكريات مع كمال الدين رفعت حين دعيت لزيارة معرض توت عنخ آمون فى لندن صيف ١٩٧٢ . وأخذت أمازحه : أهكذا يدور الزمن يا كمال وتصبح سفيرا لمصر .. وأين ؟ فى عقر دار عدوتنا العتيدة انجلترا ؟ أم انك تعمل على تحقيق الهتاف المصرى الشهير فى المظاهرات « **مصر والسودان لنا .. وانجلترا إن أمكنا** » ؟! ويضحك كمال رفعت . ثم يسألنى : أترى ذلك يغير شيئا من كمال رفعت الذى تعرفه ؟ وأقول جادا كل الجد صادقا كل الصدق : أبدا والله ، فإن المعدن الأصيل النفيس يظل هكذا أصيلا نفيسا فى كل زمان ومكان ..

ولم يحتمل أنور السادات كمال رفعت طويلا حتى وهو بعيد عن « السلطة » . ففى نوفمبر ١٩٧٤ أصدر السادات قرارا جمهوريا بإحالة كمال رفعت إلى المعاش . وكان رد كمال رفعت أن أصدر كتابا يحمل اسم « **ناصريون .. نعم** » ، كما سبق أن أصدر كتابا بعنوان « **حرب التحرير الوطنية** » . ولعل هذين الكتابين يمثلان عقيدة وكفاح كمال رفعت ، ويفصحان عن سرائره .

وعندما أنشئت الأحزاب أنضم كمال الدين رفعت - بغير تردد - إلى حزب التجمع الوطنى التقدمى الوحدوى واختير نائبا لرئيس الحزب خالد محيى الدين صديقنا وحبيبنا المشترك .

إن رجولة وشجاعة وصلابة كمال الدين رفعت لا تحتاج للافاضة فى الحديث عنها ، فتاريخه الحافل هو الرجولة والشجاعة والصلابة ذاتها بأكمل معانيها .

كان لكمال رفعت وجه أسد وقلب أسد فى شخص إنسان ورأى إنسان .

نَعمْ .. نِعَمّ الإنسان هو . ذلك أن إنسانية وشهامة ومروءة كمال الدين رفعت كانت كالبلسم . وأحسب أن لدى دفعته وصفيه الأثير محمود حسين عبد الناصر شواهد زاخرة فى هذه المجالات الإنسانية .

غير أننى أود أن أضرب مثلا شهدته عن قرب هزّنى هزا وأكبرت فيه إنسانية وشهامة ومروءة كمال رفعت .

فى يوليو سنة ١٩٧٥ توفى فجأة بالاسكندرية المرحوم **محمد موسى** مدير عام إعلانات دار الهلال وهو من خيرة وأبرع من عرفت وأحببت فى فنون وتسويق وابتكارات الاعلانات . ومحمد موسى جار لكمال رفعت فى نفس العمارة التى يقطنانها بمصر الجديدة . وكان كمال رفعت فى أجازة أيضا بالاسكندرية حينما بلغه وفاة محمد موسى . وهرع كمال إلى منزل محمد موسى بالمصيف ، وتولى الأمر والمراسم من الألف إلى الياء بأوفى مما يتولاه أخ فى مصاب أخيه . أعدّ كل شىء من مصاحبة الجثمان فى عربة الاسعاف من الاسكندرية حتى القاهرة إلى نشر النعى فى الصحف إلى تشييع الجنازة إلى مواراته مثواه فى مدفنه إلى تقبل العزاء فيه . ووقف كمال رفعت إلى جوار أسرة المرحوم محمد موسى ما بقى له من عمر ، وكأنه المسئول عنها بعد عائلها .

من هكذا يتفانى بحرارة وتجرد وحدب فى هذا الزمن الردىء المتفسخ إلا أن يكون إنسانا كريما على خلق عظيم ؟!

وبعد عامين - فى ١٣ يوليو ١٩٧٧ - لقى كمال الدين رفعت وجه ربه راضيا مرضيا .

ولم تكن جنازته التى شيعها الآلاف مجرد وداع حزين فقط ، وإنما أيضا مظاهرة وطنية وهتافات مؤثرة مدوية .

رحل كمال الدين رفعت - رحمة الله عليه - عن عالمنا ، وبقيت ذكراه العطرة تلهم كل وطنى وكل ثورى وكل مناضل وكل حر ..

٨

فتحى مبروك الديب

الرجل بأهم صفاته وأهم أدواره ومواقفه التى تبلور فيها شخصيته ، مهما كان فى حياته من أحداث هامة ومناصب مرموقة سابقة أو لاحقة .

فعندما نذكر هنا « فتحى الديب » ونعتز به ابنا من أبناء دفعة سبتمبر ٤٢ وزميلا غير عادى بالكلية الحربية والمدفعية فقد لا يهم كثيرا - على أهمية ذلك - أن نتوقف عند حصوله على ماجستير العلوم العسكرية (كلية أركان الحرب) مع أول فوج فيها من دفعتنا ، ولا نلتفت كثيرا إلى عمله بالقيادة العامة للقوات المسلحة عقب ثورة ٢٣ يوليو ٥٢ ، ولا نطيل الوقوف عند تعيينه مديرا للإدارة السياسية برئاسة الجمهورية .. رغم أن هذه المعطيات قد تكون مهدت لأهم إنجازاته التى سأعرض لها بعد حين . ولا يعنينا كثيرا أن نثب فوق المرحلة المجيدة الخالدة فى حياة فتحى مبروك الديب لنطل على المناصب التى تولاها بعدها سفيرا لنا فى سويسرا (مع ملاحظة أنه لم يتخل حتى وهو سفير عن متابعة عمله المجيد الأكبر) ثم أمينا عاما للمجلس المشترك بين الجمهورية العربية المتحدة والعراق . ولا نطرب كل الطرب لتوليه المنصب الوزارى كوزير دولة ـامين للشئون العربية بالاتحاد الاشتراكى بين سنتى ١٩٦٤ و ١٩٦٥ . ولا« تفرق » معنا كثيرا أنه بعد خروجه من الوزارة فى أكتوبر ١٩٦٥ تفرّغ لأمانة الشئون العربية . حتى المحصلة العامة من أنه واكب جمال عبد الناصر وكان دائما إلى جوار زعيم القومية العربية حتى النفس الأخير فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ .. وكان ذلك محسوبا عليه إذ أنه قدِّم مع من قدّموا إلى محكمة الثورة فى « مؤامرة » ١٥ مايو ٧١ وبرّأته المحكمة فى ديسمبر ١٩٧١ ، وإن كنا لا نملك سوى تحيته على تفرغه للتأليف فى السنوات الأخيرة وإصدار كتب عن

« عبد الناصر وثورات شمال أفريقيا » والتى كشفت لنا عن الكثير من الخفايا والوثائق . تاريخ حافل .. أليس كذلك ؟

إذن ما هو الأهم ؟

فيم تتبلور شخصية محمد فتحى مبروك الديب ؟ لا أقول « مفتاح شخصيته » كما كان يطيب لأستاذنا الكبير عباس محمود العقاد أن يستخدمه – التعبير لا المفتاح – فى كتاباته وتحليلاته وبالذات « العبقريات » ، فلست فى معرض تحليل شخصية فتحى الديب بل التوقف عند أهم وأخطر بؤرة مضيئة فى نضاله ومسيرته .

رجـل المهـام السرية !

ابتداء أو تمهيدا يمكن أن أنعت فتحى مبروك الديب بأنه « رجل المهام السرية القومية البعيدة الأثر » .

وتخصيصا أقول عنه إنه « الوجه الثورى النقى والعظيم للمخابرات العامة المصرية » ، فإن عليها من المآخذ فى تاريخ ثورة يوليو كثيرا ولها من المآثر كثيرا أو قليلا .. وفتحى الديب كان من هذا القبيل ذى المآثر .

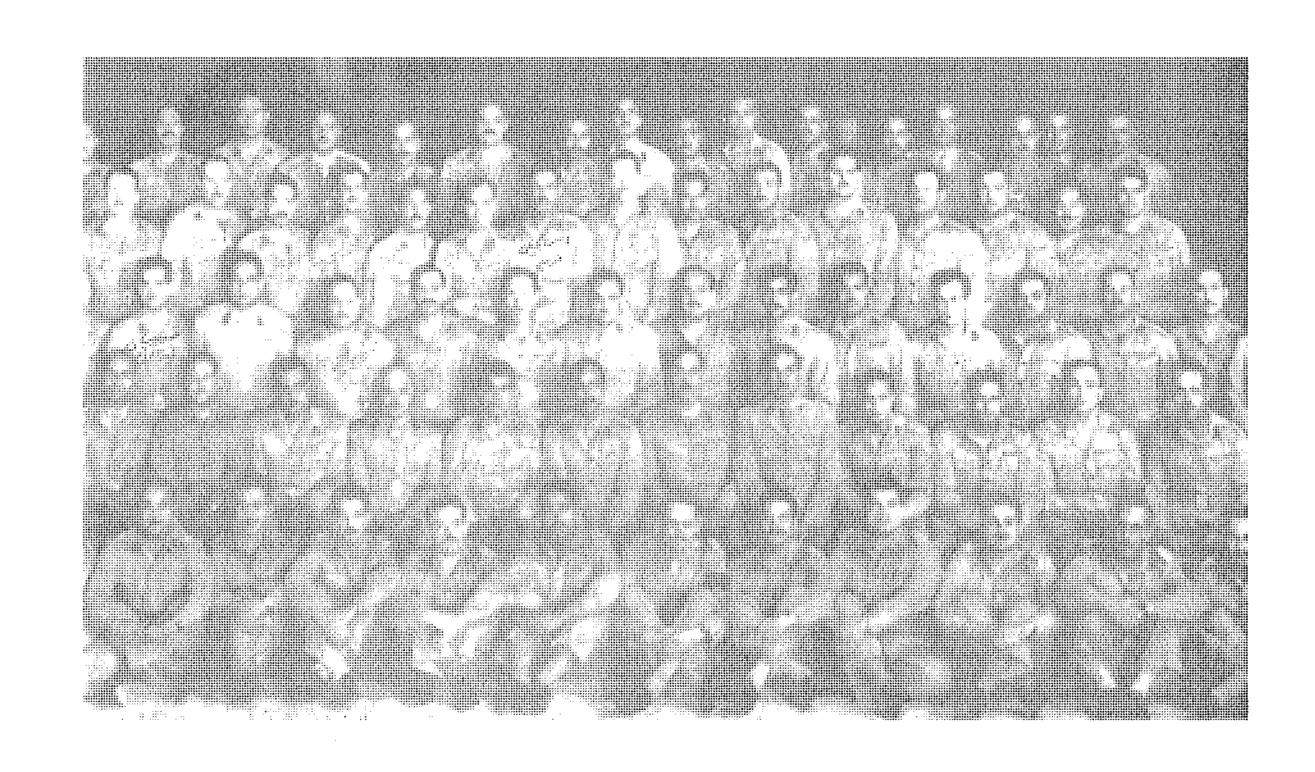
ما هى تلك الحكاية التى أمهد لها كل هذا التمهيد ؟

الحكاية أن فتحى مبروك الديب بذكائه وجسارته وتجرده فى ثوريته ونظرته الثاقبة الشاملة للقومية العربية كان – وهو المصرى العربى – ركنا ركينا فى ثورة الجزائر واندلاعها وثباتها وتوهج استمرارها ونجاحها .

فتحى الديب هو الذى التقى فى القاهرة بأحمد بن بيللا .. بالشرارة الأولى لثورة الجزائر .

يقول فتحى الديب فى كتابه « **عبد الناصر وثورة الجزائر** » ما يلى :

« وصل الشاب الثائر مزيانى مسعود إلى القاهرة وتم اللقاء الأول بينى وبينه فى ١٥ أبريل سنة ١٩٥٤ . صارحنى بأن اسم مزيانى مسعود هو اسم مستعار أتخذه لنفسه ليؤمن عملية هروبه إلى خارج الجزائر ، وان اسمه الحقيقى هو أحمد بن بيللا .



فتحى الديب ضمن صورة تاريخية نادرة جامعة (يقف خلف جمال عبد الناصر) مع دورة يوليو ١٩٥٢ المتخرجة من كلية أركان حرب ، وهى أول دورة التحق بها عدد من دفعة سبتمبر ١٩٤٢ ومعه من دفعتنا فى الصورة (أول صف) رفعت وهبة وابراهيم رفعت وسعد عفرة ونوال سعيد وجمال محفوظ وسعيد على وكمال الخولى وصالح مصطفى أمين (رابع صف) ومحيى أبو العز وعباس رضوان (خامس صف) . وتوسط الصورة اللواء محمد نجيب .

وقد حضر إلى القاهرة مفوضا من مجموعة قيادة التنظيم العسكرى السرى لحزب الشعب الذى يمثله محمد خيضر . وقال بن بيللا إن مجموعته لا تزيد عن الألف شاب موزعين على كافة أنحاء الجزائر . وأن نصفهم فقط أتم تدريبه . وأنهم لا يمتلكون سوى بضع قنابل ايطالية للصيد لا تتعدى المائتين ! ومع ذلك فهم مصرون على بدء كفاحهم المسلح ، ولن تعوزهم الوسيلة للحصول على السلاح من أى مورد . إلا أنهم وبعد ما تفهمّوا حقيقة وأهداف ثورة ٢٣ يوليو يتوجهون إليها بكل آمالهم فى أن يجدوا منها العون والدعم المطلوب .. فهى ليست ثورة تحرير مصر وحدها بل هى الثورة القادرة على دعم كافة حركات التحرير العربى لتطهير الأرض العربية من نير الاستعمار بكل صوره وأشكاله ! وسألنى جمال عبد الناصر : إلى أى حد تثق فى أحمد بن بيللا ؟ قلت : ثقة تامة ، فهو نوعية ثورية فريدة فى عالمنا العربى لم أقابل

مثلها من قبل . وأضفت للقائد : إننا لو نجحنا فى فتح هذه الجبهة بالجزائر فى مو
القلب بالشمال الأفريقى فسيكون ذلك بمثابة ضربة قاضية للاستعمار الفرنسى . وة
عبد الناصر : أنا موافق على دعم حركة النضال المسلح بالجزائر ، ويهمنى أن تت
كافة التحضيرات بكل دقة وبمنتهى السرية ، وتخطرنى أولا بأول . وبعد طو
انتظار تسرب أول صدى لبدء الكفاح الجزائرى الساعة الثانية يوم ١ نوفمب
سنة ١٩٥٤ .. ثورة المليون شهيد . وعاد إلينا بن بيللا من جديد لنبدأ التحضير لأو
عمليات الامداد بالسلاح والتخطيط لاستمرار هذا الامداد عن طريق التهريب وسر
العمل . وكان أمامنا حلان : (١) شراء السلاح عن طريق مهربى السلاح الدولي
وليتولوا توصيله بوسائلهم الخاصة التى يتم تحديدها لهم . (٢) أو أن نقوم بتزويد
بالسلاح والذخيرة من مخازن الجيش المصرى مباشرة والمخاطرة باستخدام سف
مأمونة إلى منطقة مأمونة يتم تهريب السلاح منها إلى داخل الجزائر . وحين عرض
على عبد الناصر الحلين اعترض على الحل الأول لاحتمال تسرب سريته . وقر
بلا تردد استخدام أسطولنا البحرى لنقل الكمية اللازمة من السلاح والذخيرة لد
قدرات المكافحين . وتم اختيار اليخت (انتصار) ليقوم بأول مغامرة للتهريب إ
ميناء طرابلس بليبيا ثم عبر الحدود الليبية والتونسية وصحراواتها . وكنت أشرف ع
تنفيذ هذه العمليات هنا وهناك . وبين المغامرة الأولى والأخيرة محاولات خطيرة
تتوقف لحظة واحدة منذ قيام ثورة الجزائر وحتى الاستقلال وراح ضحيتها أطقم كا
من الشهداء وشحنات ثقيلة من العتاد والسلاح . والله وحده يعلم حجم المشقة والع
والقسوة التى تحملتها مصر الثورة بكل الحب والوفاء والاخلاص إيمانا منها بتحر
الأرض .. والتى عاينتها وصاحبتها وخضت غمارها يوما بيوم وشبرا بشبر »

ولقد يكون من السهل أن يخط فتحى مبروك الديب فى كتابه وأنقل عنه م
الكلمات والسطور . ولكن كان الصعب الحقيقى والمجد الحقيقى هو ما سجله « الش
مبروك الديب » على أرض الواقع الممتلئة بالفخاخ والعوائق والمخضبة بالدم
والأشلاء .

وإذا كانت تلك العمليات الثورية المصرية الجسورة قد عجلت – مع تأميم ق
السويس – بمحاولة ضرب مصر فى نوفمبر سنة ١٩٥٦ بالعدوان الثلاثى الفرنس

البريطانى الإسرائيلى .. فإن العدوان الثلاثى قد توقف ورحل سريعا . أما الدعم المسلح من جانب مصر لثورة الجزائر فقد اتصل واستمر حتى النصر .

ولا يمكن لمنصف أن يجحد عزيمة عبد الناصر الصلبة فى هذا ، ولا أن يتنكر للوجه المشرق للمخابرات المصرية التى كان يمثلها فى ذلك الشأن فتحى مبروك الديب تمثيلا كريما شريفا ثوريا دائبا متجردا مضيئا .

على أن تعيين فتحى الديب سفيرا لمصر فى سويسرا سنة ١٩٦١ لم يبعده عن الساحة .. عن قضيته الأثيرة .. عن تتويج النجاح فى ثورة واستقلال الجزائر . طار فتحى الديب من سويسرا إلى « بوادفو » مقر الوفد الجزائرى فى مفاوضاته مع الوفد الفرنسى والتى فشلت فى مرحلتها الأولى . ثم تابعها مرة أخرى عن كثب حين استؤنفت وانتهت **بتوقيع اتفاق ايفيان لاستقلال الجزائر** .

وقد تكون لفتحى الديب ابن دفعة سبتمبر ٤٢ « ورجل المهام السرية القومية » - وقد كان له فعلا - رحلات ومغامرات ثورية فى ليبيا وفى اليمن . غير أن أنصع صفحاته كانت مع ثورة الجزائر التى تعرض من أجلها للعديد من محاولات الاغتيال .

وإن المرء ليذهل من الموضوعية والدقة والأمانة والذاكرة المنظمة الحديدية « الكومبيوتر » التى سجل بها فتحى مبروك الديب مراحل التعاون بين ثورة مصر وثورة الجزائر ، والتى عرضها فى رصانة ملحوظة بين دفتى كتابه « عبد الناصر وثورة الجزائر » فى نيف وسبعمائة صفحة مع كم هائل من الوثائق والمستندات السرية المنشورة لأول مرة .

وإذا لم يكن لفتحى مبروك الديب مكان فى متحف الثورة الجزائرية فإن أحدا لا يستطيع نكران دوره الجليل فى تاريخها . وحسبه أن له مكانة مشرفة فى قلوب زملاء دفعته وبنى وطنه وفى تاريخ القومية العربية .

بارك الله فى فتحى مبروك الديب ..

٩

حسن محمد التهامى

حيرنى حسن التهامى ! هل لأنه صاحب شخصية محيّرة ، أم لأننى صاحب « وجدان حائر » أم للاثنين معا ؟!

فحسن التهامى الذى يقاتل بضرواة فى فلسطين ويُحاصر فى الفالوجة سنة ١٩٤٨ هو حسن التهامى الذى « يهندس » لمبادرة زيارة القدس سنة ١٩٧٧ ولما بعدها !

وحسن التهامى الذى يلتقى سرا فى جلسات طويلة مع موشيه ديان بالمغرب ليرتب للصلح مع إسرائيل ويحضر جلسات كامب ديفيد كاملة ، هو حسن التهامى الذى لا يكف عن تكذيب وسب موشيه ديان ووصفه بالأعور ويجاهر بأنه ضد « اليهود » !

وحسن التهامى الذى صادق جمال عبد الناصر فى حصار الفالوجة وانضم إلى تنظيم الضباط الأحرار مبكرا ، هو حسن التهامى الذى يلوح كأنما انقضّ على ذكرى جمال عبد الناصر ويعلن مرة أنه عمل على « تكتيف » عبد الناصر بالحبال (!) ومرة أخرى أنه هدد عبد الناصر بالقتل !

وحسن التهامى الذى ضحك على مايز كوبلاند رجل المخابرات الأمريكية وكشف رشوة الأربعة ملايين دولار وسلمها لجمال عبدالناصر فبنى بها برج القاهرة ، هو حسن التهامى الذى يتهمه البعض بأنه صاحب الميول الأمريكية ويشتط البعض الآخر فيدرجونه - بالباطل - بين عملاء المخابرات الأمريكية !

وحسن التهامى الذى يكثر من الأحاديث والمقالات الدينية ويطلق لحيته ، هو حسن التهامى الذى يبدو كأنما يخلط الدين « بالدروشة » والأوهام المثيرة للدهشة والإشفاق وعدم التصديق ، ويشتط فى آراء غريبة قد تعد ليست من الدين فى شىء !

وحسن التهامى الذى كان سفيرا لمصر فى فيينا ومندوبا لها فى لجنة الطاقة

الذرية والعلم الحديث ، هو حسن التهامى الذى لا يفتأ يجاهر بأنه يرى ويحادث « سيدنا الخضر » دون أن ندرى !

وحسن التهامى الذى عاش بين رجال الصف الثانى للثورة خدنا لهم ، هو حسن التهامى الذى كان عضوا بارزا فى « محكمة الثورة » بعد « مؤامرة ١٥ مايو ٧١ » والذى حكم على زملائه بأحكام الاعدام والمؤبد والسجن !

وحسن التهامى الذى يكره الروس والشيوعية كراهية التحريم ، هو حسن التهامى الذى يتزوج بسيدة روسية !

وحسن التهامى الذى أدمن الكتابة للصحف باسهاب شديد معتمدا على أنه كان فى قلب الأحداث وصاحب ذاكرة « فوتوغرافية » ، هو حسن التهامى الذى يتصدى له بالتفنيد المؤرخ المدقق اللواء جمال حماد ويتصل بينهما الرد والرد على الرد !

وحسن التهامى الذى شكا محمد إبراهيم كامل (وزير الخارجية المستقيل) مر الشكوى من ندخلات التهامى المتتالية فى مباحثات كامب ديفيد والتى ساهمت مع الرئيس الراحل أنور السادات فى التنازلات المصرية لدى توقيع الاتفاقية المصرية الإسرائيلية ، هو حسن التهامى الذى نشر مقالات مسلسلة عبر أيام متصلة بجريدة السياسة الكويتية فى أواخر سنة ١٩٨٠ وقال فيها إن زيارة السادات للقدس لم يستفد منها سوى إسرائيل وأن التنازلات المصرية المتتالية كانت السبب فى تغيير الموقف من سيىء إلى أسوأ ، وأن المستفيد من كامب ديفيد هى إسرائيل والخاسر هى مصر !

تساؤلات لا تحاملات

هل حسن التهامى مع عبد الناصر ضد السادات أم هو مع السادات ضد عبد الناصر ؟ أم هو مع حسن التهامى (مع نفسه .. وربما ضد نفسه !) ؟ انه يشغل الناس بمقالاته المتفجرة وردوده المطولة التى ينشرها فى مصر والخارج . أهو يفعل ذلك كلما ظن أن الأضواء كادت تنحسر عنه لأنه « **مركون** » فى رئاسة الجمهورية بدرجة نائب رئيس وزراء وبغير اختصاصات ؟



حسن التهامى فى واحدة من لقاءاته بالرئيس أنور السادات .

ويعلم الله أننى لست متحاملا على حسن التهامى (رغم الصور المتناقضة التى ألقيت عليها علامات التعجب آنفا) ، وليس بينى وبينه ود مفقود ، فما عرفته ولا عرفنى عن قرب . وإنما هى مجرد تساؤلات وتعجبات « رجل الشارع » ..

أما « كدفعة » .. فوالله الذى لا إله غيره إن حسن التهامى عندى ابن عزيز من أبنائها ، ومن هذه الزاوية بالذات أهلا به وسهلا ..

أحد زملاء الدفعة قال لى عن حسن التهامى إنه « **حالة مرضية** » ! قلت : بل هو « **ظاهرة** » ! قال : ماذا تعنى بكلمة ظاهرة ؟ قلت وكأننى أفسر الماء بعد الجهد بالماء : الظاهرة هى طاقة كامنة متفجرة ومن ثم تصبح ظاهرة بدلا من أن تظل كامنة ! الظاهرة يا صاحبى شىء يسعى - بقصد أو دون قصد - إلى الانتشار ولفت الأنظار ! الظاهرة هى الظاهرة !

حسن التهامى مجتهد ؟ نعم ! مناضل ؟ نعم ! إرهابى ؟ نعم ! عصبى ؟ نعم ! وديع ؟ نعم ! يشغل الدنيا بأدوراه وأحاديثه ؟ نعم ! تشغل الدنيا عنه ؟ نعم ! إنسان مؤمن بسيط فى أعماقه ؟ نعم !

فى الاستعراض العسكرى يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٨ كان الرئيس الراحل أنور السادات قد ابتكر زيا عسكريا شبيها بالأزياء العسكرية البروسية الألمانية (وكان السادات شديد العناية بهندامه ، شديد الاعجاب بالعسكرية الألمانية) . وظهر السادات بهذا الزى لأول مرة فى الاستعراض المذكور وهو يسير بوصفه القائد الأعلى للقوات المسلحة – وبخطوة الأوزة – ليتلقى تحية قائد طابور الاستعراض . ومن حول السادات وزير الدفاع ، ورئيس هيئة أركان حرب الجيش ، وقائد القوات الجوية ، وقائد القوات البحرية .. وجميعهم يرتدون هذا الزى المبتكر (مع اختلاف الرتب والشارات) . كل هؤلاء عسكريون ومعروفة وظائفهم العسكرية . **ولكن بينهم « اندس » – على حين غرة منا – رجل ذو لحية ارتدى الزى العسكرى المذكور وبرتبة « فريق » ويخطو معهم بخطوة الأوزة !**

وسألنى من كان يجلس بجانبى – نشاهد العرض العسكرى فى التليفزيون – وهو يشير إلى صاحب اللحية : من هذا ؟ قلت : هذا هو حسن التهامى ! قال : ولكنه ترك القوات المسلحة من قديم الأزل وبرتبة رائد لا برتبة الفريق ! قلت : نعم .. ولكن هذا هو حسن التهامى ! وهذه « تقليعة مميزة » وسط « تقليعة الزى » التى نراها أمامنا الآن !

وبعـــد ..

أترانى – وبحسن نية – ظلمت حسن التهامى فيما كتبت عنه ؟

إن كنت فعلت فأستغفر الله من قبل ومن بعد ، وألثم جبين حسن التهامى بصفاء نفس ..

١٠

محمد مصطفى خفاجى

الشيخ الجليل « **الفلتة** » فى العلم والموهبة والجاذبية محمد متولى الشعراوى هو على إعجابى الشديد به ليس معصوما من الخطأ ، لأن أحدا من البشر ليس كذلك !

ولقد أخطأ – فى رأيى – حين قال لطارق حبيب فى حديث تليفزيونى أنه أدى ركعتى شكر لله ابتهاجا بهزيمة ٥ يونيو لأننا لو كنا انتصرنا لحكمنا الشيوعيون ! واستنكرت من فضيلته هذا الرأى المثير وعارضته وكتبت فى « الأهرام » يوم ٢٣ يناير ١٩٨٩ مقالا حول هذا الشأن بعنوان « **لا .. يا شيخنا الشعراوى** » . ونظرا للجماهيرية العريضة التى يتمتع بها الشيخ الشعراوى فقد أثار مقالى ردود فعل واسعة جدا لم آلفها فى السنوات الأخيرة .

ولقد كانت حكايات اثنين بالذات من أبناء سبتمبر ٤٢ أمام ناظرى حيث أتوجع من ذكرى فواجع هزيمة ٥ يونيو ٦٧ ومن فرحة الشعراوى بالهزيمة . كان أحد الاثنين هو **العميد أ . ح مصطفى كامل على صالح** الذى روى لى مغامراته العصيبة فى الافلات من الأسر عبر صحراء سيناء ولمدة عشرين يوما سيرا على الأقدام منذ ٥ يونيو ٦٧ حتى وصل إلى بورسعيد . وشهد خلال تلك الأيام الدامية طائرات الهليوكبتر وهى تتعقب الجنود والضباط المصريين المظلومين المنسحبين وتحصدهم حصدا . أما الثانى فى أوجاع ٥ يونيو فهو **العميد أ . ح محمد مصطفى خفاجى .**

غير أن مسيرة خفاجى كلها عبر نيف وأربعين سنة حافلة بالغرائب والأهوال والتحدى . ومن هنا فهى جديرة بأن تروى تفصيلا .

ولعله لا يعيب خفاجى - إذا فهمت الأسباب - أنه اشتبك - وفى مرحلة مبكرة من خدمته – مع اثنين من ألمع ضباط الجيش هما عبد المنعم رياض ومحمد كامل الرحمانى !

ذلك أن خفاجى اختار أول ما اختار بعد تعيينه فى سلاح المدفعية .. جناح المدفعية المضادة للطائرات للدراسة ثم العمل . لكنه لم يكد يمضى أسبوعين فى دراسته بهذا الجناح فى مدرسة المدفعية حتى وقعت مواجهة بينه وبين المدرس الأول فيه الذى كان اليوزباشى (الفريق فيما بعد) عبد المنعم رياض ! وكان معروفا بأنه ضابط « ناشف » قد لا يحتمل البعض مواقفه المتشددة . ولا يتعارض هذا بل قد يتفق مع كون عبد المنعم رياض قائدا عبقريا ومرجوا وفذا وأنه أحد أعظم شهداء مصر والقوات المسلحة . وأننى تمنيت لو كان هو – وليس عبد الحكيم عامر – الذى تولى قيادة الجيش بعد ثورة ٢٣ يوليو ٥٢ . ولكن ذلك لا يعنى أن خفاجى كان من الضباط

« البايظين » (أو حتى ممن لا يحتملون العسكرية الناشفة) ولكنه فقط يفيد أن هوى عبد المنعم رياض لم يأت على هواه ! . وهكذا قرر خفاجي أن يترك - بسبب هذا الاشتباك - المدفعية المضادة للطائرات بأسرها ، ويطلب نقله - من أولها - إلى مدفعية السواحل بالاسكندرية ، وقد كان . وخفاجي لم يكن في هذا « هاربا » بمعنى الهروب بل لعله نوع سلبي من التحدى . ولأن لمدفعية السواحل « طابية » في بور سودان فقد سافر خفاجي إلى بور سودان في سنة ١٩٤٦ وتحدى حظرا كان مفروضا يمنع دخول غير الانجليز إلى « فندق البحر الأحمر » هناك واستطاع - بالتحدى وبالحيلة - أن يهدد مدير الفندق اليوناني بأنه لو لم يسمح له وللضباط المصريين بالدخول فسيقتحمه بقوة النيران ! واستسلم اليوناني بعد أن سمع قنبلة تدوى في العراء القريب من الفندق دبرها خفاجي مع زميل دفعته ودفعتنا عمر عبد الفتاح عيد .. ودخل الضباط المصريون الفندق منذ ذلك الحين !

خناقة حامية مع الرحماني

وانتهت خدمة خفاجي بالسودان ، ولم يعد إلى الاسكندرية بل نقل في صيف سنة ١٩٤٨ إلى الآلاى الثاني هاون التابع لسلاح المدفعية والمشكل حديثا خلال معركة فلسطين . وعين خفاجي أركان حرب الآلاى المذكور . وفي أغسطس ٤٨ أصبح مسئولا عن وحدة من وحدات الهاون ٨١ ملليمترا بفلسطين . ومع احتدام القتال في أواخر ديسمبر ١٩٤٨ كان خفاجي في الخطوط الأمامية ومشاركا في « موقعة » من أحمى المواقع التي دارت هناك وهي التي عرفت بمعركة « **تبة الأسرى** » . وكان خفاجي يضرب طلقات الهاون من خلف التبة . وكان الذى يشرف على المعركة القائمقام **أ** . ح المتحمس المحتدم دائما **محمد كامل الرحماني** . ويستمر خفاجي في إطلاق نيران الهاون من خلف التبة بحكم وبطبيعة عمل سلاح الهاون . ويجيىء إليه الرحماني : يا حضرة اليوزباشي .. اطلع فوق التبة واستخدم الهاون من هناك حتى تصل النيران إلى مسافة أبعد ! ويجيبه خفاجي : يافندم إن تكتيك الهاون أن يضرب من خلف ساتر ، وأننا إذا أردنا الضرب لمسافات بعيدة فالمتبع أن نرفع ماسورة الهاون إلى أعلى لتصل قنابله إلى مسافة أبعد ! ولا يرضى الرحماني بهذه الاجابة التي اعتبرها تخاذلا وتهربا رغم أنها فنية ومنطقية ، فيقول لخفاجي : أنت ضابط جبان ! وإن لم تصعد بأسلحتك فوق التبة فسأضربك بالطبنجة ! وليس خوفا من أن

يطلق الرحمانى نيران طبنجته عليه وإنما تحديا للموت - رغم عدم اقتناعه بصواب تغيير موقعه ـ صعد خفاجى إلى أعلى التبة وتعرض لنيران شديدة من العدو ، وجرح فعلا فى المعركة بعد أن جرح الرحمانى احساسه .. (على رأى تشنيعات زميلنا العزيز محمد عبد الهادى حسونة) !

وكان أشد ما آلم خفاجى فى هذا اليوم أنه رأى أمام عينيه ابن دفعته ودفعتنا الرياضى المثالى اليوزباشى **محمد جمال خليفة** (من قوة فصيلة الحرس الملكى) يستشهد على السلك أمامه يوم ٤ يناير ١٩٤٩ ولا يستطيع خفاجى من جراحه ، ومن كثافة نيران العدو حتى أن يسحب جثمان جمال خليفة من حيث استشهد إلى أن أمكن اسكات نيران العدو ودحره ، ومن ثم حملنا شهداءنا إلى الخطوط الخلفية . وفى طليعتهم الشهيد المبرور محمد جمال خليفة .. رضوان الله عليه .

فى « وش مدفع » عدوان ٥ يونيو
ومغامرة مثيرة للهروب من الأسر

من « نكسة الانفصال » سنة ٦١ والتى كان أحد أكابر ضحاياها محمد مصطفى خفاجى اعتقالا وتعذيبا فى سوريا .. إلى « نكسة ٥ يونيو ٦٧ » وفقا لقاموس الثورة المصرية فى الستينيات . ولقد قلت وسأقول الكثير فى النكسة الثانية التى هى فى حقيقتها هزيمة فاجعة ، والتى لا يمكن أن تنسى أو تغتفر ، والتى خفف من آثارها بعض الشىء ما أنجزناه - بشجاعة فائقة - فى العبور مع حرب ٦ أكتوبر ١٩٧٣ .

وفى نطاق موضوعنا هنا فإن صاحبنا خفاجى تلظّى بالنكستين ..

كان قد عين فى سنة ١٩٦٣ مديرا لمكتب الحاكم الادارى لقطاع غزة . وطالت خدمته فيها حتى فاجأه عدوان ٥ يونيو ١٩٦٧ ليُبتلى مرة أخرى وليمارس من جديد هوايته فى التحدى .

وصمد العميد أ . ح محمد مصطفى خفاجى مع المقاومة الشعبية فى غزة حتى يوم ٧ يونيو .

وكل الدلائل والشهادات والأقوال تشير إلى أن قطاع غزة كان أكثر صلابة

وصمودا من غيره . قد يقال – وهذا صحيح – أن هَمَّ الاسرائيليين كان الوصول إلى العريش بأسرع وقت ثم التوغل فى سيناء باعتبار القطاع هدفا ثانويا آتيا وأن الالتفاف حوله وتطويقه سينتهى به إلى السقوط . لكن هذا لا ينفى أن قطاع غزة مع خان يونس أبلى بلاء حسنا ولم يكن لقمة سائغة على ضآلة حجم القوات التى تدافع عنه ، وأن اسرائيل هاجمته فى يومى ٥ و ٦ يونيو ولم تستطع إفتراسه .

على أن الحاكم الادارى لقطاع غزة – اللواء عبد المنعم حسنى – ارتأى فى اليوم الثالث (٧ يونيو) أن الأسلم هو الاستسلام . وطلب من خفاجى أن يرفع فوق الصارية أى علم أبيض ، فأجابه قائلا : تقطع يدى ولا أرفعه ! ولكن الحاكم الادارى أمر الضابط الفلسطينى « أحمد هنية » أن يرفع « ملاية بيضاء » ! ولجأ هو إلى المستشفى فى انتظار مصيره والوقوع فى الأسر .

واستطاع خفاجى بمعاونة ضابط المخابرات المصرى الرائد « فايق صادق » أن يدبّرا اثنين من اللنشات للعودة إلى مصر بحرا بعد أن ارتدى الجميع الملابس المدنية . وبدلا من أن يقل اللنش الواحد ٢٠ راكبا كما تقضى حمولته فقد اندفع الأهالى من الفلسطينيين والمصريين بحيث احتمل ٣٥ راكبا . السولار الذى يسيّر اللنش محدود « والعدو أمامكم والبحر وراءكم » ولا سبيل إلا النجاة بحرا ولو بالتحايل على الوقود بالتجديف بالأيادى ، وبالتغلب على ندرة الماء بقطرات تبلل الشفاه . واصطحب خفاجى معه دليلا فلسطينيا ومعه زوجته وابنته ،ومخر اللنشان عباب البحر ليلا .. ولنش خفاجى فى المقدمة .

وحين أشرقت شمس الصباح أكتشف خفاجى أنها تشرق عن يمينهم لا عن يسارهم مما يعنى أنهم يتجهون شمالا . وبالفعل ألقى خفاجى بناظره إلى اليابسة فاكتشف أنه بمحازاة أسدود ! أسدود ؟ يالهول المستجير من الرمضاء بالنار ! إذن – وللأسف – فقد خدعه الدليل الفلسطينى الذى أتهم بدوره مساعده بالتوجه الخاطىء أثناء انشغاله هو بتزويد اللنش بمزيد من السولار . واكتشفت داورية اسرائيلية هؤلاء النازحين المهاجرين من غزة وأمرتهم بالنزول إلى البر لولا أن أنجدتهم العناية الالهية باستدعاء لاسلكى مفاجىء للدورية الاسرائيلية فتركتهم مسرعة . وبأقصى ما فى الاستطاعة ابتعد اللنشان عن الشاطىء إلى الجنوب – باسم الله مرساها ومجراها –

وليشهدوا من البحر غزة وقد اشتعلت فيها النيران ومن بعدها خان يونس ثم رفح .

ولما كانوا فى حاجة ماسة إلى السولار الذى نفد فقد تذكر مصطفى خفاجى أن بين رفح والعريش كانت هناك مزرعة مصرية فيها بعض ماكينات الديزل ، وبالتالى يحتمل وجود سولار بها . وترك خفاجى اللنش بعيدا عن الشاطىء وسبح ومعه بعض المرافقين وفى يدهم « جيريكانات » لملء بعضها بالسولار والبعض الآخر بماء الشرب . وهناك على الساحل شهدوا الجنود المصريين النازحين العائدين فى صورة لا أرانا الله مثلها أبدا . إنه مشهد لم أره ولكن كأنى به لا يبرح خيالى بل يغيم عليه ولو فى هامشه . وفى الطريق إلى المزرعة رأى خفاجى طائرة هليكوبتر اسرائيلية على ارتفاع منخفض يستقلها مجندات اسرائيليات يلبسن « الشورت » ويحملن الرشاشات يحصدن بها من يحصدن ويقتلن من الجنود المصريين الشاردين . مشهد ينخلع له القلب ، وقد لا يسأل عما يجوز وما لا يجوز فى الحرب .. وإنما يسائل الذين تسببوا – بسوء التفكير والتدبير – فى هذا المصير المروع . ولكن ماذا يفعل خفاجى إلا أن ينزفِ من الداخل « ويكتم الدم على القيح » ويمضى فى انجاز مهمته ومسئوليته مادام بعدُ حيا يرزق ولو كان رزقه بعضا من « الخيار والقثاء » يعود بها إلى رفاقه مع السولار والماء .

وأخيرا وبعد هذه المغامرة التى هى أغرب من الخيال والأفلام السينمائية .. عادوا للابحار جنوبا يهتدون بالنجم وبالحاسة السادسة حتى وصلوا سالمين إلى بور سعيد فى نهاية المطاف . ويالها من رحلة عصيبة مثيرة !

ينجو من الأسر فيقود معركة « رأس العش » !

وعاد العميد محمد مصطفى خفاجى ليقدم نفسه إلى سلاح المدفعية ، فقيل له انتظر الآن على « الدكة » فلا عمل لك لدينا الآن ! ولم يرضّ خفاجى .. فاتجه إلى ادارة كاتم أسرار حربية يطلب أى عمل . ورمقه اللواء منير عبد الرحيم كاتم الأسرار الحربية مندهشا ، ثم سأله : كنا قد طلبنا إلى أحد العمداء أن يذهب إلى بور فؤاد قائدا لقطاعها العسكرى فراوغ ثم زاغ ، فهل تقبل أن تذهب أنت إلى هناك ؟!

ومرة أخرى تلح على العميد محمد مصطفى خفاجى طبيعة التحدى والجسارة فيجيب بغير تردد : أقبل .. وفورا !

والحق ان مافعله محمد مصطفى خفاجى فى منطقة بورفؤاد العسكرية المهجرّة إلا من بعض عناصر مقاومة ومن ورش لهيئة قناة السويس على درجة عالية من الكفاءة والتجاوب والوطنية .. مافعله خفاجى هناك كان شيئا أشبه بالملاحم الأسطورية كانت لديه قوات صاعقة ومدرعات ومدفعية ميدان ومدفعية مضادة للطائرات ، ولكنها كانت تعانى عجزا شديدا .. وهو للمرة الثانية خلال أسابيع « فى وش المدفع » مع فارق أنه فى هذه المرة داخل بلاده ، وأن العدو الاسرائيلى على الجانب الشرقى من القناة ، وان بورفؤاد هى « الموقع الوحيد » لنا شرق القناة ـ قرب بورسعيد ـ ولم يصل الاسرائيليون إلى بورفؤاد حيث منعتهم عنها الملاحات والأرض الغريانية وليس المانع فقط قرار وقف القتال الذى اعتاد الاسرائيليون ألا يقيموا له وزنا . ومن هنا فمن الممكن أن يتحينوا أية فرصة لبلوغ بورفؤاد بطريقة أو بأخرى .. ومن ثم بورسعيد ، والله أعلم ماذا يحدث لو تحقق لهم ذلك وفى ظروفنا المتردية بعد حرب الأيام الستة كما سموها .

وإذا كنا قد أشدنا بالمرشدين المصريين وبالادارة المصرية التى حملت عبء تسيير الملاحة بانتظام إثر تأميم قناة السويس فى ٢٦ يوليو ١٩٥٦ ، فمن حق ورش قناة السويس ببورفؤاد أن يشاد بها .

اتفق خفاجى مع تلك الورش أن تعمل بكل طاقتها فى خدمة القوات المسلحة وبالتحديد فى خدمة القطاع العسكرى ببورفؤاد الذى يقوده العميد خفاجى .. وبدأت الورش العمل « من الابرة إلى الصاروخ » وفى زمن قياسى ، فمن القواعد الحديدية الملحوم بها خوازيق لمواجهة الاسقاط بالبراشوت إلى كئوس إطلاق القنبلة اليدوية من البنادق ، إلى مدافع ودبابات هيكلية خشبية .. الخ (بقيادة المهندس قاسم سلطان والمهندس ابراهيم) وأعطى خفاجى عناية فائقة لتدريب الأسلحة المختلفة على التنشين ، واهتم بالداوريات الاستطلاعية والقتالية . ثم مدنيا .. هو أعاد الحياة والأسواق والاضاءة إلى بورفؤاد .

ثم كانت معركة رأس العش .. وهى ـ مع اغراق المدمرة ايلات ـ النجمتان

المضيئتان فى المرحلة الحالكة السواد التى بدأت من ٥ يونيو حتى نهاية ١٩٦٧ وقبل الاستعداد لحرب الاستنزاف .

فقد توافرت لدى العميد أ . ح محمد مصطفى خفاجى المعلومات بأن قوة اسرائيلية تتقدم من الضفة الشرقية إلى « رأس العش » (١١ كيلو جنوب بورفؤاد) وصدرت له التعليمات بمواجهتها . وحشد خفاجى قواته واستخدم الدبابات البرمائية لأول مرة وعبر بها قناة السويس إلى الشرق واحتلت مواقعها وفقا للخطة الموضوعة . وبدأت المعركة فى المساء واستطاعت كثافة نيراننا وقوة ثباتنا وروحنا المعنوية المستعادة أن توقف تقدم الاسرائيليين وأن تعيدهم من حيث أتوا وأن تلحق بهم خسائر فادحة .

آخر خدمة الغز علقة !

وهدأت المسائل فى الشهور التالية . وبدأت أجهزة المخابرات الجديدة والمختلفة تبعث بضباطها ذوى الامتيازات الخاصة إلى بورفؤاد لمراقبة ضباط المنطقة مما أثار المشاكل والفتن . وفى هذه المرحلة نقلوا العميد أ . ح محمد مصطفى خفاجى مديرا لمركز تدريب المدفعية مع أول سنة ١٩٦٨ . وبعد أن فرغ لعمله الجديد وألبس مركز التدريب ثوبا قشيبا . وكانت قد مرت أسابيع قليلة على معركته فى رأس العش دون أن توجه له كلمة شكر أو تقدير ، إذ بهم يستدعونه للتحقيق . أما الاتهام المحقق معه فيه فهو أن اللواء عبدالمنعم حسنى (الحاكم الادارى لقطاع غزة حتى ٥ يونيو ١٩٦٧ والذى سلفت الاشارة إليه فى حينه) يتهم العميد مصطفى خفاجى بأنه ترك قطاع غزة فى أول المعركة وبدون إذنه ! (وكان اللواء عبدالمنعم حسنى قد أعيد من الأسر ..) .

وحكى خفاجى القصة كاملة واستشهد بالشهود فأيدوه تماما وأشادوا بموقفه ابتداء وانتهاء من الصمود حتى رفض الأسر والنجاة منه . وكانت نتيجة التحقيق براءة خفاجى ، وإحالة اللواء عبدالمنعم حسنى إلى المعاش .

وبعد انتهاء التحقيق وثبوت براءة العميد أ . ح محمد مصطفى خفاجى ، وبدلا من أن يعتز القادة الكبار فى القوات المسلحة بأن فيها مثل هذه النوعيات من أصحاب

الجسارة والتحدى وقوة التحمل فيضعونها فى حبات عيونهم ، وبدلا من أن يذكروا لمصطفى خفاجى ملحمته فى رأس العش وبورفؤاد فقد فعلوا العكس ..

فى سبتمبر ١٩٦٨ فوجىء العميد أركان الحرب محمد مصطفى خفاجى مدير مركز تدريب المدفعية بأن المقدم أركان حرب المركز يسلمه بيد مرتبكة ودموع سخينة خطابا بإحالة المذكور - الذى هو محمد مصطفى خفاجى - إلى المعاش ! وهكذا .. آخر خدمة الغز علقة ! وهكذا وجد خفاجة نفسه فى الشارع وهو بعد فى شرخ الرجولة (٤٥ سنة) .

لكن .. « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم » ..

التقى بخفاجى أحد أصدقائه من العاملين بشركة آى . بى . إم وكان يعلم أن خفاجى حاصل على ماجستير فى الاحصاء ، فدفعه إلى الالتحاق بدورة دراسية للكومبيوتر .

وراقت دراسة الكومبيوتر لمحمد مصطفى خفاجى حتى أنه جعلها « لعبته » فلا يسمع عن أية دورة كومبيوتر إلا ويشترك فيها هنا وهناك ، وتخصص فى البرمجة وتحليل النظم ثم تحليل النظم الراقية التى لا يسمح بدراستها إلا للمهندسين فتفوق عليهم جميعا .

والتحق خفاجى بالمركز العربى للبحوث والادارة « أراك » الذى أنشأه الدكتور السيد أبوالنجا فى دار المعارف . وأعطى خفاجى دروسا ومحاضرات بالجامعة الأمريكية ، فقد أصبح أستاذا ومتخصصا فى مادته . وسافر إلى انجلترا فحصل على ماجستير دراسات عليا فى الكومبيوتر من جامعة برايتون .

ثم انتقل محمد مصطفى خفاجى للعمل فى مؤسسة « الخبراء العرب » وهى مؤسسة فلسطينية لبنانية مصرية ذات شأن تختص بالاستشارات الهندسية والكومبيوتر . وأصبح خفاجى - لخبرته - مطلوبا فى كل مكان . مصر وليبيا والكويت لتنظيم مراكز المعلومات إلى أن استقر به المقام فى المملكة العربية السعودية مستشارا لوزارة الكهرباء ثم وزارة الداخلية هناك . وأمضى خفاجى فى السعودية المدة من سنة ١٩٨٠ حتى عاد مع ختام رحلته المدنية فى مارس ١٩٨٨ . عاد

ليستريح بعد طول عناء . يجلس من وقت لآخر « يتشمس » فى الصباح بنادى هيليوبوليس الذى يكاد يعتبر نادى المحاربين القدماء .. من سكان مصر الجديدة على الأقل ! ويتردد على نادى هيليوبوليس فى المساء ـ متطوعا ـ للاشراف على ادارة المركز الطبى بمسجد النادى (جامع عمر بن عبدالعزيز) والذى فكر فى انشائه وأقامه بالفعل كل من اللواءين كمال الأتربى ومصطفى كمال شاهين .

ولكن الدنيا لا تضحك ولا تصفو لأحد على طول الخط .. فثمة ثغرات و« قرصات » ! وقد كانت « قرصة » محمد مصطفى خفاجى من قرصات آخر صيحة والتى هى حديث وأنين الناس منذ يونيو سنة ١٩٨٨ . **أودع خفاجى « تحويشة العمر » فى شركة الريان .. وبالدولارات ! كم ؟ مائة وخمسة وعشرون ألف دولار فقط لا غير !**

مسكين محمد مصطفى خفاجى ومساكين عشرات الآلاف من ضحايا الريان .. عظم الله أجرهم .

وصدق شاعرنا العبقرى ابو الطيب المتنبى : لكل شىء إذا ما تم نقصان !

١١

فتح الله رفعت محمد فتح الله

كما حدث مع « على الشيخ » وكما ذكرت من قبل فان فتح الله رفعت كوفىء بترقية استثنائية فتقدمت أقدميته من أقدميته بيننا فى التخرج بعد « محمد سعيد على » وقبل « محمد جمال الدين محفوظ » من دفعتنا .. وذلك تقديرا لبطولة لاحظناها جميعا فى فتح الله رفعت كضابط مدفعية مقاتل فى فلسطين سنة ١٩٤٨ على أرفع مستوى .

أما أن فتح الله رفعت كان ضابطا هماما غير عادى فذلك مما لا شك فيه . وأما أنه انسان همام وغير عادى فذلك أيضا مما لا ريب فيه .

و« الضباط الأحرار » والقريبون منهم فى السنوات الثلاث أو الأربع الأولى بعد ثورة ٢٣ يوليو هم فى غالبيتهم إما أنهم استعين بهم حول القيادة العامة للقوات المسلحة

ومجلس الثورة كمديرى مكاتب ، وإما أنهم قامت على أكتافهم ادارة المخابرات العامة فى عهدها الجديد برئاسة زكريا محيى الدين ثم صلاح نصر من بعده وإما انهم دخلوا ـ أو أدخلوا ـ مجلس الأمة ، وإما أنهم أوفدوا كملحقين عسكريين بالخارج كمرحلة استكشاف للعمل كسفراء ، وإما أنهم أعدوا لتولى وزارات أو محافظات .

ربما هناك واحد فقط من الضباط الأحرار هو الذى أصر على أن يبقى كما هو فى سلاحة « المدفعية » وأن لا شأن له بالسلطة . أدى ما عليه بقيام الثورة ثم بعد ذلك فليجر عليه ما يجرى على سواه من الضباط فى أسلحتهم وبقدر اجتهاده واجتهادهم . هذا « الضابط الحر » هو المشير عبدالحليم أبوغزالة نائب رئيس الوزراء ووزير الدفاع والانتاج الحربى السابق ، ومساعد رئيس الجمهورية حاليا .

هل نسيت أن أعرض لأحداث ومصائر فريق من الضباط الأحرار فى السنوات الأولى للثورة ؟ نعم .. فمن بينهم فريق من الضباط الأحرار بسلاح الفرسان شتتوا بعد أزمة مارس ١٩٥٤ إلى الوظائف المدنية أو ما شابهها (المرحوم آمال المرصفى مثلا الذى تولى فيها بعد منصب مدير المسرح القومى ، كذلك سعد الدين عبدالحفيظ الذى تدرج فى الوظائف حتى منصب وكيل وزارة الثقافة .. وثمة آخرون) .

وبقى فريق هام من الضباط الأحرار ومن التفوا حولهم استبقيتهم ـ عن عمد ـ لختام هذه « الفذلكة » .. وأعنى بهذا الفريق « زعماء » تلك المؤامرة المزعومة التى سميت « **مؤامرة المدفعية** » أو محاولة الانقلاب فى ١٥ يناير ١٩٥٣ ولم يكن بعد قد مر ستة أشهر على قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

بين عبدالناصر ومحسن عبدالخالق يسجنه ويتنبأ له بمستقبل عظيم !

وأحد أبرز نجوم مؤامرة المدفعية تلك كان اليوزباشى « محسن عبدالخالق » الذى أصدرت عليه المحكمة العسكرية التى شكلتها الثورة آنذاك حكما بالسجن ١٥ عاما (وأودع السجن بالفعل لأكثر من عام لم يخرجوه منه إلا خلال أزمة مارس ١٩٥٤) وقد كان محسن عبدالخالق من أقرب الضباط إلى قلب جمال عبدالناصر . وكان عبدالناصر ـ قبل الثورة ـ قد توطدت أواصر الصداقة بينه وبين محسن عبدالخالق

(سفير مصر فى طوكيو فى منتصف السبعينيات) إلى درجة أنه كان يقيم فى ضيافته ـ ضيافة محسن ـ أياما وليالى ويعرف أسرته فردا فردا ، بل إنهما كادا يتشابهان حتى فى الصورة والشخصية .

ومن طرائف الحكايات والمفارقات أن جمال عبدالناصر ـ مساء اليوم الذى صدر فيه الحكم بالسجن على محسن عبدالخالق ـ ذهب إلى لقاء والدة صديقه وزميله ليطيب خاطرها وقال لها بالحرف الواحد : « لا تخافى ولا تحزنى ! إن محسن عبدالخالق ينتظره مستقبل عظيم ! » ومن خلال أحزانها ودموعها لم تعرف هذه السيدة الفاضلة المصابة بماذا تجيب عبدالناصر .. والحكم على ابنها قد صدر صباح اليوم وهو يقضى بأن « مستقبله » هو ١٥ عاما فى السجن ! .

على أى حال فقد برّ عبدالناصر بوعده ، وحين أطلق سراح محسن عبدالخالق عهد إليه بادارة عمومية لدار التحرير للطبع والنشر (الجمهورية) ، وكان هو صاحب الكلمة النافذة ، هو مركز القوى فيها وليس أنور السادات مديرها العام الذى كانت علاقته قد فترت وقتئذ بعبدالناصر .. وما أكثر المرات التى فترت العلاقة بينهما (وحين عاد عبدالناصر فغضب على محسن عبدالخالق الذى كان قد حصل على بكالوريوس التجارة أوفده مستشارا تجاريا لمصر فى لندن وظل هناك سنوات طويلة وحصل على الماجستير والدكتوراة فيما بعد) .

وكان من بين ضباط المدفعية الذين حوكموا وسجنوا فى مؤامرة المدفعية ثم أطلق سراحهم ابراهيم حافظ عاطف والسيد ابراهيم ، وقد انتهى بهما المطاف أيضا الى دار التحرير « الجمهورية » فى النصف الثانى من الخمسينيات .

وصاحبنا « فتح الله رفعت » كان هو الآخر من بين الضباط الأحرار المتهمين فى مؤامرة المدفعية وحوكم وأصيب بمرض شديد أثناء المحاكمة مما دفع بالثورة إلى الافراج عنه عاجلا .. ولم يعد إلى القوات المسلحة منذ ذلك الحين .

وقد أدهشنى حقا حين اطلعت على الملف الخاص بفتح الله رفعت فى أرشيف الأهرام أنه شغل فى الخمسينيات منصب « مراقب عام دار التحرير للطبع والنشر » لم تأت الدهشة من أن « ضابطا » تولى هذا المنصب فى دار التحرير ، فإن عدد

الضباط الذين « مروا » على دار التحرير « الجمهورية » كثيرون بوصفها كانت لسان حال الثورة التى « تموّلها » فالوشائج العسكرية قائمة لسك اسم « التحرير » الذى أختير لمجلة التحرير الصادرة عن ادارة الشئون العامة للقوات المسلحة فى ١٧ سبتمبر ١٩٥٢ وباشراف وحماس مباشرين من ضابطين هما أحمد حمروش .. وكاتب هذه السطور (وبالمناسبة فإن مجلة التحرير لم يتم تمويلها إطلاقا ولم تخسر بل حققت فائضا وأرباحا) .

وإنما منشأ الدهشة فى اكتشافى هذه المرحلة من تاريخ فتح الله رفعت أننى كنت أخال نفسى خبيرا لا يشق له غبار فى دهاليز و« مهاميز » دار التحرير وتواريخها وتباريحها فكيف فاتنى ان فتح الله رفعت كان من بين « غزاتها » العسكريين ؟! على أى حال .. قد يثبت هذا أن « مؤامرة المدفعية » كانت من أجل احتلال دار التحرير .

ولأن فتح الله رفعت قبل التحاقه بالكلية الحربية كان قد انتظم فى الدراسة بكلية الزراعة سنتين ، ولأنه ابن كفر الزيات ومزارعها بمحافظة الغربية ، ولأن اهتماماته الدراسية الزراعية والتعاونية والاقتصادية والمالية امتدت من جامعة القاهرة بمصر إلى جامعة هارفارد بأمريكا .. فإنه منذ الستينيات ومجال نشاطه وعمله بين بنك التسليف الزراعى ومؤسسة الائتمان الزراعى التعاونى التى تولى مجلس إدارتها ، ثم بنك التنمية والائتمان الزراعى الذى يتولى رئاسة مجلس ادارته . هذا إلى جوار عضويته « الدائمة » بمجلس الشعب ، ورئاسته للجنة الاقتصادية فى المجلس ، وعضويته بالأمانة العامة للحزب الوطنى . وأخيرا تولى رئاسة مجلس ادارة البنك الوطنى .

مشوار طويل بين « القنبلة » و« السنبلة » عبر أربعين سنة يثبت فيه فتح الله رفعت أن من كان من خيرة ضباط مدفعية الميدان يمكن أن يصبح من خيرة رعاة التنمية الزراعية والاقتصادية ، وان « المدفعية » كشعارها « فى كل مكان » ..

١٢

عبدالعزيز حمدى سالم

كأننا ـ عبدالعزيز حمدى وكاتب هذه السطور ـ كنا فى السرية الثالثة نشكل معا

« خلية » من خلايا مصر الفتاة بالكلية الحربية . كان شقيقه الأكبر حسين حمدى سالم قطبا من أقطاب مصر الفتاة ، وترسم عبدالعزيز خطاه . والمدهش فى الصديق العزيز عبدالعزيز حمدى أنه كان يذوب رقة ونحولا وعذوبة ، ولكنه فى نفس الوقت صلب لا يقصف ولا يلين له جانب . هو من نسيج أصيل ، وقماش متين !

واسم عبدالعزيز على حمدى مكتوب بين كشف نشرة التخرج فى سبتمبر ١٩٤٢ ولكنه غير وارد فى كشف الجيش لسنة ١٩٥٠ لسبب قاطع هو أنه استقال من الجيش قبل هذا التاريخ ، بل قبل حرب فلسطين ٤٨ بأربعة أعوام . استقال فى سنة ١٩٤٤ .. أى أنه لم يمكث فى « الكاكى » إلا سنتين بالكلية الحربية وسنتين بعد تخرجه منها !

غير أن هذا الذى استقال قبل حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ وعمل فلاحا بأرضه فى الشرقية (أبوكبير) لم تكن استقالته هروبا من الجندية والقتال . وآية ذلك أنه فى ديسمبر سنة ١٩٤٧ وبعد قرار تقسيم فلسطين بأيام قليلة انضم على رأس كتيبة مصطفى الوكيل (مصر الفتاة) إلى قوات المتطوعين بقيادة الفريق السورى فوزى القاووجى التى تقاتل المستعمرات الاسرائيلية فى الجبهة الشمالية على الحدود السورية ، وحارب بضراوة فى المنطقة التى عرفت باسم « **مثلث الرعب** » !

ولكن عبدالعزيز حمدى كف يده بعد أن دخلت جيوش الدول العربية المعركة رسميا فى ١٥ مايو ١٩٤٨ ، وعاد إلى موطنه وقريته يفكر ويتدبر فيما يصنع بنفسه ومستقبله . وفجأة ألح عليه هاتف أن يغير حياته كلية .. أن يبدأها من جديد وفى منحى بعيد عن الجندية والفلاحة على السواء .

من الزراعة إلى هندسة النسيج
ومن الحكم المحلى إلى الدواجن !

حزم عبدالعزيز حمدى حقائبه وطار إلى لندن فى نهاية سنة ١٩٤٨ والتحق بكلية الهندسة ليحصل على بكالوريوس فى هندسة النسيج . ومن ثم بعد عودته عمل مهندسا بشركة المحلة للغزل والنسيج . ألم أقل إنه من نسيج أصيل وقماش متين ؟!

كان هذا هو ثالث تغيير فى حياة عبدالعزيز حمدى .. ومازال فى جعبته المزيد . مكث بالمحلة ٧ سنين ، ثم انتقل للمشاركة فى إنشاء مصنع الجوت ببلبيس حين قضى به السنوات من ٥٩ حتى ١٩٦٨ .

وفجأة استدعاه عبدالمحسن أبوالنور وزير الاصلاح الزراعى وقطب الاتحاد الاشتراكى آنذاك ، « وفرض عليه » أن يعينه رئيسا لمدينة الزقازيق ! أى أنه عاد « موظفا » بالحكومة وبالحكم المحلى ، وإن كان فى صورة انتداب من وزارة الصناعة إلى وزارة الحكم المحلى . ولم يطب الحال لعبدالعزيز حمدى كثيرا .. فحين جاءه عقد شخصى من نيجيريا للعمل فى مصنع للجوت مماثل لمصنعنا ببلبيس لبّى على الفور وقضى فى ربوع نيجيريا وفى قلب القارة الافريقية السوداء ٥ سنوات من ١٩٧١ حتى ١٩٧٦ .

وأخيرا كانت « النقلة السابعة » فى حياته . استقال واستقل ! وأنشأ بعد عودته من نيجيريا مع عدد من خلصائه « الشركة الشرقية للدْواجن » بمزارعها الداجنة ومجازرها الآلية ومصانعها للعلف . أصبح عبدالعزيز حمدى سالم من عمد القطاع الخاص . وله قطاعه الخاص فهو يملك ٥١ ٪ من أسهم الشركة الشرقية للدواجن لا للدخان !

ترى ـ بعد هذه التحولات والتغييرات العديدة ـ هل نسى عبدالعزيز حمدى الوشائج القديمة بينه وبين مصر الفتاة ؟ أبدا .. فما من مرة من المرات التى ذهبت فيها إلى مقر حزب العمل الاشتراكى (حزب مصر الاشتراكى وحزب مصر الفتاة سابقا) سواء لأشارك مستمعا ، أو ملقيا قصيدة وطنية طويلة ، أو كلمة قومية قصيرة إلا ووجدت عبدالعزيز حمدى هناك كصاحب بيت ودعامة من دعامات الحزب مشعا بهدوئه وابتسامته العذبة ، وانكاره لذاته .

وهكذا تعددت مجالاته .

فانظر إلى تعدد أنشطة وحكايات دفعة سبتمبر ٤٢ التى تكاد تكون قد ملأت كل شبر من أديم هذه الأرض الطيبة .. و« لسّه »!

بارك الله فى عبد العزيز حمدى سالم .. وأكرم به رأسماليا اشتراكيا !

١٣

عبدالقادر ابراهيم عيد

كان أحد أشهر القادة القدامى فى الأنوار الكاشفة التى عمل عبدالقادر عيد بها وتحت قيادته المباشرة **هو الاميرالاى محمود بك صادق** وفى تلك الحقبة من الأربعينيات كان للبعثة البريطانية وضباطها الانجليز فى الجيش المصرى سطوة . ولم يكن محمود صادق يسير فى ركاب تلك السطوة ويأتمر بأمرها فحسب ، ولكنه أيضا كان يجاهر ويفاخر بأن الانجليز هم أرقى شعوب العالم ، وأنه من خدامهم المخلصين ! وما علينا من نوادر طويلة عريضة عن محمود صادق تدور حول استغلاله النفوذ وادعائه الفقر . ومن حسن حظى أننى على انتمائى للأنوار الكاشفة لم أعمل تحت القيادة المباشرة للأميرالاى محمود بك صادق .. فقد عزلتنى عنه السويس والاسماعيلية فى حين أنه قائم مثل « خيال المآتة » فى القاهرة . هل قلت « خيال المآتة » ؟ أظن أن أنسب تشبيه له هو ذلك الوصف الذى كان رجال الأحزاب السياسية فى العشرينيات والثلاثينيات يخلعونه على خصومهم بقولهم أنهم « بردعة الانجليز » نعم ، هكذا كان صادق بك على وجه الدقة .. غفر الله له وعفا عنه وعنا .

وفى واقعة شهيرة جرت فى اجتماع لضباط الأنوار الكاشفة بالقاهرة خلال منتصف الأربعينيات وقف قائد الآلالى الاميرالاى محمود بك صادق يعلن على رؤوس الأشهاد أن « الانجليز أسيادنا » وانبرى له **اليوزباشى سعد زايد** (محافظ القاهرة ووزير الاسكان فيما بعد) قائلا : لا .. ليسوا أسيادنا ! فكررها صادق بك : الانجليز أسيادنا ! فما كان من سعد زايد إلا أن قال له : هم أسيادك أنت لا أسيادنا ! وترك صادق بك الاجتماع على الفور إلى مكتب مدير المدفعية وقدّم ورقة صغيرة كتب فيها هذا الطلب حرفيا « اليوزباشى سعد زايد ينقل إلى سلاح المشاة » ! وكأن الطلب كان أمرا ، فقد صدرت نشرة بالفعل نُقل فيها سعد زايد إلى سلاح المشاة عقابا له على إبائه ورفضه أن يكون الانجليز المحتلون أسياده !

وفى نفس هذا الاطار جرت مناوشات بين عبدالقادر عيد ومحمود بك صادق ، ونتيجة لاختلاف وجهة النظر الوطنية لعبدالقادر عيد مع وجهة النظر الخانعة

المستسلمة التى يتمسح بها صادق بك فى تراب الانجليز . وعندما يضطهد ضابط كبير برتبة الاميرالاى ضابطا صغيرا برتبة الملازم الأول فى ذلك الزمان الملكى المستبد الاستعمارى فانه قادر على أن « يطلع على جتته البلا الأزرق » ! وكان من أهون وأمضى أسلحة العقاب أن يكتب عنه تقريرا سريا سيئا . ولثلاث سنوات متعاقبة كتب محمود بك صادق عن عبدالقادر عيد العبارة التالية « ضابط يحتاج إلى قيادة حازمة » ! أى بعبارة أخرى أنه « ضابط بايظ » يلزم تأديبه بالعقوبات . وحين حل الدور على عبدالقادر عيد للترقى إلى رتبة اليوزباشى فى ١٨ نوفمبر ١٩٤٨ أغفلوه فى الترقى مع أنها كانت أضخم حركة ترقيات فى سجل الجيش المصرى (خلال حملة فلسطين) شملت فى نشرة واحدة ترقية الثلث الأخير من الدفعة السابقة علينا وثلثى دفعتنا إلى رتبة اليوزباشى . ثم تخطوا عبدالقادر عيد فى حركة الترقيات التالية إلى رتبة اليوزباشى والتى صدرت فى أول فبراير سنة ١٩٤٩ واستكملت باقى دفعتنا وأوغلت فى الدفعة التالية لنا . ومن هنا لم يظهر اسم عبدالقادر عيد فى صورة صفحات كشف الجيش الذى حصلت عليها والتى تمثل الوضع فى أول سنة ١٩٥٠ .. وظهر اسم عبدالقادر عيد فى صفحات تالية (لم تكن آنذاك فى حوزتى) كأقدم ملازم أول ! ولم يسكت عبدالقادر عيد على هذا الضيم ، وتكلم مرة بعد أخرى ، وقال فى أحد تظلماته « ان تقارير صادق بك ليست حجة ضد عبدالقادر عيد بل ضد الأميرالاى محمود بك صادق نفسه ، فمؤداها المنطقى أن محمود صادق بك قائد غير حازم .. وإلا فما معنى أن مرؤوسيه يحتاجون إلى قيادة حازمة .. وهو قائدهم » ولأن الظلم الواقع على عبد القادر عيد ظلم مبين ، ولأن دفوعه فى رد الظلم وجيهة وناصعة ، ولأن صادق بك مع تنامى المشاعر الوطنية أخذ نجمه فى الأفول .. فقد ترقى عبد القادر عيد إلى رتبة اليوزباشى فى أوائل سنة ١٩٥٠ وأعيد إلى أقدميته فى دفعته .

ذلك تفسير ما لم أحط به علما ، ولم أستطع عليه صبرا !

وفى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ قامت ثورة الجيش الوطنية ضد الفساد والملك والاستعمار وأذناب الاستعمار من أمثال صادق بك .. فهل انتهت متاعب عبد القادر عيد ؟

بعد شهر واحد من محاكمة ضباط المدفعية فيما سمى مؤامرة ١٥ يناير ١٩٥٣ وصدور الأحكام عليهم بالسجن كانت للقضية المذكورة ذيول وملاحق ..

فجأة استدعوا اليوزباشى عبد القادر عيد ومعه بعض من ضباط المدفعية إلى مجلس تحقيق على مستوى عال مشكل من عبداللطيف بغدادى ، وزكريا محيى الدين وعبدالحكيم عامر ، وكمال الدين حسين .. غير أن كمال الدين حسين تنحى عن عضويته بمجلس التحقيق لأن أحد المتهمين يمت إليه بصلة القربى .. وهو زميل دفعتنا المرحوم **سعد شحاتة** .

والظاهر أن الاسهاب فى تناول أشخاص دفعة سبتمبر ٤٢ هو من نصيب أمين شاكر بوصفه أول دفعتى العامة ، ثم عبد القادر عيد بوصفه أول دفعتى الخاصة « متوسط ٧ » !

« يذبح » مجلس الثورة .. ثم يحرسه !

كان الاتهام الذى يتدارسه مجلس التحقيق هو ما تقدم به الصاغ حمزة أدهم من أن ثمة تنظيما بزعامة اليوزباشى عبد القادر عيد يضم ألفا من جنود الجيش ، وأنهم سوف يقومون « بذبح » أعضاء مجلس قيادة الثورة جميعا وإلقاء جثثهم فى النيل .. هكذا ! فى حين أن كل « مؤامرته » أنه كان يعترض على تطلعات وسيارات أعضاء مجلس قيادة الثورة فحسب !

وكان مجلس التحقيق واسع الصدر وهو يسمع الى « الزعيم » عبد القادر عيد الذى راح ينفى الاتهام ويفنده ويسفّهه ويتساءل : هل من المعقول أن يجرى انقلاب على تلك الصورة .. وهو غير قائم أصلا ؟ إن هذا القول الذى يدعيه حمزة أدهم لا يصدر إلا عن واحد من اثنين : إما كذاب أو مجنون خطر !

وتعاطف مجلس التحقيق مع المتهمين . واتصل عبدالحكيم عامر بجمال عبدالناصر فاتفقا على أنه لا أساس ولا مساس .. واذهبوا وأنتم الطلقاء !

كان اتهام عبدالقادر عيد بتدبير مؤامرة ذبح أعضاء مجلس قيادة الثورة .. مفاجأة ! وجاءت المفاجأة الأشد بعد تبرئته ، إذ أن عبدالحكيم عامر شخصيا أصدر قرارا فى ابريل سنة ١٩٥٣ بأن يتولى عبدالقادر عيد رئاسة القوة التى عليها حراسة مجلس قيادة الثورة ! ألم أقل إن حكاية عبدالقادر عيد حافلة بالمفارقات .. بصرف النظر عن أن قصد عبدالحكيم من هذا القرار تأكيد الثقة فى عبدالقادر !

وهناك فى حديقة مجلس قيادة الثورة حيث الهواء الطلق والفراغ استطاع عبدالقادر عيد المجتهد أن يستعد لدخول امتحان كلية أركان الحرب الذى نجح فيه والتحق بها ثم تخرج فى أخريات سنة ١٩٥٤ حيث عين مدرسا فى مدرسة الشئون الادارية سنة ١٩٥٥ .

بيد أن عبد القادر عيد هو عبد القادر عيد .. بلسانه المنفلت فى اندفاعاته واعتراضاته . وكانت محاكمات أعضاء جماعة الاخوان المسلمين تأخذ مجراها آنذاك إثر محاولة اغتيال عبدالناصر فى ميدان المنشية بالاسكندرية . أخذ عبد القادر عيد « يلسّن » فتقرر نقله وإبعاده إلى شرم الشيخ كرئيس أركان منطقة خليج العقبة . ولكن عبد القادر عيد أبدى عدم ارتياحه لهذا النقل المتسرع وخاصة أنه لم يكن قد مضى فى عمله مدرسا بمدرسة الشئون الادارية إلا بضعة شهور .

ويبدو أن عبدالحكيم كان قد أصفى الود لعبدالقادر فاستدعاه ـ بناء على تدخل زميل دفعتنا عباس رضوان ـ وطلبه إلى لقاء خاص فى منزله . لقاء ند ودود لند ودود . واستجاب عبدالحكيم لظروف عبدالقادر العائلية إلى حين .

كان عبدالقادر عيد قد تزوج منذ سنوات بابنة « بسكال » صاحب مصنع المياه الغازية المعروفة فى الاربعينيات .. وهو يونانى الأصل . وتحول عبدالقادر عيد إلى داعية إسلامى بين أسرة أصهاره .. وفى هدوء وحديث حلو جذاب واقناع ، مما جعل معظم أسرة بسكال تدخل فى دين الله أفواجا ! وفيما أعلم فإن هذا التأثير الكبير والصادر عن اقتناع فى التحول إلى الاسلام ليس له نظائر كثيرة بين الأسر غير المسلمة فى القرن العشرين . ومن هذا الفريق نذكر فؤاد الجزايرلى (المخرج وابن الممثل الكوميدى فوزى الجزايرلى) الذى أسلم لوجه الله وأدخل أسرته جميعا فى دين الاسلام .

وعندما كنت أصدر ديوانى الثانى « **لن نخون فلسطين** » أى بالتحديد فى مارس سنة ١٩٥٦ كان الرائد أركان حرب عبدالقادر عيد فى طريقه إلى شرم الشيخ حيث لن يخون مصر ولن يخون فلسطين فعلا لا شعرا فحسب !

هناك كانت ملاحم وبطولات ينبغى ألا يطويها التاريخ . وقد حاول عبدالقادر

عيد أن يسجلها ـ ضمنا ـ فى كتاب ولكن تعذر نشره ، وهأناذا أؤدى هذا الو
نيابة عنه .. وذلك أضعف الايمان ! هذا إذا قدر لى أن أتم حكايات سبتمبر
وأصدرها إن شاء الله .

كان قائد المنطقة العقيد رؤوف محفوظ زكى . وقائد الكتيبة الأساسية المقد
نجيب . أما عبد القادر عيد فكان رئيس الأركان . وكانت لديهم قوة دفاع جوى ف
٦ مدافع مضادة للطائرات ، ومجموع القوات ٢٥٠٠ جندى بتسليح غير م
وبعربات محدودة للدفاع عن منطقة مساحتها ٢٧ كيلو مترا مربعا . وبدأ ال
الثلاثى فى ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ ورأس الحربة فى تلك المنطقة ـ كما هو المتوق
أطماعها وأحقادها ـ هى اسرائيل .

ورغم ورود ثلاث إشارات متتالية بالانسحاب رفض عبدالقادر عيد الانسد

جمال الفقى .. سيد شهداء ١٩٥٦ !

وتوالت طلعات الطيران والغارات الجوية الاسرائيلية على قواتنا بشرم الش
وهنا يبرز دور واحد من أمجد وأخلد ضباط الجيش .. لو كنتم تعلمون

انه الملازم « محمد جمال الدين الفقى » (من عائلة الفقى بكمشيش المنوف
ولماذا لا ؟!) الذى أتى ـ بعون الله ـ بما يشبه المعجزات وليس البطولات وحـ
أقام ٣٦ مدفعا هيكليا .. أى من الخشب للتمويه . وتلك المدافع الهيكلية حملت و
الكثير جدا عن قواتنا هناك ، فقد ظن أعداؤنا أنها حقيقية وأوسعوها ضربا واسن
العديد من قنابلهم فى غير « المليان » أما مدافع جمال الدين الفقى الستة الـ
المضادة للطائرات فقد تصدى بها واستطاع اسقاط ست طائرات فعلا وليس
طريقة إذاعة صوت العرب فى عدوان يونيو ١٩٦٧ ، ولا على طريقة ج
« الجهاد » فى الحرب الايطالية الحبشية فى منتصف الثلاثينيات والتى « قتلت
بعناوينها وأخبارها « المفبركة » ـ عددا من الايطاليين يفوق تعداد ايطاليا
الامبراطورية الرومانية حتى ذلك الحين !

نعم .. أسقط الملازم محمد جمال الدين الفقى ـ وأكرر اسمه .. فاحـ
وترحموا عليه ـ ست طائرات اسرائيلية مغيرة منها اثنتان سقطتا فوق « شرم الش

نفسها لا فى البحر .. وتمكنت طائرات الانقاذ الاسرائيلية من استخلاص أحد الطيارين من الأرض إلى الجو . أما الطيار الاسرائيلى الثانى فقد وقع أسيرا فى يد قواتنا المصرية بشرم الشيخ . وكان اسمه « **داهو اتكس** » ووضعت قواتنا هذا الأسير الاسرائيلى فى احدى مراكب الصيد تحت حراسة ثلاثة من الجنود . ومرقت المركب الصغيرة فى مياه الخليج وسط الأسطول البريطانى هناك بقضة وقضيضة دون أن ينتبه إليها أحد حتى أوصلوا الأسير إلى القاهرة . وبين الاعتزاز بشجاعة جمال الفقى وبين الخجل من حصاد الأسرى الاسرائيليين فى عدوان سنة ١٩٥٦ أقول إن « داهو اتكس » كان الأسير الاسرائيلى الوحيد فى العدوان الثلاثى . وقد بودل هذا الأسير الاسرائيلى الوحيد بخمسة آلاف أسير مصرى ..

لم يكن محمد جمال الدين الفقى هو البطل المصرى الوحيد بطبيعة الحال ، فكم شهد خليج العقبة من بطولات عبدالقادر عيد وكثيرين غيره . ولقد نتوقف قليلا لدى بطولة ضابط بحرى استطاع وسط هذا الهجوم والحصار أن يستنفذ الفرقاطة التى كان يقودها ويصل بها سالمة إلى شواطىء المملكة العربية السعودية ، وللأسف لم تقدره قيادة قواتنا البحرية حق قدره .

غير أن « محمد جمال الدين الفقى » كان بطل الأبطال .. وحكايته لم تنته بعد .

إن جمال الفقى بعد أن تم تدمير مواقعنا الستة من جراء ضرب الطيران الاسرائيلى لها أربعة أيام متصلة ، احتل مع جنوده من قوة المدفعية المضادة للطائرات مواقع وخنادق الجنود والمشاة المصريين ليدافع معها حتى آخر طلقة فى واجهة هجوم برى للعدو الذى كان عدد قواته يفوق ستة أمثال قواتنا . ومع الضغط لا استسلام .

حتى الاشارة اللاسلكية التى وصلت إلى عبدالقادر عيد (وكان يتولى القيادة الفعلية فى شرم الشيخ) من رئاسة قواتنا بالقاهرة بضرورة الاستسلام طواها عبدالقادر عيد فى جيبه ولم يستسلم ، فهو من المؤمنين بقوله تعالى « ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة ، فقد باء بغضب من الله » .

ولكن المحظور وقع يوم ٥ نوفمبر سنة ١٩٥٦ ، فالكثرة تغلب الشجاعة . ووقعت حامية شرم الشيخ فى أسر القوات الاسرائيلية المعتدية .

ماذا فعل الملازم محمد جمال الدين الفقى فور وقوعه فى الأسر ؟
لم يرفع جمال الفقى يديه مستسلما وهو يتقدم من خندقه .. وإنما أخرج طبنجته (مسدسه) وصوبه إلى رأس الضابط الاسرائيلى الذى كان يختال فى زهو وشماتة لاستسلام الأسرى المصريين فأرداه جمال قتيلا . فما كان من الضابط الاسرائيلى التالى إلا أن أطلق عدة رصاصات على البطل المبرور والشهيد الكريم محمد جمال الدين الفقى « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون » صدق الله العظيم ..

ظل عبد القادر عيد فى أسر معتقلات اسرائيل حتى أواخر يناير ١٩٥٧ . وكعادتها فى الدعاية والادعاء عقدت المؤسسة العسكرية الاسرائيلية مؤتمرا صحفيا عالميا حضره العديد من المراسلين . وجاءوا بالضباط المصريين لتوجه الصحافة المحلية والعالمية أسئلتها إليهم . ولم يفت هذا عن فطنة عبد القادر عيد فقد توجه إلى المؤتمر الصحفى وقد أطلق لحيته وفى ثياب ممزقة ومنتعلا « الشبشب » وعندما سئل : هل عومل الضباط الأسرى المصريين معاملة طيبة ؟ أجاب : ان معاهدة جنيف تقضى بوجوب معاملة الضابط الأسير نفس معاملة الضابط فى الدولة الآسرة فهل يعامل ضباطهم على هذه الصورة التى أنا عليها ؟! وسألوه : وماذا عن الطعام والتغذية ؟ قال : إنها لم تكن تشبع طفلا فى الثالثة من عمره .. وضرب الأمثلة ! ثم سئل : هل تعتقد أن عبدالناصر رجل سلام ؟ أجاب : من الذى قام بالعدوان .. أوليست هى اسرائيل بالاشتراك مع انجلترا وفرنسا ؟ وهكذا وهكذا حتى لكأنما قلب المائدة فوق رؤوس المتباهين بالتحضر كذبا وزورا .

ولدى عودة عبد القادر عيد من الأسر إلى مصر واطلاع عبدالحكيم عامر على تفاصيل مواقفه منذ أن ذهب إلى شرم الشيخ فى مارس سنة ١٩٥٦ حتى عاد فى أوائل سنة ١٩٥٧ .. ازداد اعجاب عبدالحكيم بعبد القادر حتى أنه عيّنه مديرا لمكتبه لشئون العمليات والتدريب والمخابرات . ولم «ينغص » عليه عمله سوى أمثال شمس بدران وعلى شفيق .. وربما عبدالحكيم عامر أيضا ! .

وفى قرارة نفسه لم يكن عبد القادر عيد راضيا عن جوهر التقارب المصرى السوفييتى ولا عن القرارات الاشتراكية .. هو حر فى قرارة نفسه وفى رأيه . ولكن

يبدو أن لسانه يجر عليه وخيم العواقب . كذلك فإنه كمدير مكتب القائد العام لشئون العمليات قدّم اقتراحين أثارا عليه ثائرة « الحشاكيل » ! ففى أول الستينيات دبرت اسرائيل خطة ليلية لتصوير مطاراتنا الحربية بالقاء « فليرز » أى طلقات مضيئة ، وعادت إلى قواعدها سالمة لم يتصدَّ لها دفاع جوى . فكتب عبد القادر تقريرا يطالب فيه بتقوية الدفاع الجوى وبأن يتبع سلاح المدفعية المضادة للطائرات وليس سلاح الطيران كما كان معمولا بذلك آنذاك . نسخة من تقريره عنونها للمشير عامروصورة من التقرير بعث بها إلى جمال عبدالناصر من خلال سامى شرف مدير مكتب الرئيس لشئون المعلومات . واعتبر شمس بدران هذا المسلك من قبيل « **نشر الغسيل القذر** » أمام أعين الآخرين وأوغر صدر المشير عامر على عبد القادر عيد . كما أن عبد القادر عيد كتب تقريرا آخر مع تعاظم الأنباء عن توصل اسرائيل إلى اقامة مفاعل نووى بديمونة . واقترح إما أن نحصل على نظير له من الاتحاد السوفييتى وإما أن نبعث بقوة فدائيين انتحاريين من « الصاعقة » تتسلل إلى قلب النقب وتنسف المفاعل .. الخ .

مؤامرة ومحاكمة .. سرى جدا !

ومن ثم ، ومن لقاءات لعبد القادر عيد ببعض المدنيين من أمثال الدكتور **مصطفى كمال وصفى والمهندس عمر مرعى** ، وببعض العسكريين منهم **زكى منصور وعبدالعزيز فهمى واسماعيل ثروت وابراهيم حسان زيادة واحمد عبدالله** (والأخيران شاهدا ملك !) ومن دردشات هنا ومن تحركات واندفاعات هناك وجهت إلى عبد القادر عيد وإلى زملائه تهمة التآمر لقلب نظام الحكم . وقضت المحكمة بالأشغال الشاقة المؤبدة عليهم جميعا .

كانت المحكمة مشكلة برئاسة « متعهد » المحاكمات العسكرية فى الستينيات : الفريق فؤاد الدجوى ! وحين سأل الفريق فؤاد الدجوى المقدم عبد القادر عيد فى بداية المحاكمة السؤال التقليدى : هل لديك اعتراض على تشكيل المحكمة برئاستى (أى برئاسة الفريق الدجوى)؟ أجاب عبد القادر عيد بثبات وشجاعة : نعم أعترض ! كيف تحاكمنى أنت أيها الفريق الدجوى وأنت الذى سلّمت نفسك كحاكم ادارى لمدينة غزة واستسلمت دون أية مقاومة فى حين أننى وقفت فى شرم الشيخ أدافع عن مواقعى حتى آخر طلقة ؟!

وتجاهل الفريق الدجوى الاعتراض والعبارات الجارحة ، ولم يثبتها ومضى فى المحاكمة ..

وقيل إنه اعترف وانهم اعترفوا .. ولكن تحت أية ظروف ؟ وأى اعتراف هذا الذى يتم تحت ضغط التهديد والوعيد والتعذيب .

إن عبد القادر عيد يذكر فى ألم لافح كيف أن « صديقه » المشير عبدالحكيم عامر هدده وهو فى السجن إن لم يعترف فانه ـ كما قال بالحرف الواحد ـ سوف يجعله يسمع صراخ أولاده !

المدهش أن الصحف المصرية آنذاك لم تنشر سطرا واحدا لا عن المؤامرة « المزعومة » ولا عن المحاكمة « المدعومة » ولا عن الاحكام « المحتومة » .. كله سرى جدا ! وكأن الذى جرى إنما كان يجرى بعيدا ويخص « أليس فى بلاد العجائب » !

وقضى عبد القادر عيد وزملاؤه مدنيين وعسكريين فى السجن ٢٥ شهرا ثم افرجوا عنهم جميعا ووضعوهم تحت المراقبة الطويلة .

غير أن عبد القادر عيد كما لا ينسى تهديدات وضراوة عبدالحكيم عامر سنة ١٩٦٢ خلال حكاية المؤامرة والمحاكمة فانه لا ينسىٰ لعبدالحكيم عامر موقفا كريما حين علم بأن ابن عبد القادر عيد مريض بمرض عضال بين الحياة والموت فى سنة ١٩٦٦ فأوفد الولد المريض مع مرافق من أسرته إلى انجلترا حيث أسعف وتم شفاؤه .

وبين هاتين الحادثتين ـ حادثة التهديد بتعذيب الأولاد وحادثة علاج أحد الأولاد ـ شيء يشبه « الأعراف » الواقعة بين الجحيم والنعيم والجنة والنار فى الآخرة .

وذلك أن عبدالحكيم عامر عندما لقى عبد القادر عيد بعد الافراج عنه فى سنة ١٩٦٤ قال له عبدالحكيم : « لا تظن أنك أنت الذى أكلوه .. أنا الذى أكلوه » ! والتعليق من عندى أكتبه هنا : يا سيدى على الدرر والحِكَم ، والأهواء والذاتية !

ومن أعجب ما سمعت أنه حين تم إلقاء القبض على عبد القادر عيد وزجوا به فى مبنى المخابرات العامة زاره **صلاح نصر** رئيس المخابرات ، وأخذ يحادثه بنعومة . ثم فجأة التفت إليه قائلا : يا عبد القادر .. قل فى أقوالك إن **عبد القادر حاتم** كان مشتركا معكم فى المؤامرة ، وأنا أعدك بتخفيف الحكم عليك ! وأجابه عبد القادر عيد قائلا : والله لا أفترى على الله كذبا .

هكذا كان النزاع والصراع على السلطة ، وكانت الغيرة والحسد لأن فلانا أو علانا أخذ « يلمع » ! هكذا كانت محاولة الايقاع بالناس .. أى ناس ، لتصفية حسابات ولأغراض شخصية .

ومن هذه النماذج كثير وكثير فى التاريخ السرى لتلك المرحلة ..

والسؤال الذى يصرخ هنا هو : كيف كانت تحكم مصر ؟ ومن الذين كانوا يحكمونها ؟

ما كان أكثر كيد هؤلاء لهؤلاء ، ودس أولاء لأولئك .

نعم .. فإننا لا نعرف من الظالم ومن المظلوم منهم .. فكلهم ظالم ومظلوم !

أكان جميعهم ينادون بالحرية .. ويفترسونها ، ويبدون الزهد فى السلطة .. ويصطرعون عليها ، ومصر فى جميع الحالات هى الضحية ؟

وذهب المشير عبدالحكيم عامر بحسناته وسيئاته ، وذهب الرئيس جمال عبدالناصر بايجابياته وسلبياته ، وبقى عبد القادر عيد يجتر ذكرياته وحكاياته .

الاستئناف يحكى ويصحح بعد ٢٠ سنة !

على أن « فصل الخطاب » فى قضية مؤامرة عبد القادر عيد لقلب نظام الحكم نشر فى عدد جريدة « الاهـرام » الصادر بتاريخ ٤ يونيو سنة ١٩٨٣ وتحت العنوان التالى على ثلاثة أعمدة « ٢٠ ألف جنيه تعويض فى قضية تعذيب اللواء عبد القادر عيد » .

وهذا هو نص الخبر المشتمل على الحكم والحيثيات والمنشور بالأهرام .. وفيها « طرائف » لم أعرض لها فى السطور السابقة وتركتها للحيثيات : « **أصدرت محكمة**

استئناف القاهرة حكمها فى قضية اللواء عبد القادر عيد . قضت المحكمة بالزام رئيس الجمهورية ونائب رئيس الوزراء ووزير الدفاع ورئيس المخابرات العامة متضامنين بدفع مبلغ ٢٠ ألف جنيه للواء عيد وأسرته تعويضا له عما لقيه من تعذيب عام ١٩٦٢ بدعوى تدبيره لانقلاب ضد نظام الحكم ، والادعاء بوفاته لأنه طالب بتقديس حرية المواطنين . قالت المحكمة أن المدعى قد لاقى صنوفا من التعذيب تقشعر منها الأبدان ، وإهدار لآدميته بطريقة تشيب منها الولدان ! وما واكب ذلك من آلام نفسية وأحزان .. مع أنه كان من خيرة الضباط بالقوات المسلحة فى ذلك الوقت وأدى دورا بارزا فى حرب ١٩٥٦ ورفض ٣ أوامر بالانسحاب من منطقة خليج العقبة . وصمم على القتال حتى آخر رجل مما دعا القائد العام للقوات المسلحة فى ذلك الوقت إلى تعيينه مديرا لمكتبه . وتمثّل التعذيب فى ضربه بالسياط والعصى ووضعه تحت الدش الكهربائى وآلة الرعش الكهربائى والكرسى الكهربائى وحقنه بالنخاع الشوكى ، واحتلال فصيلة عسكرية لمسكنه ، وانتهاك حرمته لاكراهه على توقيع إقرار بتزعمه تنظيما يضم مجموعة من كبار العسكريين والمدنيين ورجال الدين لقلب نظام الحكم » .

« وكان اللواء عبد القادر عيد قد أقام منذ سنوات دعوى يطالب فيها بتعويضه هو وأسرته ماديا وأدبيا عما لاقوه من تعذيب على أيدى مراكز القوى عام ١٩٦٢ . وتضمنت دعواه انه إثر الانفصال السورى عن مصر والحالة التى كانت عليها البلاد رفع مذكرة للرئيس الراحل جمال عبدالناصر والمشير عبدالحكيم عامر يطالب فيها بعدة اصلاحات من بينها الأخذ من الاشتراكية بما يتمشى مع الاسلام ، وتقديس حرية المواطنين ، والبعد عن التكتلات السياسية شرقا وغربا . وفوجىء فى ٢٥ مايو سنة ١٩٦٢ بأفراد الشرطة العسكرية يقتحمون منزله ويحطمون أثاثه ويعتقلونه مكبّلا بالحديد ومعصوب العينين لمبنى المخابرات العامة حيث كان فريسة لكل أنواع التعذيب وحيث اتهمته مراكز القوى فى ذلك الوقت بأنه يدبر ثورة مضادة لنظام الحكم .

ثم أحالوه لمحكمة الدجوى مع عدد من زملائه فقضت عليهم بالأشغال الشاقة المؤبدة ، وادّعوا ـ بقرارات رسمية ـ وفاته وصرف معاشه لأرملته مع أنه حى يرزق .

وعندما نظرت دعوى التعويض أمام محكمة استئناف القاهرة برئاسة المستشار توفيق العلايلى نائب رئيس المحكمة وعضوية المستشارين محمد برهان الدين حسين وحسن محمد صقر وأمانة سر الباحث القانونى عبدالحميد عسران ، شهد ثمانية شهود بأن اللواء عيد رفض منصب الوزارة مرتين عام ١٩٥٩ و١٩٦١ تمسكا بعسكريته وانه كان بطلا فى حرب ١٩٥٦ واعتقل بواسطة المخابرات العامة عام ١٩٦٢ إثر تقديمه مذكرة لاصلاح بعض الأوضاع العامة ، ونال الكثير من صنوف التعذيب المادى والمعنوى . فقضت المحكمة بعد استعراض جميع عناصر الدعوى بمبلغ ١٢ ألف جنيه له و٨ آلاف جنيه لأسرته عما لحقهم من أضرار مادية وأدبية ! »

فهل عوّض هذا الحكم الدافع بالحق عبدالقادر عيد عن أذى وأضرار أثّرت على نفسيته ؟

سبحان الذى تفرد بواسع مغفرته ! فإن النفس البشرية هى النفس البشرية . ذلك أنه رغم هذا الحكم والتعويض ورغم إيمان وصبر يتحلى بهما عبدالقادر عيد فقد لمست أن قلبه ينبض أسى ولسانه يقطر مرارة !

١٤

كمال الدين حسن على

دفعة سبتمبر ١٩٤٢ « الولاّدة » أنجبت أحد رؤساء الوزارات فى مصر .. وكان هو نفسه « كمال الدين حسن على » .

وبعد اللواء الشاعر محمود سامى البارودى باشا الذى تولى رئاسة الوزارة قبيل ثورة عرابى لم يتولّ أحد من العسكريين رئاسة وزراء مصر إلا بعد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . تولاها أولا اللواء محمد نجيب . ثم تلاه - ولمرات عديدة - جمال عبدالناصر (من دفعة مصطفى لطفى) ثم كمال الدين حسين (من دفعة مطاوع) الذى تولى منصب رئيس الوزارة التنفيذية بالاقليم المصرى لمرحلة خلال فترة الوحدة مع سوريا . ثم فى سنة ١٩٦٥ تولى رئاسة مجلس الوزراء زكريا محيى الدين (من دفعة حسين ذوالفقار صبرى وعبدالمنعم رياض) ثم فى سنة ١٩٦٦ تولى رئاسة الوزراء على صبرى (من دفعة عجاج) ثم تلاه وحتى منتصف يونيو ١٩٦٧ محمد

صدقى سليمان (وهو من الضباط المهندسين) ثم لمرات عديدة وبعد توليه رئاسة الجمهورية أنور السادات (من دفعة حسين صبرى) ثم محمد حسنى مبارك (من دفعة محمود شاكر عبدالمنعم) بعد توليه رئاسة الجمهورية فى أكتوبر ١٩٨١ . وأخيرا كمال الدين حسن على من دفعتنا .. دفعة أمين شاكر .

ولا أظن أن كمال حسن على وهو طالب فى الكلية ثم حين تخرج بها ثم حين عمل ضابطا فى وحدات الجيش المصرى جمح به الخيال قط أو حلم بأنه سيتولى منصب رئيس الوزراء .

ولماذا أقصر عليه تلك العبارة السابقة ، فما يصدق عليه يصدق على محمد نجيب وجمال عبدالناصر وكمال الدين حسين وزكريا محيى الدين وعلى صبرى وصدقى سليمان وأنور السادات وحسنى مبارك .

فلولا ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ لكانت رئاسة الوزراء بعيدة عن هؤلاء جميعا بعد المشرقين !

وأحسب أن من حق دفعة سبتمبر ٤٢ أن تسعد وتعتز بأن أحد أبنائها تولى رئاسة الوزراء فى مصر ، فهو أعلى منصب تنفيذى .. صاحب دولة أو صاحب مقام رفيع بألقاب ما قبل الثورة !

ولعل كمال حسن على « مدين » لسلاح الفرسان (المدرعات) بأنه أحسن تقديمه للقوات المسلحة ، ثم تولى جهده هو وظروفه الباقى ! بمعنى أن « المحطة الثانية » فى حياته هى التى هيأت له ما هيأت . ذلك أن سلاح الفرسان لم يكن « المحطة الأولى » وإنما كانت الكتيبة الأولى م . م .م . (م . م . م .. اختصار مدافع ماكينة مشاة !) التى تخرّج من الكلية الحربية إليها ثم انتقل فى أواسط الأربعينيات إلى الفرسان المدرعات ، ولولا الفرسان ما برز الفارس العميد كمال حسن على كأحد أبطال حرب ١٩٦٧ (وكاد يهلك فيها) ثم توالت المناصب التى أوصلته فى نهاية المطاف إلى قمة الجهاز التنفيذى .

وقبل أن نلتقط بعض عناوين رئيسية عن تاريخه قبل الوزارة ، فلنقف عند وصف صادق لمجلة « الصياد » اللبنانية لكمال حسن على وهو رئيس للوزراء حين

راحت تقدّم لحديث صحفى معه قائلة :

كمال حسن على .. دائب العمل (صحيح) .. نظيف اليد (صحيح) .. واسع الصدر (صحيح) .. يبذل جهدا كبيرا (صحيح) .. ويظل هادئا (صحيح) .. يقظ الذاكرة (صحيح) .. يتمتع بروح الدعابة العالية (صحيح) ..

أغنتنى مجلة الصياد عن استعراض أهم صفات الزميل الصديق العزيز كمال الدين حسن على .. شكرا لها !

وتعالوا نلقى نظرة على « المحطات » الهامة التى تنقل بينها قطار كمال حسن على ..

تاريخ حافل حتى رئاسة الوزارة

- فى سنة ١٩٤٨ اشترك فى حرب فلسطين وكان قائد سرية وأصيب فى معركة دير البلح فى ذراعه اليسرى .
- ومن سنة ١٩٤٩ إلى ١٩٥٠ درس فى مدرسة المدرعات ببرمنجتون فى انجلترا .
- وتخرج من كلية أركان الحرب سنة ١٩٥٦ وتولى أركان حرب عمليات الاحتياطى الاستراتيجى لمصر فى عدوان ١٩٥٦ الثلاثى .
- وبين عامى ١٩٥٨ و١٩٥٩ درس فى الاتحاد السوفييتى دورة قادة لواءات وفرق ، وتولى فى فترة الوحدة بين مصر وسوريا رئاسة أركان حرب اللواء المدرع ٧٠ فى سوريا ، وبعد الانفصال عاد ليعمل مدرسا بكلية أركان الحرب فى القاهرة .
- وبين عامى ١٩٦٤ و١٩٦٥ عمل مديرا لعمليات القوات المصرية فى اليمن ، وأصيب فى كتفه نتيجة سقوط طائرة هليكوبتر كان يستقلها .
- وفى عدوان يونيو ١٩٦٧ قاد اللواء المدرع فى عمليات المضايق « الانتحارية » ..
- وفى حرب الاستنزاف سنة ١٩٦٩ عيّن قائدا لفرقة مدرعة فى الجبهة المصرية .
- وفى معركة أكتوبر ١٩٧٣ كان مديرا لأركان المدرعات .



الفريق أول كمال حسن على نائب رئيس الوزراء ووزير الدفاع سنة ١٩٨٠ يتحدث إلى الفريق أحمد بدوى رئيس هيئة أركان حرب الجيش .. وظهر خلفهما اللواء (الفريق) يوسف صبرى أبو طالب الذى أصبح وزيراً للدفاع سنة ١٩٨٩ .

■ ثم فى مايو ١٩٧٥ عيّن مساعدا لوزير الحربية ولكنه لم يلبث طويلا فى هذا المنصب « الشرفى » ، ففى يوليو من نفس السنة عيّن كمال حسن على رئيسا للمخابرات العامة .. وكأن المخابرات العامة ـ كما أسلفت القول ـ هى « مركز التأهيل » للارتقاء الجليل ! فبعد ثلاث سنوات وبالتحديد فى ٥ أكتوبر ١٩٧٨ ـ أى قبل العرض العسكرى السنوى بيوم واحد ـ عين كمال الدين وزيرا للدفاع والانتاج الحربى .. وهو المنصب الذى كان يشغله المشير محمد عبدالغنى الجمسى (مدرعات أيضا) .

■ وفى مايو ١٩٧٩ رقى كمال حسن على إلى رتبة « فريق أول » وشُغل برئاسة

اللجنة العسكرية المشتركة فى حيفا لتقييم مراحل الانسحاب بعد توقيع المعاهدة المصرية الاسرائيلية .

- وبعد اغتيال الرئيس الراحل أنور السادات وانتخاب الرئيس حسنى مبارك رئيسا للجمهورية وتشكيله وزارته فى ١٥ أكتوبر سنة ١٩٨١ عيّن كمال الدين حسن على نائبا لرئيس الوزراء ووزيرا للخارجية .. وكان هذا هو أول المناصب « المدنية » التى شغلها ، أى أنه استمر فى الحياة العسكرية إلى ما بعد سن الستين بشهر واحد ، وأعتقد أن هذا رقم قياسى لطول البقاء فى القوات المسلحة حققه ضابط من دفعة سبتمبر ٤٢ ، بل من أية دفعة أخرى .. ما أقوى تحمله وجلده وصبره !
- ثم فى ١٦ يوليو سنة ١٩٨٤ اختار الرئيس محمد حسنى مبارك .. كمال حسن على رئيسا للوزراء خلفا للمرحوم الدكتور فؤاد محيى الدين الذى صعدت روحه إلى بارئها يوم ٥ يونيو ١٩٨٤ بعد ١٧ سنة من يوم النكسة التى لا تنسى .
- ظل كمال حسن على رئيسا للوزراء حتى استقال فى ٤ سبتمبر سنة ١٩٨٥ أى أن وزارته أمضت فى الحكم عاما و٤٥ يوما . وفى خطاب قبوله الاستقالة أشاد بجهوده الكبيرة الرئيس حسنى مبارك ثم منحه « وشاح النيل » وبعد أيام كان كمال حسن على فى طريقه إلى سويسرا للعلاج من مرض « الروماتويد » الذى طالما عانى منه وتحمله بصبر أيوب ! وتفرغ كمال حسن على لكتابة مذكراته تحت عنوان « محاربون ومفاوضون » نشرتها جريدة الأهرام مسلسلة على صفحاتها ثم أصدرتها فى كتاب بحلول ٦ أكتوبر سنة ١٩٨٦ .

وإننى لأحب كمال حسن على حقا ، وأعجب باتزانه وبساطته ودأبه ، وأشيد بقدراته التى فاجأ بها حتى أبناء دفعته وهو رئيس للوزراء فى ظروف سياسية واجتماعية واقتصادية عصيبة واجهها بثبات وكفاءة .

ولقد أرى ألا يتولى أى رئيس وزراء أو وزير فى مصر ـ ولفترة ثلاث سنوات على الأقل ـ العمل فى قطاعات المال والتجارة أو المؤسسات الأجنبية داخل مصر . لا مانع طبعا من أن يعودوا أساتذة غير متفرغين فى الكليات الجامعية . بل يمكن أن تستعين بهم الهيئات الدولية فى الخارج إذا كانوا مبرّزين فى تخصص معيّن .

أما هذا « الخلط » الذى بات متبعا .. من البنوك إلى الوزارة وبالعكس دون قيد أو شرط فمسألة فيها نظر ..

ومع تمسكى وإيمانى بهذا الرأى الأصوب فقد أكون تقبلت تعيين كمال حسن على رئيسا للبنك المصرى الخليجى بعد شهور قليلة من استقالة وزارته . فمن ناحية .. هذا الرجل النزيه قد اكتسب دراية ملحوظة وشاملة - على الأخص فى ممارسته لعمله وزيرا للخارجية ورئيسا للوزراء - قد تؤهله لادارة بنك انجلترا نفسه لا البنك المصرى الخليجى فحسب ! ومن ناحية أخرى أعترف أن بى ضعفا لدفعة سبتمبر ٤٢ وعين رضا !

على أى حال فإننى إذا كنت أهنىء كمال حسن على وأثق فى تجرده وأتمنى له التوفيق فى كل عمل يتولاه وأدعو له بالعافية ، فإننى لأود أن نلتزم بالأعراف وروح الدستور .

وتحية من دفعة سبتمبر ١٩٤٢ إلى كمال حسن على الذى انضم - بالأصالة عن نفسه وبالنيابة عن دفعته « إلى نادى رؤساء الوزارات » المحدود الأعضاء فى تاريخ مصر ! لقد تشرف كمال حسن على بعضوية هذا النادى المرموق ، كما شرف به هذا النادى العريق !

١٥

محمد مصطفى داود

أما أن « الحظ » عامل من العوامل الأساسية التى تلعب أدوارا وأدوارا فى حياة الناس فذلك ما نراه رأى العين . ولكنى أؤمن أيضا بحديث رسول الله ﷺ « اعملوا .. فكلّ ميسّر لما خُلق له » . وأؤمن أن الاجتهاد يؤدى دورا ، والنزوات تؤدى دورا ، والمفارقات القدرية لها دور ..

ومحمد مصطفى داود زميل عزيز حبيب من زملاء الدفعة والمدفعية والأنوار الكاشفة ، وهو واحد من أقرب المقربين فى « شلتنا » على قصر المدة التى عملنا فيها معا .

وكان لداود طابع « المعلمين الثقال » من أولاد البلد ! كلامه البطيء المتثاقل .. ضحكاته العالية الصاخبة .. « وجدعنته » !

وقد كان عاما ٦٥ / ١٩٦٦ هما عامي القضايا والمحاكمات . قضية الاخوان المسلمين وسيد قطب (كلاكيت ٣ ! الأولى فى اغتيال الخازندار والنقراشى سنة ١٩٤٨ . والثانية فى محاولة اغتيال جمال عبدالناصر فى المنشية سنة ١٩٥٤ . والثالثة هذه عن خطة ـ كما قيل ـ لاغتيال عبدالناصر من ربوة محل « اندريا للفراخ المشوية » الذى كان قائما أمام منحنى الكورنيش بعد المنتزة حيث يتباطأ سير موكب عبدالناصر فى هذا الطريق الموصل إلى مصيفه بالمعمورة) ! قضية « تخابر » مصطفى أمين مع الأمريكيين ! قضية مصطفى أغا المحامى وشركاه ! قضية حسين توفيق لقلب نظام الحكم ومعه ـ كالعادة ـ شقيقه سعيد توفيق واثنا عشر متهما آخرين أبرزهم من ضباط الجيش هذا المقاتل الوطنى المجاهد الكبير المرحوم معروف الحضرى ومصطفى راغب !

وكان من نصيب زميلنا محمد مصطفى داود أن يكون المتهم الرابع فى قضية مصطفى أغا المحامى المتهم بتشكيل تنظيم سرى تحت اسم « **الحزب الشيوعى العربى** » وهدفه ـ كما قيل ـ قلب نظام الحكم بالقوة واقامة ما أسموه الجمهورية العربية الشعبية ! ويمضى الاتهام فيزعم أن مصطفى أغا المحامى كان يدبر لتولى رئاسة الجمهورية والقيادة العامة للقوات المسلحة على أن يأتى بالعقيد محمد مصطفى داود نائبا له فى المنصبين ! وفى سنة ١٩٦٦ مثل الأحد عشر متهما فى قضية مصطفى أغا أمام محكمة أمن الدولة العسكرية برئاسة اللواء حسن التميمى . وصدر الحكم فى ٨ سبتمبر ١٩٦٦ بالمؤبد للمحامى مصطفى أغا ، وبالأشغال الشاقة بين ١٥ سنة و٥ سنين لسبعة متهمين ، وببراءة العقيد محمد مصطفى داود واثنين آخرين ..

ولكن براءة العقيد محمد مصطفى داود لم تكن تعنى عودته إلى القوات المسلحة (التى أتهم بأنه سيعين نائبا لقائدها العام !) وإنما صحبتها إحالة إلى المعاش .

ماذا فعل محمد مصطفى داود وقد أصبح « فى الشارع » بين غمضة عين وانتباهتها أو بين اتهام قضية وبراءتها ؟

أخذ يفكر ويفكر .. ثم تذكّر أنه « معلم » من المعلمين الثقال فاختار أقصر الطرق . فتح مقهى فى باب اللوق .. والعمل ـ أى عمل شريف ـ شرف . العمل واجب . العمل عبادة ... أولم يكن هذا هو الشعار « المتداول » فى العهد والميثاق فضلا عن كونه حقيقة ؟

وهكذا .. « ثم السبيل يسّره . ثم أماته فأقبره » ..

فإن هى إلا سنوات معدودة حتى انتقل إلى عالم آخر ..

اختار الله عبده محمد مصطفى عبدالحميد داود إلى جواره .. رحمة الله عليه .

١٦

محمد أبوالفضل الجيزاوى

إنسان مخلوق للاحتدام ..

جمال عبدالناصر انضم إلى مصر الفتاة فى شبابه وتأثر بأحمد حسين على صورة ما .. أما محمد أبوالفضل الجيزاوى فيكاد يعد « أحمد حسين » نفسه ! لا لأن أبا الفضل انضم فى صباه إلى الوفد وإلى مصر الفتاة معا وتأثر بأحمد حسين فحسب .. فالكثيرون منا فعلوا وتأثروا ، وإنما لأن محمد أبوالفضل الجيزاوى ـ مثل أحمد حسين فى شبابه ورجولته ـ مفطور ومخلوق فى حالة احتدام دائم لا يكل ولا يمل ! كذلك فإن أبا الفضل بطبيعته « **ثورجى** » (وهى صيغة مبالغة كأن نقول عن شخص شديد النبوغ إنه نابغة لا مجرد نابغ) ، ثائر على الأوضاع ، مطالب بالتغيير ، هائج مهيِّج !

ومحمد أبوالفضل الجيزاوى يتكلم بأعصابه .. وقد يمر اليوم ٢٤ ساعة وهو يتكلم بنفس القوة ونفس الحماس ولا يسأم !

ومحمد أبوالفضل الجيزاوى بالغ التطرف سواء أكانت القضايا التى عرض لها خلال فتوته فيها شبهة الديكتاتورية ، أو إذا كان ـ كما عاش منذ زمن بعيد وكما هو الآن ـ داعية من أكبر وأخلص وأدأب دعاة الحرية والديموقراطية .

جمال عبدالناصر يعتقله مرتين
فيظل أبوالفضل على حبه دائما !

وأبوالفضل عاطفيّ وفيّ . يميل إلى الوفد « بالوراثة » ثم يختلف معه اجتماعيا ، ولكن يظل يجلّ النحاس باشا . ينضم ويتأثر بأحمد حسين ثم يختلف معه ويبتعد عنه .. ولكنه يبقى على حبه . ويتخذ جمال عبدالناصر زعيما شخصيا له ، ثم يختلف معه وينتقده فيتعرض لبطش مسخَّر ضده ـ أى ضد الجيزاوى ـ إلى درجة الاعتقال لمدة ثمانية شهور سنة ١٩٦٣ . ولمدة ثمانية عشر شهرا من منتصف سنة ١٩٦٨ .. ولكنّ أبا الفضل رغم كل شيء يحافظ على حبه.لعبدالناصر والدفاع عنه ، وخاصة بعد رحيله ونهش الناهشين فى شخصه وسيرته ، ويرى فى عبدالناصر دائما رمزا للوطنية والتحرير . ومحمد أبوالفضل الجيزاوى من خلية كمال الدين حسين فى تنظيم الضباط الأحرار ومن عشاقه ومن ضحايا الاضطهاد والذى وقع على كمال الدين حسين ، ثم يختلف أبوالفضل معه بعد ذلك فى مسائل أو أخرى ويتباعد .. ولكن تظل لكمال الدين حسين مكانته العزيزة فى قلب أبى الفضل ! ومحمد أبوالفضل الجيزاوى ينخرط فى جماعة الاخوان المسلمين ثلاث سنوات بين منتصف الأربعينيات ويعمل فى الجناح العسكرى لتنظيم الاخوان ، ثم يتركهم بأمر عبدالناصر إلى تنظيم الضباط الأحرار ، ثم يجافيهم بعد الصدام بينهم وبين ثورة يوليو ، ولكنه « يقدس » دائما ذكرى حسن البنا ! ومحمد أبوالفضل الجيزاوى يحالف « الشيوعيين » المصريين ثم يختلف معهم ولكنه لا يترسم أعمالهم ولا يعاديهم ! ومحمد أبوالفضل الجيزاوى ينضم إلى حزب العمل الاشتراكى ويحترم جهاد ونقاء ابراهيم شكرى زعيم الحزب ، ثم يختلف مع الحزب ولكن احترامه لابراهيم شكرى لا يهتز !

ذلك أن محمد أبوالفضل الجيزاوى على ثوريته المحتدمة ، وعلى وفرة اختلافاته لا هو باحث عن « دور قيادى شخصى » له ، ولا هو ألد الخصام إلا فى مواجهة الاستعمار والصهيونية .

ومحمد أبوالفضل الجيزاوى مقاتل جسور . يحارب فى فلسطين سنة ١٩٤٨ ويرفع رأس مصر والجيش والمدفعية ودفعة سبتمبر ٤٢ عاليا ، ويكافيء بترقيته استثنائيا لتصبح أقدميته بعد محمد كمال الدين الخولى وقبل يحيى محمود فهمى وكمال الدين رفعت فى كشف الجيش .

ثم وهو محام يقاتل ويناضل ويتصدى للقضايا السياسية وللدفاع عن الحريات والديموقراطية ، ويطعن أمام المحاكم بتزوير الانتخابات .. وبالأدلة . ويعكف على حصر المخالفات الدستورية على أعلى المستويات فى دراسة دقيقة مستفيضة ليفجرها قنبلة مدوية .. فأبوالفضل لا يؤمن بالمستحيل ولا يستكين للقهر ! إنه من أكثر المحامين المصريين إحداثا للضجيج وللاعتراضات بعد عبدالحليم رمضان المحامى !

وإن المرء ـ أى امرىء واع منصف ـ إذا تابع مسيرة محمد أبوالفضل الجيزاوى لا يملك سوى الاعجاب به فى مختلف حالاته ، أو على الأقل يتعاطف معه ويقدره حق قدره كصاحب مواقف جسورة ومبادىء تنضج مع نضوجه !

١٧

عباس عبد الوهاب رضوان

عباس رضوان من مواليد الحرانية مركز الجيزة سنة ١٩٢١ . حصل على شهادة كلية أركان الحرب سنة ١٩٥١ . كان يعمل معلما بمدرسة المشاة عند قيام ثورة ٢٣ يوليو . عين نائبا لمدير المخابرات العامة سنة ١٩٥٨ . وفى نفس السنة (١٩٥٨) عيّن وزير دولة ثم وزير داخلية تنفيذى بعد الوحدة . وفى سنة ١٩٦٤ عين نائبا لرئيس الوزراء للادارة المحلية والخدمات . ويشرف على وزارة التربية والتعليم ووزارة الشئون الاجتماعية ووزارة الاسكان والمرافق . وخرج فى التعديل الوزارى عند تعيين زكريا محيى الدين رئيسا للوزراء فى يناير ١٩٦٥ . ثم صدر قرار جمهورى بأن يكون له بصفته عضوا فى اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكى متفرغا للعمل السياسى .. نفس المرتب وبدل التمثيل المقرر لمنصب نائب رئيس الوزراء . وعيّن أمينا للوجه القبلى .

أما الكثير جدا من أوراق ملف عباس رضوان فى أرشيف قسم المعلومات بالأهرام فليست تحركاته ونشاطه وتصريحاته خلال أعماله ومناصبه المشار إليها آنفا ، وإنما هذا السيل العرم من قصاصات الصحف التى كانت تنشر تفاصيل جلسات محاكمته فى قضية المؤامرة الكبرى كما سميت (قضية المشير عبد الحكيم عامر) والتى كان المتهم الأول فيها شمس بدران والمتهم الثانى عباس رضوان .. الخ .

وكان يرأس المحكمة حسين الشافعى . وطالت الجلسات والاتهامات والأسئلة والسخريات ومرافعات النيابة والدفاع من ٢٢ يناير ٦٨ حتى ١٥ أبريل سنة ١٩٦٨ . وصدرت الأحكام فى أغسطس ١٩٦٨ بالأشغال الشاقة المؤبدة على المتهمين الخمسة الأوائل وهم شمس بدران وعباس رضوان وصلاح نصر وجلال هريدى وعثمان نصار ، وعلى المتهمين التالين بأحكام أقل من المؤبد ..

خطبة عجيبة لجمال عبد الناصر وكأنها دفاع عن الثورة المضادة !

وقد استرعى انتباهى أن من بين التهم الموجهة إلى عباس رضوان أنه بالاشتراك مع صلاح نصر - وبأمر من المشير عامر - « استولوا » على مبلغ ١٠٤٠٠ جنيه (عشرة آلاف وأربعمائة جنيه) وخبأها عباس رضوان لحساب المشير فى « جُبٍّ » ما بقرية الحرانية . وكان الحكم قد تضمن - علاوة على ما تقدم من مؤبد - بالزام كل من عباس رضوان وصلاح نصر بالتضامن أن يسددا لخزانة الدولة المبلغ المذكور .

وقد كشفت المحاكمة والأسئلة الحادة المتلاحقة المحاصرة التى كان يوجهها حسين الشافعى رئيس محكمة الثورة .. وفضحت خللا فى نظام الحكم وكيف كانت تدار الأمور .

ولم يدع الزميل موسى صبرى هذه الفرصة تفلت من يده دون تعليق أو تساؤلات ، وقد كان يتابع الجلسات يوميا فى المحكمة ، كتب ما كتب مما اعتبره جمال عبد الناصر « تطاولا » على ثورة ٢٣ يوليو ، وغضب عبد الناصر (الذى له مكانة كبيرة فى نفسى - علم الله - ولكنى أقول ما له وعليه) وكأن ذات الثورة مصونة لا ينبغى أن تمس ! وأصدر عبد الناصر قرارا بنقل موسى صبرى من جريدة الأخبار إلى جريدة الجمهورية مع منعه من الكتابة لبعض الوقت .

ولكن الشيء العجيب فعلا أن جمال عبد الناصر فى إحدى خطبه بعد هذه المحاكمة بدا كأنما يدافع عن حكاية الـ ١٠٤٠٠ جنيه قائلا « أمال عايزين ناس

تقوم بثورة من غير ما يكون هناك تمويل لها » ؟! كأن عبد الناصر يدافع عن الثورة المضادة !

ومن مفارقات ثورة يوليو أن الذين نكّل بهم شمس بدران تنكيلا وقام بإلقائهم فى السجون وتعذيبهم وفى مقدمتهم « الأخوان المسلمين » امتدت بهم حياة السجون والمعتقلات ليروا شمس بدران قادما إليهم لا ليستعرض عضلاته هذه المرة ، وإنما جاء محكوما عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة .

ثم دارت الأيام ليرى شمس بدران – بعد ٤ سنوات – الفريق أول محمد فوزى الذى قاد الحملة ضد المشير داخلا عليه فى السجون ومعه فريق آخر ممن حكم عليهم فيما سموه مؤامرة ١٥ مايو ١٩٧١ .. دنيا !

وفى سنة ١٩٧٤ وبعد نصر أكتوبر ٧٣ أفرج الرئيس الراحل أنور السادات عن عباس رضوان . وذهبت إليه فى منزله مهنئا لا تهنئة تقليدية وإنما لأننى أكنّ لعباس رضوان حبا خالصا ، فهو إنسان مهذب ومجامل وطيب السريرة .. ودفعتى .

وحين شرعت فى تناول عباس رضوان هنا وجدت أنه من المناسب الألتقاء به . واتصلت به تليفونيا لتحديد موعد ومكان اللقاء . وتأجل اللقاء مرات عديدة لظروف مرضية وغير مرضية . وفى النهاية رأيت أن أجرى معه لقاء تليفونيا طويلا وإن لم يكتمل . ووعدنى بالمرور علىّ فى الأهرام لاستئناف الحديث لولا أنه شغل عن ذلك لسبب أو لآخر .

أسئلتى تحاصر عباس رضوان ..

ووجدتنى فى حديثى التليفونى مع عباس رضوان أحاصره بأسئلتى عن الخلل الذى حدث فى ثورة ٢٣ يوليو ، وعن دوره فيها ، ولماذا فعل كذا ، ولماذا لم يفعل كيت .

لم أكن أوجه أسئلة شبيهة بتلك التى كان يوجهها حسين الشافعى فى قضية المؤامرة الكبرى المقول ان عباس رضوان مشترك فيها . ولكننى طرحت أسئلتى من موقع المحبة له ، والاعتزاز بمعنى وأهداف الثورة فى بدايتها ، وفى توسم البراءة

والتجرد فيها ، وفى الآمال التى عقدت عليها .. وأهم من ذلك كله أننى كنت مدفوعا بعشقى لمصر وإشفاقى عليها ومما آل إليه أمرها على يد نفر من أكثر أبنائها حماسا ورغبة ظاهرة فى الاصلاح . لماذا جرى ما جرى .. وكيف ؟ أريد أن أفهم يا عباس وقد كنت فى قلب المسئولية ، وما هو دورك فى الوقوف فى وجه الانحرافات ؟

وإذا كانت القاعدة القانونية العادلة « أن المتهم برىء حتى تثبت إدانته » ، ففضلا عن أن التيار كان أقوى منه فإن عباس رضوان لم يكن بالنسبة لى متهما على الاطلاق . إنما المتهمون هم نحن جميعا .. ولا نحن أبرياء ولا نحن مدانون !

عباس رضوان رغب منذ بداية الثورة - كما قال لى وإننى أصدّقه - فى أن يكون مجرد ضابط أركان حرب فى أية وحدة مقاتلة من وحدات الجيش . وكانت نظريته أن الجيش يجب أن يظل جيشا ويعمل كجيش . وصمم عباس رضوان أن يترك القيادة العامة للقوات المسلحة فى بداية الثورة ويطلب العودة للجيش .. وبالفعل صدرت نشرة عسكرية بتعيينه فى رئاسة الفرقة المشاة برفح .

ولما كانت « الخلية الثورية » لعباس رضوان فى تنظيم الضباط الأحرار قبل ٢٣ يوليو ٥٢ أقرب إلى عبد الحكيم عامر ، ولما كان عبد الناصر يعارض مسألة ترك عباس القيادة العامة للقوات المسلحة فقد قرر عبد الناصر تأجيل نقل عباس وطلب من عبد الحكيم عامر أن يقنع عباس رضوان بالبقاء فى القيادة . وعبثا حاول عباس الافلات سواء بحجج مادية يبديها أو بغير ذلك فقد قال له عبد الناصر : أنا متمسك بك هنا ومتفاءل بوجودك معنا ! ولما قال له عباس : المسألة أننى أرى أن الجيش لابد أن يعود جيشا ، فإننى أرى من حولى البعض قد تألّهوا ! رد عبد الناصر قائلا : لا عليك ! كل شىء سينصلح ! .. ثم جرت تفاصيل أخرى حول هذا الشأن .

ويتعين ألا ننسى أن تلك المرحلة - أى فى السنة الأولى للثورة - كانت شعبية الثورة فى أوج زهوتها ، وكانت الصراعات فى الداخل فى خضم مخاضها !

وحين عيّن عبد الحكيم عامر قائدا عاما للقوات المسلحة ومُنح رتبة اللواء استثنائيا (كان برتبة الصاغ أى رائد) فى ١٨ يونيو سنة ١٩٥٣ جيىء بصلاح نصر مديرا لمكتب القائد العام للشئون العامة . كما تشكل مكتب آخر للشئون العسكرية

قوامه رجال من خيرة الكفاءات العسكرية هم حافظ إسماعيل ومحمد على عبد الكريم ومحسن إدريس ونور الدين قره وتوفيق عبد الفتاح . وكان عباس رضوان يحضر اجتماعات هذا المكتب . وكان الذى يتولى عرض المسائل على عبد الحكيم عامر هو حافظ إسماعيل .

وظل عباس رضوان فى مكتب عبد الحكيم عامر حتى سنة ١٩٥٦ على وضعه الذى كان عليه . ثم حين عيّن صلاح نصر فى يناير ١٩٥٧ نائبا لمدير المخابرات العامة التى كان يرأسها على صبرى ، تولى عباس رضوان عمل صلاح نصر فى القيادة العامة أى أنه أصبح مديرا لمكتب القائد العام للشئون العامة .

ولما عيّن على صبرى وزير دولة فى سنة ١٩٥٨ تولى صلاح نصر ادارة المخابرات العامة ثم عرض عبد الناصر على عباس رضوان أن يعين نائبا لمدير المخابرات العامة . ذهب عباس إليها مضطرا فى مايو ١٩٥٨ ، فقد كان حتى ذلك الحين – وكما أبدى عباس لعبد الناصر – يريد أن يبقى ضابطا محترفا . ومن يوليو ٥٨ حتى أكتوبر ١٩٥٨ مرض عباس رضوان أو لعله تمارض . فما كان من عبد الناصر إلا أن أشركه فى الوزارة التنفيذية – بعد الوحدة مع سوريا – وزيرا للداخلية . وكانت هذه بداية صلته بالعمل الوزارى الذى امتد ثم تطور ، كما أوضحت فى بداية الحديث عنه .

وفى رأى عباس رضوان أنه حتى سنة ١٩٥٨ لم تبرح القيادات الهامة سواء فى القيادة العامة أم القوات المسلحة .. تسند إلى الضباط الأكفاء . ولم يكن لا لشمس بدران ولا لعلى شفيق صفوت حتى ذلك الحين أى دور مذكور . ثم بدأ التسيب والخواطر والأغراض تتسلل وتمد نطاقها حتى أن ضابطا فى غاية الكفاءة العسكرية المأمولة – هو عبد المنعم رياض – برم بما يجرى حوله فطلب فى سنة ١٩٦٢ أن ينقل إلى أكاديمية ناصر .

وبطبيعة الحال ليس هذا تأريخا ولا تحليلا ، إنما هو حديث عارض مبتسر ومن وجهة نظر فردية . ولكنه فى مجموعه قد يعطى صورة أو فكرة عن بعض مجريات وتطورات الأمور . ثم إنه ليس « ثرثرة يهذى بها شيخ ثرثار » !

كيف انحرف المشير عامر ؟!

كانت « لطيبة » المشير عبد الحكيم عامر « جاذبية » خاصة وقع فى أسارها كثيرون ممن التفوا حوله . واستغلها أيضا نفر آخر كثيرون ممن أحاطوا به . ولكن السؤال الكبير هو : ماذا فعل المخلصون ، وماذا كان دورهم فى حماية المشير عامر من نفسه ومن بطانة السوء ، وفى حماية هذا البلد الذى هو أمانة فى أعناقنا ؟ ثم فى حماية أنفسهم من أن يقودهم حبهم للمشير إلى أن يصبحوا فى النهاية من ضحايا صداقتهم له مع أن صديقك هو من صَدَقَك .. أى من نَصَحَك ، وكذلك يقول الحديث النبوى الشريف : انصر أخاك ظالما أو مظلوما . قيل وكيف ننصره ظالما ؟ قال عليه السلام بأن تمنعه من الظلم . وما يصدق على الظلم يسرى على الانحراف والفساد .

أين دورك يا عباس فى منع الانحرافات ؟ السؤال محرج ودقيق ..

ومن الواجب أن يوجه هذا السؤال إلى آخرين هم أقرب إلى المشير ، وأن يوجه إلى عبد الناصر نفسه ، وأن يوجه إلينا .. نحن رجال الاعلام ونحن المصريين .

وإننى لأعلم أنه من السهل أن يوجه مثل هذا السؤال – على البارد – بعد قرابة ثلاثين عاما من مستصغر الشرر . كما أعلم أنه من الصعب الاجابة عليه . وأصعب منها .. الممارسة الفعلية آنذاك لمنع الانحرافات . ولكننى لا أعفى نفسى من تصور المثاليات ومن إدمان أحلام اليقظة .

لم استطع مقاومة إلحاح هذا السؤال علىّ حيث كنت أحادث عباس رضوان .

وتردد عباس رضوان قليلا فى الاجابة وكأنما لسان حاله يقول : إننى لم أكن وصيا أو قيّما على عبد الحكيم عامر .

ثم أخيرا ضرب مثالا صغيرا . قال إنه وهو وزير داخلية سنة ١٩٥٩ نما إلى علمه بأن ثمة علاقة ما بين عبد الحكيم عامر وإحدى الفنانات المطربات . فما كان من عباس إلا أن التقى بعبد الناصر وسأله – بوصفه الصديق الحميم لعامر – عن صحة ما يتردد فأجابه عبد الناصر قائلا : إن هى إلا إشاعات !

ثم ذهب عباس إلى المشير شخصيا وسأله عن الحكاية ، فأقسم له أنه لم ير الفنانة

المذكورة على الإطلاق . وتبين لعباس رضوان من واقع ملابسات وتحريات أخرى أن المشير كان صادقا فى نفيه لهذه الإشاعة .

كان هذا عام ١٩٥٩ .. وبمعنى آخر كانت بطانة السوء فى مرحلة رمى الشباك الذى اصطاد المشير فى نهاية الأمر ..

نعم ، إن هذا الذى يرويه عباس رضوان عن حكاية سنة ١٩٥٩ – والتعليق الآن من عندى – كان أول الغيث ثم ما لبث أن انهمر . التيار كان أقوى من عباس رضوان . والأسرار كانت أشبه بوقود نار لا يستطيع اقتحامها صغار أو كبار ، حتى حدث حريق يونيو ١٩٦٧ وتكشفت جوانب من الأسرار . وما يغنى فى هذا سر أو علَنَ فقد كانت مصر التعسة هى الضحية .

ولست أخفى أننى منحاز بقلبى للزميل العزيز عباس رضوان ، ولتبرئته من أن يكون ضالعا فى فساد أو مؤامرة .

على أى حال ، فإن عباس رضوان – كما علمت منه – يكتب مذكراته ويعد لنشرها .

ومما يذكر لعباس رضوان بالتقدير أنه رغم كون عبد الناصر سجنه بالمؤبد (أو هو سجن فى عهده) وأن الذى أفرج عنه هو أنور السادات ، فإن عباس رضوان مازال مقيما على حب عبد الناصر وعلى الدفاع عن « الناصرية » . حتى أننى حين « أنصفت » جمال عبد الناصر فى مقال بالأهرام سنة ١٩٨٨ وأشدت بدوره فى بناء السد العالى وغيره ، اتصل بى عباس رضوان يحيينى ويشكرنى ! وكأنه ما برح « ناصريا » حتى النخاع !

١٨

محمد عبد الهادى حسونة

محمد عبد الهادى حسونة ابن الزرقا (دقهلية) بلدة المرحوم إبراهيم عبد الهادى باشا الذى بدأ الكفاح ضد الانجليز فتيا فى ثورة ١٩١٩ وحكموا عليه بالاعدام لولا أن نجاه الله سبحانه . وبات إبراهيم عبد الهادى بطلا تفتخر به الزرقا . وتيمنا باسمه أطلق المرحوم الأستاذ محمد حسونة (من رجال التعليم) اسم إبراهيم عبد الهادى على ابنه الثانى فسماه « محمد عبد الهادى » . أما ابنه الأكبر فهو المرحوم أحمد لطفى حسونة المحامى والصحفى .

ومادمنا قد تطرقنا إلى « أحمد لطفى حسونة » فلزم القول إنه عرف أسرتى قبل أن ألتقى بمحمد عبد الهادى حسونة فى الكلية الحربية . فقد تتلمذ أحمد لطفى حسونة على أخى المرحوم الدكتور حلمى بهجت بدوى فى كلية الحقوق . وشهادة لوجه الله أن لطفى حسونة كان متيمّا بأخى حلمى .. شأن لطفى فى ذلك شأن كل من تتلمذوا على « حلمى بجهت » فى كلية الحقوق من جيل لطفى ومن قبله ومن بعده .

وقبل كتابة هذه الكلمات ذهبت أعود بالمستشفى شيخ الكتّاب والمعارضين والمناضلين العظام الأستاذ الكبير فتحى رضوان المحامى (توفى رحمة الله عليه فى أكتوبر ١٩٨٨) . وقد تتلمذ أحمد حسين وفتحى رضوان على أخى حلمى بالحقوق وكانا من أقرب طلبته إليه . ولست ألقى هذا القول جزافا . فإن زميل عمر أخى حلمى الكاتب الكبير المرحوم توفيق الحكيم أصدر فى السبعينيات أحد كتبه وقد خصصه للرسائل والخطابات الصادرة منه وإليه . وفى هذا الكتاب نشر خطابا إليه من أخى حلمى فى أول الثلاثينيات ينوّه فيه ويسهب ويشيد بنجابة تلميذيه أحمد حسين وفتحى رضوان ويتنبأ أن يكون لهما شأن كبير .

وقد تصادف أن كان سبقنى لزيارة فتحى رضوان وقبل دقائق .. الدكتور أنور عبد الملك . وكان فتحى رضوان يرقد واهنا عليلا خفيض الصوت ممددا على سرير فراش مرضه فى مستشفى « الصفا » بالمهندسين . وأخذ فتحى رضوان يقدمنى إلى أنور عبدالملك الذى قال له انه يعرفنى .. فقد عمل كاتبا فى جريدة المساء سنة

١٩٥٦ . فانتقل فتحى رضوان إلى الحديث عن أستاذه الأعز حلمى بهجت بدوى (وكان الحديث عنه متعة دائمة لفتحى رضوان ، ومتعة مدهشة لسامعى فتحى رضوان) . واسترسل فتحى رضوان من مرقده فى حديثه عن « حلمى بهجت » خمس دقائق كأنما يعالج نفسه بالذكريات الحلوة ، وكأنما ليثبت أنه هو هو فتحى رضوان كما نعهده فى يقظته واستطراداته لا فُض فوه . وأنهى حديثه المستفيض عن « حلمى » بقوله : يهيىء لى - واستغفر الله - أن الله سبحانه خلق حلمى بهجت بدوى ثم قال .. كل من بعده « عكارة » ! فالدنيا تؤرخ فيقال ما قبل حلمى بهجت وما بعد حلمى بهجت !

هذه هى عبارات فتحى رضوان بالنص والحرف . والذى يعرف عن قرب فصاحة وبداهة وسحر انطلاقات فتحى رضوان وصور التشبيهات والمبالغات الطريفة التى يتقنها لا يعجب لصدور هذه العبارات منه ..

لطفى حسونة ينشر أشعارى « بالكتلة » !

وبعد أن تخرجنا - محمد حسونة وكاتب هذه السطور - من الكلية الحربية ، ولأننا دائما متلازمان فكان طبيعيا أن ألتقى وأتعرف بشقيقه لطفى حسونة . وأصبح شقيق صديقى .. صديقى بالتبعية وخاصة لما يكنه من إعزاز لشقيقى وأستاذه حلمى .

وحين علم لطفى حسونة فى منتصف سنة ١٩٤٧ أننى بسبيلى إلى إصدار ديوانى الأول « وجدان حائر » .. وكان لطفى حسونة مشرفا على تحرير جريدة « الكتلة » اليومية التى أصدرها مكرم عبيد باشا بعد انفصاله عن الوفد وتشكيله حزب الكتلة ، بادرنى لطفى قائلا : هل معقول أن تصدر ديوان شعر دون سابق نشر قصائد لك فى الصحف والمجلات ، وبغير أن تقدم له بالدعاية اللازمة ؟ قلت : لقد نشرت فى صحف مصر الفتاة عددا من القصائد بتوقيع « الجندى الشاعر » ! قال : لا جندى ولا غيره ! هات ما عندك من قصائد سوف يضمها الديوان ، ودع الباقى علىّ ! وناولته مجموعة مختارة من القصائد التى أعددتها للديوان . وفوجئت بها منشورة على « حلقات يومية » بجريدة الكتلة فى رأس صفحة الأخبار المحلية - وكأنها حدث هام ! - وعلى ثلاثة أعمدة وتحت عنوان فرعى أطلق عليه لطفى عبارة « من ليالى الجندى الشاعر » ثم بالخط البارز عنوان القصيدة ، ثم بالخط العريض « شعر

مصطفى بهجت بدوى » ! وكأن جريدة الكتلة هى المملكة الخاصة لأحمد لطفى حسونة ! وفى واقع الأمر أنه كان فيها « الكل فى الكل » . وكان يمكن أن ينشر لى « الجرىء » لطفى حسونة ديوانى كله على حلقات يومية فى جريدة الكتلة لولا أن عمى الدكتور عبد الحميد بدوى باشا (وكان آنذاك فى أجازة بالقاهرة من محل عمله كعضو فى محكمة العدل الدولية بلاهاى) عاتبنى بمنتهى الرقة والعذوبة قائلا : ألم تجد سوى « الكتلة » تنشر فيها شعرك ؟! ذلك أنه كان بين مكرم عبيد وعبد الحميد بدوى « جفوة » منذ أن استكثر الأول على الثانى أن يصبح عضوا – لا مستشارا – فى الوفد المصرى لالغاء الامتيازات الأجنبية بمونترو سنة ١٩٣٧ كما رويت من قبل ، وكيف أن الدكتور أحمد ماهر باشا أصر على عضوية كاملة لعبد الحميد بدوى فكان له ما أراد . ثم ازدادت « غيرة » مكرم عبيد من عبد الحميد بدوى – رحمهما الله – بعد أن عرف الجميع أن مهندس اتفاقية مونترو لالغاء الامتيازات الأجنبية من مصر هو عبد الحميد بدوى .. فهو المفاوض وهو المناور وهو الحجة القانونية وهو الذى صاغ موادها ، كما أعلن ذلك أحمد باشا ماهر على رؤوس الأشهاد بعد عودة الوفد المصرى من مونترو .

ولم يكن مكرم عبيد – وهو الخطيب المحلى المفوّه – يحتمل أن « يسرق منه الكاميرا » أحد . فناصب عبد الحميد بدوى العداء الخفى . إن مكرم عبيد وعبد الحميد بدوى كلاهما من أبناء مصر العظام الوطنيين البررة ، ولكن النفس البشرية هى النفس البشرية ..

وقد شرحت لعمى الدكتور عبد الحميد بدوى باشا حكايتى مع لطفى حسونة الذى تطوع وأصر على النشر . ثم أردفت قائلا محاولا أن أحتوى « فى نكتةٍ » هذا الموقف العارض : إننى سوف أكفّ عن نشر قصائدى فى « الكتلة » . ثم أن أحد لا يقرأها ، وعلى رأى الدكتور « سعيد عبده » فى زجل قارص نشره بلسان مكرم عبيد فى مجلة آخر ساعة قائلا « الكتلة أطبعها ترجع كلها مرجوع » ! ومضيت أبدل مجرى الحديث لأسأل عن الجو فى هولندا !

وفى جلسة تالية مع هذا العم الأب الكريم الكبير الحصيف رجوته أن يكتب لى مقدمة لديوانى « وجدان حائر » . وأشهد أن أجمل ما فى ديوانى المطبوع هذا هو

مقدمة الدكتور عبد الحميد بدوى باشا الذكية البليغة الرصينة . فليرجع إليها من يشاء فى محفوظات دار الكتب ليعلم أننى فى هذا أقول الحق وكل الحق ولاشىء غير الحق ..

أين تركت « محمد عبد الهادى حسونة » المسكين الذى تعود منى هذه التفريعات والدخول من حكاية إلى أخرى ثم العودة إلى أصل الموضوع .. و « ياما فى الجراب يا حاوى » ؟!

التحق محمد حسونة بكلية الآداب بعد حصوله على التوجيهية وقضى بها سنتين ناجحتين فى رعاية عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين ، ولكن الظاهر أن « عينى حسونة » كانتا على الكلية الحربية ليصبح عميدا هو الآخر .. العميد محمد عبد الهادى حسونة !

وإننى لجد ممتن لكلية الآداب التى عوّقته سنتين ، فلو أنه دخل الكلية الحربية سنة ١٩٣٨ لما قدر لنا أن نلتقى كما ألتقينا وأن يصبح الواحد منا مكملا للآخر .

نــابغة فى التـكتـيك والشـــطرنج
وراسب فى الفرنساوى والتنظيم !

ومحمد حسونة « ذكى » و « شاطر » . ولو كانت الكلية الحربية تقتصر الدراسة فيها على مادة « التكتيك » لربما أصبح محمد حسونة أول الدفعة ! وهو – بالمناسبة – من أمهر لاعبى الشطرنج فى مصر . وكان فى مرحلة من عمره يتردد على قهوة « ماتاتيا » بالعتبة الخضراء ليلعب الشطرنج وليهزم جميع أبطال الشطرنج فى مصر الذين كان محلهم المختار فى تلك القهوة !

أما لماذا تأخر ترتيب محمد عبد الهادى حسونة إلى « ١١٧ » فلأنه فى امتحان القسم المتوسط (آخر امتحان) رسب فى مادة اللغة الفرنسية ومادة التنظيم والادارة .. وبجدارة ! ويقضى نظام الكلية الحربية بأن من يرسب فى إحدى المواد تشطب الدرجة الحاصل عليها فيها من المجموع وكأنه حصل على « صفر » فيها ، ولكن لا يعيد الراسب فى أية مادة الامتحان فيها (كملحق) ولا يعيد السنة الدارسية

إلا إذا لم يحصل على مجموع كلى قدره ٦٠٪ أو إذا سقط فى امتحان مادة التكتيك بالذات ولو حصل على ٨٠٪ .

و « شطارة » حسونة ليست مقصورة على المواد الدراسية (باستثناء الفرنساوى والتنظيم والادارة) وإنما على المواد التموينية أو شئون تربية المواشى ! فقبل دخول الكلية الحربية وباعتباره من أبناء الريف كان محمد عبد الهادى حسونة قد اشترى ٢٥ جاموسة لتربيتها واستثمارها . وأظن أن محمد حسونة لم يندم على شىء قدر ما ندم لا على شراء هذه الحيوانات المربحة ، ولكن على كونه أفضى إلىّ بهذا « السر » ! فقد أشبعته وأهلكته « تريقة » على هذه الجواميس على مدار سنوات طويلة . وكلانا - والحمد لله - لا يغضب من « تريقة » متبادلة بل نستملحها ونسعى إليها فهى الفاكهة على مائدتنا .. وأحيانا لانتناول سوى الفاكهة !

وقد ادخر محمد حسونة هذه الشطارة التجارية حتى سنة ١٩٦٩ حين اختلف وهو قائد قوات بالدفاع الجوى مع الفريق محمد فوزى فأحاله إلى المعاش برتبة العميد ، فكان ذلك خيرا وبركة عليه ، إذ افتتح محمد حسونة محلا كبيرا للأدوات الصحية وتجارة الحديد ، ففتح الله عليه وأثابه على حسن نواياه . زاده الله من فضله .

ولا أتصور أنه من الممكن أن أفرغ من هذه الفقرات المؤقتة (ولنا عودة ضمنية بمشيئة الله) عن زميل وصديق العمر محمد عبد الهادى حسونة بغير أن أضمن بعض ما نظمته فيه من الشعر حتى تكتمل الصورة .. فأبياتى تلك من صميم شعر « الأخوانيات » .

القصيدة الأولى التى أوحى إلىّ بها (وهى منشورة فى ديوانى الأول « وجدان حائر ») كانت بمناسبة أن « حسونة » نقل من البطارية السادسة أنوار كاشفة بالاسماعيلية فى سنة ١٩٤٥ إلى مركز تدريب المدفعية بألماظة . وتركنى فى « صحراء » الاسماعيلية .

قلت فيها :

خلا منبر فى البيد حاورنى دوما	وأفسح لى صدرا ، وشاركنى هما ..
وحلّ بـه أشبـاه مظهـره فمـا	سمعت لهم قولا ، وزدت بهم علما

إلـىّ بمـن هـزّ المنابـر كلهـا منابـر بيدائـى التـى شرفت أسمـا
إلـىّ بمـن وفّـى طـوال زمالـةٍ فبايعـه قلبـى صديقـا لـه تمـا
إلـىّ بـه حتـى يُعـاد زماننـا كما كان منظوم الطرائف منضما
إلىّ به قُربِى ، فمن يوم بعـده كرهت خيامى .. بل وددت لها هدما
إلـىّ بـذى روح كـأن سلامهـا علىّ سلام الطب يُبرءُ لى الكَلْما
هو الصاحب المرجوُّ فى الجيش كله وتلك – لعمرُ الله – منزلة عظمى
نبيل إذا ما خـاطب النـاس كلهـم فكيف إذا ماخاطب الصحب والقوما؟
أحييه فى شعرى .. وكل تحية تـذوّب وجدانـى اشتياقا لـه جمّـا
تذكرنـى أنـى غـدوت بـلا أخ قريب يردُّ الخُطْبَ عنّى إن حُمَّا
أحييـه لا بالمـدح حقـا وباطـلا ولكن أقول الذم لو أجد الذمّـا
وأعرف من أفكاره كل خاطـر ويعرف من أفكارى البَـرّ واليّمـا
ستجمعنـا الأيـام حتمـا فإنهـا لأرحـم قلبـا أن تفرّقنـا دومـا
ستجمعنـا الأيـام حتمـا فإنمـا وفـاء فؤادينـا يذللهـا حتمـا

والجدير بالذكر أن محمد عبد الهادى حسونة بعدما انتقل إلى القاهرة رحت – لميول صحفية مبكرة – أحرّر وأبوّب مجلة أطلقت عليها اسم « الصداقة » أبعث إليه بها كل أسبوعين كأنها مجلة حقيقية بالافتتاحية السياسية ، والأخبار العامة والخاصة ، والتعليقات على ما ينشر بالصحف وعلى نشاط الأحزاب السياسية ، والتحقيقات الصحفية المحلية ، ورسم كاريكاتيرى ، وحكمة العدد !

وقد احتفظ حسونة بهذه الأعداد من « مجلة الصداقة » ، ثم اقتنيتها بين محفوظاتى كأول تجربة لى متعثرة فى « البلاط السرى » لصاحبة الجلالة الصحافة .

وفى سنة ١٩٥١ كتبت إلى محمد حسونة هذه القصيدة التى نشرتها فى ديوانى « **عندما توحى الليالى** » :

أخـى .. وأنت واحـد مـن صفـوة منتخبـة
بل أنت أغلـى تـوأم لـى أبتغى أن أصحبه
وأنت تحيا فـى دمـى كالنـبضة المحببـة
وأنت نجـوى كَلِمـى والحكمـة المرتقبـة

ما أطيب العهد الذى قد ضمّنا .. ما أطيبه
ومـا أحبَّ المُلتقى ومـا أعـزّ المقربة
قـد اصطفاك قَـدر لـى .. ما أجلّ أربه
فى مصرَ .. فى كلية حربيـة مُقطّبـة
كالليل كانت إنما قـد كنتَ أنت كوكبه
كنت السمير المصطفى مـن دون كل الطلبة
ماكان لـى مـن مشرب إلا وكـان مشربه
ومـا اتبـعت مذهبـا فى الحقّ إلا مذهبه
ومـا شكـوت عنتـا إلا أتـى وطببّه
ولا انفجـرت ضحكـا إلا وكـان سببه !
كم عنده من مِزَح ساخرة مؤدبة
يصوغها مرتجـلا كأنهـا مرتبَة
بديهـة حـاضرة ومنطـق مـا أعذبه
نِعْـم السميرُ كان لـى فـى الوحدة المغتربة
قد كان نبعا صافيا فى عالـم مـا أجدبه
أحببت فيـه ظرفه أحببت فيه أدبه
أحببت حتى عيبه من كَسل أو ذبذبة !
ذبذبـة بريئـةٌ لطيفة مهذبة
تجتال فى خاطره زاحفة منسحبة !
أخـى .. بلغت عُمُرا مـرَّ السنيـن أوجبه
لا خلـف قـام بيننـا بل ألفـةٌ وتجربة
فـعشت لـى منتخبـا مـن صفـوة منتخبة

أربع « رجّالة » .. ونصف !

وأحب - إمعانا فى المداعبة لا التشهير - أن أفسّر - بحكاية طريفة - ثلاثة أبيات وردت فى ختام القصيدة سالفة الذكر وهى التى تبدأ بقولى « أحببت حتى عيبه ، من كسل أو ذبذبة » وقصة « زاحفة منسحبة » تلك ..

ذلك أننا ونحن طلبة فى الكلية الحربية فى القسم الاعدادى ، وبعد تخرج ما بقى من دفعة ثقافة يوليو ٣٨ وتوجيهية يوليو ٣٩ (أى ما عرفت باسم ٣ جى دفعة) « أمسكت » دفعة وهيب زكى (السابقة علينا مباشرة) الكلية الحربية وأصبحوا هم الصف ضباط علينا كما أشرت من قبل مرارا . وكانت « شدة غربال » فأشعلوها عسكرية ونارا !

وفى مساء أحد أيامهم الأولى وبين فصيلتنا بالسرية الثالثة وقفنا « انتباه » نستمع لوصلة « داخلية » أراد بها « الجاويش » حسنى مخيمر أن يشنف آذاننا داخل العنابر . ومضى صوته يعلو ويعلو . ثم فجأة قال لنا : أنتم شوية عيال ! اللى فاكر نفسه راجل يأخد خطوة إلى الأمام ..

ومن بين الفصيلة أخذ خمسة فقط هذه الخطوة « الأبية » إلى الأمام . وكنت من بين الخمسة ، وبعد ثلاث ثوان من الخطوة التى خطاها محمد حسونة إلى الأمام – فكّر خلالها وقدّر – أخذ خطوة إلى الخلف عائدا إلى مكانه فى أمان الله !

ولم تفت « القفشة » حسنى مخيمر فقال على الفور وبنفس نبرته العالية : آدى أربع رجالة ونصف !

وسألت محمد حسونة بعد انتهاء هذا الاستعراض « الترجيكوميدى » : لماذا فعلت ما فعلت يا حسونة ؟ قال : وجدت أن الأربعة الذين خطوت معهم إلى الأمام كلهم « فاقدين » – أى « مستبيعين » – فعدلت عن مسايرتهم ! قلت له : حتى أنا ؟ قال : أنت أول الفاقدين !

حقيقة .. ما كان أطرف الأحاديث والقفشات والمداعبات وحتى الآراء التى دارت بينى وبين محمد عبد الهادى حسونة بالكلية الحربية فى الطوابير وفى الكواليس .. (ناهيك عما جرى بيننا من أحاديث ونوادر بعد تخرجنا) .

١٩

نوال سعيد

ثلة من « المهزارين » فى السرية الثالثة بالكلية الحربية كانوا كثيرا ما يجتمعون – فى أوقات الفراغ .. وغير الفراغ أحيانا – ويصخبون ويداعبون بعضهم بعضا ويقهقهون فى الفاضى والمليان ! كنت ومحمد عبد الهادى حسونة القاسم المشترك .. وكان « نوال سعيد » أحد أبرز هذه « الثلة » . كأننا لم نك نحمل للدنيا هما .. مع أن همومها كثيرة فى الكلية الحربية « أكثر من الهم على القلب » كما يقولون فى الأمثال ! ولم نكن نضحك للترويح عن أنفسنا فحسب ، ولكن كأنما كان الضحك فلسفة نعتنقها !

و « نوال سعيد » اسم مُرَكَّب لا مجرد اسم ثنائى . أى أن أباه حينما رزق به اعتبره « نوالا سعيدا » وعطاء يستبشر به ويسعد فسماه كذلك ، وليس لكى يسخر من اسمه كل من هب ودب ! إذن فقد توسم أبوه الخير والسعد فيه واعتبره سوف يصبح من أرجل الرجال .. وهو ما حدث بالفعل ! وأشهد أننا – على الأقل فى تلك الثلة العابثة – لم نسخر من اسم « نوال » مرة واحدة أبدا .. لا على سبيل التظرف ولا على سبيل التعبير ولا على سبيل البحث عن نكتة تعوزنا أو دعابة .. مع أن ميكروفون الكلية فى فترة ما بعد الظهر كان أحيانا يطلع علينا بأغانى لأم كلثوم وعبد الوهاب .. ومن بينها أغنية عبد الوهاب « ياما بنيت قصر الأمانى » من فيلمه « دموع الحب » والتى يردد عبد الوهاب فى الأغنية المقطع الشهير « يا نوال .. فين عيونك » ؟! ومن الطريف أن اذاعة المملكة المغربية حين فازت العداءة المغربية « نوال المتوكل » بالميدالية الذهبية فى أولمبياد كندا سنة ١٩٨٤ لم تجد اذاعة المغرب سوى مقطع « يا نوال فين عيونك .. يا نوال فين يمنيك » لاذاعته بصوت عبد الوهاب وموسيقاه مرارا وتكرارا !

ألا ما أشبه الليلة بالبارحة . إننى أكتب عن « نوال سعيد » اليوم « على راحتى » ، كما كنت أحادثه « على راحتى » فى الكلية الحربية منذ نيف وأربعين سنة .. ولماذا لا تقولها – بغير مواربة – « منذ خمسين عاما » تقريبا ؟!

ولقد تخرجنا من الكلية الحربية نوال سعيد وشخصى وغيرى من الزملاء الأحباء .. وتعاهدنا ألا نفترق ، ولكن الجيش لا يرحم ، ولا الزمان أيضا ! ذهب نوال سعيد إلى الكتيبة الأولى بنادق مشاة ، وذهبنا إلى المدفعية ، ثم تركنا القاهرة لأصحابها !

ومن العجيب – ومن المخجل كذلك – إننى لم أعرف – أو لا أذكر – أن نوال سعيد انتقل للعمل بسلاح خدمة الجيش إلا حيث أمعنت النظر اليوم – واليوم فقط فى سنة ١٩٨٨ – إلى كشف الجيش لسنة ١٩٥٠ .

وعندى تحليل لهذا الانتقال قد أراه صائبا . إن نوال سعيد انتقل إلى سلاح خدمة الجيش – الذى قد يتسع فيه الفراغ إذا قورن بسلاح المشاة – ليعكف على الاستذكار والاستعداد لامتحان كلية أركان الحرب عندما « يستوفى » شرط عدد سنوات الخدمة المسموح بعدها للضابط أن يتقدم لامتحان كلية أركان الحرب . تأهّل نوال سعيد لكلية أركان الحرب من أجل أن يتأهل لخدمة الجيش بالمعنى الواسع لخدمة الجيش لا المحدود فى اسم السلاح . ونجح نوال سعيد من المرة الأولى فى الامتحان ، وكان بين أول مجموعة من دفعتنا تلتحق بكلية أركان الحرب .

وقد علمت من « نوال سعيد » مؤخرا بعد أن ألتقيت به – وكنت قد كتبت عنه ما كتبت – أن سبب انتقاله إلى سلاح خدمة الجيش أنه أصيب بمرض ألزمه الفراش طوال سنة ١٩٤٦ ورؤى بعد ابلاله منه أن ينقل إلى سلاح خدمة الجيش . وإن كان وافقنى أن هذا النقل أحسن إعداده لكلية أركان الحرب . أى أنه كان « لابد فى الذُرة » من أجل أن يصطاد كلية أركان الحرب ..

وعُهد إلى نوال سعيد كضابط أركان حرب بمناصب قيادية متعاقبة يثب إليها جدارة كأنه أخصائى فى القفز العالى والطويل على السواء ! .

نوال » يصبح أول دفعتنا !

ولقد قلت عن نوال سعيد فيما تقدم انه « عُهد إليه كضابط أركان حرب بمناصب قيادية متعاقبة يثب فيها بجدارة كأنه اخصائى فى القفز العالى والطويل على السواء .. إلى أن كانت حرب اليمن »

نعم .. إلى أن كانت حرب اليمن « فتجلّى » فيها نوال سعيد بعقلية عسكرية قتالية وادارية غاية فى الكفاءة والبراعة ، وكانت قفزته الكبرى التى كوفىء خلالها بترقيته ترقية استثنائية نقلته من ترتيبه الذى تخرج به فى الدفعة إلى مئات من الضباط قبلنا . وبالتحديد رقى نوال سعيد من رتبة العقيد إلى رتبة العميد استثنائيا وكان آخر العمداء الذى أعقبهم نوال فى ترقيته الاستثنائية تلك .. هم هؤلاء الذين رقوا عمداء من دفعة البهنساوى المتخرجة من الكلية الحربية يوم دخلناها فى سبتمبر سنة ١٩٤٠ !

وبعبارة أخرى يمكن القول إن « نوال سعيد » أصبح هو أول دفعة سبتمبر ٤٢ وليس « أمين شاكر » ! أى أن القولة الساخرة للطلبة الصف ضباط والتى كانوا « يعيروننا » بسخافاتها كل آن وآخر قائلين لنا « يادفعة نوال » أصبحت نبوءة جادة ومشرفة له ولنا !

وغنى عن البيان أن نوال سعيد ترقى إلى رتبة اللواء مبكرا عن دفعته ودفعتنا بمراحل ، وأمضى فى الخدمة العاملة برتبة اللواء سنوات طويلة ، وتولى منصبا من المناصب الهامة المرموقة وهو « رئيس هيئة الامدادات والتموين » للقوات المسلحة من سنة ١٩٧١ حتى سنة ١٩٧٥ ، أى أنه كان مسئول الامدادات والتموين فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ .

وفى سنة ١٩٧٥ ترك نوال سعيد الجيش ولم يتركه . بمعنى أنه انتقل من السلك العسكرى كرئيس هيئة الامدادات والتموين إلى السلك المدنى (وداخل الجيش أيضا) كرئيس مجلس ادارة « المؤسسة الاقتصادية للقوات المسلحة » حتى سنة ١٩٨٢ ، ثم أصبح مستشارا لها حتى بلغ سن الستين فى عام ١٩٨٤ .

على أن نوال سعيد لم يكن قد اكتفى – فى الجانب العملى ـ بشهادة كلية أركان حرب وإنما انتسب ايضا إلى كلية الحقوق وحصل على الليسانس عام ١٩٥٧ .

وفى الوقت الحاضر (١٩٨٩) ولأن نوال سعيد لا يحتمل الفراغ فقد افتتح محلا أو « بوتيك » للملابس الجاهزة فى حلمية الزيتون (أى امدادات وتموين محدودة فى مكان محدود ..) وأطلق عليه اسم « كريم » قاصداً به وجه الكريم تبارك وتعالى .

٢٠

محمود حسين عبد الناصر

فى نوفمبر سنة ١٩٨١ شاهدت شريط الفيديو الذى يعرض « الفيلم » الذى التقطه مصور التليفزيون الايطالى لآخر لحظات العرض العسكرى للقوات المسلحة المصرية فى عيد ويوم ٦ أكتوبر سنة ١٩٨١ . **تابعت خالد الأسلامبولى ورفقاءه وهم يتسللون من العرض فجأة ويتجهون بسرعة خاطفة إلى المنصة الرئيسية حيث يجلس الرئيس السادات ومن حوله ومن خلفه كبار المدعوين . أخذ الأسلامبولى ومن معه يصوبون طلقات رشاشاتهم إلى منتصف الصف الأول خلال ثوان . اهتزت الكاميرا فى يد المصور الايطالى ولم يستطع الملاحقة إلا والضحايا ملقون فوق المقاعد أو تحتها . كانت تتوسط الضحايا صورة « أشلاء ممزقة » . أجمع كل من كان معى أنها للسادات نفسه . لكن حين أعدت عرض الفيلم عرضا بطيئا واستخدمت جهازا للتكبير اتضح لى أنها « أشلاء » محمود حسين عبد الناصر .. تلك التى استرعت انتباه الجميع . أما الرئيس أنور السادات فقد اختفى من الصورة .. ومن الوجود ، رحمه الله .**

كان التليفزيون المصرى قد قطع الارسال فور بدء الحادث . لم يفسر هذا الانقطاع ، ولم يشر إلى الحادث الرهيب من بعيد أو قريب . وكانت جريدة « المساء » قد صدرت تسهب فى وصف العرض العسكرى – وفقا للبرنامج المعد – وتنهى الوصف التفصيلى بأن الرئيس السادات قد عاد بسلامة الله إلى القصر الجمهورى .

السادات يبدأ مأساة ٥ سبتمبر وينتهى فى مأساة ٦ أكتوبر

والواقع أن الرئيس الراحل أنور السادات منذ « لوثة » الخامس من سبتمبر ١٩٨١ كان قد دخل فى معركة شاملة . ضرب اليمين واليسار والوسط . اعتقل قرابة ١٥٠٠ منهم . أغلق الصحف المعارضة . طرد عددا من الصحفيين وعدداً من أساتذة الجامعات . « طاح » فى رجال الدين المسلمين والمسيحيين على السواء . وصف

الشيخ المحلاوى بأنه « مرمى فى السجن زى الكلب » . قال إن فؤاد سراج الدين يتصور أنه الملك لويس الرابع عشر . سب فتحى رضوان واتهمه بأنه « كهل مخرّف سقط عنه القناع » .

وحين ظن السادات أنه أحكم الحصار - بالارهاب - حول ما كان يسميه ارهابا ، وراح يصعّد الموقف . ويخال أن فى ذلك كله حلا للأزمة التى يعانيها ، فإنه فى واقع الأمر كان قد وضع نفسه فى « مأزق انتحارى » للأسف الشديد انتهى باغتياله فى صدر منصة طابور العرض العسكرى يوم ٦ أكتوبر ١٩٨١ .

كان « محمود حسين عبد الناصر » أمين عام رئاسة الجمهورية يجلس فى ذلك اليوم وتلك اللحظة خلف الرئيس الراحل أنور السادات مباشرة . ونالته دفعة من رصاص الرشاشات مع اللواء حسن علام كبير الياوران (مات فى المنصة . رحمه الله) وفوزى عبد الحافظ سكرتير السادات (أصيب فى المنصة . شفاه الله) .

وحين أفاق الحرس الجمهورى من هول المفاجأة ومن ثقل الغفلة نقلوا « رفات » الرئيس الراحل إلى مستشفى القوات المسلحة بالمعادى بالهليكوبتر . ثم عرجوا إلى المصابين - لا يعرفون من مات منهم ومن جرح - وحملوهم إلى المستشفيات على الفور .

كان محمود حسين عبد الناصر ممزقا ، فاقد الوعى ، واهن نبضات القلب .. أشبه بالميت الحى . وحين أفاق لم يعرف المسكين رأسه من رجليه . كانت أعظم الاصابات فى يده اليمنى التى كادت تنفصل عن بقاياه . وظل تحت العلاج والجراحات الدقيقة والترقيع والتجميل والعلاج الطبيعى بين مصر وسويسرا حتى ٦ أكتوبر من السنة التالية . أجرى عشر عمليات جراحية فى سنة واحدة ..

ولأن « محمود حسين عبد الناصر » من عباد الله المؤمنين الصالحين فقد آمن بأنه كتبت له حياة جديدة وحمد الله حمدا كثيرا دائما طيبا مباركا فيه ..

والحديث الشريف يقول عليه الصلاة والسلام فيه « عجبت لحال المؤمن وإن حاله كلها لهى عجب . إن أصابته سرّاء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له » .

قدر الله وقضاؤه أن يجلس حسين عبد الناصر - بصفته تلك - خلف الرئيس الراحل أنور السادات فى العرض العسكرى يوم ٦ أكتوبر ١٩٨١ ، وليمكث بين الحياة والموت سنة أو يزيد .. « وقضا أخف من قضا » . نعم .. اللهم إنا لانسألك رد القضاء ولكن نسألك اللطف فيه .

وحين زرت فى يناير ١٩٨٨ محمود حسين عبد الناصر فى بيته لم أجد اختلافا بين هذا الذى يجلس معى فى حجرة واحدة سنة ١٩٨٨ وبين هذا الفتى الذى كان يجلس معى فى حجرة متوسط ٧ سنة ٤١ / ١٩٤٢ . سخاء النفس هو هو . وصفاء الروح هو هو . والضحكات البريئة هى هى . ربما الشىء الوحيد الذى اختلف فيه أنه كان يكتب بيده اليمنى فأصبح يكتب باليسرى .

يسّره الله « لليسرى » فى الدنيا والآخرة . فلكم أراه أعطى وأتقى وصدّق بالحسنى .

٢١

حسين حافظ فهمى

أبلغ وأصدق ما قيل عن « حسين حافظ فهمى » هو ما جاء فى صدر نعى أسرته له بجريدة الأهرام يوم ١٦ / ٣ / ١٩٨٣ :

« انتقل إلى رحاب الله اللواء المتقاعد حسين حافظ فهمى . يحوطه بالحب كل من عرفه . صاحب القلب الطيب . رجل المروءة واليد الخيّرة » .

والحق أن حسين حافظ فهمى كان كذلك وزيادة ..

ولأنه لم يتزوج ولم ينجب أولادا فكأنما وهب عمره وعواطفه لأصدقائه وزملائه وذوى قرباه وأهداها لهم نسيما عليلا شافيا .

وقد كان حسين حافظ فهمى من أبناء المدفعية والأنوار الكاشفة . وسبحان الله كأنما كانت الأنوار الكاشفة هذه تكشف عن المعادن الطيبة ، فمعظم من التحقوا بها توفرت لديهم الشهامة والرجولة والتضامن والثقة بالنفس والقيادة المبكرة وخفة الظل ! ولست أقول هذا تحيزا لها بوصفى عملت بها ردحا من الزمن ، وإنما لأن معظمهم - حقيقة - كذلك . هكذا خبرتهم . وربما ساعد على ذلك أن الضابط الصغير من بينهم تدرب على اللامركزية فى الأغلب وعلى تحمل المسئولية حيث يقود مواقع متناثرة إما فى أرجاء الصحراء أو أطراف المدن . ومن هنا أتصور أن الأنوار الكاشفة إما أنها كانت تجذب إليها أصحاب هذه الصفات أو أنها كانت تربيها فيهم ، أو الاثنان معا !

وأعود إلى أخينا وحبيبنا حسين حافظ فهمى الذى « يحوطه بالحب كل من عرفه » .

من المدفعية انتقل حسين حافظ فهمى إلى مصلحة خفر السواحل .

وخفر السواحل فى الأربعينيات وحتى الستينيات كان لها دولة داخل الدولة . ومن ألمع الذين تولوها **اللواء عبد المنصف محمود باشا** الذى كان من أكثر المحدّثين لباقة ووسامة ورقة وظرفا . وكان شاعرا وإن لم يشتهر إلا « بقصيدة » واحدة هى أغنية محمد عبد الوهاب التى يتغزل فيها بالعلم المصرى الأخضر العزيز القديم (وما زال جيلنا يحن إليه) والتى يقول فى مطلعها « مين زيك عندى يا خضرة فى الرقة يا غصن البان » .

ومن ألمع مديرى خفر السواحل أيضا **المرحوم اللواء وحيد شوقى** ابن شقيقة مصطفى النحاس باشا الذى أراد النحاس مكافأته بعد عودته للحكم سنة ١٩٥٠ فعينه مديرا لمصلحة خفر السواحل . وأشهد أمام الله - وبضمير خالص - أن وحيد شوقى (وشقيقه محمود شوقى سكرتير عام مجلس الوزراء فى حكومة النحاس باشا الأخيرة) هما من أطيب من عرفت قلبا وأصفاهم نفسا .

ثم بعد ثورة يوليو ٥٢ انتهى عصر الوفد والأحزاب وبدأ عصر « العسكر » كما يقولون فى الشام . ومن الطبيعى أن يؤتى فى المناصب العسكرية – من باب أولى – بأهل الثقة من العسكريين . وقد تعاقب اثنان من أحباء ومدرسى عبد الناصر على مصلحة خفر السواحل . هما اللواء أ . ح محمد عبد العزيز فتحى ، ثم الفريق محمد فؤاد الدجوى . وقد غلبت الثانى (الدجوى) شهرته فى المحاكمات العسكرية « التفصيل » خلال حكم عبد الناصر فى الستينيات . وكان أحرى بى أن أصف تلك المحاكمات العسكرية بأنها « جاهزة » لا « تفصيل » !

الحكم قبل المداولة والمحاكمة !

مثلا .. الفريق فؤاد الدجوى رأس المحكمة العسكرية (السرية) التى حاكمت « المقدم » عبد القادر عيد وآخرين فى سنة ١٩٦٢ بزعم أنهم دبروا مؤامرة – يقودها عبد القادر عيد – لقلب نظام الحكم .. وما أيسر هذا الوصف فى تلك المرحلة .. وفى كل مرحلة للأسف ! وأصدرت محكمة الدجوى حكمها على « عبد القادر عيد » وأربعة آخرين بالأشغال الشاقة المؤبدة وعلى الباقين بمدد مختلفة . وإن أفرجت الثورة عنهم جميعا بعد ٢٥ شهرا .. كما فصلت ذلك من قبل .

وبعد الافراج عنه ببضعة أسابيع ألتقى « عبد القادر عيد » مصادفة بأحد أعضاء المحكمة العسكرية التى حاكمته برئاسة الدجوى وأدانته .. الخ . وكان عبد القادر عيد يعرف هذا العضو من قديم فانتحى به جانبا وسأل هذا العضو المحترم : كيف حدث هذا ؟ كيف أدان ؟ كيف أصدرتم علىّ حكما بالأشغال الشاقة المؤبدة ؟ فأقسم عضو المحكمة لعبد القادر عيد أن الحكم كان مكتوبا أمامهم منذ اليوم الأول للمحاكمة !

أى أن ممثلى الادعاء والمحامين وهيئة المحكمة كانت « مسألة شكلية » لمجرد استيفاء الاجراءات ولا جدوى من مرافعة الاتهام والدفاع ومشاورات ومداولات هيئة المحكمة لأن القضية « مبتوت » فيها ومفصول فيها بالحكم من قبل ومقدما ! أى كأنما كل الاجراءات تمثيل فى تمثيل . شىء أقرب إلى المهزلة .. بل هى المهزلة الدامية نفسها !

ولما كان الشىء بالشىء يذكر – وهو كما أوضحت مرارا الطابع العام لهذا

الكتاب ! - وإن الحديث ذو شجون ، فلا بأس من أن أورد حكاية أخرى خفية من عينة « الأحكام الجاهزة المسبقة » وإن كانت بصورة أخرى وفى مجالات أخرى وذات أبعاد أخرى . وكلها على أى حال وللأسف الشديد تعطى صورة عما كان يدور فى « الكواليس » .. وكيف كانت تحكم مصر ، وتدار سياستها .

أروى هذه الحكاية بعد أن أقدّم لها بحكاية أخرى !

فى أحد انقلابات « الجمهورية »
مشروع « الكتابة الجماعية » !

فى نوفمبر سنة ١٩٦٦ ارتأت القيادة السياسية أن يتولى الاتحاد الاشتراكى العربى الاشراف المباشر على جريدة الجمهورية التى كنت أتولى رئاسة مجلس ادارتها ورئاسة تحريرها حتى ذلك الحين . وقيل لى « مع السلامة .. » لأن الاتحاد الاشتراكى هو المسئول من الآن فصاعدا عن إصدار جريدة الجمهورية وعن سياستها . (بصرف النظر عن كون جميع المؤسسات الصحفية تابعة للاتحاد الاشتراكى نظريا .. وليس عمليا) . أى أن « الجمهورية » سوف تصبح لسان حال الاتحاد الاشتراكى رأسا .. شأنها شأن جريدة « البرافدا » فى الاتحاد السوفييتى التى هى لسان حال الحزب ..

وجيىء بالزميل العزيز الكاتب الصحفى الروائى « فتحى غانم » رئيسا لمجلس ادارة دار التحرير للطبع والنشر ورئيسا لتحرير الجمهورية ، وأصبح معلوما لدى الجميع أن « على صبرى » أمين عام الاتحاد الاشتراكى آنذاك هو المشرف الفعلى على جريدة الجمهورية وسياستها ! .. عظيم .

كانت سياسة « التجربة والخطأ » على أشدها .. وإن كان بعض الخبثاء عبرّوا عنها بقولهم « سياسة الخطأ .. ومزيد من الخطأ » . ومن الطريف أن تعبير « المراهقة الفكرية » كان سائدا لدى بعض القادة فى التنديد بأساليب معادية لا تروقهم ، فهل سلموا هم أنفسهم من المراهقة الفكرية ؟

المهم أن على صبرى - أو الاتحاد الاشتراكى - تولى إدارة وتوجيه جريدة

الجمهورية . وكانت له بعض أفكار أبداها لى فى اللقاء الوحيد الذى جرى بينى وبينه فى أوائل نوفمبر بعد ترشيحه لى لرئاسة مجلس إدارة الهيئة العامة للتأليف والترجمة والنشر لاحداث توازن فيها (على حد قوله) بينى - بوصفى اشتراكيا معتدلا - وبين محمود أمين العالم مديرها العام بوصفه « شيوعيا متطرفا » ! ولما اعتذرت عن عدم قبول هذا المنصب وآثرت العودة إلى دار الهلال عضوا منتدبا لمجلس ادارتها (وهو المنصب الذى جيىء بى منه فى مايو ١٩٦٥ إلى رئاسة دار التحرير وجريدة الجمهورية) طلبنى على صبرى لمقابلته فى مقر الأمانة العامة للاتحاد الاشتراكى العربى ، وأبدى لى وجهة نظره تلك أو نظريته فى « التوازن » بترشيحى رئيسا للتأليف والترجمة والنشر . وقد أعاننى على « الافلات » من « عملية الموازنة » المذكورة وعلى تحقيق رغبتى فى العودة إلى دار الهلال همة الصديق الشهم شعراوى جمعة (وزير الداخلية فى ذلك الحين والمشرف على طليعة الاشتراكيين « التنظيم السرى ! ») كما طّوع عودتى الصديق العزيز أحمد بهاء الدين رئيس مجلس ادارة دار الهلال تأكيدا للتعاون معه فى قيادة مؤسسة دار الهلال .

وقال لى على صبرى فى هذا اللقاء « اليتيم » أن لديه أفكارا فى الصحافة ، وأنه لا موجب للمقالات الفردية وظهور أسماء المحررين والكتّاب . وأن الأولى « بصحيفة الحزب » أن يجرى عليها وفيها ما يمكن أن يسمى « الكتابة الجماعية » .. على وزن « القيادة الجماعية » !

ومن الواضح أن التعبيرات - والشعارات - التى سادت فى تلك المرحلة كانت متأثرة بما هو سائد فى البلدان الاشتراكية وبالذات يوجوسلافيا والاتحاد السوفييتى ..

على أن مشروع الكتابة الجماعية لم يمكن إعماله طويلا لأنه ضد طبيعة الأشياء والمبادرات والاجتهادات الفردية ، ولأنه « فوق كل ذى علم عليم » وفوق كل مشرف ومدير سياسة « شبه علنى » مشرف ومدير سياسة « خفى » . وآية ذلك هذه الحكاية الغريبة التى مهدتُ لها آنفا ، والتى كان ضحيتها « على صبرى » نفسه .. ويؤتى الحذر من مأمنه !

سر مقالات على صبرى .. « بغير قلمه » !

ففى أوائل سنة ١٩٦٧ بدأت مقالات يومية تنشر فى الصفحة الأولى بجريدة الجمهورية بقلم « على صبرى » . وليس المهم أنه كان يكتب مقالا يوميا فى صدر جريدة الجمهورية ، وإنما المهم هو ماذا كان يكتب ..

مع كل طلعة نهار كان المقال المذكور يختار طائفة أو مهنة من المهن ليهاجم أصحابها ويشكّك فيهم « ويشرشحهم » ! الحلاق . الجزار . البقال . التاجر . المقاول . المهندس . المحامى . الطبيب . الترزى .. الخ .. الخ .

وروى لى المرحوم الزميل الصديق « **محمد على بشير** » كيف أنه بوصفه « بلديات » على صبرى ، وعمل معه لمرحلة من المراحل ، ويحبه ، ويمكنه أن « يجترىء » عليه .. أنه قال له ذات يوم أثناء سيل تلك المقالات : **يافندم ! سيادتك ليس لديك شعبية كبيرة . فلماذا تكتسب أيضا عداوة تلك الطوائف ولا تبقى منها ولا تذر ؟!**

وهنا رمقه « على صبرى » بنظرات حزينة ، واحتار بماذا يجيبه . ثم نظر وزفر وقال : أقول لك إيه ؟ أقول لك إن هذه المقالات تأتينى مكتوبة جاهزة ، ويطلب منى نشرها« بقلمى »؟! أقول لك إننى رجوت أن تنشر بغير توقيع أو فى عمود « رأى الجمهورية » المبنى للمجهول .. فرفضوا طلبى ، وأصروا على أن أنشرها موقّعة باسمى ؟!

حقيقة .. ماذا « كانوا » يقصدون بهذا المسلك ؟

هل كانوا يرمون إلى إطلاق « **بالونات اختبار** » لمعرفة ردود الفعل ؟ هل كانت هذه المقالات تمهيدا لمزيد من « الاشتراكية العلمية » أو لالغاء « الرأسمالية الوطنية » التى تحدث عنها الميثاق ؟ هل كان الهدف منها هو « حرق » على صبرى شخصيا ؟ طيب .. ولماذا أتوا به ؟ ولماذا يفعلون به هذا رغم إرادته وهو أمين عام الحزب والاتحاد الاشتراكى ؟ ولماذا يتحمل « وزرها » ؟ ولماذا لا يقول « لا .. ويفتح الله » ؟! أم أن أحداً كبر أم صغر كان لا يستطيع أن يقول « لا » ؟!

هذه حكاية غريبة .. ومحيّرة .

على أن هذه الحكاية « الصغيرة » - وإننى أصدّق « محمد على بشير » .. وأصدّقها - لها دلالة « كبيرة » وخطيرة ، وتكشف اللثام - أو بعضه - عن أسلوب الحكم فى مصر مع بالغ الأسف .

عبد الناصر وعلامات الاستفهام والتعجب ؟!

ولا يخالجنى شك فى أن الذى كان وراء هذا الأمر هو « جمال عبد الناصر » شخصيا - مع تقديرى لحسه الوطنى ولنضاله . فإن أحدا ما سواه لا يملك أن يثنى ذراع أمين عام الاتحاد الاشتراكى وهو يعلم أنه سيرضخ له بوصفه « الزعيم الملهم » ..

ففيم كل هذا .. ولماذا؟! وما الذى أفادته مصر أو ثورة يوليو من هذا التخبط والكلمة النافذة بغير مناقشة ؟!

وإذا لم يكن هذا « السر » وغيره وغيره كثير وكثير مما كان يدور وراء الكواليس فى غيبة الديموقراطية الحقيقية دليلا على أهمية العمل الوطنى الفعلى فى ظل الحرية السياسية والديموقراطية ، فهل « الميثاق الوطنى » الصادر سنة ١٩٦٢ - والذى هللنا له جميعا وأعجبنا برصانته وأملّنا فيه خيرا - هو دليل العمل الوطنى الأوحد ؟! وهل طبقناه وعملنا به « وبجناحى الديموقراطية : الحرية السياسية والحرية الاجتماعية » أم استخدمناه فى الخطب والسلام ؟!

عشرات ومئات من علامات الاستفهام والتعجب أنتهت بعد شهور بكارثة ٥ يونيو ١٩٦٧ التى لا تنسى أبد الدهر .

وربما يثور سؤال فرعى حول مقالات على صبرى المذكورة . إذا كنا موقنين بأن الآمر بالنشر على تلك الصورة هو جمال عبد الناصر ، فمن الذى كان يكتب تلك المقالات ؟

يقال فى رواية .. إنه المرحوم الدكتور راشد البراوى الاقتصادى المعروف .

وفى رواية أخرى .. أنه المرحوم حسنى الحديدى الاذاعى المعروف والذى كان مقرّبا آنذاك لرئاسة الجمهورية . والله أعلم .

ومن هنا تكون ثلاث جهات اشتركت فى هذه المقالات . الأفكار لجمال عبد الناصر . الصياغة للبراوى والحديدى . والتوقيع لعلى صبرى ..

مسكين « على صبرى » ! اتهموه بأنه عميل للأمريكان .. وهو ليس كذلك على سبيل التأكيد . واتهموه بأنه « شيوعى » ، وهو ليس كذلك على سبيل التحقيق . وقيل له : كن رئيس وزراء ! فصدع للأمر ، ثم أُطيح به ! وقيل له : كن أمينا عاما للاتحاد الاشتراكى ! فاستجاب للتعليمات ، ثم نُكِّل به ! وقيل له بعد هزيمة يونيو ٦٧ : عُدْ إلى القوات الجوية ، وارتدِ الزى العسكرى برتبة « فريق » ! ففعل ، ولم يلبثوا أن حجبوه بالفريق مدكور أبو العز !

وكانوا يدارون على أخطاء وخطايا وجرائم قد يرتكبها من لحظتهم « عين الرضا » سواء كان « الخاطئون » فى قمة السلطة أم منتسبين إليها . وآه إذا أرادوا « قرص » أحدٍ مهما علا وثقل قدره ومهما خف ذنبه . وليست بعيدة عن الأذهان حادثة الحقائب المضبوطة فى مطار القاهرة لدى عودة على صبرى من موسكو فى بدايات سنة ١٩٦٩ .. والتى كان اعلانها على صفحات الصحف بضجيج مقصود فاضح مفضوح .. حكاية وأية حكاية !

وحتى بعد عبد الناصر وفى عهد السادات نقول « مسكين .. على صبرى » . اتهموه بتدبير مؤامرة انقلاب ١٥ مايو ٧١ ، وحكم عليه السادات بالاعدام وخففه إلى الأشغال الشاقة المؤبدة ، فى حين أن « على صبرى » لم يدبر انقلابا ولا يحزنون .. وباعتراف الرئيس الراحل أنور السادات نفسه فى « فلتة لسان » بين خطبة من خطبه !

وليس معنى كون « على صبرى » مسكينا أنه كان إنسانا وديعا بلا مطامع ولا طموحات ولا مناورات وتكتيكات ولا دهاء ، **فإنه - فيما أظن وفيما تواتر - كان داهية وغير هيّن** . ولكنهم « ظلموه » على أى حال ، وحسابه وحسابهم وحسابنا عند العزيز الحكيم .

على أن ثمة حكاية صغيرة ومؤثرة جدا .. ومصدرها أيضا المرحوم محمد على بشير ..

وهى عندى تساوى الكثير . بل هى « على سلبيتها » من أشد ما قدرته « لعلى صبرى » .. ربما لكونه فى هذه الحكاية شاركنى همومى وهموم المصريين بصورة صريحة ومأساوية ..

ففى يوليو ١٩٦٧ وبينما كان على صبرى متجها من قصر القبة إلى بيت جمال عبد الناصر بمنشية البكرى مر فى طريقه أمام منزل المرحوم مصطفى المستكاوى رئيس تحرير المساء والتعاون السابق وضابط المخابرات العامة فى بداية الثورة ، وكان المستكاوى قد فاضت روحه إلى بارئها فى أبريل ١٩٦٧ .. أى قبل هزيمة ٥ يونيو بأسابيع .

وفى مساء اليوم نفسه من يوليو ١٩٦٧ تصادف أن التقى المرحوم محمد على بشير بعلى صبرى الذى قال له : عارف يا بشير أنا شعرت بإيه اليوم وأنا أمر أمام بيت المرحوم مصطفى المستكاوى ؟.. لقد « حسدته » أنه مات قبل أن يشهد هذه الكارثة الفظيعة التى نعيشها ..

وكأنما أطل المرحوم مصطفى المستكاوى من قبره ليقول لعلى صبرى ولنا جميعا : حتى على الموت لا أخلو من الحسد !

وقد آن أن نعود إلى عزيزنا وحبيبنا المرحوم حسين حافظ فهمى الذى جعلنا انتقاله إلى مصلحة خفر السواحل نستطرد فى حديث ذى شجون ..

فلقد عمل حسين حافظ فهمى لفترة طويلة – وهو فى خفر السواحل – قائدا لمباحث الموانى والمنائر ، وكانت سمعته أنقى من الماس الحر الغالى شديد النقاء .

ثم آثر « حسين » العمل الحر ، وخاصة أن شقيقه المرحوم فهمى حافظ فهمى كان قد انتقل إلى جوار الله تاركا من بعده امتياز فندق قصر النيل المتعدد الطبقات والغرف والشقق والذى يحظى بموقع هام وسط القاهرة . ومن بعد « فهمى » (الذى لم يتزوج) أدار الفندق شقيقهم حمدى حافظ (مدير مصلحة الاستعلامات السابق)

الذى لم يتزوج هو الآخر ثم انتقل إلى رحمة الله . ولم يجد حسين حافظ فهمى مندوحة من أن يتفرغ لهذا العمل الفندقى السياحى الدائب ، فأصبح مديرا عاما لفندق قصر النيل .

ولم يلبث « حسين » أن لحق بشقيقيه الراحلين فهمى وحمدى .. رحمة الله عليهم جميعا .

وشقيقه « حسن » .. ضحية « المقعد الفردى » !

وقد تسلم الراية – راية فندق قصر النيل ! – من بعدهم شقيقهم حسن حافظ فهمى .

وحسن حافظ فهمى ليس شقيق حسين حافظ فهمى فحسب ، ولكنه أيضا دفعته ودفعتنا . وهى الحالة الوحيدة فى دفعة سبتمبر ٤٢ التى اجتمع فيها شقيقان ، وإن كان جميع الـ ١٩١ أشقاء ! ومن أشهر حالات « الشقيقين » فى الدفعة الواحدة حالة « التوأمين » حسين وحسن مطاوع والتى سميت دفعتهما (نوفمبر ١٩٣٩) باسمهما فهى « دفعة مطاوع » لأن أحدهما جاء ترتيبه الأول ، والآخر ثانى الدفعة ..

وإذا كان المشهور عن المرحوم حافظ بدوى أنه « حافظ الميثاق » وأن حفظه للميثاق الوطنى ٦٢ عن ظهر قلب قد لفت نظر عبد الناصر فعيّنه وزيرا للشئون الاجتماعية ، ثم أصبح رئيس مجلس الأمة والشعب فيما بعد ، فإن حسن حافظ فهمى هو « حافظ الدستور ومضابط المجالس النيابية السابقة » ! وذلك لوفرة استشهاده بهما فى كلماته كعضو بمجلس الأمة والشعب وككاتب فى الصحف .

وقد اكتشفت قوة حافظة حسن حافظ فهمى فى الكلية الحربية . لم يكن يحفظ دروس الكلية ، وإنما يحفظ أقوال المشاهير من يوليوس قيصر إلى روبسبير إلى نابليون إلى جورج واشنطن إلى عدد لا حصر له منهم غربا وشرقا . والحق أن حسن حافظ فهمى كان أحد أبرز المتحدثين المشاركين فى عضوية مجلس الأمة ثم فى مجلس الشعب . وقد احتفظ بمقعده فيهما طويلا إلى أن ثارت حكاية الانتخابات بالقائمة النسبية بدلا من الانتخابات الفردية . وحين ناصر حسن حافظ الانتخابات الفردية

(وإن كان قد نجح من قبل فى ظل الانتخابات بالقائمة) ورئى الجمع بين الطريقتين فى الانتخابات الأخيرة سنة ١٩٨٦ دفع « حسن » ثمن مطالبته بالانتخابات الفردية ! ذلك أن الحزب الوطنى الديموقراطى الذى هو عضو فيه وفى أمانته العامة استبعده من قائمته فى دائرته وتركه « مكشوفا فى العراء » ومرشحا للمقعد الفردى بتلك الدائرة (امبابة) فيما يشبه التوريط له بل التآمر عليه بمقلب مرسوم ! وكان منافسه فى المقعد الفردى له شعبية عريضة فاكتسح حسن حافظ فهمى الذى لم ينجح لأول مرة فى الانتخابات . واتهم حسن حافظ الحزب الوطنى صراحة بالعمل ضده . ثم بعث باستقالته من الأمانة العامة ثم من الحزب الوطنى نفسه ! وانتقل حسن حافظ فهمى إلى المعارضة .. على الأقل فيما يكتب بجريدة الوفد التى أصبح من كتابها شبه الثابتين ..

ربما حفظ حسن حافظ فهمى قواعد اللغة العربية ، ولكنه نسى أن يحفظ « قواعد اللعبة السياسية » !

٢٢

محمد فؤاد نصر

من الذكريات المؤثرة الباعثة للشجن فى سنة ١٩٧٧ أنه فى اليوم التالى لتشييعى جنازة المرحوم الزميل العزيز محمد فؤاد نصر .. زارنى بمكتبى فى الأهرام الزميل العزيز محمود عبد العزيز مدير تحرير الأهرام . وبعد أن جلس إلىّ قليلا أفصح عن مراده من الزيارة قائلا : الحقيقة أنا مش عارف حد غيرك أعزّيه فى المرحوم محمد فؤاد نصر . وجئت لأعزيك فى وفاته ..

ذلك أن محمود عبد العزيز عمل مديرا للتحرير بجريدة الجمهورية فى أول الستينيات وكان المرحوم محمد فؤاد نصر مديرا عاما لدار الجمهورية وكنت رئيس مجلس ادارة دار التحرير بالنيابة والتى تتبعها دار الجمهورية ، وطالما اجتمع ثلاثتنا معا فى شأن أو آخر قبل أن ينقل الاثنان (فؤاد نصر ومحمود عبد العزيز) من دار التحرير فى أكبر « مذبحة تشريد » للصحفيين والاداريين جرت سنة ١٩٦٤ فى الدار

الموعودة بعمليات الفصل والفصد والذبح . وكنت إبان تلك المذبحة الأخيرة أعمل في دار الهلال .

ووجه الشجن في هذه الحكاية (عزاء محمود عبد العزيز لي في فؤاد نصر) أنه لم تمر سوى شهور قليلة وإلا وكان « محمود عبد العزيز » نفسه قد لقى مصرعه في حادث انقلاب السيارة التي تقلّه وتقل على حمدى الجمال (توفى رحمة الله عليه هو الآخر في أول الثمانينات) ..

ألم أقل ويقل غيرى أننا نحن في الدنيا مجرد موتى يعزّون في موتى ويشيعون جنازات موتى ؟

ولقد ظهر محمد فؤاد نصر أول ما ظهر في الجيش مع ثورة ٢٣ يوليو ٥٢ حين عمل « أركان حرب » مجلس قيادة الثورة .. أي ضابط الشئون الادارية والأمنية لمجلس القيادة . وبحكم موقعه « كمدخل » إلى مجلس قيادة الثورة كان يلتقى كل يوم بأعضاء مجلس قيادة الثورة ويحييهم ابتداء من اللواء أ . ح محمد نجيب والبكباشى جمال عبد الناصر إلى قائد الجناح جمال سالم وقائد الجناح عبد اللطيف البغدادى والبكباشى أ . ح زكريا محيى الدين والصاغ أ . ح عبد الحكيم عامر والصاغ أ . ح صلاح سالم والصاغ أ . ح كمال الدين حسين والبكباشى حسين الشافعى والبكباشى أنور السادات وقائد الأسراب حسن إبراهيم والصاغ خالد محيى الدين .

وكان من بين أعضاء مجلس قيادة الثورة في بدايته وقبل إعلان تشكيله رسميا القائمقام **عبد المنعم أمين** الذى استبعد من التشكيل مبكرا ليمينيته « المتطرفة » **والقائمقام أ . ح يوسف منصور صديق** الذى استبعد هو الآخر فلم يتضمنه التشكيل الرسمى نظرا ليساريته « المتطرفة » (ولم يقتصر الأمر على مجرد استبعاد يوسف منصور صديق بل دارت الأيام سريعا ليودع في السجن الحربى ويلقى تعذيبا ولم يشفع له أنه كان الركيزة الأساسية العملية الايجابية لنجاح ثورة ٢٣ يوليو والتى جعلت منه بعد ذلك الركيزة الأساسية لمبدأ « **الثورة تأكل أبنائها** » !) .

كما أن اليوزباشى محمد فؤاد نصر بحكم موقعه كأركان حرب وضابط اتصال

للمجلس كان على جميع زوار المجلس أن يمروا عليه ويدخلوا من « بوابته » ابتداء من الوزراء حتى الخفراء .

ولما كانت الثورة ابنة الانقلاب بل سميت « انقلابا » فى شهورها الأولى ، فإن « الطابع الانقلابى » غير المحسوس جهارا لزم صحف ثورة يوليو جميعا . فلا أنور السادات بقى « الكل فى الكل » بجريدة الجمهورية ودار التحرير . ولا محسن عبد الخالق الذى « غطى عليه » استمر فى صولجانه ، بل نحّاه جمال عبد الناصر وأتى بعبد الرؤوف نافع « للتطهير » و « التوفير » فى سنة ١٩٥٨ . ولا عبد الرؤوف نافع ظل طويلا فى دار التحرير هو الآخر لتنفيذ السياسة التى اتفق عليها مع عبد الناصر حيث « ضربه » فجأة فى أبريل ١٩٥٩ بتعيين صلاح سالم رئيسا لمجلس ادارة دار التحرير والجمهورية (فى المصالحة الثانية والأخيرة بينه وبين عبد الناصر) ! وهكذا على المستويات الأصغر أيضا ..

هذا عن « الجمهورية » أما جريدة « الشعب » فقد عصف العدوان الثلاثى فى نوفمبر ١٩٥٦ بصلاح سالم و« ركنه » عبد الناصر مرة أخرى فى بيته ، وتوزعت السلطة فى « الشعب » بين هذا وذاك إلى أن أعاد عبد الناصر صلاح سالم فى أبريل ١٩٥٩ من دائرة الظل رئيسا لدار التحرير (كما قدمت) والتى باتت تضم إلى جانب جريدة الجمهورية جريدة الشعب أيضا .. حتى رؤى اماج الجريدتين معا فى جريدة الجمهورية واحتجاب جريدة الشعب فى سبتمبر ١٩٥٩ واقتصارها على الأعمال الطباعية لا الصحفية (كمخرج لفظى لعملية الادماج و « للتحايل » ولانقاذ ماء الوجه اقترح المرحوم كامل الشناوى « أحد رؤساء تحرير الجمهورية آنذاك » أن يصبح اسم جريدة الجمهورية هكذا « الجمهورية » ثم يكتب تحت هذا العنوان الكبير بخط أصغر كلمة « جريدة الشعب » ! ووضع هذا الاقتراح موضع التنفيذ بالفعل إعجابا بالحل الذكى « الشاعرى » الذى اقترحه كامل الشناوى) .

وفيما يخص « جريدة المساء » والتى كانت تمثل الفكر اليسارى الناضج والرائد بقيادة خالد محيى الدين والتى اعتبرها البعض « وكر الشيوعيين » (وكان فيها عدد من الشيوعيين فعلا) فقد أقصى جمال عبد الناصر - بين عشية وضحاها - زميله

وصديقه خالد محيى الدين عنها بعد فشل « ثورة الشواف » بالعراق فى أوائل سنة ١٩٥٩ (وكان عبد الناصر فى تلك المرحلة قد بدأ فى مهاجمة الاتحاد السوفييتى بجسارة يحسد عليها – لاختلافه وخروشوف فى شأن الثورة العربية) . وجاء عبد الناصر بمصطفى المستكاوى رئيسا لتحرير المساء بدلا من خالد محيى الدين ، وتغيرت سياسة المساء تماما مع اعتقال عدد غير قليل من محرريها فى الاعتقالات التى نكلّت بمعظم « الشيوعيين » المصريين .

وأخيرا – ومازال الحديث مستمرا **عن « تجارب الثورة مع الصحافة »** – كانت خاتمة المطاف فى حكاية الثورة مع صحافتها والصحافة عامة هو قرار تنظيم (تأميم) الصحافة فى ٢٤ مايو سنة ١٩٦٠ لتصبح الصحف والمجلات كلها مملوكة للاتحاد القومى .. أى لثورة ٢٣ يوليو .

وهدأ بال الثورة وجمال عبد الناصر .. وإن لم يكف – فى ظل تنظيم وتأميم الصحافة – عن الانقلابات والتغييرات بين المؤسسات الصحفية ورؤسائها المعينين ورؤساء تحريرها المختارين ، ذلك أن « اللعبة » أصبحت « لعبته » وميدانها دان له واتسع وتيسّر !

ومع اغلاق جريدة الشعب فى سبتمبر ١٩٥٩ انتقل محمد فؤاد نصر (وأرجو ألا نكون نسينا أننا نتحدث عنه بعد هذه « المعمعة » من الأسماء والأحداث !) وأمسى مديرا لادارة جريدة المساء فمديرا عاما لدار الجمهورية للصحافة .

فما هى أهم « وأوجع » الحكايات التى كان بطلها أو « ضحيتها » محمد فؤاد نصر عبر تلك المرحلة من حياته ؟

« المشير » عامر « يشير » إلى عمارة خطأ فتقوم القيامة على « فؤاد نصر » !

فى خريف سنة ١٩٦٢ ، وبينما كان جمال عبد الناصر عائدا من مصيفه بالاسكندرية وفى رفقته بالعربة المشير عبد الحكيم عامر ، وبعد أن تعدت العربة قليوب مارة بطريق الكورنيش بمدخل القاهرة فى الطريق الزراعى .. أشار

« المشير » عبد الحكيم عامر إلى عمارة ضخمة ذات طوابق عشرة ، وقال لرفيق عمره ورحلته جمال عبد الناصر : هذه هى العمارة التى بناها وتملكها محمد فؤاد نصر !

وما كان فؤاد نصر فقيرا بل ميسورا ورث عن أسرته ما ورث . والأهم أن العمارة المذكورة المشار إليها ذات الطوابق العشر لا هو بناها ولا تملكها .

أخطأ المشير عامر فى اشارته . ولم يشر الاشارة الصحيحة إلى العمارة ذات الطابق الأرضى وثلاثة طوابق فوقه التى تخص فؤاد نصر .. ودفع المسكين فؤاد نصر ثمن خطأ المشير !

ففى تبليغ عاجل لنا فى دار التحرير طالبونا بأن « فؤاد نصر يقعد فى بيته » ! .. قامت القيامة على فؤاد نصر .

ولم يكن فى وسعنا إلا التنفيذ دون أن نعرف الأسباب التى اتضحت لنا بعد أيام . نعم اتضحت لنا الواقعة بعد أيام ، أما الحقيقة فقد اتضحت للمسئولين بعد شهور ! وهكذا أعادوا فؤاد نصر إلى مكانه محطم الأعصاب مع أنهم كان فى مقدورهم أن يتبينوا منه مصادر ومظاهر ثروته بالمستندات والمعاينات فى ساعة زمان ! ولكن للأسف هكذا كانت تجرى الأمور ..

حتى الكلمة التى يمكن أن ترد على لسان أحد من الناس فى جلسة أو ناد ، وتبلغ محرّفة عن مواضعها استطاعت أحيانا أن تضع صاحبها تحت الحراسة شهورا أو سنين ، وربما تعتقله ..

وصدّق أو لا تصدّق أن هذا ليس هجوما على الثورة ، لأنه من ناحية « حدث بالفعل » ، ومن ناحية أخرى هو « نقد ذاتى » .

ماذا على ثورة ٢٣ يوليو لو لم تخالجها وتخامرها وتلح عليها هذه المهلكات . الاحساس الشديد المفتون بالقوة واستعراض العضلات . التصور بأنها هى التى تملك الرزق .. تعطى وتمنع . التوهم الدائم بأن الثورة فى خطر يتآمر عليها ، وأن ثمة أعداء شدادا للثورة فى الداخل ظاهرين وكامنين ولا سبيل لاجتذابهم إليها

واحتوائهم .. وإنما السبيل الأوحد هو التنكيل بهم وبكل من تحيط بهم الاشتباهات أو تخلق لهم الشبهات ؟!

ماذا على الثورة لو أنها أحبت الشعب كل الشعب ووثقت فيه وأعطته حرياته السياسية كاملة ، كما أحبها الشعب ووثق فيها وأعطاها مباركته واستعداده للتجاوب مع آمال نهضة مصر ؟

ما يغفر وما لا يغفر للثورة

طبعا من السهل أن تطرح هذه الأسئلة والانتقادات بعد نيف وثلاثين سنة من قيام ثورة ٢٣ يوليو ، وكان من الصعب وغير السهل - وهى المسئولة عن « التصعيب » .. ونحن أيضا مسئولون ! - أن نناقش مع ثورة ٢٣ يوليو هذه المسائل فى حينها ، **وهى التى تغرقنا كل يوم وآخر بقولها إننا نمر بمرحلة عصيبة بالغة الدقة ، وأن كل شىء يهون فى سبيل الحفاظ على مصر .. والثورة !**

وقد تغفر للثورة أو لا تغفر أخطاؤها فى مقابل عدد من الانجازات الوطنية والقومية والاجتماعية .

وقد يغفر للمشير عبد الحكيم عامر أنه أخطأ فى اشارته تلك إلى عمارة محمد فؤاد نصر .. فالضحية فرد واحد وإلى أجل مسمى . أما الذى لا يغفر للمشير وغير المشير فالخطأ الفادح الرهيب الذى انتهى بهزيمة ٥ يونيو .. لأن الضحية شعب بأسره وإلى أجل غير مسمى .

وهكذا فمعظم الحكايات والطرق تؤدى - عندى أنا على الأقل - وتذكرنى وتقذف بى حطاما ممزقا فى أدغال وهاوية ٥ يونيو ٦٧ .

ولقد أعلم أن هزيمة ٥ يونيو ليست هى الخطأ الوحيد ، ولكنها « المحصلة » لممارسات شتى خاطئة على مدى الأعوام السابقة عليها ، و « المحطة الأخيرة » لسلبيات متصلة شخصية وجماعية ، وسلوكية ومناخية ، وتكتيكية واستراتيجية .

وإذا كنت قد قلت وكتبت ومازلت أقول وأكتب أن أمجد وألمع فترة فى حكم

جمال عبد الناصر هى التى أعقبت هزيمة ٥ يونيو حين أخذ يعيد بناء القوات المسلحة ويستجيب للشعب الذى رفض الهزيمة فقد لا أود أن أعكر صفو وصدق هذا القول بأن أردد مطلع أغنية عبد الحيم حافظ : بعد إيه ؟ بعد إيه ؟!

وإذا كنت شأنى شأن كل مصرى وكل عربى قد سعدت بالنصر الطيب - على محدوديته - الذى تحقق فى معركة العبور و ٦ أكتوبر ١٩٧٣ فإن براءة ذمة عبد الناصر وبراءة ذمة مصر والبلدان العربية لن تتم حقا وصدقا إلا بعد إزالة آثار العدوان تماما من كل بقعة عربية وفى طليعتها فلسطين .

ووجه الصعوبة فى ذلك - ولا أقول الاستحالة - لأنه « لا يأس مع الحياة » .. أنها محتاجة إلى التضامن العربى ومازلنا متفرقين ، وإلى العقل ومازلنا متخلفين ، وإلى القوة ومازلنا مستضعفين .

ولابد أن نقهر هذه الصعاب والعوائق ولو بعد ثلاثين سنة من الآن مادمنا قد أخفقنا فى قهرها - وكان ذلك طوع أيدينا لو صدقنا وتجردنا وعملنا - منذ ثلاثين سنة !

هذا هو رأيى .. واعذرونى . وقد أكون مخطئا .. ولكنى أشهد الله أننى لست متحاملا . وقد أكون حالما ، ولكنى أرجو الله أن يلهمنا - بقدرته - تحقيق الأحلام والحق والعدالة .

وهذا هو وجدانى .. وليس فى مقدورى التخلى عن وجدان شاعر !

ورحم الله جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر وغفر لهما ، وليرحمنا الله ويرحم محمد فؤاد نصر ..



عبد الكريم عطية موسى

كثيرون التحقوا بالكلية الحربية أكبر منه سنا . ولكن « عبد الكريم عطية موسى » الذى جاوز اثنتين وعشرين سنة عند التحاقه بالكلية الحربية كان يبدو أكبر

كثيرا من سنه . بوجهه الأسمر النحيل المعروق والذى لا تفيد حلاقة الذقن معه فى إخفاء منابت الشعر الكثيف فهى خضراء سمراء دائما ، وبطريقة سيره بركبتيه أكثر مما يمشى بقدميه وساقيه ، وبنحوله وبصوته العجوز ! كأنما كان يتنكر بزيه العسكرى .. بالقميص الكاكى والشورت الكاكى والقالشين ، فى حين أن حقيقته - شكلا .. لاموضوعا حتى ذلك الحين على الأقل - أقرب إلى شيخ أزهرى معمّم .

ولا يعدو أن يكون هذا وصفا شكليا عاما لا استخفافا - معاذ الله - فإن الله عز وجل كما جاء فى الحديث الشريف « لا ينظر إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » .

على أن « التهريج » لم يكن ينقص عبد الكريم عطية موسى فى الكلية الحربية .

فمن فرائد عبد الكريم عطية موسى حكاية طريفة تعود بنا إلى « تلصصات » اللواء مصطفى باشا صادق مدير الكلية الحربية والتى عرضت لأطراف منها فى مواضع سابقة .

كان عبد الكريم عطية موسى زميلنا فى سريتنا الثالثة الموعودة ، وبالتالى فى اعدادى ٣ .

وأثناء درس تكتيك حول تختة الرمل وفى المكان المخصص للوقوف حولها يحوطنا ويظلّنا مبنى قوامه « الخشب البغدادلى » كان يشرح لنا الدرس اليوزباشى (القديم) عبد الله عبد الشافى الشرقاوى الذى أكسبته كفاءته وقدرته وجديته ثقة واعتدادا بالنفس . وبينما كان عبد الله عبد الشافى الشرقاوى يشرح ويسأل إذ مر اللواء مصطفى باشا صادق ، وأخذ يستمع وينظر إلينا من خلال فتحات الخشب البغدادلى ، ثم لم يلبث أن دخل من الباب ووجه حديثه إلى عبد الله عبد الشافى الشرقاوى قائلاً : الطلبة نايمين يا حضرة اليوزباشى .. أصواتهم ضعيفة ! لازم يصحو ! فأجابه الشرقاوى : حاضر يا باشا ! فاستطرد الباشا قائلا : المفروض زى الكتاتيب . أنت تقول التبة السوداء فيرد عليك الطلبة بصوت عال .. التبة السوداء ! وتقول التبة الحمرا فيرددون وراءك التبة الحمرا ! وسكت الشرقاوى سكوتا لا هو علامة الرضا ولا علامة الامتعاض وإنما دليل الانصياع العسكرى .. وأمره لله ! أى

أنه يأخذه على عقله « مؤقتا » ! وانصرف الباشا . وعاد عبد الله عبد الشافى الشرقاوى يستأنف الدرس والشرح والأسئلة بطريقته هو !

وبعد عشر دقائق عاد الباشا « يتلصص » من خلال البغدادلى . ولمحه « عبد الكريم عطية موسى » فراح يصيح ويهلل : التبة السوداء .. التبة الحمرا ! فنهره عبد الله الشرقاوى : إيه ده ؟ فأجابه عبد الكريم : هس ! الباشا جاى ! وأخذنا نردد من وراء عبد الكريم عطية موسى : التبة السوداء . التبة الحمرا ، وقد فارق النعاس أعيننا تماما .. من فرط الضحك !

وثمة حكاية أخرى بالغة الطرافة من نوادر اللواء مصطفى باشا صادق . ففى امتحان اللغة الانجليزية بالكلية الحربية وأثناء مرور الباشا على لجان الامتحان اشتكى له زميلنا (وقريبه) عبد الفتاح الفقى من صعوبة أسئلة تلك المادة ! وأمسك الباشا بورقة الأسئلة وتصفحها ثم قال : أبدا .. دى سهلة جدا ! خذ مثلا هذا السؤال when the war is over ما هو وجه الصعوبة فى ذلك ؟ يعنى الحرب تبقى فوق .. يعنى تبقى حرب طائرات ! ولم يفطن الباشا أن المعنى هو « عندما تنتهى الحرب » ! وكان القائمقام أ . ح عباس زغلول كبير المعلمين العسكريين يصاحب الباشا فى مروره على اللجان . وإذ سمع الباشا « يسرح » هذه السرحات التفت إليه أمام الطلبة قائلا بصوت عال : كفاية ياباشا .. أنت قلت لهم المقرر كله ! وسحب عباس زغلول مديره ومدير الكلية اللواء مصطفى باشا صادق برفق وأدب إلى خارج اللجنة !

عبد المنعم عبد الرؤوف الثورى الإسلامى
يقود انقلابا لتغيير عبد الكريم عطية !

غير أن هذا الطالب الضعيف البنية المكتهل المهرج - عبد الكريم عطية موسى - اختلفت مسيرته تماما بعد التخرج حينما عمل فى كتيبة واحدة مع البكباشى (ثورى الجيش والاخوان المسلمين) عبد المنعم عبد الرؤوف بمدينة رفح فى أول الخمسينيات . من ناحية فإن لدى عبد المنعم عبد الرؤوف قوة جذب غير عادية ، ومن ناحية أخرى فإنه كان لدى اليوزباشى عبد الكريم عطية موسى استعداد كامن لمثل هذه الاستجابة . إننى أتحدث عن الاتجاه الدينى الثورى الإسلامى .. وعلى وجه

التحديد المؤيد للأخوان المسلمين المتأثر بها . فقد توطدت الصلة بين عبد المنعم وعبد الكريم فى تلك البقعة النائية وأحدث عبد المنعم انقلابا فى عبد الكريم حتى بات كأنما هو الساعد الأيمن لعبد المنعم عبد الرؤوف .

وعبد المنعم عبد الرؤوف هو الذى تقدم ذكره فى هذا الكتاب حين تناولت حكاية هرب الفريق عزيز المصرى باشا بطائرة يقودها حسين ذو الفقار صبرى وعبد المنعم عبد الرؤوف وهبطت هبوطا اضطراريا وقدّم الثلاثة للمحاكمة ونُقل الطياران حسين وعبد المنعم من القوات الجوية إلى القوات البرية بالمشاة . ومعروف أن عبد المنعم عبد الرؤوف كان « قطبا » فى الجناح العسكرى للأخوان المسلمين وفى تنظيم الضباط الأحرار وحاول أن يشد تنظيم الضباط الأحرار إلى قلب الاخوان المسلمين المسلح لولا أن جمال عبد الناصر عارض بشدة واختلف الاثنان عبد المنعم وعبد الناصر ، وتصاعد الخلاف بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو ٥٢ ، وازداد حدة بعد المواجهة « الدموية » بين ثورة يوليو والاخوان المسلمين .

واستطاع عبد المنعم عبد الرؤوف خلال تلك الآونة (وكانوا قد حكموا عليه بالاعدام وربما خفف للمؤبد) أن يهرب إلى فرنسا . نجح هذه المرة .. لم تسقط به طائرة ، ولا تعطلت عربة ، ولا جنحت سفينة ! والمهم أنه لم يهرب وحده ولكن هرب معه إلى فرنسا زميلنا ودفعتنا عبد الكريم عطية موسى . بوصفه صفيّه وخليله وساعده الأيمن !

ما كان يمكن لأحد فى السرية الثالثة بالكلية الحربية أن يصدق أن صاحبنا عبد الكريم عطية موسى سوف يتحول هذا التحول ، وسوف يقاوم الثورة ، وسوف يحاول أن يقوم بثورة مضادة مشتركا فى ذلك مع عبد المنعم عبد الرؤوف ، وسوف يهرب من مصر إلى باريس !

ولكن لماذا أقصر القول والدهشة على ما جرى من عبد الكريم عطية وله ؟ ومن كان يصدق آنذاك كل تلك التحولات التى جرت لنا بعد ذلك وعبر سنوات قليلة أو كثيرة ، ولا أكاد استثنى أحدا ؟

ولم يطب العيش لعبد الكريم عطية فى باريس (لا فى التبة السوداء ، ولا فى



عبـد المنعـم عبـد الـــرؤوف ..
حياة ثائرة من البداية إلى النهاية .

التبة الحمرا !) . عاد إلى مصر مختفيا (وكأنه بيرم التونسى الثانى !) . واختبأ لدى عمدة « كفر حكيم » بالجيزة . شهامة من « جيزاوى صعيدى » نحو « منوفى بحراوى » .. ولتحيا ذكرى مينا موحد الوجهين البحرى والقبلى !

على أن « عبد الكريم عطية موسى » ذا الجسد النحيل المكدود المعلول لم يتحمل هذا الذهاب والإياب والهرب والاختفاء ، فمرض واشتدت عليه العلة . فماذا بعد ؟

« يأيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية ، فادخلى فى عبادى ، وادخلى جنتى » .

٢٤

عبد المنعم السباعى شاهين

أراد « عبد المنعم السباعى » حين التحق بالكلية الحربية بين « دفعة البحرية » – التى أدمجت فى دفعتنا – أن يخوض العباب فوق سفن البحار ، فإذا به فى سلاح الحدود لا يجد سوى « سفينة الصحراء » – الجمل – يجوب بها الفيافى والصحارى كشفا عن مهربى المخدرات !

وعبد المنعم السباعى هو صاحب « أعلى ضحكة » فى دفعة سبتمبر ٤٢ . وقهقهاته العالية رافقته فى الكلية الحربية وفى الجيش وفى الاذاعة وفى الصحافة وحتى النفس الأخير .

ومع بدايات ثورة ٢٣ يوليو ٥٢ عمل عبد المنعم السباعى كضابط اتصال فى الاذاعة المصرية . وأتاحت له هذه الاتصالات التعرف على العديد من كبار الفنانين والفنانات . وحتى لو لم يكن فى هذا الموقع لمكّنته مواهبه الفنية من أن يخترق الحصار حول الاذاعة ، ولأمسى مطلوبا من كبار الفنانين والفنانات ، ولأثبت وجوده وكفاءته وقدرته على تطويع الكلمة الرشيقة والأغنية الرقيقة والمسلسلات الشائقة .

غنت له أم كلثوم وعبد الوهاب وعبد الحليم

« عبد المنعم السباعى » إذن اسم معروف مشهور وخالد ومشرف للدفعة .

غنت له « أم كلثوم » أغنيتها الحلوة المرحة النابضة : « أروح لمين . وأقول يامين ؟ ينصفنى منك ، ماهو أنت فرحى ، وأنت جرحى ، وكله منك » ! .. وغيرها .

وغنى له عبد الوهاب أغنيته الجذابة المتطورة : « أنا والعذاب وهواك عايشين لبعضينا ، آخرتها إيه وياك ، يا للى أنت ناسينا » ! .. وغيرها .

وغنى له « عبد الحليم حافظ » أغنيته العذبة الشجية « لايق عليك الخال ياللى الهوى خالك ، مشغول عليك البال ولا حد على بالك » ! .. وغيرها .

وغنى له « فريد الأطرش » أغنية « الدم مايهونش » .

وغنت له نجاة « ياللى أنت حبيبى وتاعبنى فى حبك ، النار ياحبيبى ولا قسوة قلبك » .

وغنى له العديد من المطربين والمطربات . ووجد كبار الملحنين فى كلماته السهلة الموسيقية (بنت البلد) مجالا متسعا لابداع ألحانهم فحبروها تحبيرا ..

ولقد كانت المسلسلة الاذاعية « سمارة » التى كتبها عبد المنعم السباعى والتى أذيعت على مدى شهر هى « خبطة المعلم » وضربت رقما قياسيا فى الذيوع والانتشار ، وحبست أنفاس المستمعين فى متابعتها . وحازت إعجابا منهم عظيما حتى أنها أعيدت إذاعتها مرارا وتكرارا ، وأصبحت من علامات الطريق من المعالم الشهيرة فى الاذاعة المصرية . ثم قدمها سينمائيا فظفرت بنفس القدر من النجاح .

وكتب عبد المنعم السباعى للاذاعة والسينما الكثير من الأعمال الناجحة . مثلا فى الاذاعة كان يكتب « أقصوصة » مدتها ٣ دقائق بين مواد « مجلة الهواء » . وفى السينما كتب لاسماعيل يس عددا من أشهر أفلامه « إسماعيل يس فى الجيش وفى البحرية » .. الخ .

ثم « صام » عبد المنعم السباعى فجأة عن الانتاج الفنى ، ويبدو أنه اطمأن إلى أنه سيورث مواهبه الفنية بصورة أو بأخرى إلى ابنه المخرج السينمائى الشاب « مدحت السباعى » .. والذى لم ينسى أن يعيد تقديم وإخراج تحفة أبيه « سمارة » ، وإن تصرف فى الاسم وسماها « نواعم » ..

وقد اشتغل « عبد المنعم السباعى » بالصحافة مبكرا ، وعمل محررا (من منازلهم أو من معسكراتهم) فى مجلة « روز اليوسف » منذ سنة ١٩٤٥ . ولأن باب « جراح قلب » بدأه فى روز اليوسف شاعر غنائى رقيق هو المرحوم « إسماعيل الحبروك » ثم تركه إلى مجلة الجيل الجديد فجريدة الجمهورية حيث تولى إسماعيل الحبروك رئاسة تحريرها مع « جمهرة » من رؤساء التحرير فى سنة ١٩٥٩ وحتى انتقل إلى رحمة الله فى سنة ١٩٦١ ، فإن الذى أعقبه فى تحرير باب « جراح قلب » فى روز اليوسف شاعر غنائى آخر هو « عبد المنعم السباعى » . يرد على أسئلة

ومشكلات العشاق الحائرين ! وحين انتقل عبد المنعم السباعى للعمل فى جريدة الجمهورية تولى تحرير الباب المماثل باسم « قلوب حائرة » .

وعندما لاحظت على « عبد المنعم السباعى » فى « الآونة الأخيرة » وخلال رئاستى لتحرير الجمهورية فى أوائل السبعينيات أن بعض ردوده على القراء (أصحاب المشكلات العاطفية) تتسم بالعنف وبما يشبه القسوة رجوته أن يعود إلى رقته الشاعرية الأصيلة . وكان ودودا كما عهدته فتقبل كلماتى بروح طيبة ، وإن لم يتخل عن قهقته العالية ! وحين داعبته فى إحدى المرات قائلا « إيه يا عبد المنعم حكاية أنك تكتب فى بعض ردودك على رسائل قارئة أو آخرى قائلا : اتصلى بى ! يا منعم إنت كبرت على كده » ! عندها هزت قهقهاته أرجاء « الجمهورية » !

لقد مضت على رحيل الأخ العزيز المرحوم عبد المنعم السباعى عشرة أعوام أو يزيد ، ولا يزال يرن فى مسمعى صوته « المبحوح » الذى شرخته كثرة التدخين . ولن أبرح أطلب له الرحمة من الله كلما ذكرته وكلما شدا بأغنياته شاد . وكأننى أهتف الهتاف الكروى : بص شوف .. الدفعة بتعمل إيه ! (وبالمناسبة كان عبد المنعم السباعى أحد أحسن الظهراء فى فريق كرة القدم بالكلية الحربية) .

حقا إن دفعة سبتمبر ٤٢ دفعة خصيبة « ولاّدة » موهوبة بفضل الله وحمده .

الفصل السادس

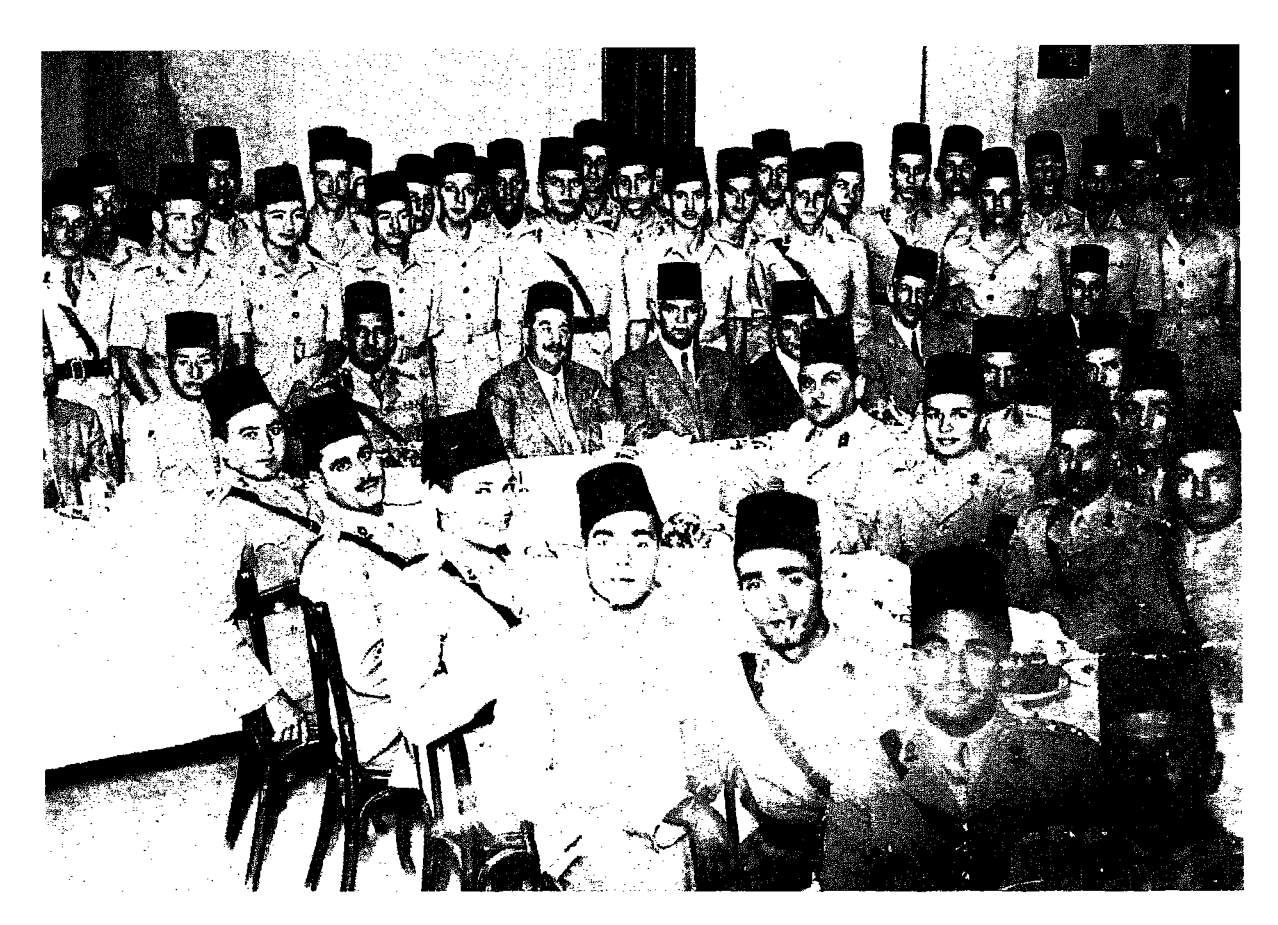
طريق ما قبل وما بعد الثورة

٤٢ ● حكايات سبتمبر ٤٢

□ عدد ضباط المدفعية من دفعة سبتمبر ١٩٤٢ عند التخرج كان سبعين ضابطا (ملازم ثان تحت الاختبار !) وهى نسبة ـ كما أسلفت ـ عالية غالبة من بين الـ ١٩١ خريجا . تجمع زملاء المدفعية فى مدرسة المدفعية بألماظة (بشوكهم) وبملابس الضباط الجديدة « وبالنجمة » العزيزة التى فرحوا بها وكأنهم فتحوا عكا ! وأمضى السبعون معا ستة أسابيع فى دراسة عامة مكثفة عن مختلف فروع المدفعية . ويبدو أن شهيتى كانت مفتوحة لها إذ جاء ترتيبى فى امتحانها .. « الخامس » ! كيف ؟ لست أدرى !

وكان علينا بعد ذلك اختيار فرع من الفروع الأربعة (مدفعية الميدان . مدفعية السواحل . مدفعية مضادة للطائرات . أنوار كاشفة) للدراسة التخصصية التفصيلية قرابة أربعة أشهر . واخترت الأنوار الكاشفة . وعدت بعدها سيرتى الأولى « الوسطى » فجاء ترتيبى فى امتحانها النهائى الثامن من بين تسعة عشر ..

ولا مانع طبعا من أن يبدأ الضابط خدمته الميدانية فى السويس أو القاهرة أو



صورة نادرة لضباط سلاح المدفعية من دفعة سبتمبر ١٩٤٢ فى الشهر الأول من التحاقهم ضباطا بمدرسة المدفعية ، فى حفل شاى أقيم احتفاءاً بهم ويرى فى الصورة الجالسون إلى المائدة الرئيسية من الشمال لليمين . الفريق عمر فتحى باشا كبير الياوران . الفريق حمدى سيف النصر باشا وزير الدفاع . اللواء حسين محمود باشا مدير المدفعية . عثمان باشا محرم وزير الأشغال .الفريق ابراهيم عطا الله باشا رئيس أركان حرب الجيش . اسماعيل باشا تيمور كبير الأمناء .. ومن الضباط المدرسين الجالسين أمامهم اليوزباشى (الفريق) عبد المنعم رياض واليوزباشى أحمد صبيح واليوزباشى مهندس أحمد توفيق بكرى والملازم عبد المجيد فريد .. واصطف خلفهم كوكبة من دفعتنا المكرمة بالمدفعية .

الاسكندرية أو الاسماعيلية أو أية بقعة نائية بالقطر المصرى . ولكن وراء ذهابى إلى « السويس » سبب طريف عجيب .

عشرة من زملائى ضباط الأنوار الكاشفة وزعوا إلى الاسكندرية بالآلاى الأول أنوار ، والتسعة الباقون إلى القاهرة فى الآلاى الثانى أنوار بقيادة الأميرالاى محمود بك صادق .. (راجع ما كتبت عنه فى حديثى حول مسيرة زميلنا عبدالقادر عيد) .

وذهبنا نحن التسعة للقاء القائد محمود صادق . وقبل أن يلقى علينا تحية أو تهنئة أو حتى خطبة افتتاحية بادرنا بسؤال عجيب : من فيكم عنده أخلاق ؟!

ومن المألوف ومن الأصول ألا يتحدث المرء عن أخلاقه أو يباهى بنفسه فى أى شىء . أما إذا طرح هذا السؤال « الاستفزازى » فمن الطبيعى ألا ينكل عنه ، وإلا فكأنه يقر بأنه لا خلاق له ولا أخلاق ولا أدب ولا تربية !

وتصورت أن التسعة سوف يرفعون أيديهم بالموافقة . غير أن سبعة « تحرزوا » بالامتناع عن التصويت ! ويبدو أن « صيت » محمود صادق كان قد بلغهم فتوجسوا من كونه « تأبط شرا » ! أما اللذان « وقعا فى المصيدة » فكان كاتب هذه السطور ثم محمد حسونة . ولحسن حظى أنه لم يفعل فعلته فى الكلية الحربية التى أشرت إليها من قبل . فهو لم يرفع يده ثم يخفضها على الفور ، بل ظل مستمسكا « بالأخلاق الكريمة » وبغير ذبذبة !

وهنا قال الأميرالاى محمود بك صادق : إذن هذان الاثنان يذهبان إلى السويس حيث التعفف والاستقامة والأخلاق مطلوبة ! والظاهر أن مرجع طلب الأخلاق فى السويس أنها اشتهرت بكونها « بؤرة حشيش » وتهريب ، وكأنما الذاهبون إليها يُلقى بهم داخل « غرزة » !

ولقد ضموا إلينا ــ بعد أيام ــ من دفعتنا « ابراهيم السيد حجاج » .. وهكذا تكوّن « ثلاثى أنوار السويس » !

قائد وقائد ثانى البطارية ..
يختلفان بينهما ويتفقان على مشاحنتنا !

والحق أننا وقعنا فى شر أعمالنا كما يقولون ! البطارية السادسة أنوار كاشفة كانت آنذاك فى « ألماظة » تتأهب للرحيل إلى « السويس » بعد شهر واحد . وليس هذا هو المهم ولا « المطب » فقد عرفنا ذلك مقدما وتقبلناه بكل الرضا . « المحك » فى حسن الحظ أو سوئه هو : مع من نعمل ، أى من هما قائد وقائد ثان البطارية المذكورة اللذان « نصطبح » بوجهيهما ونعمل فى ظل قيادتهما ؟

لقد كانا ــ للأسف ــ امتدادا « لعكننة » صف ضباط الكلية الحربية الأشاوس ! أعلنا علينا الحرب قوة واقتدارا ، واستعرضا عضلاتهما ومزاجهما و« قريفتهما » من اليوم الأول حتى اليوم الأخير .. بغير توقف ولا هدنة ، ولا أى ريق حلو .

كان قائد البطارية هو أحد دفعة الدبلومات ـ كما يسمونها ـ من حملة بكالوريوس التجارة ، وهو اليوزباشى أحمد بهجت رحمه الله .

وكان قائد ثانى البطارية مثله ومن حملة بكالوريوس الزراعة ، وهو اليوزباشى ابراهيم سعد نجيب رحمه الله .

ولأن بقية ضباط البطارية من الملازمين الأول القدامى نسبيا الذين لا يؤكل لحمهم ببساطة ، فقد تفرغ الاثنان ـ القائد والقائد الثانى ـ « للعكننة » على عباد الله من الملازمين الثوانى الحديثى التخرج .

وفى تقديرى أن الخريجين الجدد عادة مملوءون حماسا ، وأن قادتهم يستطيعون (بل يجب عليهم) استثمار حماس هؤلاء الشبان الجدد وإقبالهم على العمل والافادة من خير ما لديهم للصالح العام ولتنميته بالكلمة الحلوة الطيبة وبالتوجيه وحسن المعاملة (شدة فى غير عنف ، ولين فى غير ضعف) .. مع حفظ الرتب و« المقامات » والانضباط العسكرى . أما أن تشن عليهم الحرب من الوهلة الأولى بغير رعاية ولا هوادة فليس ذلك من القيادة فى شىء . إن هؤلاء الضباط الجدد زملاء من المفروض أن لهم مكانتهم وكرامتهم وآمالهم . وهم جميعا ـ القدامى والمحدثون ـ فى سلة واحدة ويشكلون مجموعة متكاملة وأسرة واحدة .. فيها الأخوة الكبار والأخوة الصغار . أما أن يتحول الكبار إلى صغار ويمارسون الصغار و(الصغرنة) ويستنفرون النبت الأخضر فإنهم قد يحولونه إلى « نبت شيطانى » أو زرع مر ممرور ، وتتحول الوحدة العسكرية بذلك إلى شىء أشبه بالغابة ، ويتحلل الانضباط العسكرى حتى بين الجنود .. هذا رأيى .

والحمد لله أن النموذج الذى أوقعتنا فيه خطواتنا الأولى لا هو القاعدة فى الجيش آنذاك وإلى الآن ، ولا هو دام معنا طويلا . مجرد شهور قليلة قاتمة (من هذه الناحية بالذات .. أعنى العلاقة بين القادة والضباط الصغار) ثم اختلفت الصورة .

بالله ماذا يكون عليه شعور ضباط صغار يبدأون حياتهم فإذا بهم يجدون قائد بطاريتهم ـ والمفروض أنه رجل ناضج ـ يسلك مسلكا طفوليا فى كل صغيرة وكبيرة تقريبا ؟ ثم ماذا يكون احساسهم وهم يرون القائد الثانى مملوءا بالعجرفة والغطرسة

اللتين تستنفران الجماد ؟ ثم كيف تتشكل محصلة هذا وذاك إذا كان بينهما ـ القائد والقائد الثانى ـ ما صنع الحداد ؟ فالأول يدبر « مقالب » للثانى والثانى يغتابه جهارا نهارا ؟! .

ولقد أكتفى بضرب مثال واحد ..

مهاترات تليفونية !

كنت أتحمل مسئولية قيادة « تروب » فى منطقة صحراوية نائية قرب « الزيتية » بالسويس . ومن المفهوم أننى أبيت فى خيمتى برئاسة التروب الذى هو فى نفس الوقت أحد المواقع الستة لأجهزة الأنوار الكاشفة التى تعمل ليلا بطبيعة تكوينها وأغراضها . وكان المفروض والمتبع أن تكون تحت تصرفى عربة بك آب مخصصة للتروب (ولم تكن العربات « الجيب » قد دخلت الجيش بعد فى سنة ١٩٤٣) وكان من الواجب ومن الطبيعى ومن المتبع أيضا أن أظل على اتصال تليفونى مع المواقع الخمسة الأخرى ومع رئاسة البطارية ، وأن استعد للتحرك بعربتى إلى هنا وهناك فى أى طارىء .

وفى إحدى الليالى قدم لى الجندى المنوط به العمل على التليفون « اشارة » تلقاها فورا من قائد البطارية وقد جاء فيها ما يلى بالحرف الواحد .. فمازالت بعد ٤٥ سنة ثابتة فى ذاكرتى بكلماتها وأحداثها : « **ممنوع على أى ضابط بنجمة أن يستبقى لديه أية عربة . وجميع العربات تبيت برئاسة البطارية** » !

ماذا تفعل لو كنت مكانى؟!

احتقن وجهى بالدماء

إنها « إهانة » علنية فى اشارة تليفونية مفتوحة أمام الجنود الذين أتولى قيادتهم وأبدى لهم ودا ورعاية ويبدون لى ودا واحتراما .

ضابط بنجمة ؟! هذا تعبير لم يقصد به سوى التحقير . وهو مسلك خطير ، لم يسبق أن اقترفه أحد . وثرت لكرامتى . وأمليت على الجندى عامل التليفون الاشارة التالية :

« **نلفت نظر رئاسة البطارية إلى خطورة خلو رئاسة التروب من العربات**

والتى بموجبها يمكن المواجهة العاجلة لأى طارىء .. ونحملكم المسئولية » ويعثت بالعربة إلى رئاسة البطارية ، كما بعثت بالاشارة الغاضبة !

وبعد نصف ساعة جاءنى الجندى برد قائد البطارية على رد اشارته الأولى ! وقال فى اشارته التالية ما يلى :

« ينبه حضرة الملازم الثانى مصطفى بهجت بدوى بأن يقدم نفسه فى الساعة الثامنة من صباح باكر لعرضه على مكتب قائد اللواء »! وللمرة الثانية ثارت كرامتى ، وبعثت إليه بالرد على اشارته تلك قائلا :

« يعلم حضرة الملازم الثانى مصطفى بهجت بدوى أنه سيعرض على مكتب قائد اللواء .. ويسره ذلك » !

رغبت فى أن تكون لى فى هذه المساجلات الكلمة الأخيرة .. والموجعة ! وأعترف أنها كانت اشارة فريدة فى الجيش وأقرب إلى لغة « المحاورات الصحفية الفائرة » !

وفى الموعد المحدد من صباح اليوم التالى كنت فى مكتب قائد البطارية بين جمع من ضباط البطارية . وأخذ يناقشنى فى مشروعية عبارة « نلفت نظر رئاسة البطارية » وأضاف أنه رغم ذلك لن يعرضنى على مكتب اللواء . وأجبت بأننى كنت أنبه إلى خطورة بقاء التروب بغير عربة ، فماذا نفعل ـ بدون مواصلات ـ وسط هذه البقعة الصحراوية النائية إذا أصيب عسكرى فى غارة جوية أو حتى لدغته عقربة أو أو .. الخ ؟ فما كان منه إلا أن قال لى منفعلا « وبعدين لما تتحاكموا تبقوا زى الأرانب » فأجبته هائجا : أنا لا أسمح بتوجيه هذه الكلمات المهينة المتكررة لى ، وإننى « متظلم » وأطلب عرضى على مكتب قائد اللواء لنحتكم إليه ! فقال لى : أنت موقوف .. والملازم الأول حسين حمودة حرس عليك !

وكنت أعلم أنه إيقاف غير قانونى بعد التظلم كما أنه لا يملك هذا الحق . ولكنى بادرت بخلع القايش (وخلعه علامة الايقاف) وحين انصرفت ارتفع صوتى حتى وصل إلى مسامعه وأنا أصيح قائلا : حنشوف مين اللى حيندم ! ولو هو سيد الموقف فليثبت على موقفه !

وأحس صاحبنا بحرج موقفه ، وبعث إلىَّ بالضباط واحدا إثر الآخر يطلب منى اعتبار الايقاف كأن لم يكن . وأخيرا نزلت على رجائهم ، فأمسكت بناصية الموقف . ولبس قائد البطارية ثوب الحمل الوديع ـ مؤقتا ـ وهو يوجه لى كلمات أرق من النسيم العليل .

يحيى توفيق وسالم عبدالسلام وحسن عفيفى
كل ضابط منهم .. بمذاق !

كان أبرز ثلاثة ضباط قدامى فى البطارية (برتبة ملازم أول) هم « يحيى توفيق » و« محمد سالم عبدالسلام » وهما دفعة مطاوع ـ والثالث « حسن حسنى عفيفى » وهو من حملة بكالوريوس التجارة ، وكان ثلاثتهم قريبين إلى قلوبنا .. كل واحد منهم بمذاق !

أما « يحيى توفيق » فكان لطيفا ذكيا لا يشغله سوى أمرين اثنين : كيف يحصل على اجازة لاستئناف شهر العسل ! وكيف يدير وهو فى السويس معملا صغيرا أقامه فى القاهرة لانتاج الصابون ! وغنى عن البيان أن هذين الأمرين كانا موضع التندر من جانبنا ، وكان يتقبلها بروح مرحة ويشارك فيها !

وأما « سالم عبدالسلام » فقد اختصر الطريق بأن أحضر أسرته فى السويس ، وكان هو الآخر فكاهيا وشهما ومحبوبا من الجميع . وقد لازمته « الشهامة » حتى أدت به بعد خمس سنين إلى « الشهادة » . نعم ، فقد كان فى طليعة المتطوعين مع قوات الفدائيين بقيادة القائمقام أحمد عبدالعزيز فى فلسطين . وقبل أن تنتهى سنة ١٩٤٨ وبالتحديد فى شهر ديسمبر منها لقى مصرعه « بالعسلوج » فى معركته البطولية .. رحمة الله عليه .

وقد كنت على بعد كيلو مترات قليلة منه حين بلغنى نبأ استشهاده فبكيته ، ورثيته على الفور فى « غزة » بقصيدة منها :

أقتلت فى أرض السلام	يا سالما عبدالسلام
هى لم تعد أرض السلام	فما بها غير الضرام
من أى ركن جئتها ..	فالركن مثل الجرح دام

نادت فلسطين الحماة ... وأنت أسرع من يحامى
فسعيت أول من سعى ... متطوعا بين الكرام
هزّتك أنات العروبة ... فى مصائبها الجسام

●

« عسلوج » أروع ما سطرت ... كفاح ناصرك الهمام
من هام يرغب فى الحمام ... ولجّ فى ذاك الهيام
شغل المنية بالعداة ... فلم تسعه لبعض عام
حتى أتى « عسلوج » فى ... قَدَر من الأقدار دام
لقى الحمام كدأبه ... عند اللقاء بالابتسام
يا صاحبى لهفى عليك ... وأنت مُطرحٌ أمامى
أبكى لفقد صداقة ... مُثلى ، وخلق كالغمام
أبكى ولو خُيِّرتُ لم ... أختر سوى هذا الختام

أما « حسن حسنى عفيفى » فكان نسيج وحده آنذاك فى حكاياته ومبالغاته . ولم ينسج مثله أحد إلا بعد سنوات ، وكان هذا الاحد .. « أبولمعة » كانت هذه هى طريقته فى التسرية عن نفسه وعنا ، وكل شيخ ـ وحسن عفيفى شيخ وحاج وظاهر التدين ـ وله طريقه ..

ولو أننا سألنا فى ذلك الحين جميع ضباط وجنود البطارية السادسة أنوار كاشفة عن أمنيتهم الأولى لأجمعوا أنها تتركز فى زوال الغمة .. أى أن نصبح ذات يوم فلا نجد فى رئاسة البطارية الاثنين معا : قائد البطارية وقائد ثانى البطارية ! أن ينقلا إلى أية وحدة أخرى ، وأن يأتوا لنا بغيرهما .. فأيا كانا فهما خير من سلفهما .

وكأنما كانت أبواب السماء مفتوحة . فسرعان ما احتجبا عنا ولم نكترث أو نهتم بأين ذهبا حتى ولو عين الأول وزيرا للتجارة ، والثانى وزيرا للزراعة ، فالمهم أن ما بيننا بُعد المشرقين !

عصر « عبدالمنعم فريد » !

وبدأ على الفور ما يمكن أن يسمى بعصر عبدالمنعم فريد . و« الصاغ »

عبدالمنعم فريد من قدامى الضباط « الراسيين » الراسخين المخضرمين (خريج دفعة سنة ١٩٢٨ من الكلية الحربية) ، وحين عيّن عبدالمنعم فريد قائدا للبطارية السادسة أنوار كاشفة فى منتصف سنة ١٩٤٣ كان هو القائد والقائد الثانى والضباط والصف والجنود .. كان البطارية السادسة أنوار كاشفة !

وأشهد ويشهد معى جميع من عملوا مع « عبدالمنعم فريد » وتأثروا به أنه كان آية من آيات الذكاء وخفة الظل ، والعسكرية و« التساهل » (يشد ويرخى) ، والغضب والرضا ، وسلاطة اللسان وحلاوة الحديث ! كان « شخصية » بمعنى الكلمة . وكانت لا تفوته شاردة ولا واردة . وكان عملاقا ضخم البنية ورقيق القلب .

وكان صوت عبدالمنعم فريد عاليا مجلجلا .

واعتاد عبدالمنعم فريد أنه حين يصفو كان يمنح الضباط « اجازة المحطة » - التى هى خمسة أيام كل شهرين - بسخاء مدهش ، فيأذن لهم بمغادرة السويس بعد ظهر يوم الخميس ليعودوا من الاجازة صباح السبت بعد التالى أى قرابة تسعة أيام ، وحين يقسو فخمسة أيام بالدقيقة والثانية !.ولكم كان يقسو ويصفو فى مسائل شتى ..

وحكايات عبدالمنعم فريد معنا كانت أكثر من أن تعد وتحصى فى التعليم والتوجيه والتدريب والانضباط العسكرى والسيطرة من جانب ، ومن جانب آخر .. التبسط والتعبيرات الطريفة الفريدة وتبادل النكات والقفشات ورواية ذكرياته الحافلة . ولهذا كان شعورنا نحوه مزيجا من المهابة والحذر ومن الاعجاب والحب .

ولعل الحكاية التالية بمسلكها الدائب المتكرر تلخص عبدالمنعم فريد فى سطور

ذلك أنه كان لا يغادر مخالفة صغيرة أو كبيرة (تأخير عن الحضور . قيادة سيارة عسكرية . ارتداء ملابس مدنية .. الخ) يلاحظها علينا إلا وتصدى لها وواجهها بأسلوبه الخاص . وكان الأسلوب هو ما يسمى « الجوابات السرية » !

كان يستهلها بكتابة العبارة التالية : « أفد عن أسباب كذا أو كذا من المخالفة التى يسجلها على الضابط » ..

وإذا حاول الضابط فى رده على « الجواب السرى » أن ينكر أو يراوغ أو يجيب

بأسباب ملفقة ، فقد كان يعيد إليه رده ، ويستدعيه ليبين له أنه لا يقبل منه إلا ردا واحدا هو أن يقر الضابط بالمخالفة العسكرية التى ارتكبها وأن يكتب الصيغة التالية « بالاشارة إلى خطابكم السرى رقم كذا بتاريخ كذا فإنى آسف ولن أعود إلى ذلك مستقبلا » !

ولا مفر من أن يدون الضابط اعترافه واعتذاره وتعهده .. كتابة !

كأنما كان هذا سلاحا تحت يد عبدالمنعم فريد لمجازاة الضابط فى أى وقت عاجل أو آجل ..

وعندما غادرنا عبدالمنعم فريد وجمع أوراقه الخاصة وانتقل إلى مكان آخر ، عثرنا فى أدراج مكتبه على مجموعة مهولة من هذه الجوابات السرية وردودنا « الاعترافية » التى لم يستخدمها أبدا !

وقد كان عبدالمنعم فريد يبدى لى اعزازا خاصا ـ وكنت أبادله هذا الاعزاز ـ ويشيد بى أمام الملأ مستخدما « أفعل تفضيل » .. لا استحقها ..

وأثناء قيادته للبطارية عملت قائدا للتروب الثالث فى « الشط » ومعى زميل وصديق العمر محمد عبدالهادى حسونة قائدا ثانيا للتروب . وأمضيت فى تلك الحقبة أجمل مراحل الصبا والعمل بالمدفعية ، وأكثرها قراءة فى دواوين فطاحل الشعراء الأقدمين ، وأغزرها انتاجا وقرضا لشعرى العاطفى والصحراوى .. حتى أن ثلثى ديوانى الأول هو من وحى وعطاء تلك المرحلة .

وكان الجيش البريطانى منتشرا ذات اليمين وذات الشمال فى منطقة القناة لتأمين الملاحة فيها ولتجميع معسكرات التدريب للحرب العالمية الثانية الدائرة آنذاك . وكثيرة هى الأحداث التى جرت على هامش هذا الجوار ..

« الوثبة التالية » .. الاسماعيلية

ثم ماذا بعد السويس فى أخريات سنة ١٩٤٤ ؟

كانت « الوثبة التالية » ـ على حد تعبير المصطلحات العسكرية ـ هى إلى الاسماعيلية ، وظل « عبدالمنعم فريد » لم يزل بعد ممدودا ، وإن تدارى عقب شهور قليلة من عصر الاسماعيلية .

كنا نحتل « غابة » قرب شريط السكة الحديد على بعد كيلو مترين من محطة الاسماعيلية . وهى غابة متسعة الأرجاء وارفة وعالية الأشجار لا يعيبها سوى الاسم الذى أطلقوه عليها .. اسمها « أبورخم » !

« وكنا » هنا تعنى البطارية عن بكرة أبيها بقائدها وقائدها الثانى وضباطها وجنودها وأجهزتها وأسلحتها . وأقول الحق إننى لم أجد تفسيرا لهذا التجمع ، فليس هذا هو طابع عمل الأنوار الكاشفة التى ينبغى أن تتوزع مواقعها لا أن تحشد وكأنها فى « مخزن » أو كأنها مجرد « قاعدة ادارية » ، أو على أحسن الفروض « تحت الطلب » ! ولكن هكذا سارت الأمور . ولو أمعنت الفكر الآن فى دوافع « الاستغناء عن خدماتنا » من السويس ثم تركيزها فى غابة أبى رخم ، ففى تقديرى أن مرجع ذلك كون حدة الحرب العالمية الثانية قد خفت وأوشكت ـ ونحن فى سنة ١٩٤٥ ـ على بلوغ خاتمتها لصالح الحلفاء . فضلا عن أن معارك افريقيا كانت قد انقشعت بانسحاب « رومل » وبقايا الألمان والايطاليين من شمال افريقيا . وثمة عامل آخر وهو أن أجهزة الأنوار الكاشفة القديمة بل حتى المعدلة « بالروموت كونترول » كان قد عفا عليها الزمان . وبطاريتنا لم تكن تملك من الأجهزة الحديثة المتطورة كثيرا أو قليلا . لقد دخل الالكترون والرادار مجال الحرب الحديثة ، فكان لزاما أن يدخل المجال الجوى ـ أعنى الفنى ـ للأنوار الكاشفة ، وأن تتطور إلى أجهزة رادار .

ولقد تم اختيارى بين المجموعة الأولى لضباط الأنوار الكاشفة والمدفعية المضادة للطائرات الذين يتلقون دروس « الرادار » ويعدون لادارة الأسلحة الجديدة التى سوف تزود بها مدفعية الجيش المصرى فى ظل مبتكرات العلم الحديث ، والحاجة التى هى أمّ الاختراع .

ولكن قبل أن أعرج إلى هذه التجربة الجديدة التى اقتضت منى السفر إلى فلسطين قبل حرب فلسطين بثلاث سنوات فثمة سؤال . ماذا عن القيادات الجديدة للبطارية السادسة أنوار كاشفة بعد رحيل « عبدالمنعم فريد »؟ ولا جدال أن شخصية عبدالمنعم فريد كانت قوية وطاغية بحيث أن غيابه يترك فراغا لا يسد بسهولة . ثم إن القيادات التى أعقبته كانت فى معظمها « باهتة » وباستثناء اليوزباشى أركان الحرب « محمد أبوالفرج على » ذى الشخصية والذكاء فإن أحدا من قادة البطارية لا يكاد يعلق بالأذهان أسما وذكرى ..

١٩٤٦ .. عام الطوارىء !

كان عام ١٩٤٥ هو عام انتهاء الحرب العالمية الثانية فى مايو بأوروبا وفى اغسطس باليابان . كما كان بالنسبة لى عام شد الرحال إلى المسجد الأقصى بالقدس فى يوليو و« الحج والزيارة » فى نوفمبر ١٩٤٥ .

اما عام ١٩٤٦ فقد كان معظمه يمثل « حالة طوارىء » كما سيجيىء تفصيلها فيما بعد .

ولقد نذكر أن الملك فاروق ابتلع إهانة حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ و« كظم غيظه » وتحمّل مصطفى النحاس باشا رئيس حزب الأغلبية ما بقى من سنة ١٩٤٢ ثم سنة ١٩٤٣ كاملة . ثم لم تكد سنة ١٩٤٤ توشك على الانتهاء وتتحول دفة الحرب لصالح الحلفاء وتدور الدوائر على النازية والفاشيستية ، وتبعد مخاطر الغزو والحرب عن مصر حتى حصل فاروق على « الضوء الأخضر » من الانجليز ليثأر من النحاس باشا وليمارس هوايته فى إقالته . وتمت إقالة الوزارة الوفدية برئاسة النحاس باشا فى أكتوبر سنة ١٩٤٤ لتصبح الاقالة الثانية له فى عهد فاروق بعد الاقالة الفاروقية الأولى له فى ديسمبر سنة ١٩٣٧ والتى كانت قد سبقتها إقالة أخرى فى عهد الملك فؤاد سنة ١٩٣٠ . وإن كان فاروق قد ادخر للنحاس إقالة أخيرة فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ ، أى فى نفس ليلة حريق القاهرة .

ولقد نذكر أيضا أن **مكرم عبيد باشا** (الرجل الثانى القوى فى حزب الوفد وسكرتيره العام) انشق على النحاس باشا بعد شهور من توليه الوزارة سنة ١٩٤٢ وتحولت الصداقة الحميمة الوطيدة بينهما إلى عداوة ضارية شديدة وكانت حدث السنة وحديث الألسنة ! وترجمها مكرم عبيد « بالكتاب الاسود » الذى أصدره حافلا بحكايات الفضائح والمحسوبيات واستغلال النفوذ وعقد الصفقات التموينية المشوبة التى أخذها على أسرة النحاس وأصهاره والمقربين منه وعلى آخرين من وزراء الوفد . وكان **أحمد الوكيل** شقيق حرم النحاس باشا هو كبش الفداء رقم ١ فيما عدده مكرم عبيد له من استغلال النفوذ والاتجار بمواد التموين وما شابه ذلك .

ولقد دفع مكرم عبيد ثمن كتابه الأسود بطرده من عضوية مجلس النواب فى « جلسة مسرحية » شهيرة مع نخبة من حواريه **مثل جلال الدين الحمامصى وأحمد**

قاسم جودة ومن قامت عليهم أركان حزب « الكتلة الوفدية » الذى أنشأه ورأسه مكرم عبيد لينضم إلى طابور أحزاب الأقلية : السعديين والأحرار الدستوريين والحزب الوطنى .

ولما كنت قد نهجت فى حكاياتى عفوية الاستطرادات وتداعى أفكار الربط بين الأحداث والمفارقات قافزة بين الأعوام بغير تقيد بالتسلسل التاريخى فإن ثمة حكاية طريفة حول نجم الكتاب الأسود وضحيته : « أحمد الوكيل » . .

ذلك أنه فى أوائل الستينيات وكان قد مر عشرون عاما على وقائع الكتاب الأسود وقامت ثورة يوليو ١٩٥٢ وتوارت وحُلّت الأحزاب وتغيرت الدنيا ، حدث أن كان « أحمد الوكيل » يجلس ذات مساء بين مجموعة من أصدقائه فى « سهرة نميمة » وتعليقات على مجريات الأمور فى أوائل الستينيات .

وتعب الحاضرون من طول تناولهم لما يجرى فوق السطح وتحت السطح آنذاك وحل سكون كأنه استراحة من عناء الكلام والدردشة .

وفجأة .. قطع أحمد الوكيل حاجز الصمت مقارنا بين أيام ومخالفات ١٩٤٢ وأيام ومخالفات ١٩٦٢ قائلا : ياه ! يخرب بيتكم ! ده احنا طلعنا جنبكم نشالين ترمواى !

وعلى طرافة وبشاعة المقارنة خفيفة الظل شديدة الوطأ فإنها تصدق على البعض ، وتنأى عن البعض الآخر ممن حافظوا على « النقاء الثورى » وفى طليعتهم « جمال عبد الناصر » شخصيا الذى « استعصى على الفساد المالى والاستغلالى » على حد تعبير بعض الصحف والدوائر الغربية . وإن كان عبد الناصر – فى التقييم المتجرد لعهده – يتحمل مسئولية فساد من حوله ويبوء بإثم تجاهله انحرافات بعض التابعين المقربين .

ولا مراء أن هناك أناسا من الصفوف الأولى والثانية والثالثة ومن لاذوا بهم فى كنف ثورة ٢٣ يوليو ثم فى ظل انفتاح السبعينيات استغلوا النفوذ وكدسوا الثروات واقتنوا العقارات (من العدم) وعاشوا عيشة الملوك والأمراء ، وتحولوا إلى « قطط سمان » .. وفقا للتعبير اليوجوسلافى المستورد بمعرفة الدكتور رفعت المحجوب .

وإذا كان تعبير « **أين كنا وكيف أصبحنا** » قد اعتادت الثورة استخدامه لبيان الإيجابيات التى تحققت .. وهى صحيحة وكثيرة ، فإن هذا التعبير نفسه يمكن استخدامه فيما يخص نفرا غير قليل من المنتسبين للثورة ممن أثروا ثراء فاحشا : أين كانوا وكيف أصبحوا ؟ ومن أين لهم هذا ؟ .

والأمثلة للأسف الشديد أوسع من أن تحصر .

« شمس بدران » مثلا الهارب بملايينه إلى الخارج .. من أين له هذا ؟

المرحوم « على شفيق صفوت » الذى قتلوه فى لندن وعثروا على مليون جنيه فى شقته هناك . لقد كان مثلا فى « حرب اليمن » ينقل « سبائك الذهب » إلى القبائل اليمنية لاستمالتهم وتسكينهم حتى يهادنوا ثورة اليمن ، والله أعلم ماذا كان يكتنز فى حساباته السرية ؟! ولكن المعروف أنه كان يجلب من الاتحاد السوفيتى « أفخر وأغلى أنواع الفراء » لأسرته .. وفق ما كان يجاهر به أمام خاصته . والمعروف أيضا أنه كان يبتاع من « جروبى » كل ليلة – لا مقطوع ولا ممنوع أى« اشتراك يومى » - عشرين وجبة عشاء للمترددين عليه فى شقته بجاردن سيتى لسهرات المائدة الخضراء ! ومسائل أخرى كان وسيطها على شفيق صفوت ، غفر الله له ولنا ..

مائة كيلو « بسبوسة » للمشير عامر !

روى لى المرحوم الصديق محمد على بشير حكاية فى غاية الطرافة والدلالة ..

ففى أخريات سنة ١٩٥٩ كان « الماريشال تيتو » زعيم يوجوسلافيا فى زيارة لمصر . ولم يكن تيتو يستخدم فى تنقلاته سوى « يخته » الفاخر العتيد . أى أنه يصل إلى مصر بحرا ، ويستقبل فى ميناء الاسكندرية .

وفى يوم وصوله المذكور كان فى استقباله صديقه الرئيس الراحل جمال عبد الناصر والمشير عبد الحكيم عامر ومعهما جميع الوزراء والقيادات . أى أن ميناء الاسكندرية تحولت إلى ساحة تشريفات مفتوحة تستلزم قدرا هائلا مكثفا من المحافظة على الأمن . ولذلك غصت ميناء الاسكندرية برجال الأمن من ضباط وجنود الشرطة .

وكان « مدير أمن الاسكندرية » هو المسئول الأول والمباشر عن أمن هذه « الهلمة » ابتداء من الضيف الكبير إلى نخبة المستقبلين . ولك أن تتصور الشد العصبى الذى كان عليه وكيف أن عينيه كانت فى وسط رأسه !

وأثناء هذا الموقف العصيب المتوتر أقبل الصاغ على شفيق صفوت إلى السيد اللواء شرطة مدير أمن الاسكندرية ، فلم يشك الأخير لحظة فى أنه سيدلى إليه بملحوظة هامة متعلقة بالأمن والساعة الحرجة التى هو فيها !

وقال له « على شفيق صفوت » : بقولك إيه ؟ فأجاب مدير الأمن : أيوه يافندم ! فقال على شفيق : سيادة المشير عايز الليلة مائة كيلو بسبوسة !

وكانوا يستأسدون على الضعفاء الشرفاء أمثال إسماعيل شوقى (الاعلانات الشرقية) وصلاح الدين غالب (سيناء للمنجنيز) وإبراهيم فهمى ووهدان (المجمعات الاستهلاكية) وأمثالهم ممن حوكموا وبرئوا .

واذكر أنه حين أصدرت المحكمة حكمها ببراءة إبراهيم فهمى ووهدان من التهم التى لفقت لهما أننى كتبت فى الجمهورية سنة ١٩٦٥ كلمة أنوه فيها بالقضاء العادل وأندد بالافتيات على عباد الله الصالحين فى حين يعبث من يعبث فى الأرض فسادا . وأغضبت كلمتى السيد الحاكم بأمره « شمس بدران » الذى اتصل بصديقه ودفعته « محمد على بشير » وقال له كما روى لى المرحوم بشير : إيه حكاية « مصطفى بهجت بدوى » ده ؟ هو مش ناوى يجيبها البر ؟ تهديد ووعيد لم آبه بهما والحمد لله لأننى توكلت عليه وحده .. وكان الناس يتصورون أننى أتصل تليفونيا بعبد الناصر كلما أردت وأقابله كل أسبوع وآخر بحكم عملى رئيسا لتحرير الجمهورية ! فى حين أننى لا كلمته فى التليفون مرة واحدة ، ولا دخلت بيته ، أو قابلته مقابلة خاصة على الاطلاق !

شمس بدران يقول اننى « مش جايبها البر » .. وبعد عامين يعين « سى شمس بدران .. ننوس عين عبد الناصر وعبد الحكيم » وزيرا للدفاع « فيجيب الدفاع والبلد الأرض » .. وإنا لله وإنا إليه راجعون .

المشكلة (وأخوض فيها لست أدرى لأية مرة هذه المرة .. ولكنها دائما

« مُرة ») تكمن فى الترخص و« شغل العيال » وفى المال السايب وفى التطلعات وفى الأموال السرية وفى الوجه القبيح للمخابرات العامة وللحكم معا وفى الكيل بكيلين وفيم عبر عنه الحديث النبوى « إنما هلك الذين من قبلكم انهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف (ذو السلطة والحسب والنسب) تركوه وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد » .

وتحت بند « الترخص » وعشرات من البنود الفرعية أقيمت مئات الفيللات بل السرايات وعقدت الصفقات وتفشت الرشاوى المالية والعينية مع أن من أبرز أسباب قيام ثورة ٢٣ يوليو الفساد والرشوة ، كما جاء فى بيان الثورة صباح ٢٣ يوليو ٥٢ .. يا خسارة !

أترانى قسوت على ثورة ٢٣ يوليو فى حكاياتى ؟

إذا كانت القسوة تعنى الظلم والتعسف والعداء والكراهية فإننى لم أفعل .

أما إذا كانت القسوة تفرضها المصارحة والمكاشفة وخيبة الأمل فلا شك أننى قسوت . إنها ليست قسوة عدو للثورة .

أشهد الله الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور أننى ترقبت هذه الثورة وناديت بها . وأشهده أننى لم أكن عدوا لثورة ٢٣ يوليو منذ بدايتها وحتى الآن . وأنها مثّلت لى شيئا جليلا مأمولا . وأننى دافعت عنها كثيرا وفى مواقع شتى . وأننى انتقدتها قليلا وفى اجتماعات تنظيمية . وأننى محسوب عليها ولست محسوبا على خصومها إطلاقا . وأننى كنت وما زلت معجبا بشخصية جمال عبد الناصر (جوانب من شخصيته) وبوطنيته أشد الاعجاب . وأننى عتبت علنا وفى صفحات الجمهورية على « توفيق الحكيم » حين أصدر بعد أقل من أربع سنوات على رحيل عبد الناصر كتابه « عودة الوعى » الذى نظر بمنظار أسود إلى معظم إنجازات الثورة وعبد الناصر بما فى ذلك تأميم قناة السويس ، وكان « كتاب توفيق الحكيم » المذكور محل الاشادة والاحتفاء من جانب آلاف فى أوساط بعض المثقفين وغير المثقفين ممن هم أعداء « ثورة ٢٣ يوليو » من أول حرف الثاء إلى آخر حرف الواو ! وأننى فى دفاعى الحار عن ثورة يوليو وعبد الناصر فى « المقال المدوى » الذى أشرت إليه

من قبل سجلت تحفظاتى على تجاوزات ثورة ٢٣ يوليو وعبد الناصر ولم أغفر لهما أبدا كارثة هزيمة ٥ يونيو . وأننى فى ختام المقال المذكور طالبت بتأجيل المحاسبة إلى ما بعد تحرير الأرض .

وتمر السنوات وتهدأ الأمور ، ونحرر بعض الأرض ، وتتكشف المسائل ، وتتضح الصورة أكثر وأكثر .

وفى سنة ١٩٧٧ أنشر تحت عنوان « **محاكمة العصر** » قصيدة طويلة ملحمية فى جريدة الأهرام . والقصيدة أنتظمت بين طيات ديوانى السابع « **أوراق من قضية العمر الحالم** » الصادر فى يناير سنة ١٩٨١ . وفيها أقول بين ما أقول :

« هنالك شىء يظل نزيها . أعز على مصر من حاكميها . فلا تظلموا جيل ثورة يوليو . ولا تزهقوا روح ثورة يوليو . فما فتئت رمزنا فى التحدى . وما فتئت سرنا فى التصدى . نعم قد هتفنا لقادة يوليو . وليس لأشخاصهم بل لمصرا . ولم نك نعلم هل طففّوا ؟ وهل حرّفوا ؟ وهل كان يوليو يصادر سراً ؟ وهل أنشب « المارقون » بيوليو من السُمّ ظفرا ؟ وإن بان ما لم نكن نرتضيه .. نصحنا ! وإن كان نصح « الأناة » يكاد يرى للتجارب عذرا ! وقلنا : سننضجهم إن غفرنا ! وإن مع العسر يسرا ويسرا ! ولا ثورة سلمت من مظالم ! لقد خلطوا عملا صالحا ، وآخر فى ظلها سيئا ! عسى الله - سبحانه - أن يتوب عليهم . عسى الله أن يُبرئنا ! على أننا ربما قد شغلنا .. بأشواقنا تتزاحم تترى ! » .

وكم كتبت فى « الأهرام » من مقالات كانت فيها ثورة يوليو فى نظرى « بين بين » . وكنت أخطو فيها خطوة إلى التأييد ، ثم خطوة أخرى إلى التنديد ! حيرتنا ثورة ٢٣ يوليو ..

وأعود للسؤال الشديد الالحاح علىّ فى هذا الكتاب كلما مضيت فيه قدما : هل قسوت على ثورة ٢٣ يوليو ؟ ولأجيب بسؤال أو أسئلة أخرى : وهل هو أمر غريب أن تكون ثمة قسوة من موقع المحبة ؟ أترانى أم الثورة نقف فى موضع الأتهام ؟ أو ليس حق « المراجعة » مكفولا ومطلوبا

باختصار : لا أحد يملك أن يشطب ثورة ٢٣ يوليو بجرة قلم ، ولا أحد يستطيع أن يصدر حكما بأنها نجحت بامتياز .

إلى أين أخذتنى الاستطرادات ، بل أين وقفت قبل الاستطرادات ؟

أحمد ماهر باشا يعلن الحرب فيصبح أول ضحاياها !

نعم . كنت أتحدث عن اقالة النحاس باشا فى أكتوبر سنة ١٩٤٤ وكيف أن أحزاب الأقلية كلفها الملك فاروق بتشكيل وزارة من بينهم . وقد رأس الوزارة الائتلافية الدكتور أحمد ماهر باشا الذى رأى ضرورة إعلان مصر الحرب على المحور .. وخاصة بعد زوال الخطر عنها ! وكان القصد هو تمكين مصر من الاشتراك فى مؤتمر السلام الذى أزمع عقده فى سان فرانسسكو بأمريكا لصياغة ميثاق بإنشاء الأمم المتحدة . وكان حق المشاركة فى هذا المؤتمر مقصورا على الدول التى هى فى حالة حرب مع المحور .

ولقد كان أحمد ماهر هو أول ضحية لاعلان مصر الحرب على المحور . اغتاله محمود العيسوى (حزب وطنى) فى البهو الفرعونى بمجلس النواب اثر « الاعلان الشكلى » للحرب إلى جوار الحلفاء .

وخلف ماهرا فى رئاسة الوزارة الرجل الثانى فى الحزب السعدى محمود فهمى النقراشى باشا .

وفى ربيع ١٩٤٥ توجه الوفد المصرى برئاسة الدكتور عبد الحميد بدوى باشا وزير الخارجية فى حكومة النقراشى باشا إلى سان فرانسسكو وكانت له جهوده وبصماته فى صياغة ميثاق سان فرانسسكو وفى الدفاع عن حقوق الأمم الصغيرة . وقد أهلت الكفاءة التشريعية لعبد الحميد بدوى وبراعته المشهودة فى القانون الدولى أن ينتخب قاضيا فى محكمة العدل الدولية بلاهاى نحو عشرين سنة من عام ١٩٤٦ حتى وفاته فى ٥ أغسطس ١٩٦٥ .

المهم أن الملك فاروق الذى كان مغرما بتغيير الوجوه والوزارات والمفاجآت

(ورث عبد الناصر هذا الغرام !) أتى بإسماعيل صدقى باشا رئيسا للوزراء فى أول سنة ١٩٤٦ . وكنا مع بدايتها قد انتقلنا من الاسماعيلية إلى القاهرة لتصبح سنة ١٩٤٦ كما أوجزت فى بداية الحديث عن تلك المرحلة هى « سنة الطوارىء » ..

كانت عودة صدقى باشا إلى الحكم هى بعد غياب طويل، وكأنما أتوا به من الجب ! الناس نسوه . ولكن لا هم نسوا لقبه ولا هو سلا مواقفه العدائية من الشعب ومن العمال والطلبة على وجه الخصوص .

وبدأ صدقى باشا المفاوضات مع الانجليز . وتوصل إلى مسودة مشروع معاهدة صدقى / بيفن . وهاج طلبة الجامعة . ودخل الجيش ـ بسلام ـ مرحلة الطوارىء .

على أن سنة ١٩٤٦ بالشهر واليوم والساعة كانت « آخر عهدى » لا بالمدفعية ولا بالأنوار والطوارىء فحسب وإنما بالجيش نفسه إذا كان المعيار هو المعنى المباشر والعملى للجيش .

والذى يسترعى الانتباه أننى لم أكن أفكر من قبل فى ادارة الشئون العامة للجيش ، وقد لا أكون سمعت بها من قريب أو بعيد . ولكن كل شىء نصيب وكل شىء بميعاد . وقد يكون هذا الشىء حاسما فى تاريخ المرء وهو ما شاءت العناية الالهية أن تنفحنى به لتغير مجرى حياتى ويعتدل والحمد لله وحده ، ويكون هو الخط الفاصل فى مسار المرء واتجاهه .

ليلة القدر أول يناير ١٩٤٧
عندما انتقلت إلى ادارة الشئون العامة !

وأشهد أننى رأيت « ليالى قدر » عديدة فى حياتى فضلا من الله ونعمة . وكانت واحدة من أهمها ليلة سنحت لى فيها فكرة خلال أواخر سنة ١٩٤٦ أن انتقل إلى ادارة الشئون العامة التى ربما كنت مؤهلا للعمل بها . وأخذت أضع الفكرة موضع التنفيذ . وما كان ممكنا ومن الناحية الرسمية أن أتطوع بمثل هذا الطلب ، وحتى

لو أمكن لما تيسر لى أن أجاب إلى طلبى . وإنما لابد من أن « يزكينى » أحد .. وكان هو نفسه الذى « زكانى » للقبول فى الكلية الحربية . وكأنما فعلها فيما يشبه « النقيضين » .. أى أن « أدخل » الجيش وأن « أخرج » من الجيش أو أكاد أخرج منه ! ولم يكن هذا الأحد بطبيعة الحال سوى عمى الدكتور عبد الحميد بدوى باشا ، وكان آنذاك فى مطلع انتخابه قاضيا بمحكمة العدل الدولية .. ذلك المنصب الدولى الرفيع الذى أكد مكانته وسحره وأثره الثابت فى الحياة السياسية والتشريعية بمصر . وهكذا خاطب بدوى باشا الفريق إبراهيم عطا الله باشا رئيس هيئة أركان حرب الجيش المصرى فى شأنى ، وأبدى وأيد رغبتى فى الشئون العامة . وبعد أسابيع تلقيت « اشارة » - أى رسالة تليفونية - رسمية إلى وحدتى العتيدة (البطارية السادسة أنوار كاشفة) بأن أقابل الفريق عطا الله باشا بمكتبه فى الساعة كذا يوم كذا !

ولم أكن بعد قد تعديت رتبة « الملازم الثانى القديم » الذى هو على وشك الترقى إلى رتبة الملازم الأول حين ولجت من باب مكتب « الفريق » إبراهيم عطا الله باشا لأقف أمامه فى هذا المنحنى المصيرى .

وبادرنى عطا الله باشا يسأل فيما يشبه السخرية ؟ أنت شاعر ؟ وكان الرد عسكريا لا شاعريا : أيوه يافندم ! قال : يعنى تعرف تقول مكرٍ مفرٍ ؟ ولزمت الصمت وكأنما أرثى لامرىء القيس الذى أصبح بيته الشهير « ملطشة » لكل من هب ودب !

« امرؤ القيس » أم « ديك الجن » لا يهم فى تلك اللحظة ، المهم أن طلبى أجيب . صحيح أن اللواء شاهين بك مدير سلاح المدفعية فى ذلك الحين أبدى بعض « الزرجنة » ولكنها كانت « محسومة » مقدما لصالح رئيسه (الآمر بالنقل) الفريق عطا الله باشا وبالتالى لصالحى . لم تكلفنى تلك « الزرجنة الشاهينية » سوى لقاء عابر قبل النقل حين استدعانى شاهين بك إلى مكتبه وسألنى : أنت زعلان من المدفعية ولا إيه ؟ قلت : أبدا وحزعل منها ليه ؟! إنما هى تجربة ، واضافة خبرات أعود بعدها إلى المدفعية ..

وهكذا نقلت بالفعل إلى ادارة الشئون العامة وتسلمت عملى فيها أول يناير سنة ١٩٤٧ ، ولم أعد إلى المدفعية ولا إلى الجيش - بمعنى الجيش - بعدها أبدا ..

عبد الحميد فهمى مرسى

ولم يكن العمل فى ادارة الشئون العامة آنذاك ذا شأن كبير . ليس أكثر من الاطلاع على الصحف اليومية وقص ما ينشر بها مما يتصل بالجيش أو يهمه ، ومما يخص وزير الحربية (الدفاع) الذى نتبعه . والمشاركة فى إعداد رد إذا اقتضى الأمر ذلك . وابلاغ الصحف بما يسمح بابلاغها من أخبار الجيش والوزير . واصدار مجلة شهرية اسمها « جيشنا » لا تخرج عن كونها نشرة لعلها شردت عن مظلة الصحافة الحقيقية وتاهت بين رسميات جلالة الملك ومعالى الوزير « وسعادة » الجيش !

بيد أن أفضل ما كان فى ادارة الشئون العامة هو مدير الشئون العامة شخصيا أعنى « البكباشى عبد الحميد فهمى مرسى » ، والذى كانوا يطلقون عليه اسم « شاعر الجيش » . وحسبه أن كان يملك ذوق شاعر ورقة شاعر وظرف شاعر وصحبة شعراء يلتفون حوله كان فى طليعتهم المرحوم الشيخ محمد الأسمر . وقد أشاع عبد الحميد فهمى مرسى بطبيعته تلك جوا من الألفة والهدوء والرقى الحضارى فى أرجاء ادارته المحدودة العدد والنشاط .

ولقد شجعنى ذلك على التفرغ لمراجعة أشعارى واعدادها للطبع فى ديوانى الأول « وجدان حائر » الذى كتب له مقدمة رصينة بليغة رائعة الدكتور عبد الحميد بدوى باشا ، والذى راجعه معى واحتفى به ابتداء وانتهاء الشاعر الكبير محمود غنيم .

ومثلما كان عبد الحميد فهمى [illegible] مجاملا و« جنتلمان » فقد كان طموحا وود لو يصبح ملء السمع والبصر . غير انه لكى يصبح الطموح فعالا ومجابا فلابد من وجود شخصية تساعده على مد طموحاته ، وظروف تهيأها له . وقد وجد هذه الشخصية فى الفريق محمد حيدر باشا حين عين وزيرا للحربية فى نوفمبر ١٩٤٧ (تاريخ اصدارى ديوانى الأول) كما التمعت الظروف مع حرب فلسطين أى بعد نحو ستة شهور من تولى حيدر باشا وزارة الحربية .



الفريق محمد حيدر وزير الدفاع يلقى خطابا ووقف خلفه جمهرة من الضباط منهم اثنان يدونان خطابه المرتجل .. القائمقام عبد الحميد فهمى مرسى إلى اليمين .. وصاحب « حكايات سبتمبر ٤٢ » إلى اليسار !

العصر الذهبى « الأول » للشئون العامة

وفعلا بدأ العصر الذهبى الأول للشئون العامة وصالت وجالت وبات اسمها – فى الجيش على الأقل – على كل لسان .واتسع نطاق عملها مع صيرورتها الأداة التنفيذية « لهيئة الترفيه عن الجنود » ، وازداد عدد ضباطها . فبعد أن كان مساعدو عبد الحميد مرسى مجرد ضباط ثلاثة هم اليوزباشى محمد حسن عودة والملازم الأول حسين عوض على والملازم الأول مصطفى بهجت بدوى ثم أحد المدنيين من الضباط الاحتياطيين هو الملازم الأول على بدوى ثم المشرف على قسم العرض السينمائى الصول الفنى (صاغ فيما بعد) حسين رفقى الشارونى وثلاثة معه من خيرة المصورين الصحفيين هم رشاد القوصى وعثمان محمود وحمدى الليثى ، حفلت الشئون العامة – فى ظل حرب فلسطين – بعدد وافر من الضباط الاحتياطيين خريجى كليات التجارة والحقوق والزراعة .. الخ . أذكر منهم الزملاء حسين النورى

وصدقى ربيع وحلمى عبد المعطى وإبراهيم عسكر ومحمد حسن المرغنى وجميل الهرميل ومحفوظ نجم الدين ومحمد عبد الرحمن إمام .. رحم الله موتاهم ومد فى عمر أحيائهم .

« كلمة السر » أو « افتح ياسمسم » .. لعملية الترفيه كانت « دعوة مفتوحة » للمواطنين من أجل التبرع للترفيه عن جنود الجيش المصرى الذى يحارب لأول مرة فى فلسطين وسط حماس شعبى عارم .

وقد تجمع لدينا من التبرعات النقدية التى كنا نسجلها يوما بيوم ونودعها فى البنك ونعلنها فى الصحف تباعا ما يزيد على ٣٥٠ ألف جنيه . وأظن أنه أحد أكبر أرقام التبرعات فى تاريخ المبادرات الشعبية والبر والأعمال الخيرية . ثم أنه يساوى الآن بعد ٤٠ سنة من التصاعد الرهيب ما يربو على عشرين مليون من الجنيهات .. بالمستريح . (كان الجنيه الأسترلينى وقتها يساوى سبعة وتسعين قرشا ونصف قرش مصرى ، وكان الجنيه الذهب يتعادل تقريبا مع الجنيه المصرى ..) . وشملت التبرعات تبرعات عينية شتى وكثيرة . ثم أضيف إليها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت من البضائع والمأكولات الاستهلاكية الفاخرة التى صودرت فى قناة السويس وموانى مصر لأنها كانت مرسلة إلى اسرائيل وخاصة من جنوب أفريقيا .

ولم يكن يسع هذه المأكولات المحفوظة (المصادرة) من المربات والكومبوتات والجبنات ومختلف المأكولات والأدوات بآلاف الأطنان سوى « ثكنات وقشلاقات قصر النيل » التى كان يحتلها الجيش البريطانى إلى ما قبل جلائه عنها فى سنة ١٩٤٧ ثم تحولت إلى مخازن للشئون العامة (الآن هى مقر فندق النيل هليتون) .

المختصر المفيد فى هذا أن ادارة الشئون العامة بقيادة عبد الحميد فهمى مرسى فى السنوات ٤٨ و ٤٩ و ١٩٥٠ لا يمكن أن تقارن بما كانت عليه قبلها وبقيادته أيضا . الظروف تغيرت وحتّمت . كانت الشئون العامة تسير بسرعة السلحفاة فتحولت إلى مضمار لسباق المسافات الطويلة كما أمست كخلية النحل نشاطا وفاعلية . كانت الشئون العامة « فى حالها » وأصبحت فى الصدارة .

غير أن ثمة حكايات حول تلك المرحلة أجدنى منساقا إلى روايتها .

الملك فاروق يسرق ١٠٠٠٠ جنيه
من أموال الترفيه تبرع بها عبود باشا !

وسط حملة وحمى التبرعات للترفيه عن الجنود التى راح يتنافس فيها الكبار والصغار .. نشرت الصحف – وعن طريقنا بالشئون العامة – أن **المليونير « أحمد عبود باشا »** قد تبرع للترفيه عن الجنود بمبلغ عشرة آلاف جنيه .

وكان واضحا أن مصدر الخبر هو عبود باشا شخصيا . غير أننا ظللنا طويلا ننتظر الشيك ذا العشرة آلاف جنيه . ولما طال الانتظار رحنا نسأل فقيل لنا : هس ! ممنوع السؤال أو الهمس !

ولم يصل التبرع المذكور أبدا إلى « هيئة الترفيه عن الجنود » (برئاسة الأميرالاى أ . ح محمود بك صبحى وعضوية البكباشى عبد الحميد فهمى مرسى والبكباشى أ . ح مهندس عبد الوهاب البشرى والبكباشى أ . ح مهندس عثمان حافظ) ولا وصل الشيك إلى الشئون العامة . وكان السبب هو أن الملك فاروق احتفظ بالمبلغ لنفسه . ليرفه عن نفسه ! أو ليس هو القائد الأعلى للجيش وللجنود ؟!

ولعل شهية فاروق فى « السرقة » يؤرخ تاريخ تفتحها بهذه الواقعة .. وإنا لله وإنا إليه راجعون .

والثالث من يوليو سنة ١٩٤٨ تاريخ مجهول طبعا . ومن سخرية القدر أنه كان يمكن – وأيم الله – أن يغدو هو تاريخ دخول الجيش المصرى إلى « تل أبيب » وإسقاط الدولة الصهيونية فى مهدها ووأد هذا الوليد الزنيم غير الشرعى . لولا الهدنة التى قبلتها غفلتنا ولولا التواطؤات المختلفة ولولا « ماكو أوامر » ولولا ولولا .

ولكن من يصدق أن هذا التاريخ احتفل به – بصورة مادية – فى الجيش المصرى كما لو كان فتحا مبينا أو أخلد المناسبات ؟ ولقد تم ذلك على نطاق نيف وأربعين ألف ضابط وجندى هم تعداد الجيش المصرى آنذاك . ولا أخال أحدا يذكر الآن شيئا عن التاريخ المذكور ، بل لعل الذين « غنموا » منه ما غنموا نسوه ..

أما التاريخ المشار إليه فقد صادف موعد الزيارة الملكية الفاروقية العامرة لميدان

القتال بفلسطين ، والتى رأيتها رأى العين ، وكنت فى « المعية الملكية ! » بحكم عملى فى « الشئون العامة » المنوط بها الدعاية .. والترفيه عن الجنود .

إنه فى ٣ يوليو ١٩٤٨ « شرّف » الملك فاروق الأول بزيارته وبحلته العسكرية كقائد أعلى للجيش وبعصا المارشالية جبهة القتال فى فلسطين ، وتفقد المواقع والجنود ساعة من نهار . وكانت فرصة سانحة « للبوزات » أمام عدسات التصوير والسينما والدعاية وتدبيج الأخبار والمقالات والمدائح فى القائد المظفر !

وبالتوجيهات الملكية السامية أوحى إلينا أن « نخلّد » تلك الزيارة فاقترح **الفريق محمد حيدر باشا** وزير الحربية (ولا تنسى أنه كان يحمل أيضا صفة « ياور جلالة الملك » ، ولم يتخل عن هذا اللقب والصفة ولو إكراما لموقعه فى السلطة التنفيذية .. رحمه الله ورحم السلطة التنفيذية !) .. اقترح أن نخصص مبلغا كبيرا من جملة تبرعات المصريين للترفيه عن الجنود من أجل شراء ساعات تهُدى إلى الضباط والجنود الذين « سعدوا » وحضروا الزيارة الملكية التاريخية . وأن يكتب على مينائها اسم « فاروق الأول » . وأن تحفر على ظهرها هذه العبارة « تذكار زيارة جلالة الملك المعظم فاروق الأول لميدان القتال بفلسطين فى ٣ يوليو سنة ١٩٤٨ » !

ساعات ممتازة من الذهب (من انتاج شركة « أوميجا » السويسرية) لأسر الشهداء واللواءات . ساعات من الذهب وبمرتبة أدنى للأميرالايات والقائمقامات . ساعات مذهبة للرتب من بكباشى حتى ملازم ثان . ساعات صلب روسكوف (بلا حجارة) للصف ضباط والجنود .

ولك أن تتصور مشقة استيراد وتسويق هذا العدد المهول المتنوع من الساعات ، وتخزينه ، وتنسيقه ، واعداد كشوف المستحقين (بعد التعديلات والاضافات والاعتراضات والشفاعات) ، ثم توزيع الساعات على هؤلاء جميعا . حسبك أن تعلم أن « مراسم التوزيع » جرت سنة ١٩٥٠ أى بعد الهنا – أو الضنى – لا بسنة بل سنتين . وقد وكل إلىّ كضابط فى ادارة الشئون العامة مراجعة كشوف المستحقين والاشراف على تخزين الساعات واعدادها للتوزيع . وحصلت على ساعة مذهبة (وفقا لرتبتى كيوزباشى) ثم أضعتها . كما « ظفرت » بقصيدة نظمتها كأنها شكوى على عرضحال تمغة ! ولم تضع .. فهى الأبقى ، على الأقل لتشغل صفحتين من

ديوانى الثالث « عندما توحى الليالى » ، ولأستشهد هنا فى هذه الحكايات بأبيات منها :

هـــى الساعـــات أقضيهـــا لدى « الساعات » .. أحصيها
وتنسينـــى ألـــوف « الساع » وقتـــى بيـــن أيديهـــا
وأفـــواج أتت تسعـــى ولا تهـــدا مساعيهـــا
لهـا صخب كمـوج البحـر داوٍ فـــى تلاغيهـــا
تسد النسمـــة الفيحـــاء عنـــى فـــى تلاقيهـــا
تقول الناس : أنت النذْب لكـن .. كيـف أرضيهـــا ؟
ومـــاذا تفـعل الأقـــواس مهمـــا جـدٌ باريهـــا ؟!
وقـــد حُـمِّلتُ أعبـــاءً تداعـــى كاهلـــى فيهـــا
فهـذا سُرَّ مـــن أمـــرى وذا يصليـــه تسفيهـــا !
وذا يرجـــو ، وذا يهجـــو بألفـــــاظ يواريهـــــا
عنـــاء هَـــدَّ أعصابـــى وهـــم سمـــوه « ترفيهـــا » !

معركة فلسطين .. سينمائيا !

أمضينا المرحلة منذ بداية سنة ١٩٤٠ فى ظل الحرب العالمية الثانية حتى نهايتها . العناوين الرئيسية للصحف تتناولها وتتابع معاركها وأخبارها . أوليست حربا عالمية ومصيرية وهى تدور من حولنا ونشارك فيها أردنا أم لم نرد ؟

ولم تقتصر أخبار الحرب على الصحف والاذاعة ولا على « جنرالات المقاهى » كما كان يسمى الذين يلوكون سيرة الحرب ويشبعونها تعليقا ووصفا واستنتاجات وتحليلات وتنبوءات . إنما كانت تلاحقنا وبانتظام فى دور السينما إما بأفلام روائية حولها أحيانا وإما « بجريدة الحرب المصورة » دائما . فالأخيرة كانت مقررة علينا فى جميع دور السينما شتوية وصيفية .. درجة أولى وثانية . وكنت فى ذلك الحين وحتى سنوات طويلة تالية من الحريصين على ارتياد السينما ومن المتعلقين بها .

وكانت دور السينما الصيفية هى المتنفس الأكبر لمدينة القاهرة ، وكانت من معالمها ومن حدائقها (كانت تسمى « سينما حدائق ») ، ولدينا منها فى وسط المدينة

وفى مصر الجديدة آنذاك عشرات . نعم عشرات وأكثر من تلك السينمات الصيفية . والدخول بتراب الفلوس . يكفى أن نذكر على سبيل المثال أن سينما حديقة الأزبكية الصيفية .. قيمة تذكرة الدخول فيها أربعة قروش بما فى ذلك « طبق خشاف » فاخر للترغيب « فوق البيعة » ! وكانت تلك الدور (ثانى عرض) الصيفية تقدم فيلمين طويلين فى « عرض مستمر » ولكن لابد أن تستفتح بجريدة الحرب المصورة .

والحق أن « الحلفاء » كانوا شديدى العناية بتلك « الجريدة الحربية المصورة » للدعاية طبعا ، ولكنها تصور لقطات واقعية للحرب وصادقة بقدر المستطاع حتى ولو شملت انسحابا من موقعة أو أخرى .

وربما لأننا كنا فى سنة ١٩٤٨ قريبى عهد بالحرب العالمية الثانية وجريدتها المصورة ، أو ربما لكوننا ملكنا المبادءة فى أول « معركة فلسطين » فما فاتنا أن نسجل سينمائيا ـ ولو فى جانب منها ـ بعض المعارك !

وكان « لستوديو مصر » جريدة مصورة « روتينية » لم تألف هذا الجو العسكرى الحربى .. كما لم يألفه الجيش المصرى نفسه من قبل . وكان كبير مصورى « جريدة مصر الناطقة » هو « حسن مراد » الذى درس فن التصوير السينمائى عامة والاخبارى خاصة .. فى المانيا منذ باكورة شبابه .

عندما مَنحت وسام « ربطة الساق »
لحسن مراد كبير مصورى الجريدة السينمائية !

ولو أننى أحصيت « أخف عشرة أشخاص ظلا » عرفتهم فى حياتى لكان « حسن مراد » ـ رحمة الله عليه ـ بين صدارتهم . كان موهوبا وقديرا جدا فى مهنته ، كما كان موهوبا وقديرا فى السخرية من كل شىء حتى نفسه .

ومن حظى كمندوب لادارة الشئون العامة فى ميدان القتال أن صحبته معى فى عربتى « الجيب » لنتابع المعارك والمواقف والزيارات ويصورها على الطبيعة . ولا أزعم أننى عملت « مخرجا » ، وإنما لعلى شغلت وظيفة « مساعد مخرج » فالمخرج والمصور هو حسن مراد .

ولأن حسن مراد « مدنى » ، ولأنه كان يتظاهر - أو « يتريق على نفسه » - بالخوف والجبن فقد كانت صحبته متعة حقيقية شديدة الظرف .

أذكر فى هجمة من هجمات الجيش المصرى على إحدى المستعمرات وكان « أبوعلى » يصور تحطيم استحكامات الأسوار الشائكة الصهيونية « بالبانجلور المصرى » أننا بعد أن فرغنا من مهمتنا وعدت به وهو إلى جوارى فى عربة الجيب إلى مقرنا قرب رئاسة القوات المصرية بالميدان أن اكتشفت « قطعا عرضيا ممزقا » فى بنطلونه ـ وكان يرتدى بدلة كاكية كمراسل أو مصور حربى ـ فأشرت إلى هذا القطع وسألته : ما هذا يا حسن بك ؟ ولما رآه بعينيه صرخ قائلا : آه يا رجْلى ! ثم قال : أرجوك يابودرش أوقف العربة !

ونزل حسن مراد من العربة يتحسس رجله فى وجل طفرت له دموعى من الضحك ! ولم تكن به أية إصابة أو جرح فيما عدا هذا القطع فى البنطلون الذى معناه أن شظية اخترقته دون أن تمس شعرة من رجله . وجلس « حسن مراد » على الأرض وكأنما هو غير مصدق أو كأنما يطلب المواساة . فقلت له : يا حسن بك أبشر ! سوف تمنحك الحكومة المصرية « وسام ربطة الساق » ! (وهو اسم وسام شهير فى بريطانيا !)

المهم أننا خلال بضعة أسابيع التقط حسن مراد ما تزيد مساحته الزمنية عن غشر ساعات تصوير ، شاملة طبعا الزيارة الملكية العامرة يوم ٣ يوليو سنة ١٩٤٨ .

وفى أواخر يوليو سنة ١٩٤٨ كان لابد من الاستفادة بهذه اللقطات الفريدة لمسرح العمليات فى ميدان القتال . ورئى أن تكون فيلما كاملا تحت عنوان « معارك الجيش المصرى فى فلسطين » .

ووقع الاختيار على شخصى للاشراف على مهمة لم أزاولها من قبل .

ففى حجرة « المافيولا » باستوديو مصر ولأيام متصلة جلست مع الفنيين المختصين لعمل « مونتاج » فيلم كامل يستغرق ساعة ونصف الساعة . وهو ما لم أمارسه من قبل ولا من بعد .



صورة تذكارية للملك فاروق القائد الأعلى للجيش فى بلكون سينما ستوديو مصر خريف سنة ١٩٤٨ وإلى يساره النقراشى باشا رئيس الوزراء وحيدر باشا وزير الدفاع وابراهيم باشا عبد الهادى رئيس الديوان الملكى . وإلى يساره الأمير عباس حليم وأميران آخران والمؤلف خلفهم . وفى خلفية الصورة عدد من المتطوعات للخدمات الطبية بالرداء العسكرى يجلسن فى ترقب .

ثم عهدوا إلىّ بكتابة « التعليق الصوتى » الذى يصاحب هذا الفيلم التسجيلى . وفعلتها . كتبته ، وتم اعتماد التعليق المكتوب وسجلوه بصوت أحد المذيعين المتمرسين .

وفى « سينما ستوديو مصر » (وكانت لها شنة ورنة وبهجة ونضارة أيامها) وبحضور الملك فاروق جرى « العرض الأول » لفيلم « معارك الجيش المصرى فى فلسطين » . على أن « الوجه غير المضىء » من معارك الجيش المصرى فى فلسطين .. أى منذ حصار الفالوجا وما بعدها لم يصوره حسن مراد . « لا نكوصا »

من الشئون العامة أو غيابا فقد عاصرت تلك المعارك لحظة بلحظة تقريبا ، ولا « جبنا » من حسن مراد ، ولكن لأن التعليمات قضت بحجب ما كان يجرى .

على أى حال ـ ويا له من حال ـ فيبقى أننى لمجرد الذكرى وددت لو عثرت على نسخة أنقلها « بالفيديو » للفيلم الأوحد الذى شاركت فيه لا لأشاهد بعض تحركاتى فيه ـ فإن لى فيه بعض اللقطات ـ ولكن لأستعيد ذكرياتى مصورة وأسمع تعليقاتى مسجلة !

« الفريق » فوزية وجروبى .. وخرق الهدنة !

من المصادفات أننى أكتب هذه الكلمات يوم ٥ يونيو سنة ١٩٨٨ أى بعد ٢١ عاما من أسود يوم فى تاريخ مصر والعالم العربى . وهذه الحكاية التى أرويها هنا هى « ٥ يونيو الأول مصغرا » .. أو بالأحرى هى تتناول صورة من بداية أول مرحلة « استأسدت » فيها اسرائيل « وشمت نفسها » ، وكانت لها عواقب وخيمة وإن لم تصل فى حجمها إلى واحد على ألف مما وصل إليه عدوان ٥ يونيو ١٩٦٧ . فرغم كل شىء كانت اسرائيل ـ مع الامدادات العسكرية لها شرقا وغربا ـ مجرد دويلة كما كنا أصلب عودا ..

كان الملك فاروق قد منح شقيقته الأميرة (الامبراطورة السابقة بإيران) فوزية رتبة « الفريق » كما منح الأميرة فائزة رتبة « اللواء » وكانتا على رأس مجموعة من بنات الذوات وأشباههن اللاتى « جُندن » .. أو على الأصح « تطوعن » للخدمة العسكرية الطبية وارتدين سترة كاكية وجوب كاكى وحصلن على رتب مختلفة من رتبة الصاغ (ناهد رشاد) إلى اليوزباشى والملازم الأول فى خدمة المستشفيات والخدمات الطبية بالقاهرة والميدان . وإذا كان بعض المتطوعات قد اتخذن المسألة « عياقة » فأشهد أن بعضهن أخذنها جدا وكدا وتضحية وعملا انسانيا .

وأعلنوا أن « الفريق فوزية » سوف تشرف بزيارتها الجيش المصرى بفلسطين ، وتزور مستشفيات الميدان على طول الجبهة .

وفى صبيحة اليوم السابق لزيارتها المحدد لها النصف الثانى من أكتوبر ١٩٤٨

وبالتحديد يوم وقفة العيد الأضحى (كأن فوزية « تحج » إلى الميدان) كان الميدان بأسره مشغولا بالاستعداد لهذه الزيارة وباجراء « بروفة نهائية » لها حتى تأتى على الوجه الأكمل .

ومازال المنظر مطبوعا فى ذاكرتى ..

فعلى طول الطريق الأسفلتى من العريش حتى أسدود مرورا برفح وغزة والمجدل اصطف جنود على طريقة التشريفة التى نراها الآن من جنود الشرطة لدى حضور كبار الزوار فى الطريق من المطار إلى مقر الضيافة .. وبنفس « الفواصل » تقريبا . وكان كل جندى من الجنود المختارين من بين قواتنا يقف وهو يحمل مع سلاحه « صحبة ورد » تليق بالوجه الوردى للأميرة الزائرة ! وفى الوقت نفسه كانت عربات متمركزة (كل كذا كيلو) أمام تجمعات ومواقع الجيش المتناثرة وتحمل هذه العربات « صوانى ملبس وشيكولاتة » ـ على طريقة الأفراح ـ أحضرت خصيصا من محلات « جروبى » بالقاهرة فى وضع الاستعداد « للتفريق » على الجنود والمستشفيات احتفالا بهذه الزيارة الميمونة .

ولأننا « شئون عامة » فقد كان لنا ـ أولى ـ دور بارز فى الاشراف على هذه البروفة والعملية ، وإن لم يكن لنا دور فى اختيارها أو فى التخطيط لها .

وفى « عز البروفة » وبعد ظهر اليوم المذكور ونحن نتطلع إلى السماء شاهدنا أسرابا من طائرات « الداكوتا » . وجزمنا بأنها طائرات مصرية خصنا لعلها جاءت لتشارك فى تجربة الحفل المرتقب . ولكن فجأة إذا بالطائرات المذكورة تلقى قنابلها علينا ! يا سلام ؟ نحن فى فترة هدنة معلنة « تفضلنا » نحن بقبولها . ثم منذ متى يملك العدو طائرات قاذفات قنابل من هذا الطراز ، ولم يكن بحوزته حتى الأمس القريب سوى عدد محدود من طائرات « أوستر » شبه الورقية ولا يتجاوز عددها أصابع اليد الواحدة ؟

ولكن ما وقع كان .. وكان هذا الهجوم الجوى الذى خرقت به اسرائيل الهدنة لأول مرة منذ اعلان دولتها إيذانا بهجوم برى أعدت له بعد أن زُودت بالسلاح والعتاد



مع صلاح سالم ، دخلنا معا فلسطين يوم ١٧ مايو ١٩٤٨ وظل ملحقا معى فى إدارة الشئون العامة هناك لمدة أسبوع . حتى ألحق كأركان حرب بالقيادة العامة للجيش المصرى بفلسطين مع قائد القوات هناك الاميرالاى أحمد بك المواوى . الصورة لنا مع بعض الفلسطينيين وبعض ضباط الجيش المصرى .

والمتطوعين من جنوب أفريقيا حتى وسط أوروبا . أكانت مخابراتنا فى غيبوبة ؟ أكنا نهزل فى موضع الجد ؟ أكنا « على نياتنا » ؟

ألغيت ـ بالطبع وبالقطع ـ زيارة « الفريق » الأميرة « فوزية أحمد فؤاد اسماعيل محمد على » . ولكن انظروا إلى « التوقيت » الذى اختارته اسرائيل لخرق الهدنة .. والناس ـ أعنى الجيش ـ نيام « فى العسل نوم » يستعدون للأبهة « والفشخرة والمظهرة والمنظرة » من جانب ، ويتأهبون للاحتفال بعيد الأضحى .. وبالتالى أخذوا على غرة تماما .. وذهبت طاقات الورود والملبس والشيكولاتة سدى ، فما بكت عليها السماوات والأرض ..

ولعله مما هو جدير بالذكر والتأمل أن « الصفعة » ردت إلى اسرائيل ـ بصورة ما ـ فى ظروف مشابهة وبعد ربع قرن بالتمام والكمال . فى عيد الأضحى بأكتوبر ١٩٤٨ حدث هذا الهجوم الاسرائيلى . وفى عيدهم « يوم كيبور » فى اكتوبر ١٩٧٣



لم أنس الأنوار الكاشفة فى فلسطين ١٩٤٨ . قمت بزيارة لمواقعها . وفى الصورة مع الصاغ منير صدقى قائد أنوار الميدان أمام « باعث الأنوار بالرادار » ومع اثنين من دفعة سبتمبر ٤٢ إبراهيم السيد حجاج وصلاح عفيفى .

بادرناهم بالهجوم والعبور واكتساح خط بارليف .. ومع ذلك فلم نشف غليلنا تماما لا مما حدث فى ٤٨ ولا فى ٥٦ ولا فى ١٩٦٧ .

ولنعد إلى الموقف فى أكتوبر ١٩٤٨ .

لقد قطع الهجوم الاسرائيلى البرى فى عيد الأضحى سنة ١٩٤٨ الطريق بين أسدود والمجدل من ناحية وغزة من ناحية أخرى ، كما قطعه وتوغل فى « عراق سويدان » و« عراق المنشية » . وأسفر الموقف « المفاجىء » عن ضرورة انسحاب قواتنا من أسدود والمجدل إلى غزة . وقد تم هذا الانسحاب بما يشبه المعجزة ومن خلال ما سمى « طريق الفراعنة » تعظيما لابتكاره وقدراته وإعجازه . إذ انسحبت القوات المصرية من أسدود والمجدل لا بالطريق الاسفلتى « المقطوع » وإنما شقت طريقا فوق رمال الساحل . كانت تضع له فوق الرمال كل بضعة أمتار شرائح من « سلك الأرانب » المقوى لتمكين الحملة الميكانيكية من السير فوق الرمال (بهذا العازل الحديدى) ثم تنزع تلك الشرائح من الأسلاك بعد سير الحملة الميكانيكية تلك

الأمتار المحدودة ، وتعود فتمد الأسلاك هى نفسها فى أمتار تالية ، وهكذا حتى تم الانسحاب إلى غزة الحصينة . شيء لا يُصدَّق ولكنه حدث بالفعل ولم يخلّفوا وراءهم فى أسدود والمجدل أيا من معداتهم وأسلحتهم وحملتهم المكانيكية بل وصلوا بها سليمة إلى غزة . ومن المؤكد أنه قد ساعد على نجاح تلك الفكرة العبقرية أن اسرائيل لم تكن تملك طائرات كافية تهاجمها ولا هليكوبترات تنقض عليها كما حدث فى الحروب التالية .

كما أسفر الموقف الطارىء أيضا عن تمركز قوات عراق سويدان وعراق المنشية فى منطقة الفالوجة التى حوصرت ولم تستسلم أبدا حتى أبرمت اتفاقية الهدنة المؤقتة فى رودس فعادت القوات المحاصرة إلى أرض الوطن .

وهكذا فقد كان من نتيجة الانشغال بزيارة الفريق فوزية الملغاة وقوع هذه النكسة المبتلاة . وطارت فيها رقبة الاميرالاى أحمد على المواوى قائد القوات المصرية فى فلسطين . عزلوه واستبدلوا به اللواء أركان الحرب أحمد فؤاد صادق .

فرح للأميرة فوزية فى ميدان القتال قبل العدوان بيوم واحد ؟ صحيح .. « آخر الزمر طيط » !

ويكرر التاريخ نفسه وبصورة أبشع ..

ففى مساء ٤ يونيو ١٩٦٧ أقام سلاح الطيران المصرى حفله الساهر الحافل الغافل .. وكان بكل المعايير والمقاييس والموازين حفلا « نشازا » دون أى داع إلا أن يترك طائراته فريسة سهلة للعدوان المبيت صبيحة اليوم التالى .. ٥ يونيو .. واحر قلباه ..

فى معركة « التبة ٨٦ » ..
قاذفات اللهب « وحصان طروادة » !

وفى ديسمبر سنة ١٩٤٨ تكرر ما حدث فى أكتوبر أى اشتد ساعد اسرائيل مرة أخرى فخرقت أيضا الهدنة التى توصل إليها مجلس الأمن . مع فارق هو أننا لم نؤخذ على غرة فى ديسمبر ، كما أن قائد القوات المصرية أصبح أحمد فؤاد صادق .. وهو محنك وداهية « ولحمه مر » !

وكما أسلفت كثيرا فإننى لا أؤرخ فى هذا الكتاب . وإنما أكتب عما شاهدته أو سمعته أو عاصرته . وليس كل ما شاهدت وما سمعت وما عاصرت بطبيعة الحال ، بل ما أراه طريفا أو حريا بالتناول والتعليق . وغنى عن البيان أن مصدرى الأكبر هو « الذاكرة » !

على أن الفارق الأكبر بين ما قبل أكتوبر سنة ١٩٤٨ وما بعده هو اننا انتقلنا من مرحلة الهجوم الذى أوصلنا إلى أسدود إلى مرحلة الدفاع المتقوقع فى قطاع غزة . هكذا كان الموقف فى ديسمبر سنة ٤٨ عندما عاود اليهود هجومهم :

وكانت معركة « التبة ٨٦ » ـ كما عرفت بهذا الاسم ـ واحدة من أهم وأحسم المعارك التى جرت بين اليهود وبيننا .

معروف أن اليهود هاجموا بضراوة فى التبة ٨٦ بغية أن يحدثوا شرخا جديدا فى الجيش المصرى بعد شرخ حصار الفالوجة . ولكن قواتنا تصدت لهم بضراوة أشد واستطاعت اجهاض هجومهم والحاق خسائر جسيمة بهم . وقلت إن البطل الأول فى هذه المعركة هو اليوزباشى محمد البلتاجى (محافظ الجيزة سابقا وعضو مجلس الشعب حاليا) على رأس وحدته الحديثة المتخصصة فى قاذفات اللهب . وقلت إن الاسرائيليين حين شاهدوا وكابدوا هذا السلاح الجديد ارتعبوا ولاذوا بالفرار .

ولكن ما علاقة « الشئون العامة » بهذه المعركة ؟ هذا هو الجديد الذى أضيفه .
فللأمانة إن لادارة الشئون العامة نصيبا ـ ولو هامشيا ـ فى نجاحنا فى هذه المعركة .

ذلك أننا كانت لنا عربات « كانتين » تقدم وجبات ترفيهية وساندوتشات فول وطعمية للجنود فى الميدان على نمط الـ « نافى » فى الجيش البريطانى .

والذى حدث أن عربة ما من عربات الكانتين المذكورة كنت قد بعثت بها إلى تلك الناحية فى اليوم المذكور . وتصادف أن هذه العربة بالذات كانت ذات شكل ضخم عجيب رهيب . ولازلت أتذكرها للآن . فهى رمادية اللون « مضلعة » ولها فى أعلاها مقدمة بارزة تجعلها شيئا أشبه بحصان طروادة .. وبغير مبالغة ! وتصادف أيضا أن عرجت العربة الضخمة المذكورة إلى مكان المعركة فى نفس الوقت الذى

كانت قاذفات اللهب تصليهم فيه نيرانها ، فزادت موقف الاسرائيليين ارتباكا وهلعا وكأنما ظنوا أن المصريين قد فتحوا « المخزن رقم ١٣ » وأخرجوا أسلحتهم السرية ودفعوا بها إلى المعركة فولى الاسرائيليون الأدبار !

فى المرتين أكتوبر وديسمبر سنة ١٩٤٨ كنت هناك بين الضباط والجنود ، ولو أننى لم أشارك فى القتال ولم أطلق رصاصة واحدة .

ومثلما كانت بطارياتنا ومدفعيتنا تطلق نيرانها على العدو كان هو يفعل الشىء نفسه . وكنت خلال المعركة الدائرة أمر على أحد مواقعنا القريب من غزة وسقطت القنابل إلى جوارى . وخلافا لما كنت أتصور فإننى لم أشعر برهبة . وبدوت كأنما أشهد فيلما سينمائيا ولا أشارك فى معركة حقيقية . لم أهتز إلا حين سقط إلى جوارى الملازم الأول (مدفعية) عبدالمجيد خطاب جريحا من جراء شظايا قنابل الأعداء التى خصته بالذات وأفلتتنى . وهرعت إليه ولففت بمنديلى موضع الجرح فى جبهته وحملته مع عدد من الزملاء « لاخلائه » إلى الخطوط الخلفية حيث يعالج فى حملة مستشفى الميدان ولأطمأن على سلامته . وقد سلم ومازال يحمل آثار الجرح فوق جبينه وساما مصريا فلسطينيا عربيا مرموقا .

ومن غرائب المصادفات أننى حين كنت « أبيض » هذه الصفحات فى أول سنة ١٩٨٩ التقيت مصادفة بالزميل عبدالمجيد خطاب (اللواء فى المعاش) وتصافحنا وتعانقنا وقد كان قد مر دهر طويل دون أن نلتقى فقال لى باسما : هل تصدق أننى مازلت أحتفظ بمنديلك مخضبا بدمائى إلى الآن فى حقيبة مقتنيات الذكريات ؟!

فاروق يبيع لحسنى الزعيم « الميه فى حارة السقايين » !

إن مصر هى مصر بوزنها ومكانتها وتاريخها قبلة الأنظار وقلعة الأقطار . ومثلما كان جمال عبدالناصر زعيما للقومية العربية كان الملك فاروق يطمع فى الخلافة بين الأمم العربية . وقد لوحت بهذا الحلم جامعة الدول العربية التى انشئت فى عهده سنة ١٩٤٤ . كما كان حريصا على لقب « ملك مصر والسودان » .

وسوريا هى من أقرب الدول تاريخيا لمصر ، والعكس صحيح .

ومن هنا فحين حدث أول انقلاب عسكرى فى سوريا سنة ١٩٤٩ بقيادة حسنى الزعيم سارع الملك فاروق بتأييد ومباركة انقلاب سوريا .

ولم يكتف فاروق بمجرد الاعتراف أو ببرقيات التهنئة لحسنى الزعيم وانما مشى خطوات أبعد من ذلك .

ولست أدرى من هو « العبقرى » الذى أوحى للملك فاروق بأن يبعث بهدية « مادية » للجيش السورى . وأن تكون الهدية عبارة عن علب تحوى « حلويات مسكرة » .. مشمش وكمثرى وبرقوق وخلافه ! وهى التى تخصص فى صناعتها السوريون ، وكأنه راح يبيع الميه فى حارة السقايين ! أو كأنما سويسرا مثلا بدلا من أن تهدينا فى أى مناسبة من المناسبات شيكولاتة أو ساعات تهدينا ساندوتشات « فول وطعمية » أو نحن نهديها ساعات سويسرية !

وكان المرافق لصناديق الحلوى المسكّرة إلى سوريا اليوزباشى الاحتياطى على بدوى عن الشئون العامة والذى « استوى » ـ رحمه الله ـ من قفشاتنا و« تريقتنا » عمال على بطال منذ سنة ١٩٤٧ وطالع !

وكما منح « فاروق » حسنى الزعيم وضباطه الأقربين الانقلابيين أوسمة مصرية ، فكذلك منح « حسنى الزعيم » وفد المهنئين الأوسمة السورية . بما فى ذلك « حامل الحلوى » على بدوى حصل على نيشان الاستحقاق السورى .. اكرامية يعنى !

ولم يهنأ حسنى الزعيم على زعامته لسوريا وعلى نياشينه وحلواه .. فقبل نهاية عام ١٩٤٩ انقلبوا عليه وجعلوه فى خبر كان ودخلت سوريا فى مسلسل الانقلابات والاعدامات ..

ذهب حسنى الزعيم وبقيت نياشينه فى صدور من منحهم إياها .

وأوحت لى « المفارقة الشاملة » التى تناولتها فى الفقرات السابقة « بقفشات شاملة » كان ضحيتها أخونا على بدوى .. و« بالزجل » على ندرة ما أفعل ولكن القفشة ـ والقافية ـ تعذر ! فكتبت فيه زجلا طويلا اقتصر فيه هنا بما يلى :

الحظ راكب كتافك وأنت مش دريـــــان
نجوم .. وتاج .. إيه ده كله ؟ حقها تنعان !
والحظ راشق فى صدرك كل يوم بنشـــان !
والحظ « لابد » فى جيبك بالدهب رنـــان !

●

تكونش أنت اللى شاطر؟ لأ.. ده مش معقول!
تكونش ابن الاكابر ؟ لأ .. ومكسوف أقول !
تكونش طيب وطاهر ؟ لأ .. بألف دليـــل
واسأل « كازينو التلاقى » دانت زير نسوان!

●

دروس تدرس كأنك عالم التـــــــاريخ
ونُصها أنت لاطشه واللى فاض تلبيـــخ !
دا العلم شربات جعلته يابوجهل فســـيخ !
قال إيه وتاخد مكافأة « خصم ع الطيران » !

●

وقد يكون الزجل قاسيا فى ظاهره قليلا أو كثيرا وهى التجربة الثانية لى فى مضمار الزجل بعد الزجل القصير الذى داعبت به زميلى ودفعتى « ابراهيم السيد حجاج » والذى أشرت إليه فى موضعه . ولكن هذا هو طابع وتقاليد الأزجال الاخوانية الساخرة . غير أن المودة ـ لا القرابة ـ كانت تربط بينى وبين « على بدوى » شأنه شأن جميع الزملاء .

محمد حسن عودة
وحسين عوض على

والحق أننا كنا فى الشئون العامة (العهد الملكى) مجموعة صغيرة ولكن متآلفة بقيادة المايسترو الرقيق المهذب **القائمقام عبدالحميد فهمى مرسى** .

وواجب الوفاء يقتضينى هنا أن أحييهم ، فمعهم قضيت سنوات من أجمل وأخصب سنوات العمر ، وكما أحببتهم فقد تعلمت منهم جميعا كبيرهم وصغيرهم . ومن حقهم علىَّ الا أبخل عليهم بشذرات من الذكريات .

كان « محمد حسن عودة » بوصفه كبيرنا (بعد المدير الأمير) يمثل العسكرية والانضباط ولكن فى حدود العمل الراقى المرن المتفتح الذى هو من طبيعة الشئون العامة .

وإذا لم يكن « عودة » قد سافر إلى الميدان بفلسطين فى « دوريتنا » المتعاقبة بحكم اصابته فى مشط قدمه ، فأشهد أنه كان يملك طاقة من نشاط دائب كأنه ـ وحده ـ كتيبة من كتائب المشاة التى عمل بها سنوات فى مطلع خدمته وأصيب فيها خلال عمليات الحرب العالمية الثانية .. وقد انتقل إلى رحمة الله فى أواخر الستينيات .

أما « حسين عوض على » الصديق والزميل الذى يسبقنى فى الأقدمية فهو شعلة من « الذكاء الراسى » وسعة الاطلاع والمعلومات والتنظيم فضلا عن كونه يمثل الطابع العام الذى يتسم به ضباط مدفعية الميدان عادة . الثقل والثقة بالنفس والأعصاب الحديدية . ومن لم يقترب من حسين عوض خاله عن بعد ضابطا متجهما ولكن من خالطه يكتشف أن تحت هذا القناع الجاد الشديد الرزانة مرحا وصياغة مرتبة للدعابات والفكاهة الحلوة .

وعلى خلاف اتجاهى للدراسة بكلية الحقوق كان « حسين عوض على » يدرك منذ اليوم الأول أن الشئون العامة وما يتصل بها من صحافة واعلام ليست هى مجاله ، بل إن مجاله الحيوى فى الجيش وفى الوحدات المقاتلة بالذات كضابط أركان حرب . وذلك ما عمل له ونجح فيه فالتحق بكلية أركان الحرب فى أول الخمسينيات ومنها صعد كالصاروخ فى التشكيلات . وكان نجما وفارسا شديد المراس فى ميدان القتال .

ومن المثير للأسى والشجن حقا أن اللواء أ . ح حسين عوض على رحل عن دنيانا مؤخرا فى يوليو ١٩٨٩ قبل أن أدفع بكتابى إلى المطبعة ، وهزنى رحيله هزا .. رحمة الله عليه .

واحد فقط من بين الأبناء الدائمين لأسرة الشئون العامة العتيدة هو الذى مازال يسعدنى بزيارته دائما كلما جاء من الاسكندرية إلى القاهرة وهو الرائد الفنى حسين رفقى الشارونى المشرف على قسم العرض السينمائى فى الشئون العامة والذى كانت

لى معه ذكريات صحبة جميلة رائعة فى القاهرة وفلسطين والسودان ومرسى مطروح . وأعتقد أن أحدا لم يعاصر مختلف العهود فى ادارة الشئون العامة منذ نشأتها مثلما عاصرها هذا الزميل العزيز المجامل الرائد حسين رفقى الشارونى .

أما « جبهة الضباط الاحتياط » التى انضمت الينا من خريجى كليات الحقوق والتجارة والزراعة وغيرها فكانوا نعم الزملاء الذين وضعناهم فى حبات عيوننا كما وضعونا هم أيضا فى حبات العيون .

وهم لم يجيئوا أو ينضموا إلينا (من سنة ٤٨ حتى سنة ١٩٥١) للنزهة أو الراحة أو المنظرة ، وإنما اتساع العمل وتشعبه وحاجته فرضت وجودهم وفى مرحلة حافلة .

وكان من نصيبى وحسن الظن بى أن كنت الذى حصل - بين زملاء الشئون العامة - على وسام « نوط الجدارة الذهبى » عن عملى بالجبهة فى فلسطين . طلبه لى اللواء أ . ح أحمد فؤاد صادق .. وهو بالفعل أحد أكفأ كبار القادة العسكريين .

على أن انحسارا طرأ على نشاط ادارة الشئون العامة منذ سنة ١٩٥١ ولم يعد لها بريقها السابق ، فهى لا تلمع إلا إذا التمعت الأحداث على نطاق واسع يشارك فيه الجيش . ومن هنا ومع هذا « الهبوط » عاد الضباط الاحتياطيون إلى قواعدهم المدنية سالمين . وصفصفت الشئون العامة على مديرها عبدالحميد فهمى مرسى وعلى كاتب هذه السطور وكمال مشهور ولبيب سليمان من الضباط العاملين ثم اليوزباشى الاحتياط على بدوى الذى كان موظفا مدنيا بهذه الادارة . واقتصر عملنا على متابعة زيارات الفريق محمد حيدر باشا القائد العام للقوات المسلحة ، وحضور حفل تخريج كل دفعة جديدة من الكلية الحربية يرتجل فيها حيدر باشا خطبا حماسية ، ومشاهدة ووصف بعض المناورات العسكرية للقوات المسلحة .. والقاعدة الأزلية أن « الأيام دول » بالنسبة للانسان والمكان أيضا !

العصر الذهبى « الثانى » للشئون العامة
« نجيب » و« السادات » يغاران من « وجيه أباظة » !

غير أن عصرا ذهبيا آخر كان مدخرا لادارة الشئون العامة للقوات المسلحة .

فمع قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وانصرام عهد وبزوغ عهد جديد فان الذى جرى ان « الشئون العامة » لم تلحق بالعهد الجديد فحسب بل كانت فى صدارته .

ولا جدال ان « نجم العصر الذهبى الثانى » للشئون العامة كان قائد الجناح محمد وجيه أباظة الذى عين مديرا للشئون العامة مع بداية الثورة .

وبصراحة .. وفى الشهور الأولى للثورة لم تكن مصر كلها تعرف سوى اسمين اللواء محمد نجيب قائد الثورة وأحد أشجع المقاتلين والشخصيات فى تاريخ الجيش المصرى ، وقائد الجناح وجيه أباظة مدير الشئون العامة الذى يفيض حماسا وحيوية وديناميكية وانفتاحا .

كانت ادارة الشئون العامة للقوات المسلحة هى المتحدثة باسم الثورة . وكانت الشئون العام وراء وأمام الاذاعة والاستعلامات والدعاية والفنون وقطار الرحمة ومعونة الشتاء الخ .. الخ . وعمل وجيه أباظة « كواجهة » لجمال عبدالناصر أمام الشعب حتى أن أحد أهم شروط محمد نجيب للعودة بعد أزمة مارس سنة ١٩٥٤ كان تنحية وجيه أباظة من منصبه فورا .. وإن لم يتحقق له هذا الطلب !

ولم يكن « محمد نجيب » رئيس الجمهورية هو وحده الذى « يغار » من وجيه أباظة ، بل ثمة رئيس جمهورية آخر (فيما بعد) كان يشتعل غيرة من وجيه أباظة ، وأعنى برئيس جمهورية « الغيب » .. أنور السادات ! فالمعروف أن للسادات صلات سابقة بالصحافة إذ عمل فى فترة إبعاده عن الجيش بمجلة روزاليوسف ومجلة المصور . وكان السادات فى بداية الثورة « تائها » يلتمس منصبا أو « حضورا » ! ويبدو أن عبدالناصر أشار إليه أنه فى استطاعته أن « يمر » على ادارة الشئون العامة للقوات المسلحة ! وبدت لنا حجرة مدير الشئون العامة بوزارة الحربية ـ لفترة ما ـ أشبه بالكراسى الموسيقية .. أيهما يسبق بالجلوس ـ فعلا ـ على مقعد المدير : وجيه أباظة أم أنور السادات ؟! وكان « النصر » حليف وجيه أباظة . وخاصة أنه مدير حقيقى ودينامو ومبتكر فى حين أن السادات (كما بدا لنا آنذاك) رئيس شرف ومنظرة !

ومع وجيه أباظة أتى عدد كبير من « الضباط الأحرار » هم اليوزباشية : أحمد

حمروش وكمال الدين الحناوى ومحمد أبوالفضل الجيزاوى ومصطفى كامل مراد ثم مصطفى المستكاوى وانضم إلينا أيضا من البداية الملازم الأول جمال الليثى الذى عهد إليه بقسم السينما فى الشئون العامة فكانت « السينما » هى قدره وحياته ومستقبله إذ أصبح واحدا من أقدر وأكبر العاملين فى الانتاج السينمائى .

كيف احتفظت بمكانى فى الشئون العامة ، وربما كنت محسوبا على العهد الملكى والعاملين مع حيدر باشا ؟

ابتداء فلم أكن منصرفا إلا لعملى فى الشئون العامة منذ بدأت مسيرتى فيها . فما كنت ضالعا مع الملك فاروق من قريب أو بعيد ، بل على العكس كنت أهاجمه - بتوقيع مستعار - نثرا وشعرا فى صحف مصر الفتاة والاشتراكية . كما لم أكن من زمرة حيدر باشا الذى بدا لى كأنما هو « عبدالمنعم فريد .. آخر » فى مسيرتى ، أوده وأهابه ، وإن كنت فيما يخص حيدر باشا لم أتبادل معه حديثا ..

ثم ان وجيه أباظة - وهو انسان شهم بالفطرة والممارسة - تمسك بى . ربما رغبة فى الافادة مما قد أكون حصلته من خبرة ، وربما من جراء « حكاية » نسيتها وهو لا يزال يذكرها فى كل مناسبة حتى الآن ومؤداها أنه سألنى عن القائمقام عبدالحميد فهمى مرسى مديرى السابق فلم أقل عنه إلا خيرا .. فراق لوجيه أباظة هذا الموقف ..

ثم إن صديق العمر أحمد حمروش - وكان له شأنه فى بداية الثورة - كان جد سعيد أن نعمل أخيرا معا جنبا إلى جنب .

ومع ذلك .. ونتيجة لكونى أمضيت - عند بداية الثورة - خمسة أعوام ونصف العام فى الشئون العامة وهى مساحة زمنية طويلة قلما يشغلها ضابط فى ادارة من الادارات ، فقد كدت أن « أطير » من الشئون العامة .

ذلك أننى خلال شهر أغسطس ١٩٥٢ كنت فى شأن من الشئون بالقيادة العامة للقوات المسلحة فى كوبرى القبة . وهناك رآنى البكباشى محمد مصطفى لطفى الذى عهدت إليه الثورة بالاشراف على سلاح المدفعية . وكان مصطفى لطفى يعرفنى

كطالب بالكلية الحربية وضابط بالمدفعية فالتفت إلىّ قائلا : أظن كفاية عليك كدة شئون عامة يا سى مصطفى .. وبكرة تيجى تقدم نفسك إلى سلاح المدفعية !

وكان يجلس إلى جوار مصطفى لطفى فى تلك اللحظة وبالصدفة البحتة الصاغ صلاح سالم الذى عمل معى فى الشئون العامة حين دخلنا معا إلى فلسطين فى ١٧ مايو سنة ١٩٤٨ كما أسلفت تفصيل ذلك من قبل . وقد نشأت بيننا من الوهلة الأولى (وحتى اللحظة الأخيرة) مودة غالية وعيش وملح . وصلاح سالم حتى قبل أن يعلن تشكيل مجلس قيادة الثورة هو صلاح سالم بكل ما يمثله من ثورية وعواصف عاطفية ونفاذ كلمة ! وكان تعقيب صلاح سالم على « هبوة » مصطفى لطفى أن قال له : سيبه يا مصطفى .. مالكش دعوة بيه ! وهكذا حسم صلاح سالم الموضوع « الشائك » المثار فى عبارة قاطعة ، وأدركنى فى اللحظة الأخيرة ومنع عودتى من الشئون العامة إلى المدفعية !

وحين احتفى بى الأخ العزيز مصطفى لطفى وهو سفيرنا فى مدريد سنة ١٩٧٢ وكنت آنذاك رئيس تحرير الجمهورية وسهرنا معا حتى مطلع الفجر فى بيته بالعاصمة الأسبانية نتذاكر فى القديم والجديد ذكرته بهذه الواقعة التى كان قد نسيها فضحك قائلا : يا شيخ الحمد لله أنك فضلت فى الشئون العامة ! والحمد لله حقا . وصدق رسول الله عليه الصلاة والسلام فى قوله « ما أصابك لم يكن ليخطأك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك » وفى قوله « كلّ ميسّر لما خلق له » .

وقد لا نكون فى حاجة هنا إلى أن أعرض لتجربتى فى اصدار مجلة التحرير عن ادارة الشئون العامة فى ١٧ سبتمبر سنة ١٩٥٢ بالاشتراك مع الصديق الأعز أحمد حمروش ، فقد تناولتها من قبل بوصفها فرضت نفسها ولم تكن لتنتظر موضعها فى حكايات الشئون العامة .. وبالترتيب الزمنى .

نعم لقد عرضت من قبل ـ فيما اقتضاه السياق مع تداعى الذكريات والحكايات ـ لبعض جوانب تجربتى مع مجلة التحرير التى أصدرناها معا بالاشتراك مع عدد من شباب الصحفيين (آنذاك) المتحمسين واليساريين ، ولكن من الصعب حيث أعرض للعصر الذهبى الثانى للشئون العامة ألا أعود لحكايات اضافية عن مجلة التحرير وهى

مرحلة غنية ، كما أنها بالتأكيد خطت لى طريقى إلى الصحافة التى تفرغت لها بالفعل منذ سنة ١٩٥٦ وإلى الآن وإلى ما شاء الله .

والحديث عن مجلة التحرير وعن الصحافة كثير ومثير . لقد مدت « مجلة التحرير » اتصالاتى بالوسط الصحفى وخاصة الشباب منه ، وعلى نحو لم يتوافر لى قبل الثورة . ففى خلال الفترة الأولى من عملى بادارة الشئون العامة - أى قبل الثورة - ما كانت « مجلة جيشنا » لتمد اتصالات أو لتفتح آفاقا ، فهى - كما أسلفت - مجرد نشرة تسجيلية عن تحركات وزيارات وزير الحربية بالاضافة إلى مقالات باهتة .. وحتى حماسها الملكى ركيك ! ولا أذكر أننى كتبت فيها مقالا واحدا ولا تحقيقا صحفيا ولا نشرت قصيدة ، وكأنما كنت أعاملها - وهى الصادرة عن الادارة التى اتبعها - كمجلة من الدرجة الثالثة ! وكان المسئول الذى يباشرها هو زميلنا المرحوم على بدوى .. فهى قطاعه الخاص . حتى الرغبة فى تطويرها أو تطعيمها بصحفيين محترفين لم تكن قائمة . فهى تكاد لا يقرأها أحد ، ويُراد أيضا ألا يقرأها أحد سوى وزير الحربية ! كانت فى واد (وخاصة فى آخر الأربعينيات وأول الخمسينيات) والشعب المصرى فى واد . هى تهتف بحياة الملك فاروق بمناسبة وبدون مناسبة بينما الشعب المصرى يهتف « الغذاء والكساء يا ملك النساء » .. وكان هذا أكثر الهتافات تهذيبا !

غير أن الموقف اختلف تماما بعد ثورة يوليو ومع اصدارنا مجلة التحرير عن ادارة الشئون العامة ، ولا يزال حديث « التحرير » مستمرا ! من جانبى هى فتحت شهيتى حتى أن العدد الأول منها نشرت فيه تحقيق صحفيا « هائلا » بالقلم والصورة عن « قصر الطاهرة » كأنما أكشف الستار لأول مرة عن خفايا القصور الملكية . كما نشرت مشهدا من « مسرحية شعرية » لى لم تكتمل كان عنوانها « إقطاع » . ثم لم ألبث أن بت أشارك فى صياغة الأخبار والموضوعات ورسائل القراء إلى جانب يوميات ثابتة كنت أنشرها تحت عنوان « خواطر مع الأيام » .

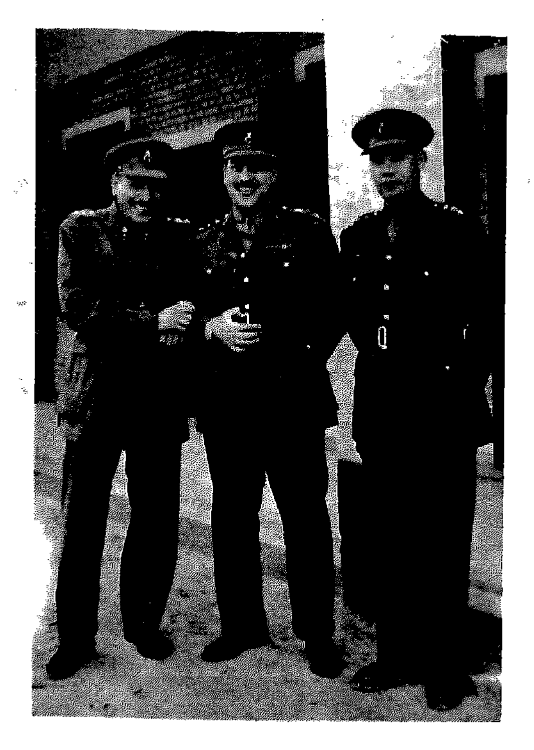
وفى أسبوع واحد انعقدت أواصر صداقة بين الأسرة القائمة على تحرير مجلة التحرير .. أحمد حمروش وعبد المنعم الصاوى وعبد الرحمن الشرقاوى وحسن فؤاد وعبد الغنى أبو العينين ومأمون الشناوى وصلاح حافظ وزهدى وسعد التائه



أول تحقيق صحفى أجريه لمجلة التحرير كان عن قصر الطاهرة. وفى الصورة على « كرسى العرش » داخل القصر مع عبد المجيد فريد !

وعلى الدالى وسعد لبيب وكاتب هذه السطور ، ومعظمهم من جريدة المصرى ومجلة روز اليوسف . ولا غرابة فالاثنتان كانتا من أعلى الأصوات تأييدا لثورة ٢٣ يوليو فضلا عن لقاءات مسبقة بين البعض منهم وبين أحمد حمروش . وحننا على أى حال كنا أبناء جيل واحد ، ولنا اتجاهات يسارية وإن اختلفت بين الاعتدال والتطرف .

ولقد فاق نجاح مجلة التحرير وأرقام توزيعها كل تصوراتنا . العدد الأول طبعنا منه – أخذا برأى الخبراء – ستين ألف نسخة ، وهو ما لاتطبعه أية مجلة .. وربما جريدة يومية فى تلك الأيام . وبعد ثلاث ساعات كانت جميع النسخ قد نفدت مما أذهلنا ثم أغرانا بأن نطبع عشرين ألف نسخة أخرى ارتُجع منها أكثر من نصفها ، وكان ذلك أول درس أتلقاه : لا تغرق الاسواق بغير حساب دقيق فمن الأفضل ألا



مع أول رئيس تحرير لمجلة التحرير «اليوزباشى» أحمد حمروش .. ومعنا اليوزباشى عبد الله صادق أحد أبناء سبتمبر ٤٢ .

تشبعها وألا تتخمها . وصدق رسول الله عليه الصلاة والسلام « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع » !

على أن التوزيع استقر فى الأعداد التالية عند نيف وسبعين ألف نسخة باستثناء عدد رأس السنة (أول يناير ١٩٥٣) الممتاز والذى كانت تصاحبه « نتيجة أنيقة هدية » صممها الفنان الكبير عبد السلام الشريف الذى وضع لمساته على « ماكيت » مجلة التحرير كما فعل مع عشرات من المجلات والصحف بذوقه الرفيع المتفرد . فالعدد المذكور نفدت كمياته المطروحة وقدرها حوالى مائة ألف نسخة ثم عادت إلى معدلها العادى فيما تلى ذلك (كان ثمن النسخة الواحدة قرشين ..) .

ولم يكن هذا الاقبال المنقطع النظير لغزا مستغلقا مع قوة الثورة فى بدايتها وتعلق الجماهير بها ، ومع الأسرار التى كانت تنفرد بها المجلة ..

وكما اندمج الجيش فى الشعب والشعب فى الجيش مع الثورة فى بدايتها ولم يكن هناك أية غرابة أو حرج فى أن يضم المجلس الواحد والاجتماع الواحد مدنيين وعسكريين بملابسهم الكاكية ، فكذلك كنا نحن العسكريين بزينا الرسمى نجتمع مع

زملائنا الصحفيين المدنيين بمجلة التحرير بلا حساسيات من هنا أو هناك ، ولا فارق ولا « مريسة » ولا عسكرية من جانبنا ، ولا « معلمة صحفية » من جانبهم ، وإنما كتلة واحدة هدفها خدمة مصر الثورة وثورة مصر .

كان ذلك فى أول الثورة بطبيعة الحال وقبل أن تزداد سطوة ووطأة الجيش والثورة فى السنوات التالية حتى الستينيات ، والتى بدأت النكت عن العسكريين وعن الثورة وعن عبد الناصر تؤلف وتفشى وتنتشر .

ولعل من أشهر وأوجع هذه النكت تلك التى ترددت فى منتصف الستينيات عن ضابط جيش يرتدى زيه العسكرى فى ديوان من دواوين الدرجة الأولى بالقطار . وكان فى الديوان معه ثلاثة رجال « مدنيين » وامرأة . وظن أحد الرجال الثلاثة أن الضابط يغازل المرأة فاشتبك مع الضابط واعتدى عليه بالضرب وشاركه فى الضرب الرجل الثانى فالرجل الثالث . وكان هذا يجرى قبل وقوف القطار مباشرة بمحطة طنطا فتدخل مفتش القطار وساق الجميع إلى مكتب الضابط القضائى بالمحطة . وأخذ الضابط يسأل الرجال الثلاثة واحد إثر الآخر عن سبب اعتدائهم على ضابط الجيش . فقال الأول : إن هذه المرأة التى غازلها الضابط هى زوجتى ! وسأل الثانى : وأنت لماذا ضربت ضابط الجيش ؟ فقال إن هذه المرأة هى شقيقتى ! ثم التفت الضابط القضائى إلى الثالث وسأله : وأنت ؟ فأجابه قائلا : والله أنا لقيت اتنين بيضربوا فى ضابط جيش قلت لازم الثورة انتهت ، فرأيت أن أشارك فى ضرب الضابط !

ونحن شعب اشتهر بتأليف ورواية النكت وخاصة السياسية منها . وأظن أن حصيلة النكت التى ترددت وشاعت عن ثورة يوليو وعبد الناصر والسادات .. الخ . تملأ مجلدات ..

ثروت عكاشة وذوبان الجليد !

وكان يمكن أن يقوم حجاب حاجز بيننا وبين الصاغ أركان الحرب **ثروت عكاشة** الذى « فوجئنا » بقدومه رئيسا لتحرير مجلة التحرير بعد عددها الثالث ، وبعد « عزل » الصديق أحمد حمروش الذى عز علينا تنحيته فى غمضة عين . فمن ناحية « ثروت » جديد علينا وكان معظمنا – وكنت منهم – لا يعرفونه . ومن ناحية أخرى

هو قدم إلينا بخطوات عسكرية « ناشفة » وبوجه شبه متجهم . كما أننا جميعا لا كنا « مرتزقة » حريصين على مواقعنا ، ولا كنا من طائفة « مات الملك . عاش الملك ! » . وهكذا فيمكن أن يذهب كل واحد منا إلى حاله دون تثريب .. ويا دار ما دخلك شر !

على أن الغريب حقا أننا أكتشفنا - وبأسرع وقت - أن خلف هذا القناع الصارم قلب طفل برىء ، وخلف هذا الموقف المتأزم مودة صافية وأفقا واسعا . وأنه مادام لا يصادر علينا ولا « يتمنظر » ولا يبدل ولا يغير فلينطبق المثل أو القول الذى نقرأه فى الكتب ونسمعه فى السينما THE SHOW MUST GO ON أى « العرض يستمر » . لماذا ؟ لأن ثروت حرص وتمسك بسياسة المجلة والعاملين فيها . وفى اللقاء الثالث لى بثروت خلال أربعة أيام شعرت لا بأن الجليد قد ذاب فحسب بل كأننا نعرف بعضنا البعض منذ قديم الأزل .. أو كأننا دفعة واحدة .

ولاهتماماته الموسيقية أضاف ثروت عكاشة بابا فى الموسيقى الكلاسيكية يحرره صديقه « أحمد سعد الدين » ، كما استدعى صديقه المستشار « أحمد لطفى » ليصبح بين المحررين فى الأدب والقصة . وفيما عدا هذين الاثنين (وكلاهما عمل معه بعد ذلك فى وزارة الثقافة) لم يضف آخرين ، بل مكّن « هيئة التحرير » ذاتها من العمل بمطلق حريتها .. ولهذا انتقلت مجلة التحرير فى عهده من نجاح إلى نجاح .

هل قلت « هيئة التحرير » ؟ (ولا أعنى « هيئة التحرير » إياها التى أصبحت الاتحاد القومى ثم الاتحاد الاشتراكى .. وإنما تحرير المجلة) . ولكنها لم تكن هيئة تحرير بالمعنى الرسمى المتعارف عليه والمتعاقد معه والواقف على أرض صلبة .. بل هى أشبه بالمبنية أو المنسوبة أو الملقاة للمجهول ! ربما تأثرا بما هو متبع فى الأغلب بدار الهلال (العمل بالقطعة) . وربما لأن لمجلة التحرير وضعها الخاص . وربما لأن الذين يمدونها بالمواد التحريرية إما محررون فى صحف ومجلات أخرى ثابتة لهم رواتبهم الشهرية فيها وإما ضباط جيش لهم أيضا وضعهم ومرتباتهم . ذلك أن النظام الذى سارت عليه مجلة التحرير منذ بدأناها حتى تركناها كان لا يعطى مرتبات شهرية لأى من العاملين فيها بما فى ذلك رئيس التحرير ومدير التحرير وكل من تظهر أسماؤهم فى « الترويسة » .. وإنما المكافأة بالانتاج وبالقطعة !

وكانت من أمتع جلساتنا بمكتبى – ثروت عكاشة معى – تلك الجلسات التى نتدبر فيها قيمة ما نشر بالعدد الصادر ونبنى على هذا التقدير مكافآت أصحاب المواد المنشورة وكان « ثروت » يترك لى تقدير مكافأته عن مقاله واشرافه على التحرير واترك له تقدير مكافأتى عما نشرته فى كل عدد .. موادى التحريرية فحسب لأننى امتنعت عن الحصول على أية مكافأة عن عملى مديرا لادارة المجلة بوصف ذلك داخلا فى مرتبى الشهرى كضابط بالشئون العامة . على أننا لا نحن اتبعنا أسلوب (شيلنى واشيلك) ولا كانت مكافأتنا إلا مجرد قروش معدودة ..

ومرت الأيام والأعداد إلى أن أطلعت على أصول مقالته الطويلة عن ثورة ٢٣ يوليو فى عيدها الأول أى فى يوليو ١٩٥٣ . وبالحاسة السادسة شعرت بأهمية المعلومات الواردة فيها وبخطورتها .. وتوجست . ولكنه فى حماسه واصراره لم يلق بالا كثيرا لتوجساتى وهواجسى . ونشر المقال . كنت أتوقع أن يحدث دويا وبعض لبس وبعض سوء تفاهم ، ولكنى – صراحة – لم أتصور أنه سيؤدى إلى ما أدى إليه . فقد انتهى بالانقلاب الثانى فى مجلة التحرير خلال عشرة شهور . فالأول انتهى بتنحية أحمد حمروش والثانى عصف ونحّى ثروت عكاشة .

مأزق وضعنى فيه عبد الناصر !

وبعد يومين أو ثلاثة من صدور العدد المذكور جاءنى اليوزباشى « حسن نايل » سكرتير البكباشى « أنور السادات » ليصحبنى إلى مقابلته بمجلس قيادة الثورة .

وهناك قابلنى أنور السادات بترحاب واهتمام شديدين . ثم دخل فى الموضوع مباشرة . قال : لقد تقرر نقل ثروت عكاشة من رئاسة تحرير مجلة التحرير . وحضرة البكباشى (يقصد جمال عبد الناصر) قال لى إن المسئول عن صدور العدد التالى هو مصطفى بهجت بدوى ..

يا نهار أبيض ؟! كيف هذا وقد علمت أن المادة المعدة للعدد التالى ذهبت شذرا مذرا بعد أن توجه ثروت عكاشة إلى دار الهلال فى ثورة غضبه وسيّح الرصاص الذى تم جمعه ومزق جميع أصول المواد كرد فعل لتنحيته (كأنما تصرف فى المثل

الشعبى « مفيش بعد حرق الزرع جيرة » ليصبح « مفيش جيرة يبقى مفيش غير حرق الزرع » !) .

يانهار أبيض مرة أخرى ! كيف هذا .. والزملاء العاملون بالمجلة فى غمضة عين اختفوا عن الأنظار وأصرور على ما فعلوا ؟ إنه مأزق وأى مأزق وضعنى فيه جمال عبد الناصر وكأنما تصور أن باستطاعتى « أدهن الهوا دوكو » !

وأحسست لا بثقل المهمة فقط بل باستحالتها وكأنما مطلوب منى خلال أسبوع أن أقيم أهراما فى صحراء مصر الجديدة على غرار أهرام الجيزة !

وقال لى أنور السادات ، وقد شاهد عنف الصدمة على وجهى : هذه أوامر ! واتصرف ! وخذ معك زكريا الحجاوى لمعاونتك ..

يعنى لا مواد ولا محررين ولا رسامين ولا سكرتيرى تحرير .. ومطلوب منى - بأمر حضرة البكباشى (جمال عبد الناصر) كما أبلغنى أنور السادات - أن أصدر خلال أيام معدودة العدد التالى المفروض صدوره فى موعده بعد أسبوعين كالعادة من العدد السابق (عدد الأزمة) ..

وكان العدد « الأزمة » إياه قد نفد من تلهف الناس عليه بعدما تسامعوا عنه . وكان الحل الوحيد السريع « الساخر » هو اعادة طبعه فى ثوب جديد وطرحه فى السوق ! أو اصدار عدد به مختارات مما نشرته مجلة التحرير خلال الشهور العشرة السابقة وكأنه العدد « الماسى » .. واتضح فيما بعد أنه العدد « المأساوى » !

على أى حال فإن الأزمة كانت قد ذاعت تماما فى الأوساط الصحفية . وكانت فرصة العمر لصاحبى أخبار اليوم - مصطفى وعلى أمين - أن يقدما العون من جهة وأن « يشمتا » من جهة أخرى .

وبالفعل هبّا والتفا حول أنور السادات وحولى حين حللنا عليهما بمكتب « مصطفى أمين » نطلب العون ..

وأخذ أنور السادات يصرح - لأول مرة - أنه مكلف من جمال عبد الناصر

أيضا باصدار جريدة يومية جديدة اسمها « الجمهورية » ، ويفيض فى تصوير آماله وأحلامه فيها .

وبعد أن فرغ أنور السادات من تصوراته « قرصه » مصطفى أمين « بتريقة » لاذعة لا أنساها رغم مرور حوالى ٣٥ سنة عليها . قال له : أنت فاكر إيه ؟ ما أنتم برضه حتطلعوا « الجمهورية » من هنا زى العدد ده من مجلة التحرير !

ولانقاذ ما يمكن انقاذه وبالاستعانة بمواد تحريرية مؤجلة من « مجلة الجيل الجديد » التى كانت تصدر آنذاك عن أخبار اليوم أمكن آخر الأمر صدور أسوأ أعداد مجلة التحرير شكلا وموضوعا .. ولا غرابة فقد كان ابن ظروف من أسوأ الظروف .

على أنه فى العدد التالى كنت قد التقطت أنفاسى فجاء أفضل كثيرا ، ثم أمكن لم شمل فلول الأسرة القديمة باستثناء « صلاح حافظ » الذى كان قد اعتقل فى قضية تنظيم شيوعى .. وهذا المسكين الصحفى الموهوب القدير رشيق الأسلوب والأفكار أمضى أكثر من نصف عمر شبابه بين السجون والمعتقلات .

كما تولى الصديق المرحوم « سامى داود » ادارة التحرير بدلا من الزميل الصديق المرحوم عبد المنعم الصاوى .

وفى العددين الصادرين من مجلة التحرير - قبل عودة العائدين - فإننى صممت - رغم اصرار أنور السادات - على حجب اسمى من « الترويسة » ومن الموضوعات ، وكان ذلك أقل واجب من واجبات الوفاء للنفس وللزملاء .

ولم ألتق بثروت عكاشة بعد عزله إلا فى لمحة خاطفة ، فقد كان مطلوبا إبعاده عن مصر إلى منصبه (أو منفاه) الجديد كملحق عسكرى فى سويسرا فيما يشبه لمح البصر . كذلك لم يمكث بسويسرا إلا شهورا ثم نقل - لحسن الحظ - ملحقا عسكريا لمصر فى باريس حيث كانت بداية نقلته النقلة السياسية والثقافية والفنية على النحو الذى فصله تفصيلا فى مذاكرته الجادة الممتعة الشاملة التى نشرها فى أوائل سنة ١٩٨٨ .

وفى ظنى أننى بقدر اعتزازى بثروت عكاشة وبالفترة القصيرة التى عملنا فيها معا فإنه كذلك يعتز . ولقد ترجم عن اعتزازه بواقعتين وإن انتهيتا نهاية سلبية لأننى حين أخترت سنة ١٩٥٦ العمل والتفرغ للصحافة حدثنى هاتف من ضميرى وحدسى أنها هى قدرى « ولو اطلعتم على الغيب لأخترتم الواقع » ..

أما الواقعة الأولى التى أراد فيها ثروت عكاشة اجتذابى للعمل معه فقد كانت فى الفترة الأولى (٥٨ / ١٩٦٢) التى شغل فيها منصب وزير الثقافة وبالتحديد فى خريف سنة ١٩٦١ .

حدثنى تليفونيا بمكتبى فى دار التحرير للطبع والنشر (الجمهورية) وعرض علىّ أن أتولى رئاسة مجلس ادارة مطبعة مصر التى كانت تتبع وزارة الثقافة على أن يتولى الأخ العزيز والصديق الكريم إسماعيل شوقى منصب العضو المنتدب .

وكانت حجتى فى الاعتذار عن عدم قبول ما عرضه الدكتور ثروت عكاشة علىّ بالغة القوة ولا محل فيها للمنازعة والمدافعة . قلت له إن صلاح سالم رئيس مجلس ادارة دار التحرير هو الآن تحت العلاج فى أمريكا ، وقد أصدر قبل سفره قرارا بتعيينى رئيسا لمجلس ادارة دار التحرير بالنيابة .. فلا هو مقبول ولا طبيعى ولا انسانى فى ظل تلك الظروف أن أترك الموقع الذى ائتمننى صلاح سالم عليه . ولم يملك ثروت عكاشة سوى التسليم – آسفا .. كما أبدى – بوجاهة الحجة والاعتذار . ولكنه أنفذ رأيه وقراره فيما يخص إسماعيل شوقى الذى انتقل بالفعل إلى مطبعة مصر عضوا منتدبا ، وحرمنى من هذه الكفاءة الفنية النادرة لمدة لم تتجاوز شهرين رأيت بعدهما أنه آن أن يعود إلى قواعده سالما .. وقد كان . عاد إلى قواعده ، وإن لم يسلم بعد ٣ سنين من عوادى البغاة المتآمرين ضده من شراذم جراد المباحث الجنائية العسكرية .

على أن الواقعة الثانية كانت أشد إحراجا لى وإيلاما له ..

ففى مايو سنة ١٩٧٠ أى فى الفترة الثانية التى شغل فيها الدكتور ثروت عكاشة منصب وزير الثقافة (من ١٩٦٦ حتى نوفمبر ١٩٧٠) كنت أعمل عضوا منتدبا لمؤسسة دار الهلال . ودق جرس التليفون فى مكتبى فإذا بثروت عكاشة على الخط

الساخن .. والسخونة منسوبة إلى « ثروت » فهو دائما ساخن ! وبعد التحايا والأشواق المتبادلة سألنى ما إذا كان فى استطاعتى المرور عليه الآن فى مكتبه بقصر عائشة فهمى الذى كانت تشغله وزارة الثقافة ؟ قلت : بكل سرور .

وحين دخلت إلى « ثروت عكاشة » بادرته مداعبا : أما كان يجدر بك أن تخطرنى بهذا اللقاء أمس حتى استعد وارتدى البدلة التى يُقابل بها الحكّام ؟!

ويبدو أننى بهذه الدعابة عجّلت – دون قصد – طرقه للموضوع مباشرة فقد أجابنى قائلا : ما أنت حتبقى من الحكام !

وتوجست نفسى العزوفة عن الحكم والحكام .. ولكنى دون أن أتأبط شرا أو يتأبط قلت : خيرا إن شاء الله ؟

ومضى ثروت عكاشة يحدثنى عن خلافاته مع « عبد المنعم الصاوى » وكيل أول وزارة الثقافة ورئيس مؤسسة المسرح ، ثم دلف منها ليعرض علىَّ أن أتولى رئاسة مؤسسة المسرح !

وابتلعت ريقى وكأننى أقول : تانى ؟!

كنت مصمما على « التملص » من العرض مع كل اعزازى الشخصى لثروت عكاشة واعزازه لى . ها هو ذا أقرب أصدقائه ومعاونيه إليه ومنذ أول الخمسينيات يتحول من خانة الأصدقاء إلى زمرة الأعداء . فلماذا أخسر مكانى فى الصحافة ، وأخسر نفسى ، وأخسر ثروت عكاشة ؟!

قد يقال إنها سنة الحياة . لا أحد يظل صديقا إلى الأبد ، ولا أحد يبقى عدوا إلى الأبد . ولكن ما شأنى أنا بالمسرح ووسطه وتعقيداته ؟

وأفاض ثروت بأن المهمة ليست غريبة عنى رغم كل شىء ، وأنها محتاجة إلى حسن سلوك بالدرجة الأولى ، وأنه معى يساندنى على طول الخط ! ولم يكن يعلم بطبيعة الحال أنه لن يكون لا معى ولا مع الوزارة بعد أقل من ستة شهور !

ولم أملك حجة ناصعة للاعتذار على عكس ما حدث فى المرة السابقة ، وإنما مجرد كلمات غائمة بأننى لا أرتاح نفسيا لهذا العمل .

وبعد نصف ساعة من المحاورة والمداورة وانتقاء أرق الكلمات وأصدقها وأكثرها تهذيبا شعر ثروت عكاشة أننى لن تلين لى قناة . وقال أخيرا لى : إنك بهذا تخذلنى ! قلت : من المؤكد أنك تعرف شعورى الطيب نحوك وتقديرى الكبير لك ، ولكن المسألة ببساطة مادمت تذكر الخذلان إننى لست أخذلك بل الواقع أننى بهذا الاعتذار لا أود أن أخذلك ولا أن أخذل نفسى ، ثم لا أرغب فى ترك عملى بالصحافة .

وعندما لم يعد فى القول مجال لمزيد قمت مستئذنا . قال لى وهو يصافحنى مودعا فى نبرة عتاب : لاحظ أن هذه هى المرة الثانية التى ترفض عرضا منى للتعاون معى . قلت له : ولا يهمك . المهم ألا يفسد للود قضية ، وكان الله فى عونك !

مجلة التحرير على فراش الموت ..

قبل أن نستطرد فى حكاياتى مع ثروت عكاشة كنا قد وقفنا عند ثالث عدد من أعداد مجلة التحرير فى عهد أنور السادات أى فى شهر أغسطس ١٩٥٣ . ومر الشهر المذكور و« ترويسة » مجلة التحرير تحمل اسم أنور السادات وأسماء الزملاء واسمى فى خير وسلام ، والغلاف الأخير يحمل اعلانا عن قرب صدور جريدة الجمهورية . وعرض أنور السادات علىّ - كما أسلفت - أن أتولى ادارة جريدة الجمهورية . وكنت آنذاك - كالعادة - أعمل ضابطا (يوزباشى) بادارة الشئون العامة وقد انتقلت من السنة الثالثة بكلية الحقوق إلى السنة الرابعة . ولم أر أنه من المناسب فى تلك المرحلة أن أشغل عن آخر سنوات الدراسة بكلية الحقوق ولا أن أترك القوات المسلحة قبل الأوان ، فاعتذرت لأنور السادات الذى كان « طالع بى السما » فى ذلك الحين وكأننى مبعوث العناية الإلهية للصحافة الثورية سواء فى الادارة أم التحرير . **قال لى الزميل كمال الدين الحناوى الذى كان يعمل سكرتيرا صحفيا للرئيس جمال عبد الناصر فى تلك الأيام أن أنور السادات كان يحادث عبد الناصر فى حضوره وأنه على حد تعبيره - تعبير كمال الحناوى - لم يسمع طول عمره أحدا يثنى على أحد كما سمع السادات يثنى على شخصى الضعيف أمام عبد الناصر .**

وقد تزامن اعتذارى عن ادارة الجمهورية مع قرار أصدره وزير الخارجية فى الأسبوع الأول من سبتمبر ١٩٥٣ بإنتدابى مستشاراً فى وفد مصر إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة (الدورة الثامنة التى تبدأ من منتصف سبتمبر ١٩٥٣) لكى أكون فى رفقة أخى المرحوم الدكتور حلمى بهجت بدوى وزير التجارة والصناعة ورئيس وفد مصر إلى الأمم المتحدة . وفوجىء أنور السادات بأننى بعد شهر ونصف شهر من العمل معه سوف أترك المجلة لمدة شهرين (وإن أعلنته أننى سأراسلها بتحقيقات صحفية من هناك .. قال يعنى ! وبررت بوعدى ونشرت المجلة موضوعاتى بالفعل) . وكاد أنور السادات أن يرفض أو يعرقل انتدابى المُؤقت المذكور للخارجية لولا أنه علم بموافقة جمال عبد الناصر عليه !

وعدت من أمريكا فى منتصف نوفمبر ١٩٥٣ وقد تغيرت الدنيا . مجلة التحرير لم تعد هى التى « على الحجر » ولا التى تشغل البال . إنما الاستعدادات على قدم وساق لصدور الجريدة اليومية « الجمهورية » بعد ثلاثة أسابيع وبالتحديد فى ٧ ديسمبر ١٩٥٣ . كما أن الطاقم و« الترويسة » والعاملين بمجلة التحرير أنشقت بهم الأرض وجىء بآخرين . واختفى اسمى من « الترويسة » . وأشهد الله أننى سعدت بهذا كل السعادة . تحررت . تفرغت لليسانس الحقوق تفرغا معقولا ، وبعدت عن العواصف والأنواء التى لم تسلم منها جريدة الجمهورية ذاتها وهى فى مرحلة المخاض والولادة ..

ولم تزل مجلة التحرير تترنح وتتبادلها الأيادى ويتغير رؤساء تحريرها وتنحدر سنة بعد أخرى حتى احتجبت تماما . كأنها كانت عليلة على فراش الموت حتى أتاها أمر الله .

حكاياتى مع قرارات السادات !

إذن فقد كان رفع اسمى من مجلة التحرير أول « قرار » انتهى إليه السادات بشأنى فى صمت دون اعلان .. والزعل مرفوع ! كان أشبه بمنع مقالة من النشر لا هو محتاج إلى قرار علنى من الرقيب العام ، ولا احتجابه يلفت الأنظار كثيرا . التقينا بالمعروف وانفصلنا بالمعروف ! ثم ماذا يقدم أو يؤخر ورود اسمى فى ترويسة

المجلة أو عدم وروده . بل أن رفعه كان اجراء طبيعيا وقد انتقلت مجلة التحرير من « تبعية » ادارة الشئون العامة التى أعمل بها ، وما دمت غير ممارس ولا راغب .

ولم أر « السادات » بعدها لا فى الزحام ولا فى غير الزحام .. على رأيه « **طبيعة بدوية .. واخده جنب** » ، أو بالأحرى وبالأمانة .. تعزف عن الأضواء . حتى حين عدت للعمل فى الصحافة رسميا فى سبتمبر ١٩٥٦ وشاركت فى اصدار وتحرير جريدة المساء التى هى من المفروض تابعة لدار التحرير (الجمهورية) التى كان يرأسها أنور السادات .. لم ألتق به . كذلك الحال حين رأست مجلس ادارة دار التحرير وتحرير جريدة الجمهورية فى مايو ١٩٦٥ لم اجتمع بأنور السادات مرة واحدة . أخباره عندى منشورة فى الجريدة على البعد . وكان الله يحب المحسنين . وكما يقولون « كافى خيرى شرى » .

مرة واحدة فى صيف سنة ١٩٧٠ وكان آنذاك قد عيّن أنور السادات نائبا (وحيدا) لرئيس الجمهورية وكنت قد انتقلت إلى دار الهلال منذ نوفمبر ١٩٦٦ طلبنى السادات تليفونيا . وبادرنى : **أنت فين يا بهجت يا راجل يا انطوائى ؟! ثم سألنى عن « أحمد بهاء الدين » فقد كان السادات مكلفا برسالة إليه من جمال عبد الناصر . وحين أجبته أنه فى العراق تلبية لدعوتها قال : بقى ده كلام ياراجل ؟ خليه يجيى فورا .. الريس عايزه !**

أى أنه خلال ١٧ سنة لم يجر بيننا سوى هذه المكالمة التليفونية العارضة والتى لم أكن مقصودا بها . ورغم هذا الابتعاد الطويل – وكل فى حاله – كنت أعلم أن بيننا عشرة ومودة . الصورة الطيبة القديمة مازالت فى أذهاننا . وربما لو كنا اقتربنا من بعضنا البعض خلال تلك الحقبة السابقة لوقعت احتكاكات أو حيكت دسائس واهتزت الصورة . أولم يحدث هذا فى ميادين شتى .. وبين أعضاء مجلس قيادة الثورة أنفسهم واختلف بينهم من اختلف وتفرّق من تفرّق ؟ هكذا القرب من السلطان ومنذ سالف العصر والأوان !

ومن هنا فحين قام أنور السادات بحركة التصحيح فى ١٥ مايو ١٩٧١ وأجرى تغييرات واسعة ابتداء من اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكى إلى اللجنة المركزية إلى النقابات إلى الصحافة أخذ يفتش فى « أوراقه القديمة » فيما يخص

الصحافة فأصدر أول قراراته العلنية بشأني . اختارني رئيسا لمجلس ادارة دار التحرير للطبع والنشر ورئيسا لتحرير جريدة الجمهورية في ١٨ مايو ١٩٧١ . ولما أبلغني الدكتور محمد عبد القادر حاتم بهذا القرار بوصفه وزيرا للاعلام وسألته عن سبب اختياري قال : **انه « رد لاعتبارك » . لقد أخرجك « على صبرى » من رئاسة دار التحرير سنة ١٩٦٦ وها هو ذا الرئيس السادات يعيدك إليها .**

ولم أكن - علم الله - متكالبا على العمل في هذا المنصب لا في المرة الأولى سنة ١٩٦٥ ولا في الثانية سنة ١٩٧١ . ولكن مادمت صدعت للأمر فلابد أن أعمل .. وعلى طريقتي ، وأتحمل المسئولية .

ولست أريد هنا الخوض في تجربتي مع جريدة الجمهورية من سنة ١٩٧١ حتى سنة ١٩٧٥ ولا كيف ولماذا ساءت العلاقات بيني وبين الدكتور عبد القادر حاتم (الذي قد لا يعرف أنني أكن له - رغم كل شيء - ودا حتى الآن) فقد فصّلت التجربة في الباب الأخير من كتابي « وجاء العيد بعد العاشر من رمضان » الصادر في أغسطس ١٩٧٤ ثم في كتابي « مذكرات رئيس تحرير » الصادر في سنة ١٩٧٦ .

إنما - والحديث عن السادات - قد يكون من المفيد أن أضيف وقائع لم أقترب منها في الكتابين .

ابتداء فما من اجتماع عقده السادات مع رؤساء تحرير الصحف والمجلات إلا وكنت أشبه « بالنغمة النشاز » . أي أناقش « وأناقر » (فالمناقشة ضرورية وليس « آمين ») حتى أنني سمعت الدكتور عبد الملك عودة يهمس في أذن جاره خلال أحد هذه الاجتماعات قائلا « هو مصطفى بدوى بيناقش الريس بالطريقة دى إزاى » ؟!

وفي فبراير ١٩٧٣ وخلال سهرتي اليومية للاشراف على تحرير جريدة الجمهورية دق جرس « تيكرز » وكالة أنباء الشرق الأوسط وفوجئنا بخبر خطير كان له ما بعده . أصدر الرئيس أنور السادات بوصفه رئيسا للاتحاد الاشتراكي قرارا باسقاط عضوية عدد كبير من الاتحاد الاشتراكي العربي وبالتالي لم يعودوا من الصحفيين العاملين في مؤسساتهم الصحفية المملوكة للاتحاد الاشتراكي . وتلى ذلك



كانت روح الأخوة والعمل والشباب والمرح الحلو طابع المساء . وفى الصورة « كاريكاتيرية » ضاحكة فى ليلة من ليالى « المساء » . بهجت عثمان وبهجت بدوى وبينهما الدكتور عبد العظيم أنيس .. وخالد محيى الدين !

كشف بأسمائهم أى أنهم باتوا مفصولين . فى الشارع أو معلقين فى الهواء ! .. وغلى الدم فى عروقى !

ودون أن أشعر وجدتنى هائجا عصبيا أصيح ملوحا فى الهواء بتلك الورقة الفاصلة : مش معقول ! هذا ظلم !

وهكذا كان رد فعلى على هذه الورقة الخرقاء « أخرق » هو الآخر أمام الملأ فى صالة التحرير . **الطريف أن الزميل الصديق العزيز محمد العزبى مدير تحرير الجمهورية والذى كان يسهر معى فى الجريدة تلك الليلة وكان اسمه بين « المفصولين » أخذ يهدأنى ويرجونى أن أضع أعصابى فى ثلاجة .. فثمة فى صالة التحرير – على حد قوله – واحد أو اثنان من الصحفيين على صلة وثيقة بالمباحث وكتابة التقارير !**

جيهان السادات تنقذنى من قرار الفصل !

وفى ٢٧ فبراير ١٩٧٣ عقد الرئيس أنور السادات باللجنة المركزية اجتماعا عاصفا – من جانبه – حضره عدد مختار من الصحفيين وراح يقرّعهم تقريعا ويشرح لماذا قدم على فصل من فصلهم من الصحفيين الذين صنّفهم بأنهم إما يحدثون البلبلة أو يحركون طلبة الجامعات أو يتصلون بالسفارات الأجنبية أو يسايرون عريضة توفيق الحكيم « الاستفزازية » ويتضامنون معه بالتوقيع عليها . ثم تحدث عن الظروف التى تمر بها البلاد وكيف أننا نواجه بعد الغزوة الصليبية غزوة صهيونية . وقد أغنانى عن الحديث والرد المرحوم فكرى باشا أباظة بسعة أفقه ولباقته وخفة ظله .

كان هذا الاجتماع يوم الثلاثاء ٢٧ فبراير ١٩٧٣ . والعدد الأسبوعى من « الجمهورية » الذى اعتدت أن أكتب مقالتى الأساسية فيه يصدر يوم الخميس أول مارس ١٩٧٣ .

وفكرت . هل أصمت أم أعلق على خطاب الرئيس السادات كما ألفت من قبل ؟ وألهمنى الله أن أكتب أقصر مقال لى فى الصفحة الأولى من الجمهورية ، ومن الزاوية التى شغلت بها عمرى والتى أشار إليها السادات فى الجزء « غير المنفعل » من خطابه : الغزوة الصهيونية . وكان عنوان المقال « بماذا يحدثنا ضمير مصر ؟ » كلمة مصرية عربية خالصة ضمنتها بعض فقرات من خطاب السادات .

وفى ظهر اليوم نفسه (الخميس أول مارس ١٩٧٣) كان الدكتور حاتم يقف أمام السادات فى استراحته بكنج مريوط ، ويتلو عليه أسماء الصحفيين الذين تقرر – كدفعة ثانية – نقلهم إلى هيئة الاستعلامات . **وكان يجلس إلى جوار الرئيس السادات السيدة حرمه جيهان السادات والمشير أحمد إسماعيل ومحمد حسنين هيكل . وحين قرأ الدكتور حاتم اسمى بين المنقولين صاحت السيدة جيهان السادات : مش ممكن ياريس ! فنظر السادات إليها متعجبا وسألها : إيه الحكاية ؟ قالت : « ده كاتب النهاردة مقال عظيم فى جريدة الجمهورية » ! وطلب السادات جريدة الجمهورية وألقى نظرة على كلماتى ثم قال فى هدوء : طيب شيل اسمه من الكشف يا حاتم !**

هذه الرواية بنصها وحرفها حكاها لى الزميل أحمد بهاء الدين فى شهر أبريل ١٩٧٣ حين كنت أزوره فى منزله بما يشبه الانتظام .. لا أقول لمواساته ولا لشد أزره وإنما احساسا منى بأنه فى « الشدائد » أو ما يشابهها لا ينبغى أن يترك المرء وحده بل يلتف حوله زملاؤه . وقد كان بهاء من بين من نقلوا إلى مصلحة الاستعلامات . وكان الذى قد أبلغه بواقعة تدخل جيهان السادات لإزالة آثار العدوان عنى هو « محمد حسنين هيكل » . (كما أن هيكل رواها لى بالكامل - مرة أخرى - فى سنة ١٩٧٥) .

الغريب فى الأمر والجدير بالاعجاب والعرفان أيضا أننى لم أكن قد ألتقيت بالسيدة جيهان السادات على الاطلاق قبل تطوعها بالدفاع عنى وانقاذى من العصف بى واتخاذها هذا الموقف الحاسم . شيء كأنه « معجزة » فى آخر لحظة « وما يعلم جنود ربك إلا هو » ..

وغنى عن البيان أنه لولا مصادفة وجود جيهان السادات أثناء تلاوة قرار المذبحة ، ولولا مبادرتها النبيلة لكان « الفأس وقع فى الرأس » وعندئذ الله يعلم ماذا سيؤول إليه مصيرى حيث كنت الوحيد بين القائمة الذى يشغل منصب رئيس مجلس ادارة ورئيس تحرير ، ولابد أن يُشغل « المنصب » خلال ركنى بالاستعلامات . وعندئذ كنت سأحرم من المشاركة الصحفية الايجابية - من موقع صدارة وتوجيه - فى معركة العبور وحرب أكتوبر ١٩٧٣ . ولكن العليم الحكيم الكريم - عز وجل - عودنى لطفه دائما فى السراء والضراء وكان معى .. والحمد له سبحانه . ومن كان الله معه فلا يحزن ولا يُضام .

وفى مايو ١٩٧٤ استدعى الرئيس أنور السادات باستراحة القناطر رؤساء مجالس ادارة المؤسسات الصحفية ورؤساء التحرير وبعض الكتاب لاجتماعات هامة وانفرادية . كان يلتقى مع كل واحد منهم على حدة بحضور وزير الاعلام فى ذلك الحين الدكتور كمال أبو المجد .

وحين جاء دورى قابلنى السادات هاشا باشًا وأنا جالس قبالته وإلى يمينى كمال أبو المجد . وسألنى السادات : عامل إيه فى الجمهورية يابهجت ؟ قلت : الحمد لله .. كما ترى ! قال : ولكن الجمهورية خسرانة ٢ مليون جنيه ! قلت له : متأسف .. هذا

غير صحيح ! فرغم الظروف الصعبة فنحن واقفون على أقدامنا ونحاول وننجح فى الموازنة بين الايرادات والمصروفات (حققت الجمهورية سنة ١٩٧٤ أول أرباح فى عمرها الطويل بلغت ٧٠ ألف جنيه) . قال السادات : ولكن تقرير الدكتور السيد أبو النجا الذى قدمه لى يقول إنكم « غرقى لشوشتكم » وديونكم ٢ مليون جنيه ! قلت : متأسف مرة ثانية . ولست أدرى من أين جاء الدكتور السيد أبو النجا - مع احترامى له - بهذه المعلومات فى الوقت الذى جلست فيه معه بالأسبوع الماضى جلسة طويلة مدعمة بالمستندات وأوضحت له الموقف المالى وخرج مقتنعا بأن الحالة عادية ولابأس بها بل مبشرة . وشاهدى على ذلك عبد الحميد حمروش العضو المنتدب لمؤسسة دار التحرير الذى حضر الجلسة والمناقشات . فضلا عن أننى وافيت الدكتور أبو النجا بعد ذلك بجميع البيانات الدقيقة التى طلبها وقدمتها له بمنتهى الصدق والأمانة ..

وإزاء هذه المعلومات المتضاربة بينى وبين الدكتور أبو النجا ولأن السادات فيما يبدو كان قد اتخذ قرار مسبقا فى هذا الشأن قطع السادات الحديث عن الادارة (وكانت بعض الجهات - ولعل منها الدكتور عبد القادر حاتم لظروف الخلاف الناشبة بين ما أمثله من « يسار » وما يمثله غيرى من « يمين » - قد ألحت على تغيير فى رئاسة تحرير الجمهورية بعدما أفشلت محاولة سابقة للدكتور حاتم شخصيا خلال فبراير ١٩٧٤ فى فرض رئيس تحرير بالذات علىّ وأن اكتفى برئاسة مجلس الادارة) . وقال لى السادات مايلى بالحرف الواحد : « **يمكن يا بهجت أنت محتاج إلى رئيس تحرير فى جريدة الجمهورية** » ! **وأجبته قائلا بالحرف الواحد : « يافندم إننى بفضل الله أبذل طاقة ضخمة وجهدا كبيرا فى رئاسة تحرير الجمهورية .. والجريدة كما ترى سيادتك هى على مستوى جيد . ولست أشكو من عملى كرئيس حرير فإننى مستعد لتحمل مسئولياته . لكن إذا رأيت سيادتك شخصيا ضرورة تعيين رئيس تحرير للجمهورية ، فلا مانع طبعا .. والأمر لك** » .

وكأنما كانت هذه الاجابة الخالصة الصريحة الأمينة هى - على حد تعبيراته فى كثير من خطبه - « صدمة كهربائية » للسادات ألهمنى الله بها وخلخلت من رأس السادات « الزن على الودان » فابتسم السادات قائلا وبالحرف الواحد أيضا : خلاص

ياسيدى مادمت غير محتاج لرئيس تحرير .. بلاش .. يعنى اسم الله من كترتهم !

وفشلت – بقدرة قادر وفى غمضة عين – مؤامرة « زرع » رئيس تحرير غيرى فى جريدة الجمهورية .. على الأقل فى تلك الآونة !

وقد عرضت فى « مذكرات رئيس تحرير » لهذه الواقعة مقتضبة جدا وبالرمز ودون أن أضع النقط فوق الحروف . وهأنذا – والسادت فى ذمة الله .. وكلنا فى ذمته جل وعلا – أسجلها هنا كلمة كلمة لأبين كيف يذهب الله سبحانه كيد الكائدين إن شاء لحكمة هو يعلمها .

بقى للسادات قراران بشأنى

فى ١١ مارس سنة ١٩٧٥ أصدر الرئيس الراحل أنور السادات قرارا بنقلى من رئاسة دار التحرير وجريدة الجمهورية إلى جريدة الأهرام كاتبا متفرغا . كما نقل معى مجموعة أخرى من محرريها « اليساريين » إلى مؤسستى أخبار اليوم وروز اليوسف ومجموعة « يمينية » إلى مؤسسة دار الهلال .

وقد سجلت فى « **مذكرات رئيس تحرير** » شكرى الصادق للسادات على قراره المذكور الذى جاء فى صميم الوقت المناسب والذى أراحنى من أعباء ومعارك فوق الاحتمال .

ولكنى لم أكتب أو أسجل لماذا نقلنى السادات من رئاسة مجلس ادارة الجمهورية ورئاسة تحريرها .

ويأتيك بالأخبار من لم تُزود .

فقبل أن أدخل دار الأهرام وجدت أنه من اللائق – على حد تعبيرى لنفسى – أن أدخل البيوت من أبوابها . ولاشك أن « الأهرام » كمبنى وكمؤسسة وكنهضة صحفية هى من حصيلة جهد « محمد حسنين هيكل » حتى ولو كان قد نُحى عنها .

وذهبت إليه فى بيته .

ولما كان هيكل « كومبيوتر » أخبار وأسرار ، ولما كانت صداقته ولقاءاته

بالسادات آنذاك لا تزال قائمة .. وطيبة ، ولما كنت - بعد - فى الأسبوع الأول من نقلى من الجمهورية ، فقد حكى لى عن آخر لقاء بينه وبين السادات وكان قد تناولنى فيه بالحديث .

قال هيكل إن السادات أخبره بأنه سوف ينقلنى من « الجمهورية » . فسأله هيكل عن السبب وخاصة أن الجمهورية تؤدى دورها على وجه حسن . وأجابه السادات قائلا : **مصطفى بهجت بدوى ماينفعنيش .. لا هو ولا الشيوعيين الذين معه ! أنا داخل فى معركة وشيكة مع منظمة التحرير الفلسطينية ومع سوريا ومع ليبيا ! (كان السادات يتفاوض آنذاك مع هنرى كيسنجر بشأن توقيع اتفاقية فض الاشتباك الثانى بين مصر وإسرائيل) .**

وللحق .. ومن وجهة نظره « لم أكن أنفعه » ! وقد أعطيت السادات كل العذر ، كما سبق أن أعطيته - بقرار نقلى - كل الشكر .

وبعد « كامب ديفيد » وتوقيع المعاهدة المصرية الاسرائيلية سنة ١٩٧٩ كانت أوساط المعارضة فى مصر تغلى غليانا .

وقد أخذ السادات على شخصى أننى لم أكتب حرفا واحدا بالأهرام تأييدا لتلك المعاهدة . وما كان ذلك ممكنا من جانبى ، ولا كان التنديد بها ممكنا فى الأهرام .

وإذا كنت فى سنة ١٩٧٣ قد امتنعت عن التوقيع على « عريضة توفيق الحكيم » لأننى كنت أكتب فى الجمهورية ماهو أعنف وأصرح منها ، فإننى لم أجد فى سنة ١٩٨٠ مندوحة من التوقيع على النشرات التى كان يصدرها المستشار ممتاز نصار وآخرون وتحت عنوان ثابت هو « بيان إلى المصريين » ..

وكانت تصدر وتوزع تباعا كنشرات شبه سرية . لم أتحرج فى التوقيع عليها لأنها كانت تعبّر عنى ، وكانت معارضة موضوعية رصينة مهذبة .

على أن آخر هذه النشرات لاحظت عليها - رغم رصانتها واتفاقى مع كثير مما جاء فيها - أن بها « شبهة » الدعوة لقلب نظام الحكم . وناقشتها طويلا ثم لم أقتنع بالتوقيع عليها فامتنعت . ولكن ما سلف من توقيعى على البيانات السابقة كان كافيا لتعكير مزاج السادات ..

ثم إننى شاركت بالخطابة فى الاجتماعات العلنية لحزب العمل الاشتراكى ، وحرقت معهم علم اسرائيل ، ورفعنا علم فلسطين .

ثم أصدرت من لبنان فى يناير ١٩٨١ ديوانى « **أوراق من قضية العمر الحالم** » .. ومسك الختام فيه قصيدة لى حارة ساخرة من المعاهدة المصرية الاسرائيلية وأساليبها وأهدافها وموقعيها وكان عنوانها « **لا تطبيع لزيف الباطل** » ..

وهذا الديوان بالذات دخل سرا إلى القاهرة ووزع سرا ، وبالتالى لم أبعث للسادات نسخة منه على عكس ما درجت عليه معه فى كتبى السابقة . **وقد أنبأنى الزميل الصديق عبد الله عبد البارى أن السادات طلب منه النسخة التى فى حوزته فبعث بها إليه .**

ومع تصاعد حدة المعارضة والتى كانت تقودها الأحزاب والنقابات وجريدة الشعب لسان حال حزب العمل الاشتراكى اجتمع عدد من صفوة المثقفين والمفكرين والسياسيين فى فندق شبرد مساء أول يونيو ١٩٨١ لتكريم شيخ المعارضين والمناضلين الأستاذ الكبير فتحى رضوان المحامى والاحتفال ببلوغه سن السبعين .

وتحول الحفل إلى ما يشبه المظاهرة ضد اسرائيل ومعاهدتها وتطبيع العلاقات معها . وكان من نصيبى أن ألقى قصيدة حامية فى هذا المعنى تناقلتها الصحف العربية ونشرتها كاملة .

كل هذه الأسباب والمبررات وغيرها بالاضافة إلى كونى قد نجحت من قبل « بلجنة رأفة جيهانية » فى امتحان التصفية السابق الذى أجراه السادات فى مارس سنة ١٩٧٣ .. **لم تترك خيارا خلال غضبة السادات المضرية الشاملة فى ٥ سبتمبر ١٩٨١ و« إعصاره » الشهير أن يضع اسمى فى طليعة أسماء الصحفيين الـ ٦٧ الذين نقلهم السادات إلى هيئة الاستعلامات وغيرها من المصالح الحكومية فى واحد من قراراته الخطيرة والنهائية والتى شملت أساتذة الجامعة . وأهم وأخطر من ذلك كله أنها اعتقلت ١٤٥٠ من السياسيين المعارضين على اختلاف مشاربهم ورجال الدين المسلمين والمسيحيين ، وأغلقت الصحف المعارضة** ..

وكانت حملة سبتمبر هذه هى - للأسف - الجسر الذى مرت من فوقه الجماعة التى اغتالت الرئيس الراحل أنور السادات خلال العرض العسكرى فى ٦ أكتوبر ١٩٨١ .

المدهش أن جميع قرارات السادات التى أشرت إليها آنفا أسعدتنى بما فى ذلك قراره الأخير الذى عصف بى من الأهرام إلى هيئة الاستعلامات .

بل إننى خلال استماعى لخطاب السادات مساء ٥ سبتمبر ٨١ توقعت هذا القرار . وحين سألتنى قرينتى عن سر هذا الرضاء النفسى الذى غمرنى أجبتها أننى وسط هذه القرارات الغاشمة التى لم تبق ولم تذر كنت سأشك فى نفسى لو خلت هذه القرارات من اسمى وكنت سأشعر بالمهانة ..

ولم يطل أمد تلك القرارات . ففى نوفمبر ١٩٨١ ثم فى يناير وفبراير ١٩٨٢ على التعاقب أفرج الرئيس حسنى مبارك عن المسجونين وأعاد المبعدين ، ونزع الفتيل من القنبلة !

من مآثر السادات

غير أن للرئيس الراحل أنور السادات مآثر .. من الصعب ومن الظلم نكرانها أو كتمانها .

وأكرر .. فعلى المستوى العام كان تَوجّه السادات إلى الحريات السياسية مشهودا وملموسا بعد مرحلة طويلة من إدماج الحرية السياسية تارة فى الحرية الاجتماعية وتارة أخرى فى تحالف قوى الشعب العاملة .

وبصرف النظر عما قيل وقلناه من أن « أحزابه » كانت « ديكورا » ، وأن ديموقراطيته كانت - على حد تعبيراته الطريفة المبتكرة - ذات أنياب ، وأن « المعارضة المستأنسة » هى الأقرب إليه والمسموح بها والمرضى عنها وما عداها من معارضة فمصادر أو مطارد .. فلا شك أن الحريات كانت أرحب حركة وأطلق لسانا وتعبيرا فى عهده ، وأنه حتى معاملة المعتقلين كانت أقرب إنسانية وتحاول

التقرب من الشعار الذى رفعه السادات : سيادة القانون ! وكان السادات ابن بلد « مرقّع » .. فمرة تحسب هذه الصفة له ومرة عليه ! وعلى أى الحالات كان له حضور وكان ابن نكتة !

ثم إن السادات – فعلا – مد مظلة التأمينات الاجتماعية . واستن السادات سنة حميدة لا تنسى وهى أنه قرر ما يسمى « معاش السادات » للمستضعفين الضائعين « الغلابة » الذين لا حول لهم ولا قوة ولا دخل .

وليس يخفى أن أشد الناس جزعا عند اغتيال السادات كانوا هؤلاء .. « أصحاب معاش السادات » ولم تكن مشاعرهم تلك حبا فى السادات وامتنانا فحسب وإنما بالضرورة أيضا خوفا من أن ينقطع عنهم « معاش السادات » بعد أن غاب السادات . ولم ينقطع عنهم معاشهم ذاك والحمد لله ، بل زيد مع زيادة المعاشات الأخرى .

ومرة أخرى أقول إنه إذا لم يكن لأنور السادات فى تاريخ مصر سوى كونه صاحب قرار العبور فى ٦ أكتوبر ١٩٧٣ لمحاولة رفع هوان هزيمة ٥ يونيو ٦٧ لكان هذا القرار التنفيذى العظيم نورا متلألأ فى تاريخ مصر والسادات بصرف النظر عما أعقب ذلك ..

حسنات كبيرة وصغيرة وكثيرة ، وسيئات كبيرة وصغيرة وكثيرة ، وحسابه وحسابنا عند ربنا تبارك وتعالى .

أما على المستوى « الشخصى » فإن له مآثر أشرت إليها فيما تقدم . بقى أن أنوه بمأثرة لم تشملنى فحسب أو كانت فضلا شخصيا وماديا علىّ وحدى وإنما اتسعت لجمهرة كثيرين من الضباط .

ذلك أن أنور السادات أصدر فى منتصف سنة ١٩٧٥ قرارا جمهوريا بتعديل معاشات ضباط القوات المسلحة الذين تركوها أو « أُتركوها » منذ ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بأن يصبح معاشهم مساويا لمعاش « الرتبة » التى عليها زملاؤهم فى الدفعة التى تخرجوا معها من الكلية الحربية ومازالوا فى الخدمة .

وكانت دفعتنا مثلا آنذاك (سنة ١٩٧٥) برتبة اللواء وبالتالى تعدل معاشى

ومعاش العديدين من دفعتى ودفعات أخرى كثيرة سابقة ولاحقة . وبتنا نحصل على معاش اللواءات . وقفز المعاش قفزة كريمة ملحوظة شملتنا جميعا .

١٩٥٤ ... عام الحسم !

ولنعد - بعد هذه الاستطرادات والحكايات والتنقلات بين الأعوام - إلى حيث وقفت بالقارىء الكريم لدى المسيرة بعد التخرج من الكلية الحربية .. وبالتحديد فى أخريات أيامى بادارة الشئون العامة والقوات المسلحة معا ..

إن تعبير « عام الحسم » سكّه الرئيس الراحل أنور السادات وأطلقه على عام ١٩٧١ بأمل أننا سنخرج فيه أو بعده مباشرة من حالة اللا سلم واللا حرب أى سنحارب ونثأر من هزيمة يونيو ١٩٦٧ ونحسم هذا الوضع المقلق المتردى .

ولكن « الحسم » فى العام المذكور طلع « فشنك » أو « البندقية كَذّبَتْ » على حد التعبير العسكرى .. وبحجة لا ترد على الأذهان ولا « تخيل » أيضا ! وهى « قيام حرب بين الهند وباكستان » ! على أن حسم - أو قرار - السادات جرى فى عام ١٩٧٣ ، فى ٦ أكتوبر منه وفى العاشر من رمضان . وبهذا احتُفظ لعام ١٩٧١ بوصف آخر واقتصر به له وهو « عام التصحيح » (حركة التصحيح فى ١٥ مايو ١٩٧١) وكان السادات فى خطبه وأحاديثه مولعا بخلع وصف أو صفة على كل عام من أعوام حكمه تلخص انجازاته . وكان عام ١٩٨١ موعودا فى تصريحاته بأنه سيكون عام الرخاء .

وما كان يدور بخلد السادات أن ١٩٨١ سيصبح عام « العرض العسكرى الدامى » أو « عام المنصة » أو « عام الاغتيال » . وما كان يدرى ماذا يكسب - وماذا يُعصر - غدا ، وما كان يدرى بأى أرض يموت . وليرحمه الله رحمة واسعة وليشفع له أنه قبل ثمانية أعوام من مصرعه اتخذ قرار العبور الذى ثأر به بعض الشىء من هزيمة ٥ يونيو ٦٧ .

على أن عام الحسم فى تاريخ ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ هو بكل المقاييس وفى نظر كل المؤرخين عام ١٩٥٤ .

ففى مارس ١٩٥٤ اهتزت ثورة يوليو ذات اليمين وذات الشمال بسرعة لهثت معها واحتبست الأنفاس . وكان قطبا الرحى فى الصراع محمد نجيب رئيس الجمهورية فى جانب ، وجمال عبد الناصر قائد الثورة فى جانب آخر . وكانت المواجهة شعبية وعسكرية ، عفوية ومدبرة .

وحين تقرر فى مارس ١٩٥٤ أن يتولى رئاسة الوزارة « خالد محيى الدين » تعزيزا للديموقراطية ، وأن ينسحب جمال عبد الناصر وقبيلته من الساحة ، لم يمكث هذا القرار سوى أربعة وعشرين ساعة . واختلطت الأوراق والمنازعات والمناورات من جديد .

ومما هو جدير بالتنويه والاعجاب أن « خالد محيى الدين » حين سأله سنة ١٩٨٦ الكاتب الصحفى محمود فوزى : ترى لو أن هذا القرار (رئاسته للوزارة) وضع موضع التنفيذ أكان ذلك خيرا للبلد ؟ أجاب خالد محيى الدين بشجاعة نادرة وبساطة حميدة أن « لا » ! وأوضح أن ميزان القوى الدولية والظروف المحيطة آنذاك لم تكن مهيأة لذلك . وأن التجربة كانت تنقصه . وأن ما تحقق من ايجابيات عبر السنوات التالية ما كان ليتحقق لو آل إليه (إلى خالد محيى الدين) الأمر .

لم تمنع خالد محيى الدين مرارة نفيه إلى سويسرا قرابة سنة ونصف السنة من قول ما يعتقد أنه الحق . وفى رأيى أن ذلك القول – أو الموقف – لا ينقص من قدر خالد محيى الدين إنما يزيد . فتحية لهذا الرجل السياسى المناضل المتجرد ، والمؤمن الحاج النقى الذى لم يكترث بطول ما وصفوه أنه « الصاغ الأحمر » !

وانتهت « أزمة مارس ١٩٥٤ » بالعصف بنقابة المحامين وبالفلول السياسية الحزبية وبعض أساتذة الجامعات وبمصادرة جريدة المصرى ووضعها تحت الحراسة وبابعاد عدد من ضباط سلاح الفرسان إما إلى الشارع أو إلى وظائف مدنية . وكان هؤلاء جميعا قد ظهروا على الساحة واستدرجهم عبد الناصر لاخراج ما فى نفوسهم أو لاصطيادهم . **وظل جمال عبد الناصر « لابدأ » لمحمد نجيب فى « الدرة » فى حين أن محمد نجيب أصبح مهيض الجناح ينظر إلى عبد الناصر نظر الفريسة للصائد !**

وفى أكتوبر عام ١٩٥٤ تم توقيع الثورة لاتفاقية جلاء الانجليز مع « زخم » الثورة و « حسم » المباحثات بلا قوى معارضة ، ولا برلمان ولا يحزنون !

وفى نفس الشهر - أى أكتوبر ١٩٥٤ - وقعت محاولة اغتيال جمال عبد الناصر فى ميدان المنشية بالاسكندرية وهو « يروج » لاتفاقية الجلاء وكان الذى أطلق الرصاص أحد أعضاء جماعة الاخوان المسلمين .

ولأننا شعب عاطفى فإن الميلاد الحقيقى لشعبية جمال عبد الناصر تم بعد فشل محاولة اغتياله بصرف النظر عن « فلتة لسانه » بعد اطلاق الرصاص عليه ونجاته منه حين استمر فى خطابه بما يشبه الهستيريا قائلا : « روحى فداء لمصر . أنا الذى علمتكم الكرامة ! » . وبصرف النظر عن الادعاءات التى تزعم أن محاولة الاغتيال كانت تمثيلية متقنة !

وقد أعقب محاولة اغتيال جمال عبد الناصر محاولة اغتيال جماعة الاخوان المسلمين بل اغتيالها فعلا والعصف بها .. وهكذا كُتب عليها أن تضرب ضربا يفضى إلى الموت والاعدام مرة فى الأربعينيات (بعد اغتيال النقراشى ديسمبر ١٩٤٨) ومرة فى الخمسينيات (بعد محاولة اغتيال عبد الناصر أكتوبر ١٩٥٤) ومرة فى الستينيات (بعد خطة الاغتيالات التى أذعوا عنها سنة ١٩٦٥) . وإن كنت أرى أنها فى معظمها لم تكن محاكمات بقدر ما كانت « تصفية حسابات » .. والمثلان « الحيان » على ذلك بصورة صارخة (وباعتبار أن الشهداء « أحياء » عند ربهم يرزقون) هما الشهيد عبد القادر عودة والشهيد سيد قطب .

وفى نوفمبر ١٩٥٤ خلعوا « محمد نجيب » من رئاسة الجمهورية (الشرفية) بخبر فى سطرين اثنين نشرته الصحف ، وحددوا إقامته ولا من شاف ولا من درى ، ولا من ثار ولا من نظم المظاهرات .

وخلا الجو لعبد الناصر « يتكتك » ويفعل مايشاء . يقرّب هذا ويستبعد ذاك . يصعد نجمه فى سماء مصر والعروبة ولا يهبط - فى حياته - سوى ساعات معدودات .. منها يوم هزة نكسة الانفصال أو انفصام الوحدة بين مصر وسوريا فى ٢٨ سبتمبر ١٩٦١ ، ومنها يوم « اكتشاف » نكسة أو هزيمة يونيو ١٩٦٧ وبالتحديد صباح ٩ يونيو ١٩٦٧ .

ومنذ مظاهرات فبراير ومارس ١٩٥٤ كاد الناس فى مصر – والطلبة على وجه الخصوص – ينسون ماهى الاضرابات والمظاهرات حتى سنة ١٩٦٨ إثر صدور الأحكام « الخفيفة » على المسئولين عن الهزيمة . فخرج « العملاق المتظاهر » من « القمقم » واكتسحت المظاهرات شوارع القاهرة والاسكندرية وشعارها : « لا صدقى ولا الغول . عبد الناصر المسئول » !

ولكن « العملاق الفذ » عبد الناصر استطاع دائما « احتواء » المظاهرات الغاضبة سواء فى سنة ١٩٥٤ أم من باب أولى فى سنة ١٩٦٧ ثم فى سنة ١٩٦٨ فقد كان عبد الناصر قد ادخر منذ منتصف الخمسينيات حتى منتصف الستينيات رصيدا لا ينفد من الزعامة الشعبية ومن « الحضور » ومن « الانجازات » رغم كل شيء ..

فماذا عن عام ١٩٥٤ على المستوى الذاتى .. على شخصى الضعيف ؟

لقد كان ١٩٥٤ هو عام الحسم أيضا عندى .. أو على الأقل « بداية الحسم » .

ففى يناير ١٩٥٤ حل الدور علىّ – بالأقدمية – للترقى إلى رتبة الصاغ أو الرائد ، وترقيت بالفعل رائدا .. ويسمى فى الجيش « ضابطا عظيما ! » ربما لأن هذه الرتبة هى الانطلاقة الحقيقية للرتب العليا . أى أننى ظللت من « الضباط الأصاغر ! » – وهكذا يسمى الضباط من رتبة الملازم الثانى فالملازم الأول فاليوزباشى – أحد عشر عاما وأربعة أشهر ، ولا كنت من أصاغرهم ولا صرت من عظمائهم .. ولكنها ماذا ؟ هل أقول « أسامى بلاش » ؟! لا طبعا .. إنما هى مجرد « علامات طريق » أكثر من كونها « علامات رتب » !

وفى يوليو ١٩٥٤ حصلت على « ليسانس الحقوق » مع رتبة الشرف لأن تقديرى فى سنوات الدراسة الأربع لم يقل عن « جيد » كما كانت تقضى اللوائح فى ذلك الحين .. أظن !

وعندما حصلت على ليسانس الحقوق فى يوليو ١٩٥٤ تملكنى خاطر الانتقال إلى الحياة المدنية الذى كان يراودنى منذ التحاقى بالكلية الحربية ! لا انتقاصا من قدر الجيش فإنه أشرف ما يؤديه المرء لوطنه ، ولا كراهية فى الجيش فإن له فى نفسى إعزازا كبيرا واعترافا بالجميل .. وإنما لأن الطبيعة تغلب التطبع ، ولأن كل امرىء

ميسّر لما خلق له . وأن وضع الندى فى موضع السيف للعلا مضر كوضع السيف فى موضع الندى ! كما قال شاعر العربية أبو الطيب المتبنى .

ولما كان تيار انتقال العسكريين إلى وزارة الخارجية قد أخذ يشق طريقه ، فقد حفزنى البعض أن أعمل بالخارجية « وأغرونى » بأننى سأحصل على ما يوازى درجة الرتبة التالية (بكباشى . مقدم) أى سأعين بالخارجية فى وظيفة « سكرتير أول » ..

وحين أعملت الفكر سألت نفسى سؤالين : لماذا تكبدت « مشقة » الحصول على ليسانس الحقوق وسط انشغالى بأعمال أخرى ؟ ولماذا رغبت فى اختزال فترة خدمتى العسكرية ؟ وكان الجواب الكامن فى أعماقى هو رغبتى فى العمل الحر .. محاماة كان أم صحافة .

وهكذا عدلت طلبى من النقل إلى وزارة الخارجية ليصبح مجرد أن تصدر باسمى نشرة إحالة إلى المعاش . وكان الذى حمل رغبتى تلك إلى المشير عبد الحكيم عامر القائد العام للقوات المسلحة أخى حلمى بهجت بدوى الذى كان قد ترك الوزارة هو الآخر فى أول العام (١٩٥٤) وأصبح مندوب الحكومة فى شركة قناة السويس .

وداعا للشئون العامة .. وللجيش !

وفى نشرة عسكرية واحدة بتاريخ نوفمبر ١٩٥٤ صدر قرار باحالة ثلاثة ضباط من القوات المسلحة إلى المعاش مع منحهم أقصى معاش الرتبة التالية لرتبتهم . وهم الرائد مجدى حسنين (لتولى ادارة .يرية التحرير) والرائد محمد أبو الفضل الجيزاوى (للعمل السياسى) والرائد مصطفى بهجت بدوى (معلقا فى كف القدر !) .

وكان اثنان منا فى ادارة الشئون العامة هما أبو الفضل وكاتب هذه السطور .

والواقع أن ادارة الشئون العامة كانت قد بدأت تفقد بريقها ونبضها المدوى واندفاعاتها اللافتة للأنظار . أو بالأحرى فإن شمس عصرها الذهبى الثانى قد آذنت بالأفول . تركها مديرها قائد الجناح وجيه أباظة وانتدب لانشاء « شركات النيل »

المتعددة الأنشطة .. للطباعة والنشر ، وللانتاج السينمائى ، وللاعلانات ، والتوزيع . كانت طاقته الديناميكية أقوى من أن تحدها ادارة الشئون العامة حتى وهى فى أوجها ورُئى أن تيسر له سبل المزيد من الانطلاق المفتوح المتحرر ، وخاصة أن « زهوة » احتواء الثورة للشئون العامة واحتواء الشئون العامة للثورة كانت قد فترت بعد أكثر من عامين على بداية ثورة ٢٣ يوليو ٥٢ .

جاء من بعد وجيه أباظة فى أول أكتوبر ١٩٥٤ المقدم محمد حمدى عاشور (محافظ دمياط والاسكندرية ووزير الادارة المحلية فيما بعد) رحمه الله . ها هو ذا ثالث مدير للشئون العامة منذ أن التحقت بها فى سنة ١٩٤٧ ولكن مفهوم عاشور عن الشئون العامة – كما بدا لنا – أنها واحدة من التكنات العسكرية . لم يفطن للوهلة الأولى إلى طبيعتها الخاصة وإلى ما تمثله . ولا هو تجاوب سريعا مع روحها المنطلقة .. روح الشئون العامة . وكانت الشئون العامة قد انتقلت بالفعل منذ بداية عام ١٩٥٤ من مقرها المحدود والمحبوب بوزارة الحربية (الدفاع) إلى ثكنة فضفاضة تقع خلف قصر عابدين من ناحية شارع « حسن الأكبر » وكانت تلك الثكنات مخصصة فى العهد الملكى لخدمة سيارات وجراجات القصور الملكية .

ورغم أننى فى أول أكتوبر ١٩٥٤ كنت قد أخذت بأسباب ترك الشئون العامة والجيش كله وبات معروفا أنه فى غضون أسابيع قليلة سوف تنتهى خدمتى العسكرية ، بل رغم أننى كنت أُطلع « حمدى عاشور » على مجريات العمل فى الشئون العامة بوصفى أقدم الضباط خدمة فيها .. وأجرى معه ما يشبه عملية « التسليم والتسلم » فقد لاح لى حمدى عاشور جافا متجهما حتى أننى شعرت كم كان فضل الله علىّ عظيما : جئت إلى الشئون العامة سنة ١٩٤٧ فى الوقت المناسب ، وتركتها سنة ١٩٥٤ فى الوقت المناسب !

ذلك كان انطباعى عن « حمدى عاشور » وانطباع الكثيرين عنه آنذاك . وحين التقيت به بعد سنوات وهو محافظ وهو وزير وجدته – على صرامته – لطيف المعشر رحمه الله .

وفى حفل الوداع الذى أقامته لنا ادارة الشئون العامة بنادى الضباط بالزمالك ، كان علىّ أن أقول شيئا . كلمة وداع . واخترت أن أودعها شعرا كما جئتها من كنف

الشعر . قصيدة قصيرة مقتصرة أنشرها هنا لأول مرة . ولست أدرى لماذا لم أنشرها فى ديوانى « عندما توحى الليالى » الذى وافق تلك المرحلة مما أوحت به الليالى بعد صدور ديوانى « وجدان حائر » سنة ١٩٤٧ وصدور ديوان الليالى فى سنة ١٩٦٢ ؟ أكان ذلك نسيانا ، أم زهدا لأن الحفل كان فاترا وانطباعى عنه - ورد فعلى - كان مثله فاترا ؟

على أى حال ها هى ذى القصيدة المقتضبة عن « الشئون العامة » غير المقتضبة :

الذكريات العطرة	والصفحات النيرة
وزهرة العمر التى	مضت وكانت نضرة
والمرح الحلو بها	والتبعات الخطرة
قضيت فيها عُمرا	ما أطولهْ ! ما أقصره !
كانت لعَمرى حجرة	واحدة مقتصرة ..
وأحدثت ما أحدثت	من أثر ما أكبره !
سلوا « فلسطين » التى	صالت بها فى مقدرة
وقادت الترفيه فيها	والهدايا الخيّرة
وإنه تاريخنا	عشناه ، لا .. لن ننكره
أحببت أن أذكره	فى حفلكم ، فمعذرة !
بارعة صادقة	سبّاقة مُعبرة ..
تساند الثوار فى	رعاية وتبصرة
سهرتمو من أجلها	من يطلب المجد يره !
واليوم إذ ودّعتُها	تجيش نفسى تذكرة
فذكرياتى بينها	خالدة مُطهّرة

وهكذا .. بعد وداعى للقوات المسلحة فى نوفمبر ١٩٥٤ لم ألتحق بوزارة الخارجية ، ولا انضممت إلى أسرة شركة قناة السويس . وكان التحاقى بشركة قناة السويس واردا ثم عدلت عنه والحمد لله . فما أدرى ماذا كانت ستسير عليه الأحوال

بى فيها « قبل التأميم » مع لغتى الفرنسية المحدودة ، ولا كنت أستطيع التنبوء أين كان سيقذف بى « بعد التأميم » فى ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٦ ، الأرجح أننى كنت سأبدو ـ رغم كل شئ ـ « نشازا » إزاء الفريق المصرى الوافد الجديد الذى انتقل إليها (وغالبيتهم من الضباط المهندسين) مع المهندس محمود يونس العضو المنتدب لهيئة قناة السويس عند بدء التأميم . فعلى أحسن الفروض سأظل مجرد « موظف » بهيئة القناة على الهامش .. مع احترامى وتقديرى لكافة موظفيها كبارا وصغارا ، قدامى وجددا . غاية الأمر أننى ما كنت « لأجد نفسى » فيها . ولكن الله سلّم ، وادخر لى سبحانه ما هو فى علمه وما هو أنسب وأفضل لى . « آيات بينات » أكرمنى الله بها على مدى عمرى دفعا للضر وفتحا للخير ، أرى فيها دائما ـ كما اعتدت أن أتحدث بنعمة الله – « برهان ربى » ورعايته وبركة دعاء الوالدين « وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، إن الله لغفور رحيم » .

لم أندم ابدا على قرارى بالعمل على تسوية معاشى « الاستثنائى » بالقوات المسلحة وعمرى فى نوفمبر ١٩٥٤ هو ٣٣ سنة لا أقل ولا أكثر . أصبحت ـ بارادتى وفى شرخ الشباب ـ من « المحاربين القدماء » برتبة الرائد . ومكنتنى « حسبة » المعاش الاستثنائى من الحصول على ٤٥ جنيها دخلا شهريا ، وقد كان بمعايير سنة ١٩٥٤ سندا مذكورا ومشكورا يؤنسنى بينما أعمل وأجهد « لالتقاط الرزق الحلال » .

قلت : فلأفعل ما كنت سأفعله لو التحقت بعد التوجيهية (الثانوية العامة) سنة ١٩٤٠ بكلية الحقوق وتخرجت منها .. وهو أن أقيد اسمى فى نقابة المحامين كمحام تحت التمرين بلا زيادة ولا نقصان . وهذا بالضبط ما أقدمت عليه مع بداية سنة ١٩٥٥ ، وعملت محاميا بمكتبَ الدكتور حسن بغدادى المحامى ووزير التموين السابق .. ولما كانت نشاطاته كمستشار قانونى للشركات الكبرى مصرية وأجنبية تفوق قضاياه العادية أمام المحاكم المصرية ، فقد دفع بى أول ما دفع لأعمل مساعدا له كمستشار قانونى لشركة المقطم والمنتزه التى كانت تعد مع الحكومة المصرية عقد امتيازها « لاستغلال » وتطوير هاتين المنطقتين فى بناء مدينة المقطم بالقاهرة واستثمار السياحة فى منتجعات المنتزه بالاسكندرية . وشاركت فى صياغة العقد قدر ما وسعتنى تجربتى أو خبرتى المحدودة .

وما كاد العقد يتم التوقيع عليه حتى وجدتنى فجأة فى مدينة جنيف لا فى المقطم ولا فى المنتزه .

خالد محيى الدين وعبدالناصر وباندونج !

ذهبت إلى جنيف مع أخى المرحوم الدكتور حلمى بين هيئة مكتبه كمحكم فى قضية النزاع بين المملكة العربية السعودية وشركة أرامكو حول حق نقل الخامات البترولية المستخرجة من هناك وهل هو احتكار للشركة أم تستطيعه ناقلات من السعودية ؟

ذهبت إلى جنيف باختيارى . وكان فى جنيف صديق كريم عزيز لم يذهب إليها باختياره ، بل كان فيما يشبه « المنفى » .. وأعنى به « خالد محيى الدين » . أمضينا معا وقتا طيبا صافيا فى مثل طيبته وصفائه . حتى إذا حل شهر ابريل سنة ١٩٥٥ وانعقد من ٢٢ إلى ٢٤ منه مؤتمر « باندوندنج » ، وأبلى فيه « جمال عبدالناصر » بلاء حسنا وظهر كرجل دولة ، وشارك فى أعماله وقراراته مشاركة تستأهل التقدير .. جلست إلى خالد محيى الدين اسأله فيما إذا كانت ردود فعله تتفق مع ردود فعلى نحو الصورة الجديدة التى بدا عليها عبدالناصر ، فوجدت خالدا أكثر حماسا وتقديرا .

سألت خالد محيى الدين : هل ثمة بأس من أن تمسك بالقلم وتكتب خطابا إلى عبدالناصر بانطباعاتك تلك ؟

قال خالد : لا بأس طبعا ، ولكن أمهلنى يومين ..

ثم جاءنى خالد بعد أيام يقول : خلاص يا سيدى ! كتبت الجواب ومن قلبى ، وبعثت به إلى عبدالناصر ! وفى اعتقادى أنه ليس أحب لصديق قديم ـ وقعت بينه وبين صديقه المقرّب جفوة ـ من أن يتلقى منه كلمة حلوة خالصة مخلصة فى مناسبة جديرة بهذه الكلمة .

ولست أزعم أن هذه الرسالة هى التى أعادت الحياة إلى مجاريها بين الاثنين ـ جمال وخالد ـ فقد كانت لابد عائدة مع مرور الأيام . ولكنى أخالها أسهمت فى ترميم الجسور بينهما .

ولقد استمرت أعمال قضية التحكيم حتى أوائل ١٩٥٦ وعدت منها إلى القاهرة لمواجهة « المجهول » الذى لم يعد مجهولا .. حتى الآن على الأقل ! بدءا من العمل فى جريدة « المساء » أو الاعداد لها فى أوائل ١٩٥٦ ـ بانقطاع لاستئناف العمل فى قضية التحكيم من منتصف ٥٦ حتى سبتمبر ٥٦ (صدرت المساء فى ٦ أكتوبر ١٩٥٦) ـ وانتهاء بالعمل فى جريدة الأهرام مرورا بدار التحرير (الجمهورية) ودار الهلال على النحو الذى أشرت إليه فى هذه الحكايات .

شريط ذكريات طويل متنوع

شريط الذكريات والحكايات امتد طويلا من سنة ١٩٤٠ بل أقول من سنة ١٩٣٨ حتى سنة ١٩٨٨ .. تنقّل على هامش خمسين سنة مصرية . واعترف أن أستاذنا الكبير الحبيب « فتحى رضوان » ـ رحمة الله عليه ـ أسهم فى اختيارى الكامل لعنوان هذا الكتاب .

كنت أعوده فى أول سنة ١٩٨٨ بمستشفى الصفا بالمهندسين قبل سفره لاستكمال العلاج فى لندن . ما أطيبه حيا وما أطيبه ميتا . لم يبخل علىّ وهو فى أشد حالات المرض أن يسألنى عن أحوالى وعما أنا مشغول به فى الوقت « الراهن » . وكأنما هو الذى يهتم بى ويُسرّى عنى حتى وأنا مهموم به قلق عليه متضرع إلى الله أن يسبغ عليه نعمة العافية . وكان لابد أن أجيبه على سؤاله بشىء ما يسر خاطره ، فالمشاعر البالغة الود بيننا متبادلة . قلت إننى أصنّف كتابا فيه سيرة ذاتية (ولفتحى رضوان باع عظيم فى السيرة الذاتية بكتابيه « خطى العتبة » و« الخليج العاشق » وهما على قدر عال غال من العذوبة) وقلت له أيضا إن كتابى هذا فيه بعض الغوص بين شخصيات دفعتى بالكلية الحربية التى تخرجت منها فى سبتمبر ١٩٤٢ ، وقد طاب لى أن أسميه « حكايات سبتمبر ٤٢ » .

سرح « فتحى رضوان » للحظات لا من جراء المرض وإنما لاعمال الفكر فى عنوان الكتاب . وقال لى : ألا ترى أن عنوان الكتاب به بعض الغموض أو بالأحرى قد لا يستبين للقارىء مضمونه من أول نظرة ؟ ربما يتساءل أهو رواية أم مجموعة قصص أم ماذا ؟

قلت .. رغم شدة اعتزازى وتمسكى بالعنوان : يمكن !

وانتقلنا إلى أحاديث أخرى عن سفره إلى انجلترا وعن أساليب العلاج ، ولم أثقل عليه لأكثر من دقائق مُعدودة .

ولدى مفارقتى المستشفى وكان وابل من المطر قد بدأ يتساقط على زجاج سيارتى أدرت مساحات المطر . وكأنما لم تكشف لى رؤية الطريق فحسب .. وإنما كشفت لى أيضا « الكلمات الناقصة » التى توضح والتى توفق بين ما اخترته وبين ما أثاره فتحى رضوان . وعلى الفور قلت لنفسى : فليكن عنوان الكتاب هو « حكايات سبتمبر ٤٢ » كسطر أول ، يعقبه « على هامش عهود فاروق وعبدالناصر والسادات » كسطر ثان .

يا الله ! اثنتا عشرة سنة قبل إنقضاء النصف الأول من القرن العشرين (أى منذ ١٩٣٨) ، واثنتا عشرة سنة قبل بداية النصف الأول من القرن الحادى والعشرين (أى حتى سنة ١٩٨٨) نصف قرن بالتمام والكمال شهد العالم فى هذه الحقبة من أحداث ، ومن تطورات ومن تقدم بما يعادل فى ثقله وعجائبه أضعاف أضعاف ما سبق من قرون .

كان وقع الأحداث ـ وخاصة فى النصف الثانى من القرن العشرين ـ سريعا متدفقا . نبضها لاهث .

ولعل أهم وأطول الأحداث المحلية المصرية فى هذه الحقبة العريضة قيام ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ .

وقد أخذت ثورة يوليومن « مداد » هذا الكتاب الكثير الكثير الذى « امتد » بين طياته . واحترت معها وحيرت قارىء معى حين رحت أعرض لها ولحكاياتها ولآثارها وللرأى فيها . وبدوت كأنما لم أقطع فيها برأى نهائى . فلا أنا معها على طول الخط ، ولا أنا ضدها .. « مروحن » !

ولست أدرى لماذا أحس أننى فيما يخص ثورة ٢٣ يوليو يشاغلنى دائما الحديث النبوى الشريف الذى يقول فيه ﷺ : « يأتى زمان على أمتى تكون فيه فتن كقطع الليل المظلم ! يصبح المرء مؤمنا ويمسى كافرا ! ويصبح كافرا ويمسى مؤمنا » !

وعلى وجه الخصوص أو على « جرف هار » تقلبت على جمر « هزيمة ٥ يونيو ٦٧ » فى هذا الكتاب عشرات بل مئات المرات لعلها أوسع وأوجع مما فعلت فى كتاب سابق لى هو « كلام عنا وعن اسرائيل » فى ديسمبر سنة ١٩٧٣ .

نعم إن وقع الأحداث ـ وبالذات فى النصف الثانى فى القرن العشرين ـ سريع ، وانعكاس نبضها ـ فى كتابى هذا ـ لاهث متنوع متقلب . تماما مثلما تغنى « أمان يا لا للى » ثم تتوقف وتنتقل إلى موسيقى السامبا والجرك .. الخ !

ومادمنا فى مجال « الموسيقى » فلقد يلوح أن « منهجى » فى تسجيل هذه الذكريات والحكايات واليوميات قد جمع ـ دون قصد ـ بين المواويل والتواشيح ، والتقاسيم والقصائد والأدوار ، والطقاطيق والملاحم البطولية ، والأغنية القصيرة والخاطفة ، واستخدمت من « الآلات الموسيقية » ـ كعزف منفرد وجماعى معا ـ العود والبيانو والناى والقانون والكمان والجاز والجيتار والأورج .. الخ ! وأهم من ذلك أننى لم أعزف بالنوتة الموسيقية المعدة سلفا وإنما « سماعى » ! ولعل هذا يفسر لماذا هو عبر خمسين سنة مصرية وعلى هامش عهود فاروق وعبدالناصر والسادات . فلا هو بحث ولا مذكرات ولا رسالة ماجستير أو دكتوراه ، ولا هو يترسم أو يتقيد بما عُرف « بالمنهج العلمى » لا انتقاصا من شأن المناهج العلمية فى التأليف ، وإنما لأنه « تلقائى » كطابع موضوعه وطابعى ! وهو لون من الكتب أو « الأدب » على أى حال . فلا غرابة إذا اختلط فيه الحابل بالنابل ، والأول بالآخر ، فى انسيابيه وددت ألا تُعتبر « مشوشة » ..

نعم ، خلال الخمسين سنة الأخيرة تغيرت الدنيا تماما ومن مختلف الأوجه سياسيا واجتماعيا واقتصاديا وعسكريا وعلميا وصناعيا وعلاجيا وثقافيا وسلوكيا .. وفضائيا ومناخيا ، كل شىء ، كل شىء ..

خذ أى فرع من فروع الحياة ومستجداتها ومستحدثاتها ومتغيراتها عبر نصف القرن الماضى .

فى سنة ١٩٣٨ ـ مثلاِ ـ كان « الراديو » فى أى بيت ينفرد بكونه أوسع وأسرع وسائل الترفيه والاعلام .

من كان يصدق أنه خلال خمسين سنة لا يخترع التليفزيون الأبيض والأسود والملون والفيديو فحسب ، وإنما تستطيع أن تشاهد فى بيتك على شاشة التليفزيون بالقمر الصناعى كل ما يحدث فى العالم .. وفورا ؟ ليس هذا فقط بل إن التليفزيونات تلتقط فى التو واللحظة تحركات رجال الفضاء إما داخل مركباتهم أو وهم يسبحون حولها أو وهم يتنقلون فوق سطح القمر . مستحدثات ومصطلحات ومتغيرات وأشياء ولا فى الأحلام . ويتحدثون عن « حرب النجوم » وكأنما لا يكفيهم ما يثير الذهول من طائرات نفاثة تجاوز سرعة الصوت وصواريخ عابرة للقارات .. الخ . وأثر ذلك على المجتمع الانسانى كله ومادياته وسلوكياته .

ولن أطيل .. فالحديث عن المخترعات والمتغيرات فى كل شيء نلمسه بأنفسنا ، بحواسنا ، بدهشتنا . لا تفى به كتب ومجلدات .. وأرجع إن شئت إلى « تاريخ الحضارة » وإلى دوائر المعارف و« الانسيكلوبيديات » ..

وعلى الجانب الآخر حسبنا أنه خلال نصف القرن الأخير اندلعت نيران حرب عالمية مدمرة لم تشهد البشرية فى عمرها مثيلا لها دع جانبا « الحروب المحلية » الكبير منها والصغير ، الطويل والقصير والنزاعات الاقليمية والطائفية والحروب الباردة والمجاعات والمظالم والصهيونية والتكتلات والعالم الأول والعالم الثانى والعالم الثالث . وما واكب ذلك كله من الضياع واهتزاز القيم ومن شتات وانحرافات وسلبيات .

غير أن الحياة مستمرة والآمال متجددة ..

شتان بين تخرج وتخرج ..

وإذا كانت النقطة الفاصلة فى كتابى هذا عن « حكايات سبتمبر ٤٢ » هى تخرج دفعتنا من الكلية الحربية فى ٢٥ أغسطس ١٩٤٢ وسريان تعيينها برتبة الملازم الثانى (تحت الاختبار) اعتبارا من أول سبتمبر ١٩٤٢ .، أى أن حفل التخرج هو الحد الفاصل بين مرحلة ومرحلة وهو بداية الانطلاق ، فلعلى وصفت من قبل فى موضع سابق من الكتاب هذا « **الحفل المتواضع** » مجرد تجمع لـ ١٩١ طالبا خريجا فى طابور والمناداة على اسمائهم وفقا للترتيب العام والأسلحة التى عينوا فيها . خطاب

« متهافت » من الفريق ابراهيم عطا الله باشا رئيس هيئة أركان حرب الجيش ، أعقبه خطاب آخر من الفريق أحمد حمدى سيف النصر باشا وزير الحربية .. والسلام ختام !

ومن المصادفة أننى أكتب هذه الكلمات من كتابى (قبل مراجعته الختامية) وأمامى جريدة الأهرام الصادرة بتاريخ ٢٠ من يوليو سنة ١٩٨٨ وفى صدارتها وصفحتها الأولى صورة الرئيس حسنى مبارك يتسلم من خريجى الكلية الحربية هدية طلاب الكلية فى الاحتفال بتخريج الدفعة ٨١ وإلى جانبه المشير عبدالحليم أبوغزالة وكلاهما ـ الرئيس والمشير ـ من خريجى دفعة فبراير ١٩٤٩ ، وقد شهدت من موقعى بالشئون العامة حفل تخرجهما بصالة الألعاب بالكلية الحربية ، ولم تختلف كثيرا عن حفل تخرجنا فى سبتمبر ١٩٤٢ .

فانظر ما الذى تطور إليه حفل تخرج دفعة الكلية الحربية فى يوليو ١٩٨٨ ..

إنه يطيب لى ويعزز وجهة نظرى فى كون كل شىء قد تغير وتطور فى دنيانا ـ وفى هذه الخصوصية ـ أن أضمّن هنا بعض الوصف التفصيلى لحفل تخرج طلبة القسم النهائى بالكلية الحربية ضباطا كما هو منشور بالصفحة الثالثة من عدد الأهرام المذكور :

« .. وكان فى استقبال الرئيس محمد حسنى مبارك المشير محمد عبدالحليم أبوغزالة نائب رئيس الوزراء ووزير الدفاع والانتاج الحربى ، واللواء أركان حرب مصطفى حليم مدير الكلية الحربية وكبار قادة الجيش . وقامت الفرقة السيمفونية العسكرية وفرقة موسيقى القرب العسكرية بالمرور أمام نقطة الذات (المقصورة الرئيسية) حيث قامت بأداء التحية بعد انتهاء العروض الحركية الموسيقية . وقام الرئيس مبارك برد التحية لهما . ثم بدأ العرض الرياضى بمجموعات من الطلبة من السنوات المختلفة باستخدام العوارض الخشبية والبندقية وعرض للكاراتيه . وقام الطلبة بعروض على موانع خشبية متعددة الأشكال مما أظهر اللياقة البدنية الممتازة للمقاتل المصرى . وصاحب هذا العرض عرض للجمباز . وقامت مجموعات السونكى بعدد من الحركات فى القتال المتلاحم والدفاع عن النفس . ثم أقيم عرض للأسلحة التخصصية بمجموعات الاستطلاع وعناصر المدفعية والاشارة والحرب

الالكترونية وسط عزف وغناء نشيد « الله أكبر » ثم قدم طلبة المدفعية عرضا شمل وحدات المدفعية المختلفة والمدافع المجرورة بشتى أنواعها . كما قدمت عناصر الشئون الادارية عرضا يظهر مدى قدرتها على تأمين احتياجات القوات المختلفة وعمليات اخلاء الجرحى أثناء المعركة . ثم قدمت مجموعة المشاة المدعمة بالدبابات عرضا أظهر مدى كفاءتها القتالية واستيعابها لأحدث أسلحة العصر خاصة الدبابة (م ١ ـ أ ١) التى تعد أحدث الدبابات الأمريكية التى زودت بها القوات المسلحة . أما طلبة الصاعقة فقد قدموا عرضا رائعا أظهر مدى قوتهم البدنية وكفاءتهم القتالية فى مختلف ظروف المعركة . وتضمن هذا العرض نزول أفراد الصاعقة من الطائرات الهليكوبتر على مبانى الكلية المواجهة لساحة الطابور العسكرى من على ارتفاعات تصل إلى ألفى قدم . ثم قدم فريق آخر من طلبة الصاعقة عرضا لنزول الاشتباك حيث قاموا بالهبوط من أعلى مبانى الكلية مستخدمين الحبال حاملين أسلحتهم وهم فى حالة استعداد قتالى للاشتباك مع العدو . وقام فريق ثالث من طلبة الصاعقة بعرض للهبوط السريع من الطائرة فى مانع مائى حيث قاموا بالهبوط من طائرة هليكوبتر على ارتفاع عال فى حمام السباحة بالكلية مستخدمين الحبال . وقدم فريق رابع من طلبة الصاعقة عرضا للاغارة على أفراد العدو فى موقع مرتفع مستخدمين الحبال فى تسلق أحد مبانى الكلية وهم فى حالة استعداد قتالى للاشتباك مع العدو . ثم قامت طائرة هليكوبتر باخلاء أفراد المجموعة من فوق المبنى بعد أن أدوا مهمتهم بنجاح حيث استخدم الطلبة سلّما مصنوعا من الحبال للصعود إلى الطائرة .

ثم بدأ العرض العسكرى بمرور سرايا طلبة الكلية يتقدمهم حملة الأعلام .. علم الجمهورية ، علم الكلية الحربية ، أعلام الأفرع الرئيسية للقوات المسلحة (القوات البرية ـ البحرية ـ الجوية ـ الدفاع الجوى) تلتها أعلام المشاة والمدرعات والمدفعية والدفاع الجوى والحرب الكيماوية والاشارة . ثم اصطف الطلبة فى ساحة الطابور العسكرى المواجه للمنصة الرئيسية حيث يجلس الرئيس حسنى مبارك ومرافقوه . وكان الطلبة ينشدون الأناشيد الوطنية الحماسية . ثم أعلن مساعد مدير الكلية الحربية أن الدفعة ٨١ من طلبة الكلية بلغت نسبة النجاح فيها ٧٦ر٩٩ ٪ . وجاء الطالب هشام مصطفى على عبدالجواد (مشاة) فى المركز الأول . بينما جاء الطالب رضا شومان (مدرعات) فى المركز الثانى ، والطالب أيمن محمد حسين زغلول (مدفعية) فى

المركز الثالث . وبعد اعلان نتيجة الدفعة ٨١ حربية / دفعة الشهيد عبدالوهاب طايل قام الرئيس حسنى مبارك بتسليم درع الكلية المهدى لاسم الشهيد إلى اللواء على طايل شقيق الشهيد . ثم جرت بعد ذلك مراسم تسليم وتسلم قيادة الكلية من دفعة الخريجين إلى الدفعة التالية لها بالكلية الحربية . وأعلن السيد مدير شئون ضباط القوات المسلحة بعد ذلك قرار رئيس الجمهورية والقائد الأعلى للقوات المسلحة بتعيين خريجى الدفعة ٨١ حربية برتبة « ملازم » تحت الاختبار بالقوات المسلحة اعتبارا من أول يوليو الحالى . كما صدق رئيس الجمهورية على منح أوائل الخريجين نوط الواجب العسكرى من الطبقة الثانية تقديرا لتفانيهم فى أداء واجباتهم بكفاءة عالية أثناء دراستهم بالكلية » .

وهكذا لو أننا كنا أطلقنا لخيالنا العنان فى طابور تخرجنا لما بلغ فى تصوراته واحدا على ألف من وقائع هذا الوصف لطابور تخرج يأتى بعد ٤٦ سنة . ولو حدث المستحيل واطلعنا آنذاك على مثل هذا الوصف لفغرنا أفواهنا دهشة وعجبا ، وتصورنا أن ذلك يحدث فى المريخ وليس فى مصر !

نحن لم نر دبابة واحدة ولا مدفعا ثقيلا واحدا ولا طائرة هليكوبتر واحدة خلال عامين قضيناهما بالكلية الحربية ، فما بالك بالعمل عليها واستخدامها ؟ بل كما ذكرت من قبل لم نجر « مناورة عسكرية » واحدة طيلة ٢٤ شهرا من « الاتتناس » بالكلية الحربية . ومعظم الكلمات المذكورة آنفا فى وصف تخرج دفعة يوليو ١٩٨٨ لم نكن نعرفها ولا وردت على خاطرنا . الصاعقة . الأسلحة الالكترونية . الأسلحة الكيماوية .. الخ . ولا حتى جرى لنا أى شىء من هذه « المراسم » المهولة .

ولكن عزاءنا أن أبناء دفعة سبتمبر ٤٢ كما أوضحت فى الفصول السابقة من هذا الكتاب لحقوا بتطورات هذه الأسلحة وغيرها وقادوها ، وكان منهم علماء فى الفنون العسكرية الحديثة وأساتذة ومدير لطلبة الكلية الحربية وأبطال مغاوير وشهداء أبرار .

من يكتب « حكايات يوليو ٨٨ » ؟!

مرة أخرى أكرر أن بين دفعتى سنتى ١٩٤٢ و١٩٨٨ أحداثا عسكرية جساما جرت . بينهما على سبيل المثال ثلاث سنوات من الحرب العالمية الثانية التى انتهت سنة ١٩٤٥ ، وحرب فلسطين سنة ١٩٤٨ ، وحرب كوريا سنة ١٩٥١ ، والعدوان الثلاثى على مصر سنة ١٩٥٦ ، وحرب فيتنام الممتدة بين فيتنام من جانب وفرنسا ثم أمريكا من جانب آخر ، وحرب التحرير فى الجزائر ، وحرب اليمن وعدوان يونيو ١٩٦٧ على مصر وسوريا والأردن ، وحرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ ، وحروب محلية وطائفية وأهلية بشعة فى مختلف القارات لا تقف عند حصر ، لعل آخرها وأطولها الحرب العراقية الايرانية التى دامت ثمانى سنين وانتهت فعليا ـ من حسن طالع التخرج السعيد لدفعة يوليو ١٩٨٨ ـ بقبول ايران وقف اطلاق النار أخيرا وقبل ٢٤ ساعة فقط من حفل التخرج الذى وصفته الأهرام آنفا .

ترى ماذا تفعل الأيام والسنون بضباط دفعة ١٩٨٨ ؟ وهل تختلف مسيرة أبنائها عسكريا ومدنيا اختلافات متشعبة فى شتى المجالات مثلما حدث لدفعة سبتمبر ١٩٤٢ ؟ بل ماذا سوف يحدث فى مصر ودنيا العرب والعالم بأسره فى أوائل القرن الواحد والعشرين ؟ وهل يؤرخ لدفعة يوليو ١٩٨٨ فى المستقبل البعيد أحد أبنائها مثلما فعلت مع دفعتى أو على هامش دفعتى ؟

وهل يذهله التطور الجارى سنة ٢٠٣٥ ؟.. هذا إذا كانت سنة ٢٠٣٥ أساسا واردة فى قضاء وقدر علام الغيوب ، ومن يرث الأرض ومن عليها تبارك وتعالى .

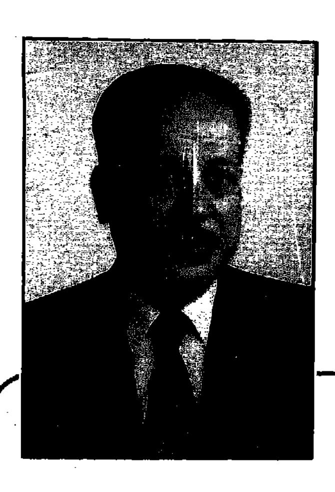
وبعد ...

اللهم إن هذا نصيبى فيما أملك أو أتصور أننى أملك .. فاللهم ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا فى « حكايات سبتمبر ٤٢ » وحكاياتى وفى كل شىء . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

رقم الايداع بدار الكتب

٤٥١٩ / ١٩٩٠

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر



على امتداد فترة حاسمة فى تاريخ مصر الحديث امتدت من عهد فاروق إلى عصر جمال عبدالناصر ثم حكم السادات ، كان مصطفى بهجت بدوى مشاركا فى أحداثها الهامة وشاهد عيان عليها ، فقد عمل ضابطا كان له إسهامه فى حرب فلسطين ، ثم محاميا ، وبعد ذلك انتقل للصحافة إداريا ومحررا ورئيس مجلس إدارة ورئيس تحرير مؤسسة صحفية قومية ، وكاتبا متفرغا . وكانت هذه الفترة حافلة بالتجارب والمواقف والطرائف والحكايات ، التى يلقى عليها المؤلف أضواء كاشفة ، ويمزج فيها بين الماضى والحاضر بأسلوب الشاعر والصحفى الأديب المتمكن ، على نحو يعكس تضاريس القرن العشرين على مستوى العالم والوطن العربى ومصر كما يقول .

والكتاب أقرب للسيرة الذاتية ، ليس للمؤلف وحده ؛ وإنما لدفعة بأكملها من ضباط الكلية الحربية ، دفعة عام ١٩٤٢ التى تخرج فيها ، ويتتبع عددا من البارزين من أبناء هذه الدفعة الذين شغلوا مواقع قيادية فى حياة هذا البلد ، من رئاسة الوزراء لرئاسة المخابرات لوزارة الدفاع ، على نحو يجعل منه سجلا حافلا لهذه الفترة الحاسمة من تاريخ مصر والمنطقة .

الناشر

مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام

التوزيع فى الداخل والخارج : وكالة الأهرام للتوزيع
ش. الجلاء ـ القاهرة

مطابع الأهرام التجارية ـ قليوب ـ مصر